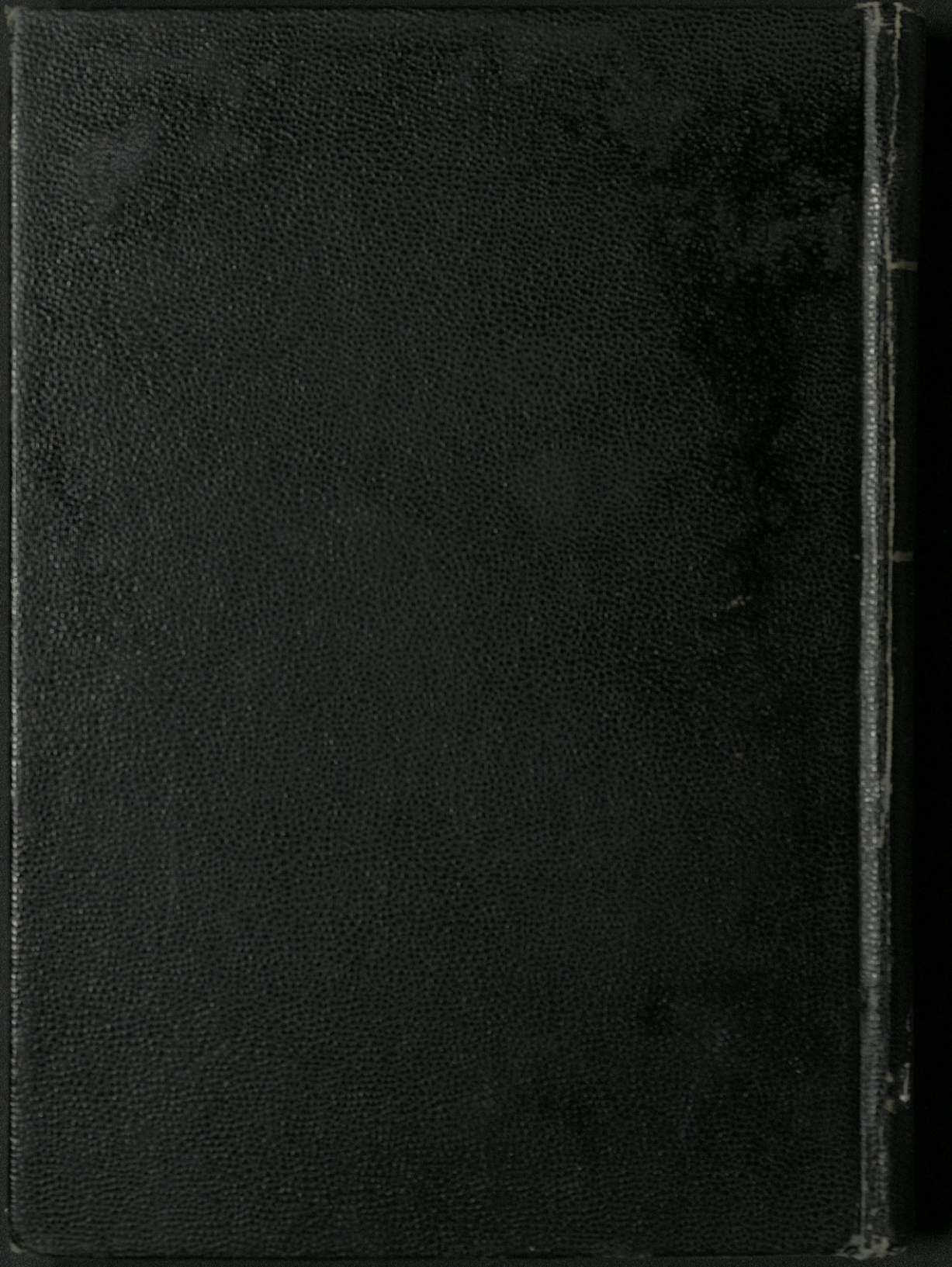
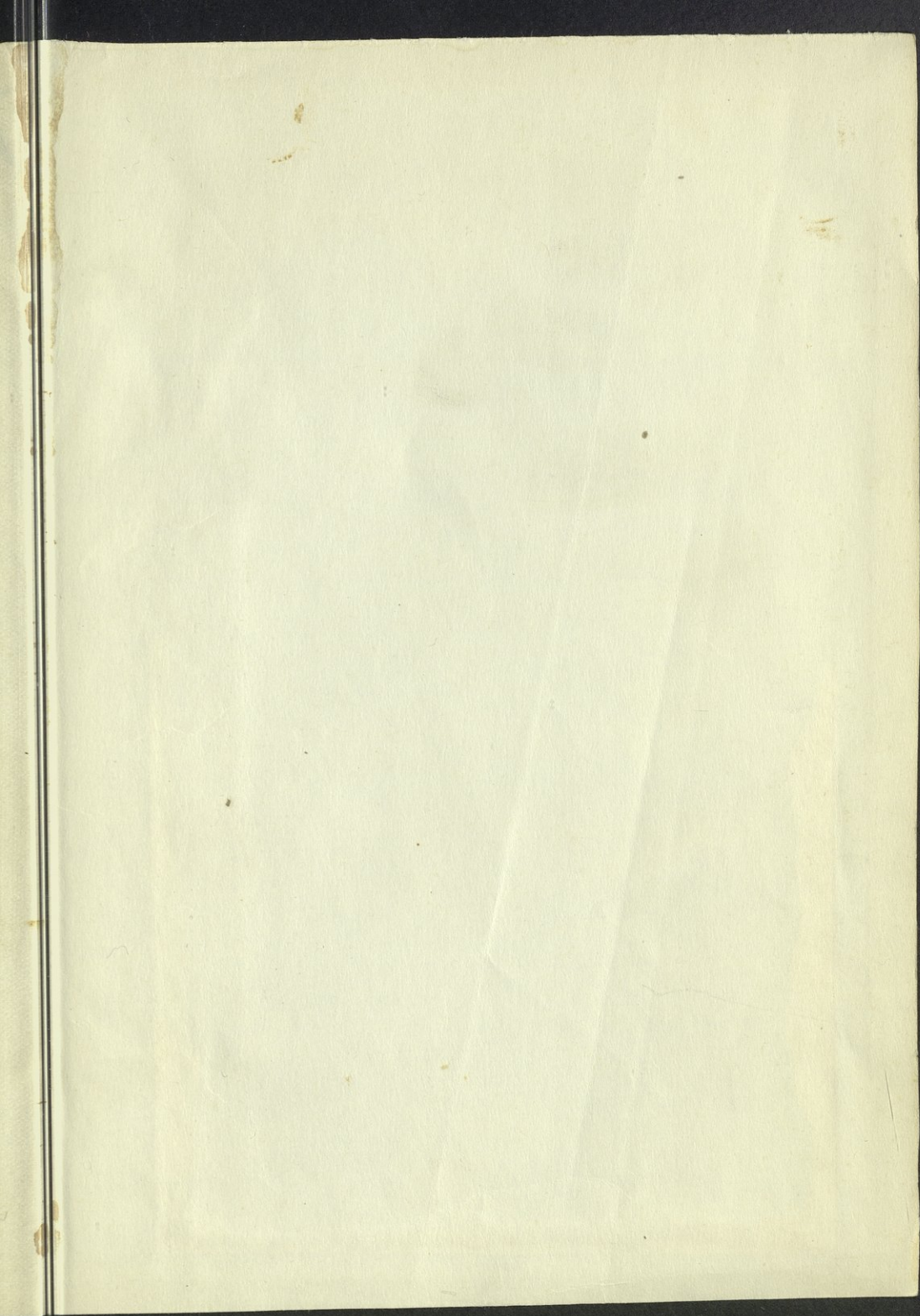




A. U. B. LIBRARY 5

تجليد
٢٢٢٢
الدفتر
٢٢٢٢



ابن الخطيب
من خلال مكتبه

ابن الخطيب
من خلال مكتبه

دار الخطيب

من الخطيب ابن الخطيب

من الخطيب ابن الخطيب

دار الخطيب

تصوير

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين

معهد مولاي الحسن

928.927

I451A

2981

ابن الخطيب من خلال كتيبه

بقلم

الاستاذ محمد بن ابي بكر التطواني

*

وهو القسم الاول

من كتاب « ابن الخطيب، حياته وكتبه »

الذي نال جائزة معهد مولاي الحسن لسنة ١٩٤٨

١٩٥٤

دار الطباعة المغربية

تطوان

تقدمة

كان هذا هو البحث الاول الذى نال اول جائزة لمعهد مولاي الحسن للابحاث منذ انشاء هذه الجائزة سنة ١٩٤٨. ومع ذلك فقد تأخر ظهوره عن غيره من الابحاث التى قدمت بعده ونالت الجائزة كما نالها ونشرت في الابان .

اما كتاب ابن الخطيب هذا فقد نشر القسم الثانى منه الذى يتناول بحث الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب سنة ١٩٥٣ اى بعد اجازة الكتاب بخمس سنوات، وهذا هو الجزء الاول من القسم الاول الذى يتناول حياة ابن الخطيب من كتبه، يظهر فى سنة ١٩٥٥ اى بعد سبع سنين من تقديم الكتاب لمباراة المعهد، ويعلم الله متى يظهر الجزء الثانى من القسم الاول الذى ما يزال تحت يد صاحبه .

ولعل القراء يتساءلون - ومن حقهم ان يتساءلوا - ما السبب فى هذا التأخير وفى تقديم نشر القسم الثانى على الاول، مع ان الكتاب بقسمنه - قطعا - كان قدم الى المعهد سنة ١٩٤٨ ودرس وأجيز فلا داعى لتأخير نشره عن غيره مما قدم بعده ولا لتقديم نشر قسمه الثانى على قسمه الاول .

والجواب ان حضرة مؤلف الكتاب - او بالاحرى مؤلف القسم الاول منه - الاستاذ الكبير السيد محمد بن ابي بكر التطوانى كان قد اشعر المعهد بأن وضعه لهذا الكتاب وقع فى فترة قصيرة من الزمن - كما يشير لذلك فى مقدمته - وانه لم يتمكن من مراجعته وتهذيبه خوف فوات موعد تقديمه للمعهد الذى كان قد شارف التمام والانصرام ، فرجا من الادارة ارجاعه اليه ليلقى عليه النظرة الاخيرة التى يعده بها للطبع فسوعد على ذلك .

ولكن هذه النظرة لم تنته مع مطالبة حضرته ببرد الكتاب مرارا وحدثت احداث حالت دون الاتصال به مدة طويلة، ونشأت عند واضع القسم الثانى من الكتاب وهو الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله، فكرة مراجعة ما

كتبه وتهذيبه اسوة بشريكه الاستاذ التطوانى، فصار يطالب بارجاع القسم الثانى اليه لهذا الغرض، فلم يكن بد من دفعه الى المطبعة قبل القسم الاول، لا سيما وقد كان التعاقد بين المعهد والمطبعة على طبع الكتاب كله، تاما من اول يوم، وميزانية هذا الطبع قد خرجت وتسلمت من طرف المطبعة - على ان هذا القسم قد روجع من قبل ادارة المعهد فوجد تاما لا يحتاج لاي اصلاح - الا ذلك الاصلاح الذى يمليه تطلب الكمال والذى قال فى مثله العماد الاصفهانى ما قال .

وبعد انجاز طبع هذا القسم جددنا الطلب على كاتب القسم الاول لبعثه اليه، فبعد لاي ارسى هذا الجزء الذى يكون نصف القسم وقد اعد النظر فيه وبذل وغير وافرغه فى حلة جديدة من انشاءه البليغ، فلم ننتظر به وصول النصف الباقي ودفعناه تورا الى المطبعة التى طال انتظارها هى ايضا .

وحكايتنا لهذه المداولات لا تعنى أى لوم موجه الى حضرة صديقنا المؤلفين الجليلين، وانما هى تفسير لسبب تأخير نشر الكتاب عن مواعده واضطراب نشره فى تقديم آخره على اوله .

نعم، هى تعنى معنى آخر يرتبط بقيمة الكتاب وتقدير مؤلفيه ، وهذا المعنى هو التواضع وانكار الذات الذى كان - ولا يزال - خلقا عزيزا فى هذه الطبقة من الناس؛ طبقة الكتاب والمؤلفين. لغلبة الغرور عليهم واعتدادهم بأنفسهم، فهم يدفعون بآثارهم الى المطبعة، ولو بلغت من الغثاثة ما بلغت، ويمهرونها باسمائهم الكريمة، وان جرت عليهم كل فضيحة، ويبقون منتظرين لهج الناس بحمدهم وشكرهم فان لم يفعلوا عدوا ذلك منهم مناوئة وعدم تقدير لعبقريتهم النادرة ... اما صاحبنا بحث ابن الخطيب فانهما قد اعتبرا تقديمه الى مباراة التأليف لمعهد مولاي الحسن جراءة ومخاطرة ، وبعد نجاحه واجازته لم يغترأ ولم ينخدعا عن انفسهما وصارا يتوجسان النقص ويشفقان من العثار فلا يريدان تقديمه الى الطبع وتعميه بين الناس بالنشر الا بعد ان يعاودا فيه النظر ويستوثقا من كل رأى وجمله وكلمة فيه، انها صحيحة وواقعة موقعها ولا يسد غيرها مسدها، ومن نظر الى اعماله بهذه النظرة، واتهم نفسه هذا الاتهام لم يجد الغرور اليه سبيلا ولم يفتأ ان يمتلك ناصية الاحسان. وكذلك كان الحال فى هذا البحث الذى اجازته لجنة التحكيم باجماع الاصوات .

فقسمه الاول قد كتب على نسق مبتكر من حيث استخراج حياة ابن الخطيب من كتبه ودراسة مؤلفاته دراسة مستوعبة بحيث تعطى فكرة تامة عنها جميعا ، ما وجد منها وما لم يوجد. وذلك فضلا عن بلاغة اسلوبه والاحاطة بجوانب كل موضوع تعرض له، مما ينم عن اطلاع واسع واستحضار لا يقل عما تحدثنا به الروايات عن العلماء الاعلام من حفاظ الاسلام .

وقسمه الثانى قد تناول بالبحث موضوعا بكرا من آثار ابن الخطيب وهو ما يتعلق بالفلسفة والاخلاق فأضاف الى المكتبة العربية ثروة فكرية ودراسة منهجية عن هذه الناحية من انتاج ابن الخطيب كانت غفلا لم يسبق ان حام باحث حولها ولا تصدى كاتب للالمام بها فأحرى توفيتها حقها كما فعل الاستاذ ابن عبد الله .

فالى حضرة المؤلفين تهنئتنا بنجاحهما المنقطع النظير، والى هواة ادب ابن الخطيب والمعجبين بشخصيته على العموم نهدي هذين السفرين القيمين اللذين كانا الثمرة الاولى لجائزة معهد مولاى الحسن ، وما اطيها من ثمرة !

عبد الله كنون

١٥ شعبان ١٣٧٤

٩ ابريل ١٩٥٥

تطوان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الحمد لله الذى اتم النعمة على الانسان بنطق اللسان، واطهر للعيان فضل معجزة البيان، وايد بالبرهان معارف من يبيضوا وجه الادب بثارهم فنظموا درر سمط الجمان فى سلك محاسن الاعيان، وطوقوا جيد البلاغة العربية بقلائد العقيان، واقدر على التبريز فى الميدان وابراز دلائل الاعجاز من لغة البيان ومعجز القرآن من سابق الفرسان واستولى على امد الاحسان، فرفع علم الاسبقية فى مواكب الاعلام، وفجر ينابيع الحكمة من سواكب الاقلام .

والصلاة والسلام على منتهى الكمال الانسانى ومعجزة الانام وءاية الله المتلو كمالها فى صفحات الدهر على مدى الايام سيدنا ومولانا محمد سيد من تتلى سور صفاته وءايات معجزاته فى البدء والختام، وملجأ الامم اذا زلت بهم الاقدام وطاشت الاحلام واشتدت الآلام وامتد بنا فى هول الموقف المقام صلى الله عليه وعلى آله واصحابه صلاة نجدها يوم عرض الاعمال ونشر صحف الآثام والرضى عن اعلام امته الذين بمعارفه اضاءوا الوجود فرفعوا الشكوك عن الافهام وبهديه ومبادئه فتحوا اقفال القلوب فحرروا العقول من عقال الشرك والادهام، ما سجت الحمائم وتفتحت عن ازهارها الكمائم وما تجاوبت الاقلام من الاعلام فاهتزت اوتار القلوب من ملوك القريض وامراء الكلام .

اما بعد فان الذين واجهوا بانصاف تلك الصفحة المشرقة من تاريخ ادب هذه اللغة فقادهم الاعجاب بها الى البحث فى العلل والاسباب واستقصاء الوسائل التى كان لها الفضل فى سرعة انتشار المعارف والآداب فنفضوا تراجم المعاجم ونبشوا دفائن تلك المناجم قد ابصروا لا محالة مظاهر القداسة التى كان يتجلى بها اعلام الامة وادباء

هذه اللغة والابام للعروبة والاسلام، وشاهدوا مبلغ اهتمام امراء الامم
 بهداة الانام فأكبروا فيهم تلك الأيادي التي خلدت اثارها الانام فلا
 تذكر الا مقرونة بالاكابر والاعظام فقد اغنى عن البسط والبيان ما كان
 مشاهدا بالعيان من نتائج تلك الوشائج التي كانت تربط ملوك الاقاليم
 بأمراء الاقلام، وقام البرهان على ان اولئك الذين صرفوا عنايتهم الى
 نشر المعارف، وبذلوا المستحيل في احياء التالذ منها والطارف، لم
 يقصروا جهودهم على بناء المدارس وتشبيد الآثار التي لم يبق الدهر
 منها الا اوصافا مقبورة في بطون الاوراق تسترعى الانظار واطلالا
 مقصودة من الاتفاق تستنزف من آزائر الدموع وتستدعى منه اطالة
 الوقوف للتدبر والاعتبار، بل لقد حدثتنا عن اياديهم وثائق التواريخ
 المتكفلة بحفظ اخبارهم كما دللت على شهاق بنيانهم باقى الاطلال
 الناطقة بمآثرهم بانهم الى جانب هذه الآثار المشيدة للعلم وطلابه
 في مختلف الممالك والامصار، كانوا يقيمون من ابوابهم اسواقا لرواد
 العلم والادب، اليها كان عشاق المعارف ينسلون من كل حذب، وان
 مجالسهم التي كانوا يعقدونها للانس والمذاكرة، ويجلسون فيها بقصد
 السمر والمحاضرة، كانت باندية ادبية اشبه منها بمجالس ملوكية
 اليها كان ذوو الحاجات، يحجون من مختلف الجهات، وفيها كان حماة
 الادب يتساقون اكواب الادب بما كان يعقد فيها من مناظرات ويلقى
 من محاضرات، وعلى صيارفة النقد فيها كان حملة النشر والشعر
 يعرضون نتائج افكارهم وثمرات جهودهم من منقول ومعقول وادب
 مصقول، فيكافأ من فاز في الميدان وبرز على الاقران فكم من امام لم
 تعقد عليه الخناصر من الاكابر، ولم يأخذ مكانه بين ارباب المحابر
 واعلام الكراسى والمنابر، الا بعد ان ظهر في تلك المجالس كماله
 وطلع فيها هلاله، وكم من اديب قضى معظم حياته والبؤس وقف على
 بابيه، وحرقة آداب ناشبة اطفارها في اسبابه، فاجاه الغنى ببنت انشاء،
 او شعر انشده، او خبر اسنده، فكان حماة الادب ورواة الآثار بحكم
 ما طبعت عليه النفوس من حب منافسة الاشباه والانظار . لا ينورعون
 عن مشاركة الاقران في شهود تلك الاندية الادبية في عصورها الذهبية
 ولا يمنعهم من شد الرحال بعد المشقة وضعف الحال، فشارك فيها من
 الاعلام من لا تأتى على احصاء اسمائهم الارقام، وكتب باسماء الرؤساء
 والامراء من المجاميع الادبية والدواوين العلمية ما تجف دون الوصول

الى استقصائه الاقلام ، وخذ الادباء والكتاب فيهم من غرر الاشعار
وطرف الاخبار وبدائع الآثار، ما طار ذكره في الامصار وصار موردا
للحاديث والاسمار .

فلقد كان اعلام الادب بحق زينة تلك العصور في الاجادة والابداع
وجمال تلك القصور وخصوصا في ليالى المؤانسة والامتناع، يتراشقون
بسرعة البديهة، وحضور الذاكرة فيخطبون ويشعرون ارتجالا
ويتفاخرون بقوة الحافظة وسعة العارضة، فلا يسع من يشاهدهم وهم
يستظهرون الاسفار التى تفوق حد الاكثار الا خفض الرأس اكبارا
واجلالا، ويتسابقون الى انشاء الرسائل، المتعددة الاوضاع والوسائل
فلا يزداد فيهم من يرى دلائل اقتدارهم وشواهد ابتكارهم الا حبا
وتقديرا وايمانا بسر الموهبة وتسليما، ومع ما كانوا يوجدون عليه من
اختلاف فى الاراء وتباين فى المذاهب والاهواء واعتزاز كل واحد
برأيه خصوصا فيما كان يلقي عليهم من دقائق المسائل، ومعضلات
المشاكل، تحريكا لهممهم وامتحانا لمعارفهم، فان الامانة العلمية كانت
تحملهم على الصديق فى النقل والانصاف، والتحلى بجميل هذه الاوصاف،
لذلك خلد الله ذكر تلك المعاهد واحاديث تلك المجالس فلا يفتح
الباحث مجموعا من دواوين الادب والتاريخ ولا يتناول بالبحث والدرس
ترجمة من تراجم الائمة المشاهير الا ويلتقى بفوائد تلك النوادي واثار
تلك الايادى، وهو اهتمام من ولاة الاسلام بحملة الاقلام لن يتجاهل مداه
الا من لم يستوف الوسائل التى اليها يرجع الفضل فى ماضى نهضتنا
العلمية وحركتنا الفكرية، فان فى ادباء الامراء من اختار لوزارته غريبا
عن مجالسه وابوابه من اجل بيت شعر ابتداه هذا الامير وارثه عليه
فلما كمله هذا الغريب مما وافق هواه ادناه من حضرته ثم اصطفاه
لوزارته . ومنهم من اجاب سفيرا الى مطلوبة قبل اداء السفارة وهو
الملك الشاعر ابو عنان المرينى لما هز اعطافه ابن الخطيب بشعره ،
وهذا الذى لم يسمع بمثله . ومنهم من استولى عليه الطرب وقد سمع
شعرا فى مدحه فاقسم ان لا يمشى شاعره ولا يرجع الى قصره الا فوق
بدر الاموال .

ولا عجب فان الصحيفة الادبية من تاريخ هذه البلاد لمدينة لملوكها
الاطواد ورؤسائها الانجاد وما هذا الامير الذى تجاوزت همته لغة
الجوائز والصلات، فتقدم بترصيف الطريق لشاعر بسائل النصار

وسكة الدرهم والدينار إلا احد الامراء اللمتونيين الذين شبه التاريخ ابوابهم بمجالس صدور العباسيين لكثرة من حج اليها من اعيان الكتاب وفرسان الآداب على ان قصة الامير ابى بكر اللمتونى مع شاعره فيلسوف الاندلس ابى بكر بن باجة وان كانت يمثلها تتوج صحف الادب فهى فى باب المناقب وطرف الغرائب ليست باعجب الى القارىء من حكاية الخليفة ابى يوسف الموحدى مع شاعره الامام ابى بكر بن زهر فان هذا الاديب الذى كان قد وجد فى مجالسة مخدومه ابى يوسف ما انساه الالف والسكن والحنين الى الوطن قد عاوده الشوق فى يوم من الايام الى بلاده وتربة ميلاده فتفجرت شاعريته عن ابيات بلغ منها الى الخليفة قوله :

ولى واحد مثل فرخ القطـــــاة صغير تخلف قلبى لديه
وافردت عنه فيا وحشتنا لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقنى وتشوقته فيبكى على وابكى عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا فمنه الى ومنى اليه

فما كان من الخليفة وقد جرح قلبه انين هذا الحنين الا ان تقدم الى المهندسين بالاسراع الى وطن شاعره واخذ رسم كامل من حومة سكناه ليقيموا بدلها بمراكش وفى قليل من الزمن كان المنزل قائم العين تام الوصف والشكل، حومة ، وتائشا بمراكش ثم ان الخليفة المنصور اراد ان يشهد بنفسه الفصل الاخير من تمثيل هذه الرواية فأخذ معه شاعره بقصد الفسحة واستدرجه الى ان وجد نفسه وجها لوجه امام منزله فى حومة سكناه فشده وظن ان ذلك من سلطان الخيال الذى يستولى على الانسان فتشتبه عليه الحقائق بالاهام وحاول ان يعود الى صوابه باقصاء هذا الوهم عن خياله ومواصلة السير مع مخدومه ولكن صوتا من الاصوات التى حن اليها ناداه من الدار التى اشتبهت عليه بداره ودعاه للدخول ليشاهد بحاسة بصره مبلغ عناية الخليفة بادبيه وان المنزل الذى خلفه بارباض اشبيلية قد احكمت الهندسة المغربية وصفه ورسمه ثم نقلته كقصر بلقيس بما فيه من اثاث وشبه فرخ القطاة وخدم وحاشية الى دار المرابطين وقاعدة مملكة الموحدين مراكش. وهى ماثرة من ماثر عظيم خلفاء الموحدين بها وبنظائرها كحكايته الاخرى مع ابى موسى الجزولى شوهده فى يوم من ايام فتوحاته محجوبا عن جلسائه بكثرة القصائد التى قدمت الى بساطه

فإن الشعراء ما كانوا ليقيموا في يوم واحد سور هذا المجد ويرفعوا بناء هذا السد بآلاف القصائد التي اخفت الممدوح عن عيون الحاضرين لولا سابق اياديه وزوائد احتفاله بالادب ورجاله مقتفيا بذلك خطا من تقدمه من ملوك الادب وادباء الملوك خصوصا جده عبد المومن الذي عرفت قصوره الخاصة به ثلاثة آلاف حافظ من طلاب مدرسته الادارية التي سبق بها التاريخ كلهم بادب الخليفة يتأدون وعلى نعمه المبسوطة عليهم كانوا يغدون ويروحون، فأعظم بها من مكارم شيدتها همم اولئك الاسد الاشاوس وتكاثفت فيها الجهود من الاحفاد والجدود. على انه لا عجب فان عصر ازدهار المعارف والآداب لم يعرف نهاية الكمال الا في عهد الموحيدين ثم في عصر اسد العرين ملوك بنى مرين الذي هم الى الآن مضرب الامثال في تشييد المدارس وتجديد عهدها الدارس بها قام للمعارف سوق في هذه البلاد شرق ذكرها وغرب، وتناقلت اخبارها الرواد وبالاخص في عهد عظيم بنى مرين ابى الحسن المرينى الذي شوهده في رفقته وهو في طريقه الى افريقية اربعمائة امام من اقطب الكمال في هذه الديار اليهم كان يصبو فيجد فيهم هواه ، وبهم كان يجمل مجالسه فيرى في معارفهم ما يتمناه ، وهي نهضة وان كان قد شوهده من اثرها سبعة آلاف من خصوص حفاظ ابن الحاجب عى مدرسة الوادى بالخصوص وهي من المدارس التي ذهبت بماضيها الايام، فصيرتها خرابا كما يقول الامام ابو على اليوسى في رسالته الى ابى المفاخر المولى اسماعيل فان صباية من تلك النهضة لم تزل محفوظة الى ايام السعديين، وبالاخص في عهد احمدهم المنصور وأسدهم الهصور. اما الدولة العلوية خلد الله كمالها وحقق للعروبة والاسلام آمالها فنظرة سريعة يلقيها الباحث على كتاب النهضة العلمية في تاريخ الدولة العلوية لفقيه المكارم والادب والتاريخ حسنة مكناس ونقيها، المولى ابن زيدان تجعله على علم بما لهذه الاسرة الشريفة بين دول الحضارة من فائق عناية وزائد اهتمام . وان البرهان لنراه اليوم قائما في اشبال اولئك الاسد العظام والخلفاء الكرام ، وخصوصا في معقد رجاء هذا الشعب مولانا الامام ومؤازره في الاعتصام بحبل الاسلام الخليفة المعظم الهمام. فقد ادرك كل منهما حرس الله اهتمامهما العجز الطارئ على الجهاز العلمى لى حياة هذا الشعب، فأوفدوا الى الخارج الوفود واسسوا المدارس وشيدوا المعاهد وجلبوا المطابع ونشروا التأليف ورصدوا

الجوائز . وكان من بينها اعلان احدي مؤسساتهم العلمية عن مسابقة ادبية الباعث عليها نفخ روح النهضة العلمية بالبحث والتأليف اقتداء بالمأمون العباسي الذي كان يوم الثلاثاء عنده هو اليوم الذي يفرف فيه الجوائز على المنتجين ويجلس في مجلسه الخاص للمفاضلة بين المؤلفين، ولكنها ترمى الى غاية اسمى من ذلك وهي احياء صفحة أو صفحات ماجدة من تاريخ هذه البلاد، لان الابحاث التي قصرت عليها المسابقة لها صنة بالتاريخ الادبي، لهذا الشعب الابي . وهو اعلان وان كنا قد التقينا به عفوا بعد صدوره بزمان، فقد قدر ان لا نخصه بالعناية والاهتمام الا بعد ان بقى من اجله شهران وايام، فبادرنا اولا الى عجم عود تلك الموضوعات فرأينا الاعلان يترك لقلم الباحث حرية الاختيار وانتقاء موضوع من ثلثه ابحاث بحث عن عالم مراکش ورياضيها الكبير الامام ابى العباس احمد ابن البناء الشهير، وبحث عن وزير غرناطة ومؤلفات لسان الدين الشهيد، وبحث تصرف فيه الجهود الى نشر المدفون وعرض الموجود مما له صلة بتاريخ الادب والفنون في عهد الموحدين .

وهي ابحاث بoudna والاماني آمال واحلام ان نقوم باداء واجب جميعها لما يستدعيه قلم البحث من الرجوع الى وثائق لعل تجديده النظر فيها ونفض الغبار عن رفوفها من يمن هذا الموسم الادبي، لولا ان مؤلفات الامام ابن البناء وقد قاربت السبعين ليس في متناول اليد منها الا ثمانية لا تروى غلة ولا تشفى من علة . كما ان تاريخ الادب والفنون في عهد الموحدين الذي اليه توجهت العناية اولا لطرافة موضوعه وتطلع كتاب الادب الى ما صح من مرسله وتواتر من مرفوعه يتطلب من الباحث تتبع اصول وتحرير فصول واستقراء مصادر لا يتسع لاستيفائها وترتيب ابوابها وضم قاصيها الى دانيها ما نملك من الزمن المعين، فلم يبق امامنا من الابحاث الا الثاني في العد والترتيب، وهو ما له صلة بثانار لسان الدين ابن الخطيب .

بعض مصادر ترجمة ابن الخطيب

وهو بحث من قديم تناولته الاقلام وركضت فيه جياذ الافهام ، وتسابق الى عرضه واداء نقله وفرضه بلغاء الكتاب وفضلاء الاعلام فأول من أدلى دلوه واغترف من بحره الزخار . ومد اليه يده فنظم باقة من ازهار روضه المعطار معجزة

الادب نفسه فى عدة مجاميع من تأليفه التى هى وحدها كافية فى التعريف به والدلالة على فضله ككتاب الاحاطة ومختصرها الاماطة عن وجه الاحاطة والتاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى والاكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر واعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام . فهذه عدة وثائق بقلم امامنا ابن الخطيب سلك فى الاول والثانى منها سبيل من تقدمه ممن ترجموا لانفسهم من كبار المحدثين وثقات المؤرخين. وجرى على طريقة الادباء فيما نظمه من جواهر ادبه فى التاج والاكليل، وفى الكتاب الخامس وهو اعمال الاعلام يلتقى الباحث عن اخباره بخاتمة مراحل حياته وبأحسن وثيقة فى الدفاع عنه عقيب فراره بدينه وانفصاله عن مخدمه .

على ان هناك من بين تآليفه جملة وثائق جديرة بعرضها فى باب موارد اخباره ومصادر آثاره، كالمباخر الطيبة فى المفخر الخطيبية، ونفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، وكناسة الدكان، وريحانة الكتاب، ولولا ان يظن بنا الاغراق فى الاغراب لنظننا اكثر مؤلفاته فى عقد المواد لمن يتطلع الى مشرق انواره ومطالع اقماره ، كدواوينه الشعرية ومجاميعه النثرية وكتبه التاريخية ورحلاته الاندلسية والافريقية ، فان الباحث فى مؤلفاته يجد فى كل اثر من قلمه صورة من صور حياته، وما النفع على طول نفسه وطيب انفاسه الا برهان على ما نرى من ان آثار ابن الخطيب كافية فى الدلالة على كماله وكفيلة بتحقيق رغبات من يرغب فى نشر فضائله وعرض اعماله ، على ان امير دولة الاقلام وان احسن الى المعجبين بادبه بتلك الصفحة التى خلفها تواضعه لمن يقتفى الاثر بعد العين ويتعلق برسوم الاسناد بعد ذهاب اهل المنزل والناد ، فان لخاتمة مناسيه التى ختمت على انفاسه اثرا فى تحريك اقلام الوفاء له بعد وفاته، فقد طاف حول ساحته جماعة من الاعلام والافياء الكرام، منهم من قصد آداء دين اللسان فاستولى على امد الاحسان، ومنهم من ءانس من بيانه العجز فاكتفى بالاشارة عن البسط والبيان، ففى مقدمة القافلة الاولى صديقه فخر الشمال الافريقى ولى الدين بن خلدون فى تاريخه ومذكراته، وتعتبر وثيقة هذا الصديق الذى هو اقرب من يشبه به فى مجموع فضائله من خير ما يرجع اليه فى تحليل حوادث اخباره، وحسب ابن الخطيب من وفاء صديقه له بعد وفاته شهادته له بانه امام النظم والنثر فى هذه الامة بدون منازع. وقد سلك سبيله فى الاشارة اليه

اخوه ابو زكريا يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد في ذكر المذوك من
 بنى عبد الواد، والامير ابو الوليد اسماعيل بن ابى الحجاج يوسف
 المعروف بابن الاحمر في كتابيه نثير الجمان في شعر من نظمى واباه
 الزمان ونثير الجمان في نظم فحول الزمان من اهل المائة الثامنة من
 فرسان الكتيبة الكامنة وهما مؤلفان له على ما للقاضي ابن الحاج في
 رياض الورد وسيدى الوليد العراقي في الدر النفيس ووقفت على الاول
 منهما، ومع موجدة ابن الاحمر على وزير دولتهم ومعيد صولتهم فانه لم
 يستطيع اخفاء اعجابه بادبه وانه كاتب الارض الى يوم العرض ثم اقتفى
 اثر هذه الطبقة المعاصرة والهيئة المناصرة سيد الحفاظ في الدر
 الكامنة، والجمال ابو المحاسن يوسف بن تغر بردى في المنهل الصافي
 وغيره من كتبه والمؤرخ ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤ المعروف
 بالزركشى في تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية والشيخ ابو العباس
 سيدى احمد بابا السودانى في ذيليه على الدياج نيل الابتهاج وكفاية
 المحتاج، والامام ابو العباس بن القاضى فى الكثير من كتبه التاريخية
 كجذوة الاقتباس ودرة الحجال والمنتقى المقصور ولقط الفرائد ،
 واجرى ذكره صاحب بيوتات فاس وهو من مؤلفى القرن العاشر، ثم جاء
 فخر المغرب وببلبله المطرب الحافظ شهاب الدين المقرئ، فأربى على
 السابق واللاحق بما جمعه فى نفحه وازهاره، فقد ادى بما حشره فيهما
 من درر اليواقيت دين الادب عليه ، وخلد صفحة رائعة من حر البيان
 ووحيه ، فانه لم يحسن احد الى ابن الخطيب كاحسانه ولا فى مجاميع
 الادب الاندلسى ما يمكن ان يقارن بنفح الطيب فى جمعه وامتاعه، والحق
 ان اكثر من تطوع بالحديث عن ابن الخطيب او عن ادبه فمن نور الشهاب
 اقتبس ومن ازهار رياضيه اقتطف، كالعلامة ابى الفلاح عبد الحى بن
 العماد فى شذرات الذهب فى اخبار من ذهب، والحافظ محمد بن على
 الشوكانى فى بدره الطالع بمحاسن من جاء بعد القرن السابع، والامام
 سيدى ابى الوليد العراقي فى الدر النفيس فيمن بفاس من بنى محمد
 ابن نفيس، والقاضى العدل ابى عبد الله محمد الطالب بن ابى الفيض
 حمدون بن الحاج فى رياض الورد الى ما انتمى اليه هذا الجوهر الفرد
 والشيخ العارف ابى العباس سيدى احمد بن عجيبة فى ازهار البستان
 فى طبقات الاعيان، والمؤرخ الشهير ابى القاسم الزيانى فى عدة من
 كتبه كالروضة السليمانية ، والشهاب ابن عمار الجزائرى فى فوائد

رحلته والامام سيدى محمد بن جعفر الكتانى فى سلوة الانفاس ومؤرخ
مكناس فى اتحاف اعلام الناس، ومؤرخ مراكش وقاضيه ابى الفضل
عباس بن ابراهيم فى الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام،
ومؤرخ اسقى ابى عبد الله محمد بن على الكانونى فى جواهر الكمال ،
ومؤرخ الرباط واديبه ابى جندار فى بحثه عن شالة واثارها، ومؤرخ
الجزائر الشيخ الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف برجال السلف، ولم
يهمل ذكره من كتب فى وفيات الاعلام كتلميذه الرحالة ابى العباس احمد
ابن حسن بن على القسطنطينى الشهير بابن قنفذ وبابن الخطيب ايضا
فى كتابه شرف الطالب فى اسنى المطالب، والكاتب ابى عبد الله محمد
ابن على الفشتالى فى وفياته، والاديب ابن زاكور فى المغرب المبين
وابى العباس احمد بن محمد الامين بن الفاضل الودانى فى الاعلام
بوفيات العلماء الاعلام، وخير الدين الزركلى فى الاعلام، وعرف بالامامة
فى الطب فنظمه فى اعيانهم الدكتور احمد عيسى فى ذيله على طبقات
الاطباء ، كما عرف بتدوين تراجم الشيوخ ورجال الرواية والاسناد فى
فهارس نسبت اليه فذكر من اجل ذلك فى فهرس الفهارس والاثبات
للشيخ ابى الاسعاد ولكثرة تأليفه ذكره الشيخ جميل العظم فى عقود
الجواهر فيمن لهم خمسون مؤلفا فاكثر .

بل هناك عناية خاصة بابن الخطيب وادبه فى اقلام كتاب هذا
العصر هى وحدها كافية فى الدلالة على سعة معارفه وكثرة فضائله، فقد
اشاد بذكره امير البيان فى آخر بنى سراج كما اعاد الحديث عنه فى
حلله السندسية، ولعل اجمع ما قيل فى ابن الخطيب هى كلمة الامير
الدين» فهو عنده امير دولة الاقلام الجاحظ فمن دونه تحت لوائه، ولا
يوصف قلم الاستاذ محمد كرد على بالنسبة للامير بتقصير فقد نوه هو
كذلك بذكره وخصوصا فى مجلة «المقتبس» وفى مقاله حول المنشئين
والانشاء وفى كتابته حول الاحاطة والترجمة التى خلفها عنه فى مقتبسه
من افيد ما كتبه المعاصرون عنه، وتجلت عناية الكتاب بنوع اخص فى
اقلام من صرفوا الوجهة الى التدوين فى الادب العربى او تاريخه كجرجى
زيدان فى تاريخ ادب اللغة العربية، والاستاذ الاسكندرى فى الوسيط ،
والاستاذ احمد امين فى قصة الادب فى العالم، والاستاذ الزيات فى
تاريخ الادب العربى، والاستاذ يوسف اسعد داغر فى كتابه مصادر

الدراسة الادبية، والدكتور شوقي ضيف فى الفن ومذاهبه فى النشر العربى، والاستاذ احمد ضيف فى بلاغة العرب فى الاندلس، والدكتور فيليب حتى فى تاريخ العرب، ومحمد مصطفى فى الادب العربى وتاريخه ومحمود طه فى تاريخ الادب، والاستاذ محمد عبد الله عنان فى نهاية الاندلس، واستاذ البيان الرافعى فى تاريخ آداب العرب، ولكن بايجاز كغيره ممن كتبوا فى الادب العربى او علقوا على مجانيه من اللبنانيين، وعلينا ان لا نهمل ذكر ما خلفه عنه من اختصر احاطته او ذيل عليها وكذا من اختصر النفع والازهار وهم جماعة، كما يجب ان لا ننسى كتاب الموسوعات الكبيرة والتواريخ العامة وفهارس الخزائن العلمية ومن احتفل باخبار الاندلس خصوصا فان الكثير ممن اعتنوا بالتدوين فى هذه الموضوعات احتفلوا بذكره، والذى لا يزال محجوبا اكثر مما سمعنا به او وقفنا عليه .

وقد انتدب للمفاضلة بينه وبين عصريه ابن خلدون الاستاذ الاسكندرى فى محاضراته المنشورة فى مجلة المجمع العربى، كما تكلف المقابلة بينه وبين الرئيس ابن سينا الدكتور رونو فى مقال له، وحاضر به قديما فى معهد الدروس العليا الاديب التونسى الشيخ العربى الكبادى واحيا ذكره الدكتور تقى الدين الهلالى بمجلة لسان الدين تخليدا للقبه بعد ان ترجمه ونشر رسالة له، وظهرت بعض كتبه متوجة بعيون من اخباره بقلم جماعة من الكتاب كالأستاذ رفيق العظم فى مقدمة الاحاطة والاديب الغيور على الطنطاوى فى صدر اللوحة البدرية، كما اعتنت بعض المجلات الادبية بعرض صور من حياته، كالمعرفة التى نشرت دراسة الأستاذ الاسكندرى له فى خمسة اعداد منها، ومجلة الرسالة التى تولت عرض ما للسيدة منية الكيلانى حول هذا العبقري تحت عدد ٧٢٣ وعدد ٨٠٩، ومجلة المكشوف فى مقال ابن الخطيب وقيمة الموشحات الاندلسية، لفؤاد البستاني، وفى الكتاب من اكتفى بالاشارة الى محنته كالأستاذ عنان فى كتاب ابن خلدون وبلدينا الامام ابى العباس الناصرى فى الاستقصا فى آخرين، ولو ذهبنا نستقصى اسماء كل من قام بحق الوفاء واداء واجب الادب لأمير دولة الاقلام من كتاب المعاجم والفهارس والطبقات والوفيات والبلدان والموسوعات والرحلات وتواريخ الملوك والرجال لذهب معظم ما بقى من الايام فى البسط والبيان .

فلنمسك عنان القلم خوفاً من أن يفلت من اليد الزمام علماً منا بأن نواحي الكمال في ابن الخطيب مختلفة الجوانب متعددة المسالك والمشارب لا يجمعها كتاب ولا يضبطها حساب فما على طالب البحث إلا أن يعنى منها بجانب ليرى من مظاهر الكمال ما تقف دونه الآمال . على أن اخبار هذا الجوهر الفرد وأن سابق بها في ميدان الغرض والاجادة فرسان البيان واحاطها بكل فريدة من خلق بها في جو الشهرة ففاز بالرهان فان قلم الاهتمام بهذا البحث سيعنى بالجانب التاريخي الذي له صلة بخصوص مؤلفاته رغبة منا في التحرر من الحديث المعاد وقيود التقليد ووقوفاً مع الإشارة القاضية بأن التحدث عن آثاره وما وقع الاهتمام اليه من مؤلفاته هو بيت التقصيد فان اتسع الوقت لغيرها شفّعنا البحث بأبحاث ونظمنا من دررها لبات وإن لم تسعف الأيام بالمرغوب ودعناها بسلام، وابقينا عرض نصوصها وامتحان جواهر فصوصها للمغرم بادب معجز البيان ولسانه، ومن لا يريد أن يقرأ الكتاب من عنوانه، على أن معرفة الإنسان من دراسة محتويات كتبه التي قد نظن أنها من اكتشاف كتاب هذا الجيل، هي طريقة معروفة للقدمين، ومهيح مسلوك عند كتاب التراجم من المؤرخين ، وما ترجمة الطبري في معجم ياقوت على كثرة فوائدها وغرر فرائدها إلا خلاصة مؤلفات معظم الجهود فيها مصروف الى فصل مؤلفاته، وإذا كنا في حديثنا عن بعض الكتب قد سلكننا سبيل الإيجاز أو خاننا المنطق فلم نقو على إقامة البرهان على ما انتظم في سلكها من اسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، فعذرنا فيما لم نقف عليه فيها بخل المظان ومن به يستعان وفيما التقينا به من بعضها ضيق الزمان وكثرة الاحزان .

ابن الخطيب من الاندلس ونظرة عابرة في اوليته

واين الخطيب من تاريخ بلاده ومهد اجداده كالطغرى في رأس صفحة ادبها الخالد والغرة على وجه ماضى عهدها البائد لا تبكي الايام محاسن الجزيرة وعهد الحضارة بها الا وتجاوبها الاقلام بدموعها على فجيعه الآداب في بدر جمالها، وقطب كمالها، وترجمان معارفها، ولسان دينها ودنياها، لان هذا الهزار الذي كان يغرد وينوح فيشجى القلوب

ويدمى العيون بنوحه وتعداده، ويصرخ فيتطير الشرر من لهيب فؤاده
ويزمر فيلفظ من سكير وجده، فتيت اكباده، هو الذى قضى معظم
حياته فى اعداد العدة لاعادة بناء مجد بلاده، وان انين ذلك الوجد والهيام
ودموع الحسرة والالام لتجرى فى شق قلمه، وينطق بها حر بيانه
فتارة نشاهد قلمه ينفث سما وءاونة نراه يرعف دما، وهو فى عرض
صور ماضى الوطن بين مواطنيه واذكاء روح الشهامة فيهم ليعيدوا الى
التاريخ سالف ايامه بين اليأس والامل والقنوط والرجاء، على ان ابن
الخطيب وان اسمعنا من زفرات قلبه ما يستنزف الدموع ويقد القلب
المصدوع وخصوصا عند ما يكتب مستنجداً ومستنفرا ومحركا للهمم
الخامدة والعزائم الراكدة ومذكرا ومحذرا من ربح الخلاف ومنها من سنة
الغفلة وسبات النوم، ومنفرا، فاننا الى جانب شظايا تلك القذائف التى
كان يرسلها بركان قلبه عن طريق قلمه وهو يندب مجد وطن ودين امة
وادب جيل نجد فى ادبه طعم الانس وفى حياته طبيعة الوداعة ملؤها
التسليم والرضى والصبر على ما قضى به القضاء واكثر ما نجد طعم هذا
الادب فى قلم لسان الدين عند ما تتقمص فيه روح الآداب الصوفية،
والمواجيد العرفانية وترتقى بتأملاته الى المعارج القدسية، فيمد سواد
قلمه ببياض الوعظ والتذكير والزهد والتخويف والدعوة الى اعداد الزاد
ليوم المصير، وهو مظهر صوفى فى حياة لسان الدين وفى ادبه كذلك،
لعله به كان يتعلل عند ازدياد علله وانهيأر امله وفيه يجد سلوته عند ما
يهجره الرقاد، ويحالفه السهاد وفى جو من مختلف التيارات التى اصطلحت
على اخلاق لسان الدين، فظهر منها ادبه متأثرا بعوامل المحيط الذى
عاش فيه قضى حياته المملوءة بجلال الاعمال، قد اعطته لغة البيان
مقادها فاختار من بدائعها كل معنى طريف وجوهر لطيف، والقى عليه
دوحة البلاغة اغصانها، فتفيا ظلها الوريث، فكان اذا وعظ ابكى واذا
فتك انكى، واذا مدح ارضى، واذا قدح اردى، واذا سخر اشجى، واذا
وصف نشر الشعرى، واذا اثنى كال بالمكيال الاوفى، يكتب فيتوج سطور
الطروس بالدر المنثور، ويشعر فينظم ما هو ابهى من اللثالىء فى نحور
الخور، ويرتجل ويباده فيسحر الالباب بحضور ذهنه ومعجز ابداعه،
ويملى من عفو الخاطر على جماعة من الكتاب من غير ان تجف لهم الاقلام
فيبدي من دلائل اقتداره وكثرة استحضاره ما يذكر فى آيات اعجازه،
لانه كان يستمد بيانه من فكر وقاد، وذهن نقاد، وطبع منقاد، ومادة

خصيصة لا يتضرب لها معين، وان افاق البحث فى ادب هذه الموهبة الانسانية لتتسع فى محيط خيال الباحث فلا يجد كالاعتراف بالفخر منفذا من ولوج مضاييق قد تلتوى عليه فيها المسالك وتعجز عنها المدارك فهو بموضوعاته العلمية واثاره الادبية اية ابداع ورجل تحد واعجاز، وبتعا بيره الفلسفية ومراميه البائية بحر تلاطمت امواجه ومورد حقيقة، ومجاز، فليس الذى نقصده بالتطفل ونطرق باب كرمه كمن نعهد من فحول الكتاب وفرسان الآداب، فقد خلق فى جو لن يصفه على وجه الحقيقة الا من كان فى مستواه، ووافق هواه هواه، ودون الوصول الى ضبط ثروته الادبية وادراك سر الموهبة فى اساليبه الفنية كيل البحار وفناء الاعمار، وقد قال احد من تادب بحجة الاسلام وهو الامام محمد بن يحيى لا يعرف قدر الغزالي الا من بلغ او كاد يبلغ الكمال فى عقله وللتقى السبكي كما فى طبقات التاج لا يعرف قدر الشخص فى العلم الا من ساواه فى رتبته وخالطه، ومع ذلك لا يعرف منه الا بمقدار ما اوتيه هو ولذلك لا احد يعرف قدر الشافعى كالمزنى، وانما يعرف منه المزنى بمقدار قواه والزايد عليها من قوى الشافعى لا يدريه المزنى ومن رأى احد الكتاب الغربيين ممن نقد مذهب شانتوف ان دراسة كاتب كبير ان لم تستغرق حياة كلها استغرقت سنين طويلة .

وقد تعرض الاستاذ احمد امين فى تصدير كتاب الفن ومذاهبه فى النشر لما يجب على من يعتنى بجانب النقد فى دراسة حياة كاتب او شاعر فوضع فى طريق الباحث اشواكا لن يشب عليها ويتخطاها الا من ايد بتوفيق، فهو يرى ان من واجب الكاتب او الشاعر على دارس ادبه ان يقرأ اثاره فى دقة وامعان وان يعرف تاريخ حياته النفسية والاجتماعية ومدى تأثيرها فى ادبه نم بعد الموازنة بين ادبه وادب غيره عيه ان يبرز الناحية التى ظهر فيها امتيازه وطابعه الخاص الذى به استطاع ان يعلن عن شخصيته وما اضافته الى القديم من ادب جديد، ثم اضاف الى ما ذكر وقد سلسل يد الباحث وقلمه بهذا الغل فقال والناقد يلاقى عناء اى عناء لانه لا بد ان يفحص ولا بد ان يدقق ولا بد ان ينظر بالمجهر ليتبين الخصائص الغامضة، ولا بد ان يتبين الصفات الجوهرية والصفات السطحية، ولا بد ان يكون مرهف الذوق يشعر بالجمال حيث كان وبالقبح حيث كان مهما دق شأنهما، ثم هو الى ادراكه للجمال لا بد ان يقومه ويجدد منزلته ومستواه ويبين درجته بالنسبة لنظرائه بتلخيص ، وهى

قيود ينوء بحملها اولو القول لانها اذا لوحظ اعتبارها فى مطلق ناقد مع
 كاتب او شاعر فما هى الخصائص والمميزات التى يجب ان يتوفر عليها
 ويقيم موازين العدل فيها، وامامنا اللسان، وهو الذى يقول فيه امير
 بيت ارسلان : ان ابن الخطيب امة وحده، فالجاحظ فمن دونه تحت
 لوائه، فانى اجد فى متانة التركيب اعلى درجة من الجاحظ الذى لا
 يتضاءل الا امام امير المومنين على كرم الله وجهه فان الجاحظ استاذ
 الاساتذة لمن حاول اجادة الكلام، غير ان ابن الخطيب بيضة الفلك ونادرة
 الدهر، لو اوتى حقه من التقدير لوشحت باسمه جدرات عواصم الاسلام
 ولرقم ذكره على حاراتها، وحدائق ازهارها تخليدا لذكراه وانى لارى
 فى بيانه من قوة التخيل ولمعان الديباجة والتفنن فى العبارة ومثانة
 التركيب وعلو الطبقة ما لا يوجد فى بيان احد من كتاب العرب، وربما
 من كتاب غيرهم من الامم اصلا، وهو فى استعمال المجاز الذى يأتلف
 مع الطبع اية من ايات الله، واكثر ما نجد لسان الدين يعلو وتنقطع عن
 مجاراته اعناق الفحول عند ما يجرى قلمه ناقدا، فهو اذا سخر نسيج
 وحده لن يصل احد الى مده او نصيفه يكاد ببيانه التهكمى يستولى على
 القلوب ويأخذ بمجامع الالباب وهو بلا شك من الكتاب الذين يجيدون
 الى النهاية تحليل اجزاء النفس وتفسير خوالج القلب وبهذا تمكن ان
 يكون له هذا الاسلوب الخاص به المنقطع النظير . ثم زاد الامير وقد
 اخذ قلمه ما يأخذ السائح وقد علت له الامواج واعوزه الافراج فقال : وماذا
 يقدر الانسان ان يحضر من موجات فكر ذلك البحر الخضم، بل ذلك
 القاموس الاعظم الذى له ادب خاص به ينبغى ان تؤلف عليه الكتب ويصبح
 مثلا يقتدى به، وكم حدثت نفسى بان اكتب رسالة تكون لمحة دالة على
 تفنن لسان الدين فى الكتابة وانفراده فيها بانماط خاصة به لا يجدها
 القارئ عند غيره، وهذا من الاغراض التى فاتتنى وما فطنت لوجوبها الا
 بعد ان بلغت من الكبر والعياء ما صار حائلا بينى وبين الوصول، فحيذا
 لو قام غيرى بما قصرت عنه وءاتى هذا الموضوع قسطه فى عصر كثر
 فيه الكلام على اساليب البلغاء وتعلييل نفسياتهم المختلفة، وتحليل
 خواطرهم التى بلغوا فيها ما بلغوا من علو المكانة فى عالم الادب، ولقد
 كنت ملثا باملاء رسالة موجزة فى شأن لسان الدين ففاتتنى البغية
 بفوات المراجع التى رافقت كتبى الى بيروت ، هذه عيون من رسالة
 لامير البيان عزز بها جهاز مجلة لسان الدين سقناها فى غير ترتيب

لنلقى بنورها شعاعا على من يحاول ان يبصر سر المعجزة في ابن الخطيب ويتناول ادبه بالبحث والدرس على النهج الذى على ضوئه يسير كتاب هذا العصر وهى شهادة كذلك من احد اعلام الادب وفحول الكتاب، اعطى بها الامير صفقه اليمين لامير دولة الاقلام لا يرجو من وراء هذه الاشادة الا اعلان الحقيقة التى وان كان قد يرضى بها اقواما قد مشوا فى موكبه وءامنوا بسلامة منطقته فى حكمة فقد يزور عن قبولها ءآخرون ممن تأدبوا ببيان الجاحظ وغيره من كتاب الادب فى عهد العروبة الاولى ، فلا يبصرون الكمال الا فى ادب ذلك العصر .

وقد قال ابو حيان التوحيدي وقد وقف من ادب الجاحظ موقف الامير من ابن الخطيب والذى اقول واعتقده وءاخذ به واستهام عليه انى لم اجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريرهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى اخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا الى ان ياذن الله بزوالها لما بلغوا ءآخر ما يستحقه كل واحد منهم هذا الشيخ الذى انشأت له هذه الرسالة وبسببه جشمنا هذه الكلمة اعنى ابا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ والثانى ابو حنيفة الدينورى فانه من نوادر الرجال جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب له فى كل فن ساق وقدم وروء وحكم، والثالث ابو زيد احمد بن سهل البلخى فانه لم يتقدم له شبيهه فى الاعصر الاول ولا يظن انه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر ومن تصفح كلامه علم انه كان بحر البحور وعالم العلماء ، وما روى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواء ، وان القول فيه لكثير فهذا رأى فيلسوف الادباء واديب الفلاسفة ومن هو فى رأى المعجبين بأدبه اعلى طبقة من مقتداه الجاحظ فى ثلاثة من فحول الادب وائمة البياؤ قابلنا به رأى الامير شكيب سقناه كالبرهان على ان الاذواق فى الحكم على مواهب الكتاب فى البيان، تختلف باختلاف المقاييس والاوزان قد اختار كل طريقة اودعها براهيته وتحقيقه وعند الله علم ما كان يضيفه اديبنا التوحيدي على صاحبنا ابن الخطيب لو تأخر به الزمان وتوجه الى دراسة ادبه بالحجة والبرهان وكأنا به وهو بساحل تلاطمت امواجه واتسعت فجاجه قد وقف بجانب نظيره شكيب يشاهد من دلائل القدرة فى هذه الموهبة ما يدعه فى بيداء تلك المعارف تائها وامام جمال سحر بيانه مولها .

ولا نظن ان امير البيان كان مغاليا في حبه ومبالغا في حكمه عند ما جاز بصاحبنا محيط كتاب الادب العربي وراءه الاحق بالتقدم والتبريز حتى على كتاب الادب في بقية الامم، فان الامير شكيب وهو المقدم في لغة قومه والعارف بعدة لغات من لغات التمدن الادبي في هذا العصر كتابة وانشاء ما كان ليتطوع اختيارا منه بهذا الحكم الصادر عن ترو وعقيدة لولا شعوره بالعجز الذي يقطع الطريق على طالب الحقيقة عند ما يفاجأ بمعجزة من ابطال التاريخ، فابن الخطيب في رأى محبيه واقلام منصفيه هو موهبة انسانية ونفحة من تلك النفحات الالهية التي يمد الله بها التاريخ لتعلن القدرة الباهرة مظهرا من مظاهر الكمال في التاريخ البشرى وليدرك المجد العامل الذي يظن ان جميع الكمالات تنال بالاكتساب ان وراء الكد والنصب موردا منه يستمد الملهمون ومصدرا للفيض منه يستقى الموهوبون والمطبوعون وهذا ما نعلل به تلك الظاهرة الخارقة للعادة في ادب اديبنا الموهوب فان كمال الابداع في كيانه لم يظهر في خصوص مؤلف له او مجموع من منشور او منظوم او تجلت افادته واجادته في خصوص فن من الفنون ولكنه وهو الكاتب المبدع والمؤلف الممتع قد استطاع مع اعباء الوزارة ان يصوغ نحو ثمانين مؤلفا في مختلف المعارف والفنون ما من اثر منها وقع الاهتداء اليه الا وهو بجمال اسلوبه ومتعة نقوله شاهد على فنون ابتكاره وقوة اقتداره فسيحان من وهب له الابداع في بيانه واقدره على التعبير عن كل فن بمصطلحات رجاله.

والآن وقد وقعنا من عباقرة الدهر على باقعة، ومن بعد ونحن بساحل السلامة، لا زلنا نفرق من خوض ثبج هذا البحر الخضم، فما هي تلك العوامل التي كان لها الاثر الملموس في تكوين هذه الشخصية العالمية، وما هي الوسائل التي رافقت حياة هذا الفرد الكامل فأخرجت لنا منه موهبة انسانية ومعجزة بيانية .

للباحثين من الكتاب في دراسة النوايغ، اساليب وآراء، لسنا نشاطر منهم اولئك الذين يتعلقون بالخيال في البحث والتحليل، ويذهبون في حصر الاسباب وراء الوراثة والعنصر والدم والاقليم، كأن العبقرية وقف على هذه العناصر، فقد اغنانا عن البرهان ما يشاهد الكل بالعيان من ان النبوغ يتخطى اسلاك تلك العناصر، ويحطم قيود العلل والاسباب، فكم من عبقرى لفظته صحراء مجدبة، وكم من نابه تفرع عن اصل خامل، وعظيم تمخض عن

وضيع، وكامل عن ناقص، وعالم عن جاهل، وبطل عن جبان، وفي هذا وحده ما يكفي للاعتقاد بان النبوغ مواهب وارزاق وحق مشاع بين الامم والاجيال، وفي المحاضرات التي القاها شفيق جبرى عن المتنبي لما تكلم على أثر وطنه فى تكوينه قال على أن بعضهم لم يجعل للبيئة المقام الاول فى نشوء العبقريات ثم نقل عن الاستاذ رونتير بان المرء وان كانت بيئته تؤثر فيه فعلياً ان لا ننسى بانه يستطيع ان يتملص من اثارها وانه يستطيع ان يصرفها فى مصالحه، وقد اجمع علماء الطبيعة على هذا الامر، ولا شك فى انهم لا ينكرون اثار البيئة ولكنهم بعيدون عن ان يجعلوا لها حتى فى علم الحيوان المحل الذى جعله لها (نين) فى مذهبه، على اننا مع رضوخنا للواقع ونزولنا على حوادث التاريخ التى تأبى ان تطوق العبقرية باطار الاقليم والوراثة، وتحصرها فى العلل والاسباب لن يشتت بنا الخيال كذلك ولن نذهب فى مكابرة الواقع مذهب من ينكر قيمة المقومات الكمالية وما لها من اثر فى تكوين النبوغ وابرار المكبوت، مما خفى من اسرار العبقرية، فهى من افضل ما يخلع على الانسان عند الكشف عن اخباره والتعرض للكمال من اوصافه كسرف نسبه، وكرم حسبه، ويمن بقعته، ونبل خطته، ورفعة شأنه، ونباهة ذكره، ليستدل بذلك على ان الفرع وليد الاصل وطيب الثمرة من حسن التربة واعتدال الهواء، وسقى الغرس. وابن الخطيب من نعوت الكمال وهذه الخلال التى تتوج بها تراجم الرجال لا شك انه من اولئك الذين لهم فى هذه المحامد القدح المعلى والمظهر الاجلى والصفحة التى لا تبلى. فاما الاقليم فحسب ابن الخطيب تنويعها انه من مهد الطبيعة ومهبط الحكمة، ومغنى الانس ومسرحة الطباء، ومنبت الفضيلة، ومغرس الدين، وتربة الجهاد، ودار الرباط، ومعهد العرفان، ومشرق الحضارة العربية، ومطلع شمس البلاغة، ومنتدى الادب العربية فى الغرب الاسلامى، ابنته التربة التى تعهد الادب غراستها بشق الاقلام، وسقتها البلاغة العربية بدموع القريض والبيان، فاثمرت اغصانها الباسقة الافنان اعلاما فى الادب العربى برزوا على الاقران، وكان لهم فى دولة البيان سلطان، كابن حبيب، وابن الفرضى، وابن حزم، وابن عبد البر، والبايجى، وابن العربى، وابن حيان، وابن بسام، وابن دراج، وابن عمار، وابن زيدون، وابن عبدون، والبطلوسى، وابن خاقان، وابن بشكوال، وابن ابى الخصال، وابى سالم الكلاعى، وابن الابار، وابن عميرة، وابن الجنان،

وابن الحكيم، وابن الجياب، وابى حيان، والبلقي، وابن جزى، وابن هذيل، وابن خاتمة وغيرهم من اقطاب البيان الذين لا يحصيه عد ولا يجمعهم ديوان .

فاذا كنا على حق بان لوطن الانسان اثرا فى توجيه ميوله، وعاملا محسوسا فى تنمية مواهبه وتقوية مشاعره ومداركه، فابن الخطيب من اولئك الذين صقلتهم شمس الجزيرة، ورضعوا لبن حبها، وفطموا على التعلق بها، والاشادة بذكرها، والتغنى بجمالها، وهو وان حلق فى جو ارتفع به على الاقران، وتعالى بمعارفه عن نظرائه من امرء الاقلام، ممن نظمه واياهم الزمان، فان الباحث فى ادبه لن يستطيع ان يقصيه عن ادب محيطه الاندلسى، لتشبعه فى اسلوبه بأدب أفقه، وتكيفه بالمدرسة الاندلسية فى الكثير من منشآته، فابن الخطيب أندلسى النشأة والهوى وان تنكرت الايام له فأقصته عن مغناه ورمته فى منفاه، كلف بحب وطنه وان تأول متأول نزوحه عنه على غير معناه، قد تأثر بطبيعة الاقليم فى تربيته الادبية وحياته الاخلاقية، فلو قدر لدارس ادبه ان يلتقى بكتبه غفلا من اسمه فانه لن يتردد فى طابعها الاندلسى اولا ثم فى نسبتها الى مؤلفها ثانيا، وفى هذه الصلة التى احكمت عرى الازدواج بين ابن الخطيب واقليله ما يكفى لمن يعنى بقيمة تأثر الاديب بطبيعة الاقليم، على ان وراء مفعول الاقليم وعامل الماء والهواء والطين، عنصر كريمة وابوة صالحة ينتسب اليها لسان الدين، لعلها هى اعظم المقومات الكمالية فى حسن التربية والاخلاق الوراثية، وهى ابوة تنحدر من اليمن، مهد الحكمة والفقه والايمان تمت الى العزة العربية بأوثق الانساب والى الحسب المتأصل بأقوى الاسباب، ويرجع فى الوفاة على الاندلس الى القافلة التى اقلتها العقيدة وحب الاسلام من مهد العروبة الى ارض الجزيرة، فاتخذت من عاصمة الامويين قرطبة وطنا ثانيا لها، ولكنها طبعت على آباء الضيم، فثارت فى جملة من ثار على نظم الظلم والاستبداد، واستقرت بطليطلة، ثم وثبت منها قبل نزول الكارثة عليها الى غيرها، وانتهى بها الطواف الى لوشة وبحمرآة غرناطة عاصمة بنى الاحمر، كانت خاتمة المطاف، حيث اشتمل عليها السلطان باحسانه، وافاض عليها سيل انعامه، واسدل عليها من برد السعادة والعافية رواقا، وسقاها من حسب الرياسة كاسا دهاقا، الى ان اءذنت شمس السعادة بالارتحال واذنت بالزوال، وكل نعيم فى هذه الدنيا مثاله الى انقضاء

وانتقال. وابن الخطيب فى عرض تاريخ هذه الابوة جواد بموجوده، غير ضنين على الطالب بمفاخر جدوده، فقد نشر علينا من محاسنهم الوية عند التعرض لترجمته فى آخر احاطته، معيدا ما قصه علينا فى ترجمة والده، وليس ذلك بضائره عند محبيه ومنصفيه، فالاشارة بمآثر الاجداد هى صلة وصل وهدية حب، وولاء من الابناء الى الالباء، واجلال ذوى البيوتات الماجدة طريقة لابن الخطيب يسير عليها فى الكثير من تراجمه التاريخية، وكثيرا ما يجعل من فضل الابوة مكمل لنقص من انقطع به السير وقصر عن اللحاق بسلفه كما انه كثيرا ما يصك الخصم بنزوع العرق وخبث الاصل، ولما ترجم للوزير ابى اسحاق الازدى وذكر من ثناء الثقة على اصالة هذا البيت ما تنقطع دونه الاطماع، قال ولما عقدت لولدى عبد الله على بنت الوزير ابى الحسن احد افراد هذا البيت، خاطبت شيخنا ابا البركات بن الحاج أعرض ذلك عليه فكان من مراجعته ما ارشدك لبنت الستر والعافية والاصالة، قاتلك الله ما اجل اختيارك . ولنكتف الاّن من محاسن هذا البيت بهذه اللمحة ما دامت لنا عودة اليه فى عنوان اولية لسان الدين، وحسبنا الاّن والكلام على قيمة الابوة الماجدة فى مقومات العبقريّة ان نضم فضل هذا الارث الى فضل الاقليم، فان الرجوع الى شرف العنصر من اعظم ما يعنى به الباحثون فى حياة النواذب عند سرد المؤهلات وعد الفضائل، وقد لاح لنا ان ابن الخطيب بأصالة عروبتة ونباهة سلفه قد استولى على امد الاحسان وانه فى فضل بلده وشرف حسبه قد حاز القدح المعلى فلم نعد فى حاجة الى زيادة بيان .

عصر ابن الخطيب

اذا قدر للنابغة ان يتكيف بمقتضيات زمانه، وان يكون للحوادث سلطان على تكوينه وتلوين اديه، فابن الخطيب بدون شك من اوفر النواذب مغنما، واكثرهم استفادة من عبر الايام، فقد عاش فى زمان تقلص فيه ظل سلطان الاندلس، وتولت ايامه بالادبار وبمرأى منه ومسمع كان يشهد عواقب تشاكس الامة وتخاذلها وانقسامها على بعضها ايام كان العدو يضرب بين ابطالها، وطلاب الملك والرياسة من رجالها حتى ابادتهم الحروب ومالت شمس ايامهم للغروب، فبعد ذلك الملك المترامى

الاطراف، والمجد الذى تقصر عنه الاوصاف، والبطولة العربية التى كان الخصم يفرق من هولها عند المصاف، وعظمة الدولة التى كان يحميها العدل ويجملها الانصاف، ودنيا المعارف التى قارن شهادة التاريخ لها تسجيل الاعتراف، وبعد تلك المدنية الباهرة التى خضعت لجلالها دول التمدن والعمران، والمدارس العلمية التى اقامت على تسامح الاسلام البرهان، والمعاهد الدينية المؤسسة على تقوى من الله ورضوان، والمعقل الجهادية التى كانت تحمى جلال الملك من العدوان، والملاجىء الخيرية التى علمت دول الحضارة مشاريع الاحسان، والنجدة العربية التى كانت تنصر الجار وتحميه اذا سيم الخسف والهوان، والتسامح الدينى الذى قرر حقوق الانسان، وخط لدعاة الانسانية طريق الدعوة الى السلام، وكيف يجب ان يعامل الضعيف عند ما تخونه قوته ويركن الى الاستسلام .

بعد هذه الفضائل التى هى شامة فى وجه التاريخ، وصفحة فى مجد الاسلام، عادت الايام فأخذت تسترد ما جادت به فى الامس بمختلف الاسباب، والملك الذى لا يحميه العدل والعلم والقول والحزم مثاله الى ذهاب، فسكنت المآذن من الاذان وقد كانت بكلمة الايمان، تقرر الآذان، وخلت المساجد من جباه المصلين واخذت تصك الاسماع نواقيس الرهبان، وبدلت الارض غير الارض، فأخذت من اطرافها وضمت قوادمها الى خوافيها، فأخذت المصائب على الدولة تتوالى وتترى، وعواصم المملكة تسقط الواحدة تلو الاخرى حتى لم يعد بيد المسلمين الا سيف البحر قد طوقته القوة، وربضت بجانبه تنتظر الفرصة المواتية لالتهامه

فى هذا العصر الذى استفحل فيه الداء وحق الرثاء والعزاء بعد ان عز الدواء، ووقع اليأس من الشفاء، ظهر لسان الدين وكل ما للدولة من ذلك الارث العربى مملكة غرناطة، وهو ارث وان احاطت به قوة الاكتساح، فقد استطاع بنو الاحمر ملوكه ان يسجلوا لكفاءتهم صفحة خالدة فى تاريخ الحضارة، وان يعيدوا لجلال ملك الاندلس ماضيه حتى ان آفاق الخيال لتتسع فى ذهن الباحث فيظن وهو واقف امام اطلال غرناطة أنه فى مدينة السلام ايام اشراق شمس الحضارة الاسلامية بها، على ان ملوك هذه الدولة الفتية مع كثرة الحوادث التى ذكرها يستندرف الدموع ويوقد النار فى الضلوع، لم يستطيعوا ان يتغلبوا على سلطان اهوائهم ويقطعوا من حب الرياسة والتنافس على الملك حبل رجائهم،

ففي خصوص العصر الذي عاش فيه ابن الخطيب جلل السيف جماعة
 منهم واتى النفسى والتشريد على آخرين، ونار الفتن والاحقاد قائمة
 والالتجاء الى عدوهم القوى خطة محكمة وطريقة لازمة، ففي سنة ولادة
 ابن الخطيب استولى على قاعدة الملك باسم الثورة والقيام على الدولة
 ابو الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل، وكانت نهاية هذا الملك
 الغاصب القتل بيد ابن عم له ثار في طائفة من القرابة وبباب منزله
 وثبوا عليه طمعا في الملك، فكان القتل نصيب جميعهم، واسند الملك
 الى ولد الملك القليل، وهو الامير ابو عبد الله محمد بن ابى الوليد
 فختمت حياته بالقتل كذلك سنة ٧٣٤ فخلفه على الملك اخوه الامير
 ابو الحجاج فكانت نهايته القتل سنة ٧٥٥، فتولى بعده الامير ولده ابو
 عبد الله فكدر صفو ايامه قيام اخيه عليه بعد ان افلت من القتل باعجوبة،
 وامتنى راحلة الاغتراب وافدا على المغرب الذي كان لملكه اليد في
 ايوائه، وفك اغلال الاسر عن وزيره ابن الخطيب، وكانت نهاية هذا الاخ
 الثائر والمستولى على الملك القتل بيد من اعانه على الثورة وهو ابن
 عمه، قتله شر قتلة والحق به اخا صغيرا له زيادة في الانتقام، فقد
 شاهد ابن الخطيب من خصوص من كان القتل نصيبه جماعة من ملوك
 الدولة التي كان يحطب في حبلها، ومعلوم ما ينجم عن حوادث قتل
 الملوك وانتقال الدول من فتن واهوال، وقتل الحاشية والاتباع وخصوصا
 وزراء الدولة الذين شاهد ابن الخطيب من صرعى القتل والبطش جماعة
 منهم الوالد والشيخ والصديق والرفيق، فلم يكن ابن الخطيب وقد
 مثلت امامه هذه الروايات المحزنة التي لم تحترم مالكا ولا وزيرا ولا
 رعيت له والسدا ولا صديقا ليامن على نفسه من الخاتمة التي تنتظره ،
 وفيما دون ما شاهده قد الفؤاد ولفظ الاكباد، على انها وان كانت مناظر
 محزنة فمن حق الحوادث ان لا ننسى لها الاثر الذي تخلفه كمورد
 للاديب، فقد قال الاستاذ محمد كرد علي في ترجمة ابن الخطيب من
 ثانی مجلدات المقتبس ان له بدائع المعاني التي كان يملئها عليه
 اشمزازة من محيطه وتقرزه من خدمة دولته، حتى كان يدعو ان يلفظ
 الله به وان يخلصه خلاصا جميلا، قال وكيف لا تدفعه حميته الى القول
 وقد استولى العدو في ايامه على معظم قواعد الاندلس مثل اشبيلية
 وقرطبة ومرسية وجيان والمرية، ولسان الدين يستصرخ وزعماء السلطة
 في لهوهم وغرورهم مسترسلون، فالعصر السياسى في عهد ابن الخطيب

بالاندلس وان كان مظلما فالآلام التي كان يعانيتها، قد افادت ادبه كثيرا واقامت منه ترجمانا كان يعبر عن آلام الامة واحلامها على انه وان كان غير محفوظ في عصره السياسي بالنسبة لمحيطه وان حظى بالشهرة وانتشار الذكر عند الكثير من الدول المعاصرة له ، وكانت له الكلمة المسموعة حتى عند من جاوره من ملوك الاسبان فضلا عن ملوك الاسلام في المغرب والجزائر وتونس ومصر والحرمين الذين كان له عندهم زائد احترام، فانه في حياته الادبية قد عاش في عصر من ارقى عصور الاداب في الاسلام وخصوصا في المغرب والاندلس ومملكة تلمسان فان الحياة الادبية في عصر ابن الخطيب وان كانت في المغرب اذ ذاك على جانب من الكمال بفضل ملوك بنى مرين الذين كان لهم بالنهضة العلمية فائق عناية وزائد اهتمام فانها في حمراء غرناطة كانت لا تزال منها بقية تذكر بجهودها الاولى في تاريخ الادب ايام كان للمدرسة الاندلسية العز والسلطان والشفوف على بقية البلدان وساعد على تكثف رجال الادب بقاعدة ملوك بنى الاحمر نزول القضاء بالكثير من بلاد الاندلس فكانت العاصمة اذ ذاك هي ملجأ من كانوا منبئين في البلدان من افراد الكمال واقطاب العلم والعرفان وكانت صلة الاخاء محكمة الربط بين اجزاء العالم العربى، وخصوصا بين المملكتين المتجاورتين في فاس وغرناطة، فشاهدت كل منهما من الوفود وخصوصا غرناطة ما كان له الاثر الملموس في ادب لسان الدين الذي بحكم رعاية والده القريب من الدولة كان يحظى بالقرب والاستفادة من تلك المجالس الادبية، وكانت لا محالة تترك في نفسه ما يثير اغتباطه ويذكي نشاطه، فنشأ مغرما بحب العلم كلفا بجمعه وتدوينه متأثرا بالحياة الادبية التي كان لها سلطان على نفسه والتي فيها كان يجد هواه، فلم يسئل عنها حتى في ايام رياسته واقبال الدولة عليه، وقد سجل في كتبه التاريخية ومجاميعه الادبية صورة حية تصور المجتمع الادبى في ذلك العصر، وهى لا تختلف صورة عما عرف قديما مما يدل على ان الوسط الاندلسى في حياته الادبية قد كان لا يزال محافظا على وحدته بعيدا عن آراء اصحاب الملل والنحل والاهواء، لم يغزه ما غزا غيره من الامم الاسلامية باسم الحرية الفكرية، وبذلك اصبح من السهل ادراك مدى تأثره بالعصر الادبى الذى عاش فيه، وانه لما يعسر على الباحث وحديثنا الآن عن اثر عصر ابن الخطيب في تكوين شخصيته ان ينظر هذا الاثر بنفس القوانين التي

رسمها الاستاذ شفيق جبرى فى محاضراته الادبية عن أحد اساطين الادب حيث قال: يجب على من يبحث عن عصر من العصور ان يبين روح هذا العصر العام على حسب ما يعرف من تاريخه، وان يوضح الروح الادبى والروح الفنى فى هذا العصر على قدر ما يعرف من التاريخ الادبى والتاريخ الفنى، يجب عليه ان يقيس (وهذا الامر يكاد يكون ممتنعاً) العوامل التى عملت فى مؤلف من المؤلفين، وان يبين كيف نشأ عقل هذا المؤلف بحسب الكتب التى قرأها فى حياته وبحسب الرسائل التى كتبها وبحسب رأى اهل عصره فيه، يجب عليه ان يبحث عن مجامع الظروف العامة التى كتب فى خلالها ظروف قومه وظروف مكانه وظروف اهله وظروف شخصه

ولعل من الفرق بالقارىء ونحن امام هذه الفروض الوهمية ان نودع الحديث عن هذه المقومات التى نخشى ان تدعو الى متممات قد يأخذ بعضها برقاب بعض، فتبلغ عشرات تتطلب من تسويد الصحائف مئات فقد يذهب علينا الوقت ونحن لم ندخل بعد فى المقصود، فلنجمل عرض هذه الحياة الفذة فى بضع كلمات. الى ابن الخطيب نفسه، يرجع الفضل حيث انه كفانا بما كتبه عن نفسه كلفة الرجوع الى المعاجم التاريخية التى قل ان يرجع اختلاف نسخها وتحريف نصوصها فى ضبط ولادة ووفاة او فى تصحيح خبر ورواية الى وفاق فقد تفضل ابن الخطيب فتطوع بالحديث عن نفسه فى بعض مجاميعه وترك لمن يطلب الاثر بعد العين كلمات عن نشأته الاولى نهج فى تدوينها طريق من تقدمه ومن جاء بعده ممن دونوا أخبارهم وكتبوا تراجمهم كالامام ابن فارس فى السياق والشيخ ابى شامة فى الروضتين وياقوت الحموى فى معجم الادباء، وولى الدين بن خلدون فى العبر والحفاظ الكاملة، ابى حيان فى النضار (١) وابن الجزرى فى طبقات القراء والتقى الفاسى فى تاريخ مكة، وشيخ الاسلام ابن حجر فى قضاة مصر، والشمس السخاوى فى الضوء اللامع، والجلال الاسيوطى فى حسن المحاضرة، والشمس ابن

(١) قال الحافظ : وقفت له على كتاب سماه النضار عن المسلاة عن نضار بخطه فى مجلد ضخم ذكر فيه اوليته وابتداء امره وصفة رحلته وتراجم الكثير من اشياخه واحواله ص ٣٠٧ من رابع مجلدات الدرر الكامنة .

طولون في الفلك المشحون، بل قال الجلال في حسن المحاضرة وقد ترجم نفسه في المجتهدين، وانما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداء بالمحدثين قبلي، فقل ان الف احد منهم تاريخا الا وذكر ترجمته فيه، فابن الخطيب عند ما ترجم نفسه كان على بينة من امره لا يرى عمله الا من باب التحدث بالنعمة التي لم يزهد فيها ولم يتورع عنها اعلام الشرق الذين اليهم يرجع الفضل في تدوين اخبارهم. اما المغاربة فعهدى ببعض مشاهير كتاب العصر ينسب فتح هذا الباب لفخر الشمال الافريقى ولى الدين ابن خلدون، ولا يهمننا الآن البحث في قيمة هذه الاولوية فهذه احاطة لسان الدين وقد كانت بمصر قبل ان يفكر ابن خلدون في كتابة مذكراته، في آخرها مد ابن الخطيب عيونا من فيض بنانه، ونظم عقودا من نور بستانه، وذلك تحت هذه العناوين «اوليتي» ذكر ما صدر لى من التشريقات الملوكية المشيخة «التواليف» الشعر وهى في ترجمة هذا الامام لا تروى غلة الصادى ولا تطرب الحادى دلت باختصارها على تواضع ابن الخطيب الذى طوى في بعض كلمات ما حقه ان يكتب في مجلدات، على ان لسان الدين بعد كتابة هذه الترجمة التى كانت سنة ٧٦٥ وبعد ترجمة اخرى ضمنها نفس العناوين، كتبها بآخر كتاب الاحاطة سنة احدى وسبعين عاد فتنفضل بتسجيل ما تجدد من حوادثه في فصل لعله احسن ما ترك لنا من اخباره وهو الفصل الذى يجده قارئ كتابه اعمال الاعلام فى ترجمته ابى عبد الله محمد بن الاحمر فى القسم المطبوع منه فلندعه الى ان يستدعيه قلم الافادة فى الخاتمة ولنتوج الحديث بالكلمة التى بها افتتح لسان الدين ترجمته فى آخر احاطته تيمنا ببلاغة هذا الامام الذى هو امير دولة الاقلام

يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خطله فى ساعات اضاعها وشهوة من شهوات اللسان اطاعها واوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها. اما بعد حمد الله الذى يغفر الخطية، ويحث من النفس اللجوج المطية، فتحرك ركائبها البطية، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ميسر سبل الخير الوطنية والرضى عن ءاله وصحبه منتهى الفضل ومناخ الطية، فاننى لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذى حمل عليه فضل النشاط مع الالتزام بمراعاة السياسة السلطانية والارتباط والتفت اليه فراقنى منه صوان درر ومطلع غرر قد تخلدت مآثرهم مع ذهاب اعيانهم وانتشرت مفاخرهم مع انطواء زمانهم نافستهم فى اقتحام

تلك الابواب ولباس تلك الاثواب، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو فى الكتاب، وحرصت على ان انال منهم قربا واخذت اعقابهم ادبا وحبا، وكما قيل ساقى القوم ءاخرهم شربا فأجريت نفسى مجراهم فى التعريف وحدثت بها حدوهم فى بابى النسب والتصريف بقصد التشريف والله سبحانه لا يعد منى واياهم واقفا يترحم وركاب الاستغفار بمنكبه يزحم عند ما ارتفعت وظائف الاعمال وانقطعت من التكسيات حبال الآمال ، ولم يبق الا رحمة الله التى تنتاش النفوس وتخلصها وتعينها بميسم السعادة وتخصصها، جعلنا الله ممن حسن ذكره، ووقف على التماس ما لديه فكره بمنه .

رحم الله ابن الخطيب بعد خمسة عشر سفرا، قد يخرج الانسان من كتابتها فضلا عن تدوينها وجمع شتاتها وهو يتصعب عرقا ويشكو الما وأرقا، ويتدفق عجبا ورياء، وينتفخ كبرا وخيلاء، لم يطلب فى مقابلة تلك الاسفار المفنية للاعمار الا الدعاء والاستغفار، وما زاد وهو المتواضع فى سرده حياته على كلمات فلنكبج جماح القلم فى السير فى هذه الوسائل ولندخل مستعينين بالله فى المقصود .

اولية لسان الدين

اما اوليته فهو من بيت عرف فى القديم ببنى وزير، اما لان احد افراده اسندت اليه الوزارة فبقيت العائلة تحمل هذه النسبة كما هو الشأن فى بعض البيوتات التى عرفت بهذه النسبة، واما لنسبة عرفت بهذا اللفظ كما هو المعروف فى بيوتات اليمن التى اليها يرجع اصل الاسرة الخطيبية، فحقق الله صدق ذلك الاطلاق فى هذا الخلف الصالح من الابناء، وايا كان فقد عرض ما نسخ تلك النسبة الاولى بلفظ بنى الخطيب الذى صار النسبة اللازمة لهذه العائلة، وذلك لتولى احد افراد هذه الاسرة النبيلة خطة الخطابة، وهو الجد الاعلى لابن الخطيب، الشيخ الصالح الخطيب سعيد بن على بن احمد السلماني، اما سلمان المنسوب اليه، فقد قال بعض من كتب عن ابن الخطيب من كتاب العصر ان سلمان هو حى من مراد من عرب اليمن انتقل الى الشام، ولا يعرف بالضبط الوقت الذى هاجرت فيه هذه الاسرة من اليمن الى الشام، ثم من الشام الى الاندلس، لكن الظاهر ان الهجرتين كانتا تبعا للموجتين

الكبيرتين، الهجرة الى الشام فى مدة حكم الامويين ايام كانت دمشق حاضرة العرب والاسلام، وحيث كان فيها لليمنيين خاصة مقام محمود، ومنزلة كبرى عند ملوكها، والموجة الثانية الى الاندلس بعد ان فتحها العرب واشاعوا فى البلاد حديث رغدها، فاسرع الناس اليها من كل حذب وخاصة من الشام بدليل تسميتهم بعض بقاع الاندلس باسماء البقاع الشامية وكل هذا ظن، ولكن ما لا ريب فيه ان بيت لسان الدين كان بيت شرف وعلم وسيادة ونفوذ، يقول ابن الخطيب وقد رشح قلمه عن هذه الاسرة الكريمة فى عدة مناسبات من تأليفه وخصوصا فى ترجمته وعند التعرض لخبار والده من احاطته واماطته كان سلفنا بقرطبة يعرفون ببنى وزير وهم بها اهل نباهة وبيتهم بيت فقه وخيرية ومالية ونجارهم نجار فرسان يمانية، ولما كان الفلج للحكم بن هشام على اهل الربض فى الوقعة المشهورة، ونال الامتحان الكثير من اعلام المشيخة بها كالفقيه طالوت، ويحيى بن يحيى الليثى وغيرهم التحق هذا البيت بطليطلة ثم بغيرها، وبعد عهد متقادم رجعوا الى قرطبة بلدهم واستقر الجدد الاعلى بلوشة قاضيا وخطيبا، واقترن اسمه بالتسويد عند اهلها فلا يعرف الا بسعيد الخطيب وكان من العلم والخير والدين والصلاح وذكاء الفطنة بالمحل الذى لا يجهل، قال ابن الخطيب توفى وقد اصيب باهله وحرمه عند تغلب العدو على بلده عنوة، ووقفت على مکتوبات من المتوكل على الله امير المسلمين ابن هود فى غرض اعانته والشفاعة الى الملكة زوجة سلطان قشتالة بما يدل على قديم نباهة، يفيد اثاره عبرة واستقالة عثرة وخلف ولده عبد الله جاريا مجراه فى التجارة والتمعش من حر النشب والتزيبى بالانقباض والتحلى بالنزاهة الى ان توفى وت خلف ولده جدنا الاقرب سعيد، وكان صدرا خيرا مستوليا على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب وادب وهو الذى انتقل الى غرناطة فرارا من ان تصيبه شرر الفتن التى اوقد نارها بنو الطنجالي، فاستأصلت منهم الشافة على انه لم يسلم من ذيولها، فقد اصابته محنة الاعتقال بغرناطة ولكنها صاحبته اللطاف فاعتبه السلطان وصاهر هذا الجدد بعض ذوى البيوتات النبيلة فتأكدت الحظوة وتقرب من باب الامارة فاسندت اليه الاعمال الجليلة والخطط الرفيعة وحاول الملك ان يتخذ منه استاذا لتربية ولده، فاشفقت آلام على الولد من غلظة كانت معروفة فى خلق هذا الشيخ الا ان وصلة جديدة احكمت

الصلة بين قصر الامارة وبيت ابن الخطيب، وذلك بمصاهرة فاسع الجاه، وبعد الصيت واثالث الرؤساء على ابواب هذا البيت وكل تلك المظاهر التي يتنافس فيها العظام وتحول الاخلاق من تواضع الى ترفع واستعلاء لم تزد هذا الجد الفاضل الا تعلقا بالمساكن الذين لم يهنا لاهله طعام لكثرة تردهم الى ان عاجلته المنية في ربيع الآخر من عام ثلاثة وثمانين وستمائة مخلفا وراءه خير سند لبيت بنى الخطيب وهو عبد الله والد لسان الدين عاش هذا الوالد الفاضل كما يقول الولد البار نابتا في الترف نبت العليق يكنفه رعى ام تجر ذيل نعمة وتحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم اذا سرى ففاته بحياة هذا الترف حظ كبير من الاجتهاد على انه عاد فاستدرك بعض ما فات فتلقى عن اعلام وتقدم في معارف ثم انتقل الى بلد سلفه لوشة مقيما للرسم مخصوصا بلقب الوزارة وكان بها محل تجلة واحترام، مرموقا من اهلها بالاجلال والاعظام مقصودا من اعيان الدولة ورؤسائها العظام، ولما قام ابو الوليد بن الاحمر ثاني ملوك بنى نصر يطالب بالملك جعل طريقه على لوشة وطن والد ابن الخطيب وموطن سيادته، فاستعان به على امره، فحطب في حبله وزاد في اكرام نزله وانتقل بانتقال الامير الى قاعدة مملكة بنى الاحمر غرناطة، وهناك تأكدت الحظوة وزادت الرفعة وعلت المنزلة ولم يزل هذا الوالد على مكانته من الدولة الى ان نادته الشهادة فسقط في ميدان البطولة مع ولد له في غزوة طريف التي كانت الكائنة فيها على الراية الاسلامية، وذلك سنة احدى واربعين وسبعمائة، تاركا وراءه جوهرة العقد ومنار البيت وحسب بيت بنى الخطيب مجدا وفخرا وعلو سنا وسناء، ان ينتظم سمط مفاخره لسان الدين، وان يسلك في عقد جواهره هذا الفرد الذي لا يسبك بقرين

وابن الخطيب وان كان في سرد تاريخ هذه الابوة لا يرجع الى كثرة مصادر تاريخية، مكتفيا بوجادات ومرويات ووثائق من ذلك الارث الادبي الذي تتوارثه بيوت الحسب من ظواهر ملوكية ورسوم عدلية، فلسان الدين لسان امانة وصدق فيما يقول وينقل، وقديما ترك لنا الامام النظار ابو عبد الله محمد ابن قاسم القصار شهادة اعترافه بجلالة ابن الخطيب وتلوه في الضبط والاتقان ابن خلدون، وتقدمهما في هذا الشأن وقال غيره على ما في السلوة، اذا قال ابن الخطيب فحذام، على ان ما كتبه ابن الخطيب في معرض الحديث عن اصل اسرته لم يتجاوز فيه

الاخلاق المتواضعة من الوصف بالخير والدين، وقد تعرض الاديب المؤرخ ابو الوليد بن الاحمر فى ترجمته لابن الخطيب وهو من بيت خصومه فوصفه فى كتابه نثير الجمان بقوله ذو الوزارتين الفقيه الكاتب ابو عبد الله محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب عبد الله بن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح ولى الله الخطيب سعيد السلماني، وبصفات المجد والحسب والاصالة والطهر والاكمال حلته الظواهر الملوكية والوثائق التشريعية كما عرف بذلك من معاصريه الثقات فى مخاطباتهم له ورسائهم اليه وامداحهم فيه، فمن فضول القول بعد ما ذكر ان نبحت عن دعامة نحى بها اساس هذا البيت ممن حاول هدمه، فمن رسالة لاحد من حملتهم العداوة الشخصية الى المغالطة فى الحقائق التاريخية يخاطب بها ابن الخطيب: وانت يالوشى من كان من قومكم فى عمد نسبكم نبيها مشهورا وكاتب قبلكم معروفا وشاعرا مطبوعا او رجلا نبيها مذكورا؟ الخ. ويكفى ونحن نرى بهذا الهراء من الكرام ان يسجل ابن الخطيب سبعمائة سنة، قضتها هذه الاسرة الماجدة فى الاسلام ما بين اجتهاد فى العلم والتعبد والجهاد، فارقت من حب الاسلام الاوطان واصاب الكثير من كمالها سهم الابتلاء وسوط الامتحان وسقط بعض من كتب له الشهادة من ابطالها فى ميدان الفرسان من اخرهم والد ابن الخطيب واخوه، فهذا هو الحسب اذا فاخر الناس بالاحساب وراموا الدخول الى اكتساب الفضائل من هذا الباب

ولادة ابن الخطيب ونشأته

كانت ولادة لسان الدين ببلده لوشة على ما للحافظ ابن حجر فى الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة، وذلك فى الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة وهى السنة التى قام فيها ابو الوليد ابن الاحمر مستبدا على ابيه فنزل بلوشة وتملكها فى شهر شوال بمؤازرة الاسرة الخطيبية التى كان على رأسها والد لسان الدين، فكان من مكافأة هذا الملك لهذه الاسرة ان بسط عليها من برد النعمة والسعادة ما رغبها فى العودة الى غرناطة، فتحرك مهد هذا المولود الميمون الطالع بتحريك العائلة، ولم تمض على ولادته اشهر فلم يكن حظ الوطن اللوشوى من هذا الوافد المبارك الا تسجيل سنة الولادة.

اما التربية والنشأة ففي دار الملك غرناطة، ففي حجر النعمة والسعادة
 تربى، وفي قصور الكرامة شب وترعرع، نشأ على ما ينشأ عليه ذوو
 البيوتات الذين يجمع الله لهم بين رياسة الدين وسياسة الدنيا، فبكر
 به النبوغ ورافقه التوفيق، فلم تأت السنة التي ودع فيها والده الحياة
 وهي سنة احدى واربعين وسبعمئة، ولما يكتمل لسان الدين من عمره
 الثلاثين، حتى كان قال عن نفسه مات الوالد فخلفني على الدرجة،
 شهير الخطة، مشمولاً بالقبول، مكنوفاً بالعناية، وان تعدوا نعمة الله لا
 تحصوها، فقلدني السلطان كتابة السر، ولما يجتمع الشباب ونستكمل
 السن، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة، واستعملني في السفارة الى الملوك
 واستنابني بدار ملكه ورمى الى بخاتمه وسيفه، واثمنني على صوان
 خزانته وذخيرته، وبيت ماله وسجوف حرمه ومقل امتناعه، ومن فصول
 مشوره واطلقنا يده على كل ما جعل الله لنا النظر فيه، ومن ادرك قيم
 هذه الولايات في سياسة الملك ورياسة المملكة اذ ذاك لم يعد في حاجة
 الى التدليل على مواهب هذا النابغة الذي بكر به السن، فادرك بثاقب
 فكره، ورجاحة عقله وبعد همته وكفاءة اقتداره ما لم يظفر به غيره من
 كبراء الدولة، ووجهائها الذين لن يسلم من كيدهم وحسد هم ألا من كان
 في اخلاق ابن الخطيب، واوتى فضل دهائه، ومع اقبال الايام عليه في
 هذا السن الذي من شأنه ان يطغى بقوة الشباب على صاحبه فينسيه
 واجب نفسه عليه، فان همة الطلب من نهم ابن الخطيب لم تعرف ركوداً
 فكان من بين اعلام عصره كقوة متحركة يقطع معظم وقته في مذاكرة
 الاخوان، ومساجلة الاقران، ومباحثة الائمة الاعلام، يشعر وينثر ويخطب
 ويكتب ويراسل وينظر ويجمع ويؤلف ويحفظ ويستظهر في حرص وهيام
 وهمة لا تقاد بزمام، وقد يشعر احياناً بزائد رغبة لا يغذيها المحيط الذي
 يعيش فيه، رغم ما سخر الله له من اقطاب الادب الذين كانوا ينسلون الى
 دار المملكة من كل حذب، فكان يرفه عن نفسه ويطفئ غلة هيامه
 بمكاتبة من شطت به الدار، وبعد عنه المزار، فكاتب عظاما واعلاما في
 الحرمين الشريفين ومصر وتونس وتلمسان والمغرب على كثرة امصاره
 ومطالع اقماره، فكان الوافدون على دار الملك غرناطة من مختلف الاقطار،
 كأنهم نقال بريد، الى هذا الامام يحملون اليه من الرسائل المحشوة
 بغرر الفوائد والمسائل ما يسد جوعته ويروى غلته، فكان ابن الخطيب
 من معاصريه كأنه القطب الذي تدور حوله الافلاك، والمحرك الذي يمد

بنسوره الاسلامك، ولقد صدق ابن الخطيب فى التعبير عن هذا المعنى بقوله فى رسالة بعث بها الى مخدومه عند مغادرته الاندلس، زهدا فى الرياسة وحبا فى الخلوة والعبادة، ان ابن الخطيب مشهور فى كل قطر وعند كل ملك واعتقاده وبره والسؤال عنه وذكره بالجميل والاذن فى زيارته حنانة منكم وسعة درع ودهاء فانما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ثم اقشعت، وترك الازاهر تفوح، والمحاسن تلوح، ومثله معكم مثل المرضعة ارضعت السياسة والتدبير الميمون، ثم رقدتكم فى مهد الصلح والامان وغطتكم بقناع العافية، وانصرفت الى الحمام تغسل اللبن والوضر، وتعود فان وجدت الرضيع فحسن او قد انتبه فلم تتركه الا فى حد الانقطاع، وهو فصل من رسالة ساقها ابن خلدون فى مذكراته المطبوعة بهامش المقدمة ص ١٨٧، ولقد صدق رحمه الله وابدى فى التشبيه بسحابة الرحمة، فلقد كان اعظم من زمانه وهو فى كمال نشأته اكبر من ان يستدل عليه، فلنرجى بقية الحديث الى معارفه.

القاب ابن الخطيب

فاما التلقب بلسان الدين فلا نعلم فى الالقاب التى اضيفت الى الدين من القاب الاندلسيين والمغاربة بالخصوص لقبا يطلق مجردا عما يميز صاحبه فيراد به شخص معين كانه علم بالغلبة عليه الا لسان الدين الذى يطلق شرقا وغربا مضافا الى صاحبه او مجردا فلا يراد به الا فخر الاندلس ابن الخطيب، منحة من نعم الله على لسان هذه الامة، ومظهر من مظاهر القبول فى صدق هذا الاطلاق، وقيام المراد منه بصاحبه الذى بحق كان للدين لسانا ولدولة الادب سلطانا، ولسنا نعلم على جهة الضبط الوقت الذى حمل فيه ابن الخطيب هذا اللقب التشريفى الذى لم يكن التلقب به وبامثاله مما يضاف الى الدين كثير الانتشار فى بلاده كاشتهاره فى بلاد الشرق، ولكنه لا يبعد ان يكون من تلك الحكم الذى ينطق الله بها لسان بعض المصطفين من عباده، اطلقه على امام النثر والشعر فى هذه الامة، فأصبح وصفا لازما له، عرفه الناس به فى حياته، ثم خص به بعد وفاته فلا ينصرف عند الاطلاق الا اليه بخلاف غيره من الالقاب المضافة الى الدين التى أغضبت اعلاما وتأول لها آخرون، فانه

قل فى الامة من يمتاز بلقب لا يشاركه فيه غيره الا بقرائن واصطلاحات، وقد تدل على العكس من مدلولها فتكون بالسخرية بصاحبها عند مناداته بها اولى منها بالمعنى المراد الذى يرخص فيه من رخص الا حبا فى التفاؤل الحسن، وان يكون فى قافلة هذه الامة من هو للدين شمس وبدر ونجم ونور وسراج وجلال وجمال وكمال وعلم وصلاح وحجة وبرهان، وهى القاب توسع الشرق فيها وتفتن دون الغرب حتى ضج الدين من هذه المهازل، فأنشده قائل على لسانه :

طلع الدين مستغيثا الى الله وقال العباد قد ظلمونى
يتسمون بى وحقك لا اعرف منهم شخصا ولا يعرفونى
وقد افاد صاحب صبح الاعشى عن تاريخ التلقيب بالاضافة الى الدين، وان ذلك فى ايام القادر بالله العباسى الذى صدر التلقيب فى عهده لبهاء الدولة باطلاق لقب نظام الدين عليه، وكانت هذه الالقاب من الالفاظ التشريعية التى تخلع على من يستحق المكافأة من ذوى المناصب العالية، ولكن توسع فيها حتى تعاطاها السوق ومن فى معناهم، وهى فتنة الصقها المغرمون بهذه الالقاب بالدين، ولكنها لم تنتشر فى المغرب كما هى عليه فى المشرق، ولذلك لما فتح عليهم باب الانتقاد صاحب المدخل كان حظ المغاربة من نقده فيما يرجع للاسماء من قلب ونحت وتصغير ما يستحق التعظيم فبالغ فى نقد الجميع بما ترك فيه للشهاب الخفاجى فى الريحانة مجالا للتعقيب وفتح باب التأويل، ولقد احسن ابن الخطيب واجاد فى التعبير كما قال فى ترجمة نفسه من احاطته عند التعرض للقبه وألقب من الالقاب المشرقية بلسان الدين، فلا يبعد ان يكون هذا اللقب من هدايا كتاب الشرق اليه فى بعض رسائلهم رأى احباؤه قيام معناه به ففاضت به الالسنه والاقلام وخطب به من ائمة اعلام، وربما تفتن بعضهم فى التعبير كابن خلدون الذى يعبر عنه فى عبره بلسان الملة والدين، فهنيئا لابن الخطيب بهذه المنقبة التاريخية، فليس تحت اديم السماء من ينصرف اليه هذا اللقب عند الاطلاق سواء .

ذو الوزارتين (١)

هذا لقب من القاب الدولة اشتهر به ابن الخطيب شهرة وان لم تحلق في جو التلقب بلسان الدين فلن تقل عن (ذو الرياستين) (٢) الذي عرف به احد وزراء دولة بنى العباس، وهو في العادة يطلق على من جمع له بين وزارتي السيف والقلم، فلذلك كان يحمله جماعة ممن سبقوا ابن الخطيب كابن زيدون وابن أبي الخصال وابي بكر بن الحكيم ومقاتل بن عطية البرزالي وابي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن الحكيم وغيرهم، والذي دعانا الى الكتابة عن هذا اللقب في اخبار ابن الخطيب مع شهرته وتعدد الافراد الموصوفين به هو الرغبة في بيان المعنى المراد منه حيث ان هناك ممن ترجم لابن الخطيب من تعرض لبيان معناه، فقد ظن المؤرخ الكبير ابو الفضل ابن ابراهيم في كتابه الاعلام مقتفيا اثر الشيخ الامام صاحب سلوة الانفاس ان سبب تلقب ابن الخطيب بذى الوزارتين هو ولايته الوزارة في عهد ابي الحجاج يوسف ابن اسماعيل ثم في عهد ولده ابي عبد الله فاستحق بذلك لقب (ذو الوزارتين) ولعل المتعلق بهذا البيان لن يتردد في التلقب بذو الوزارتين لمن واتاه الحظ فتولاها عن ثلاثة ملوك، ولا نحسب هذا الفهم الا من تلك التأويلات التي يملئها العقل قبل الكشف عن المعنى الحقيقي في مظان البحث، ويكفي الباحث في مدلول هذا اللقب قول احد الكتاب يصف ابن الخطيب حائز رتبة السيف والقلم، بل في كلام ابن الخطيب نفسه ما يشير الى المعنى المراد منه، حيث قال في ترجمة ذى الوزارتين ابي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن الحكيم، قلده السلطان ابو عبد الله محمد بن محمد بن نصر الكتابة، فأقام يكتب عنه الى ان توفي هذا السلطان وتقلد الملك بعده ولي عهده، فقلده الوزارة والكتابة واشرك معه في الوزارة ابا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني، فلما توفي ابو سلطان افرده السلطان بالوزارة ولقبه ذا الوزارتين، وصار صاحب امره، وهذا الايضاح الذي يرشد الى المعنى المقصود من لقب ذى الوزارتين في القاب الدولة هو المستفاد كذلك من نفس الوثائق التي

(١) في ص ٢٦٦ من كانت الخ.

(٢) في ص ١٤٢ من غرر الخصائص الخ.

خلفها ابن الخطيب عن نفسه فى اللوحة والاحاطة، واعمال الاعلام وان كانت فى تاريخ التلييب لا تقضى الى تدقيق فقد تدرج ابن الخطيب الى رئاسة الدولة بالطرق المعهودة اذ ذاك التى طريقها الحنكة وطول التجربة، والاغلب على الظن ان وزارة القلم قد قلدها عقب وفاة شيخه فخر الكتاب ابنى الحسن بن الحباب الذى كانت وفاته سنة تسع واربعين وسبعمائة فى عهد السلطان ابنى الحجاج يوسف، وسن لسان الدين دون الاربعين باضافة ولايات وتشريفات اليها، اما ثانية الوزارتين وهى ما يقابل اليوم صدر الوزارة فلعل تحقق ابن الخطيب فى هذا المنصب لم يتم الا بعد وفاة الحاجب الصالح رضوان، ورجوع ابن الخطيب الى الاندلس عقب المحنة، وذلك فى سنة ثلاثة وستين وسبعمائة فقد اثبت ابن الخطيب فى احاطته نص ظهير ملكى مؤرخ بثنائى رمضان من عام ثلاثة وستين، من جملة فصوله لما كان مدبر ملك المولى ابيه وظهره الذى لم يزل يدنيه ويصطفيه، وعماده الذى القى اليه مقاليد الملك حين علم انه صدر الاولياء، وواسطة السلك ووزيره الذى اعتمد بارادة امره وركن الى مناصحته فى سره وجهره، وقلده نجاد الوزارتين، وحلاه بحلى الرياستين، فاكتفى منه عن الاثر بالعين ونشر له لواء الولايتين، فتلقته يمينه وقام مضطلعا بامر قىام الاسد دون عرينه، وحين انعقد هذا الامر العلى قام بسياسة ملكه احسن قيام، واوفاه واداره فأصاب فى ادارته مرمى السداد الذى لم يوافقه الا اياه، واستولى فى هذه الميادين على غاية الكمال، واضطلع بالرياسة والسياسة اضطلاع افراد الرجال، ولم يزل يدفع عن حماه وينب عن حوزته بما يحبه الله ويرضاه حتى انتظمت بالسعود المنيفة اسلاكه الخ .

ويكفى هذا الفصل فى التنويه بهذا اللقب فانه كالشرح لمعناه والمرشد لبيان مبناه، وان ابن الخطيب مع نباهته وجلالة مكانته ابطأ به طالع سعده وطائر يمينه، فلم يحظ به الا بعد ان قارب الخمسين على ان الزهد فى الرياسة والالقب كان قد تمكن اذ ذاك من قلب لسان الدين وملك عليه حب الخلوة والتخلى عن السياسة هواء، ولكنه رزق مقسوم وقضاء نافذ ولكل امرئ ما نواه

ذو العمرين

قدر لابن الخطيب أن يكون غريبا حتى فى القابه، فذو العمرين وهو من ألقاب اللسان، قد يطير به فرحا من يعنى بالذيل والاستدراك على مجموع من عاش بعد الموت، فيضم اسم ابن الخطيب الى أولئك الذين اتسع لهم من قدرة الله فى خرق العوائد، ومخالفة المألوف ما ليس فى اخبار ابن الخطيب بمعروف، وعلى رسلك أيها الناقد، فلسنا فى سرد تاريخ ابن الخطيب على موعد من جلب الخوارق، وسلوك نهج تلك الطرائق والحقائق، وانما هو مرض السهاد وداء الارق اصيبت به عافية هذا الامام، فتأوله الناس بعمر ثان له، فقد قال لسان الدين فى كتابه الوصول لحفظ الصحة من الفصول العجب منى مع تأليفى لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب، وعلمى لذلك لا اقدر على مداواة داء الارق الذى بى، ولعل هذا المرض من العلل التى رافقت صحة لسان الدين، فكثيرا ما يجرى ذكره فى احاديثه واشعاره كقوله فى فاتحة احاطته، لقد اتخذت الليل رحلا لهذه المطية، وامتنيت العزم ونعمت المطية بحيث لا مؤانس الا ذبال يكافح جيش الدجى، ودفاتر تلقح الهجا وخواطر تبتغى الى سماء الاجادة معرجا، واذا صحب العمل صدق النية اشرفت من التوفيق كل ثنية، وطلعت من السداد كل غرة سنية ثم قال وقد بذلت فيه جهدى، واقطعته جانب سهدى، وقال فى آخر القسم الاول من اعمال الاعلام وفى عشرين يوما كان الفراغ من هذا الجزء من تبويض وتدوين ونسج وتكوين والحبر رجراج والمعين قلم وسراج والمساعد انفراد والمؤانس فكر ذو سهاد، والغريب من هذه العلة التى يصحبها فى الغالب انحلال فى العصب واختلال فى النظام وتكاسل فى الاعمال، انها لم تستطع التأثير على همة لسان الدين ولم تفت فى عزمه وحيويته، فقد استطاع ان يصمد لها وان يستخدمها للصالح العام، فكانت من العوامل التى اعانت على هذا التراث الادبى الذى لم يدون ابن الخطيب الكثير منه الا فى دجى الليل، اما نهاره فقد كان للدولة يبدل من نفسه المستحيل لعلاج الامراض وحفظ الانقراض من الانقراض، وبهذه الاعمال التى تنمو بحملها اعمار، والتى وهب لها ابن الخطيب الحياة كلها، فاستغرقت سواد الليل وبياض النهار، دعى بذى العمرين واستطاع الباحث ان يدرك الاسباب التى اعانت اديب هذه الامة على جمع آثاره

الادبية وانه قد انفق من راحته عمرا ثانياً به استطاع أن يخلف اروع
صفحة فى تاريخ الادب الاندلسى، ولا نريد ان نصطدم بنظرية الطب فى
ما قرره حول النوم وامكان الاستغناء عنه، ونحن نسجل بحكم المؤرخ
هذه الظاهرة الشاذة من حياة لسان الدين، فنجلب من حوادث التاريخ
ما يضيف الى التجويز العقلى الواقع العملى، ولكننا وقد رفضنا اليد من
قراءة بحث النوم فى الدائرة وهو من ابحائها الممتعة، يكفى للجمع بين
نظرية الطب والواقع ان نترك للاغفاء حق زيارة ابن الخطيب وهو فى
ارقه وسهاده بها كان الجسم يستريح من كد العمل، وللناس من النوم
واليقظة طبائع تختلف باختلاف احوالهم وتفاوت اسنانهم وعوائدهم،
وقديما كان الثقة من المؤرخين لا يترددون فى تسجيل من استغنى عن
الطعام وصلى الصبح بوضوء العتمة عشرات الاعوام، فليتسع لنا من قلم
النقد فى تسجيل هذه النادرة التاريخية ما اتسع لاولئك الاعلام، وقد قال
الاستاذ محمد كرد على فى المقتبس، لقد ساعد ابن الخطيب على اعماله
انه كان مبتلى بالارق يسهر الليل الا اقله، ولذلك قيل له ذو العمرين
لانه كان يعمل فى ليله كما يعمل فى نهاره، فلا عجب بعد هذا ان عدت
مصنفاته بستين مصنف لو خلف بعضها عالم انقطع للعلم جملة لعدت
غريبة فى بابها، فما بالك بابن الخطيب يتولى امور الناس، والاندلس
قد اشرفت على السقوط والفتن بين الامراء على ساق وقدم، والدسائس
عليه من كل جهة وهو يكتب ويفكر، ولعل فى كلام هذا الفاضل مع طوله
ما يدعونا الى اقفال الباب عن السهر والارق والعمرين والاعمار، فان
لله فى خلقه اسراراً تحير العقول والافكار

ذو الميتين

من عاش عمرين لا يستغرب فى حقه ان يموت مرتين، ولكن هذا
اللقب والذى بعده هما بالاولصاف اشبه منهما بالالقاب، راقى هذه
الاضافة الى التثنية جماعة ممن ترجموا لسان الدين فنظموا من نظائر
حوادثه على هذه الصيغة ما ساعدهم عليه الواقع، وان هذا اللقب والذى
بعده لمن شظايا تلك الفجعة التى ودع التاريخ بها حياة هذا الشهيد،
فان الجنة الذين تولوا كبرها لم يطف نار غيظهم ما دبروه من وسائل
مخرية لازهاق حياة هذا الفاضل، فقد أبت وحشيتهم الا تلويث اليد من

جديد، فنبشوا القبر، والقوا بالشهيد فى اتون من نيران آحقادهم وعياداتهم، فلتعدد هذا العمل الوحشى الذى كل واحد منهما مميت بنفسه ميتة الخنق وميتة الحرق وصف الشهيد بصاحب الميتين، لبقى اللقب حاملا لذكرى هذه المأساة التاريخية، فلا يذكر الا مصحوبا بصورة من تلك القلوب الفولاذية التى هانت عليها الكرامة الانسانية فى الحياة وبعد الممات .

ذو القبرين

هذا خامس سلسلة الالقاب وخاتمة ما عندهم فى هذا الباب، دعى به ابن الخطيب لان اعداءه تجرؤوا على نبشه بعد ما دفن اولا، ثم اعيد الى قبره فلقب بذى القبرين، وقد اغرب صاحب البدر الطالع بمحاسن من جاء بعد القرن السابع وهو الحافظ محمد بن على الشوكاني، فظن ان هناك من يقول ان الارض تعاظمت ذنب ابن الخطيب فلفظته بعد دفنه، فاحتاج الى التأويل بنسبة ذلك الى بعض اعدائه، ولا نظن ان فى المؤرخين من سبق الى ذهنه هذا الوهم، بل الكل مجمع على ان ذلك من فعل اعدائه به زيادة فى ابتلاء من اختاره الله للشهادة، فلو كتب للارض ان تنشق عن جثة هذا الشهيد وقد صعدت الروح الى مستقر شهداء المحنة والابتلاء من هذه الامة، فلن يفهم من ذلك الا أنه اعلان خرى من بارىء الخلق على اولئك العتاة الذين تملى لهم الايام ليزدادوا اثما ويتخذون من امهال الله لهم اداة للبطش والانتقام وعين الله عنهم لا تنام .

ذو اللسانين

هذا ما تكلفناه فحشرناه فى هذه الالقاب لا زيد من وراء ذكره فائدة تاريخية اختلسناها من معارف لسان الدين، فان هذا اللقب فى الغالب يخلع على من يجيد النطق بلغتين، وابن الخطيب وان كانت له الامامة فى معرفة لغته فهو لتعشقه للمعارف قد يجرى فى كلامه بعض الفاظ اجنبية، ثم يتولى شرح معانيها، وهى وان لم تكن من الكثرة بحيث تسترعى الانظار وتستدعى الالتفات فان بعض المستشرقين، من الباحثين فى معارف ابن الخطيب قد اهتم بها ودعته الى البحث عن

مقدار صلة ابن الخطيب بلغة جيرانه، وان رجلا يدير سياسة الدولة كابن الخطيب الذي كان يبذل المستحيل من نفسه لاعادة مجد اضاعه اهله، لا يستغرب في حقه ولا هو ببعيد عن همته ان يستعين على مراده بمعرفة لغة الخصم، ويكتفى بنفسه عن الترجمة والعيون في قراءة ما يرد عليه من اسرار الدولة، وما يرفع اليه من القرارات الخطيرة الا ان خلو اليدين من الوثائق الكافية تجعلنا على شك من هذه المنقبة التاريخية هو الى السلب منها اقرب منه الى الايجاب لان نطق الانسان بكلمات من لغة اجنبية لا تقوم مقام الحجة على حذقه لتلك اللغة كما ان تعرض ابن الخطيب لآخبار المعاصرين ومن تقدمهم من دول الاجانب لا ينهض دليلا على ان وراء تلك المعرفة التاريخية الماما بلغة اجنبية بها كان يستعين على ابحاثه، فان التاريخ دروس تملئها الحوادث والايام فيسجلها كل من له بالتدوين اهتمام، على ان ابن الخطيب قد كشف النقاب عن وجه هذا البحث، وافاد بانه في الفصل التاريخي عن جيرانه المكتوب في القسم الثاني من اعمال الاعلام قد استعان بما كتبه له طيب دار قشتالة واستاذ علمائها يوسف ابن وقار الاسرائيلي الطليطلي ايام وفادته سفيرا عن سلطانه، وليس ببعيد ان يكون اذ ذاك في موظفي الدولة من كان ينطق ويكتب بلغات لداعى الحاجة الى من يترجم الرسائل المتبادلة مع الدول المجاورة يستعين به ابن الخطيب على فهم معانى بعض الكلمات، كقوله في وصف احد ملوك قشتالة، وكان مونجا اى صالحا عابدا وكالتوفيق بين التاريخ العربى والتاريخ المسيحى وهذا كثيرا ما يستعمله ابن الخطيب وان كان فى الرجوع الى الحساب ما يغنى عن الترجمان، ولولا سعة صدر ابن الخطيب وتعشقه للكمال ووزنه الاشياء بميزان العدل والانصاف، لقلنا ان الاوساط اذ ذاك ربما كانت لا تنظر بعين الارتياح لمن ينطق لسانه بغير لغة القرآن، ولو قدر لابن الخطيب ان يكون من لغة جيرانه بالمنزلة التى تمنها او تساءل عنها هذا الباحث المستشرق لسلقته اللسنة التى قامت تبحث عن عيوبه بعد مفارقتها للاندلس وتواخذه، بما هو دون تعلم لغة الجيران، فلنترك ابن الخطيب للغته العربية وحدها حتى يقوم على معرفته بغيرها البرهان .

شيوخ ابن الخطيب

لبعد همة لسان الدين فى الجمع والتدوين واهتمامه بواجب شيوخه عليه، اسرع فأدى حق هذا الدين فى عدة فهارس نظم نفسه بتأليفها فى سلك أعلام الرواية والاسناد من محدثى هذه الامة الذين لهم فى باب الفهارس والاثبات الآيات البينات والغر المحجلات، ولسنا نعلم المدى الذى انتهى اليه احسان ابن الخطيب فى اخبار الشيوخ وسرد ما له عنهم من مروي ومسموع لان الصلة بهذه الفهارس الخطيبية لا تزيد على السماع والوقوف على انقال منها فى جذوة الاقتباس وروض تاريخ مكناس، على ان ابن الخطيب فى نشر محاسن شيوخه لا يوصف بتقصير ولا يذكر بتقتير، ففى غير هذه الفهارس التى لا تزال من الحجب المستورة نلتقى بالكثير من اسمائهم والمفيد من احوالهم، وما كتب ابن الخطيب التاريخية الا سمط الجوهر الفاخر ومادة بحرهم الزاخر، وان نفاضة الجراب منها بالخصوص لترسم لنا صورة عن حياة ابن الخطيب العلمية التى قضاها فى احضان الشيوخ وبين افراد الكمال من زهاد ذلك العصر واعلامه، يجمع ويستفيد، ويقيد ويفيد، ويكتب ويراسل، وينظر ويحاضر، ويذاكر ويساجل، ويجيز ويستجيز، فى همة لا تضعف، وعزيمة لا تركد، وعلى كبر سنه، وجلالة محله، وامامته فى المعارف التى فاق بها معاصريه، وشهد له فيها بالتبريز اعداؤه قبل مناصريه، كان لا يتأخر عن التردد على الشيوخ، ولا يتردد فى مكاتبة من شطت به الدار من اهل الفهم والرسوم، وبهذا العشق والهبام اجتمع فى اشياخه واصحابه من اعيان البيان، واقطاب الكمال، وافراد الحفاظ، وكبار النظر ما خرج بكثرته عن نطاق محيطه، وفاق به كبار معاصريه، وقد نظم ابن الخطيب من جمعهم المنبت فى الحجاز ومصر وتونس وتلمسان والمغرب والاندلس شمل بعض اسمائهم عزز بها اخباره من احاطته، فلنتوج الحديث عن شيوخه بما ذكره تحت عنوان المشيخة، قال رحمه الله، قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيج وحده فى تحمل المنزل حق حمله تقوى وصلاحا وخصوصية واتقاناً ونعمة وعناية وحفظاً وتبحراً فى هذا الفن، واطلاعا على رغائبه واستيعابا لسقطات الاعلام الاستاذ الصالح ابى عبد الله بن عبد الولي العواد، تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا الى مقروءات ابى عمرو رحمه الله عليهما، ثم نقلنى الى استاذ الجماعة ومطية

الفنون ومفيد الطلبة الشيخ الخطيب المتفنز ابى الحسن على القمىحاطى،
فقرأت عليه القرآن والعربية، وهو اول من انتفعت به، وقرأت على
الخطيب الحسيب الصدر ابى القاسم بن جزى رحمه الله ولازمت قراءة
العربية والفقه والتفسير على الشيخ الاستاذ الخطيب ابى عبد الله ابن
الفخار الالبيرى الامام المجمع على امامته فى العربية المفتوح عليه من
الله حفظا واطلاعا ونقلات وتوجيها بما لا مطمع فيه لسواه، وقرأت على
قاضى الجماعة الصدر المتفنز ابى عبد الله أبى بكر رحمه الله، وتأديت
بالشيخ الرئيس صاحب القلم الاعلى الصالح الفاضل ابى الحسن بن
الجباب، ورويت عن الكثير ممن جمعنى واياهم الزمان بهذا القطر من
اهل الرواية، كالمحدث ابى عبد الله بن جابر، واخيه ابى جعفر، والقاضى
الشهير الشيخ بقية السلف شيخنا ابى البركات بن الحاج، والشيخ
المحدث الصالح ابى محمد بن سلمون، واخيه القاضى ابى القاسم
سلمون، وابى عمرو بن الاستاذ ابى جعفر بن الزبير، وله رواية
عالية، والاستاذ اللغوى ابى عبد الله بن بيبش، والمحدث الكاتب ابى
الحسن التلمسانى المسن، والحاج ابى القاسم بن المهنى الملقى،
والعدل ابى محمد السعدى تحمل عن الامام ابن دقيق العيد، والقائد
الكاتب ابن ذى الوزارتين ابى بكر ابن الحكيم، والقاضى المحدث
الاديب جملة الظرف ابى بكر بن شبرين، والشيخ ابى عبد الله بن عبد
الملك، والخطيب ابى جعفر الطنجالى، والقاضى ابى بكر بن منظور،
والراوية ابى عبد الله ابن حزب الله كلهم من مالقة، والقاضى ابى عبد
الله المقرئ التلمسانى، والشرىف ابى على حسن بن يوسف، والخطيب
الرئيس ابى عبد الله بن مرزوق كلهم من تلمسان، والمحدث الفاضل
الحسيب ابى العباس بن يربوع، والرئيس ابى محمد الحضرمى
السبتيين، والشيخ المقرئ ابى محمد بن ايوب الملقى آخر الرواة
عن ابن ابى الاحوص، وابى عثمان بن ليون من اهل المرية، والقاضى
ابى الحجاج المنتشافرى من اهل رندة، وطائفة كبيرة من المعاصرين
تحملوا وتدبجوا ومن اهل العدو الغريبة والمشرق وافريقية الكثير
بالاجازة، واخذت الطب والتعاليم والمنطق وصناعة التعديل عن الامام
ابى زكرياء بن هذيل ولازمته، قال ابن الخطيب عقب ما ذكر وهذا على
سبيل الالمام، ولو تفرغت لذكر افذاهم لخرج هذا التأليف عما وضع
له انتهى ما اورده فى مشيخته مجملا وهم نيف وثلاثون شيخا من كبار

مشائخه يندر فيهم من لم يترجمه ابن الخطيب في احاطته ترجمة تدل على جلالة وتقدم في المعارف وامامة وفي اخبار بعضهم من استغرق عشرين صفحة فأكثر.

وقد لقي باب المشيخة من الامام المقرئ زائد عناية فاستغرق من ترجمة ابن الخطيب من النفح نحو ثلثها كان نصيب القاضي ابي عبد الله المقرئ وهو من شيوخ ابن الخطيب نحو الستين صفحة، على ان النفح لم يستوف التراجم كلها، ولم يستدرك من اسماء مشايخه الا افرادا ممن التقى بهم ابن الخطيب في رحلته المراكشية ايام كان بالمغرب، كالشيخ الفقيه القاضي بمكناسة الزيتون ابي محمد عبد الحق بن سعيد، والشيخ الفقيه يونس بن عطية الوائشريسي، والفقيه الاصولي ابن عبد الله محمد بن احمد بن ابي عفيف، والاستاذ النحوي ابي علي عمر بن عثمان الوائشريسي، والاديب الاخباري ابي جعفر احمد بن محمد بن ابراهيم الاوسى الجنان، والقاضي ابي عبد الله بن ابي رمانة، والفقيه الشاعر العدل ابي علي الحسن بن عثمان بن عطية الوائشريسي، والشيخ الزاهد ولي الله ابي العباس بن عاشر، وكالامام ابي اسحاق ابراهيم بن عبد الرحمن بن ابي بكر التسولي التازي اخذ عنه ايام وفادته على غرناطة في سفارة، وشيخ الجماعة القاضي ابي عبد الله الشريف الغرناطي الشهير، وامام الفتوى ابي سعيد فرج بن قاسم بن احمد بن لب، هذا العدد هو كل ما استدركه المقرئ في باب مشايخ لسان الدين، على ان الامام ابن لب وهو من اقران لسان الدين ليس في ترجمته من الاحاطة ما يفيد اخذ ابن الخطيب عنه وان كانت عادته عدم التصريح بلفظ المشيخة في الكثير من التراجم التي يدل السياق على ان اصحابها من شيوخه، وبذلك تركنا اسماء ائمة عظام من حقهم على ابن الخطيب وعلى من يعنى باخباره ان تسجل اسمائهم في باب الشيوخ لما لهم عليه من فضل في حسن تعليمه وتقويم اخلاقه.

وقد وقع الاهتداء الى اسماء رجال دلت القرائن على انهم من اشياخ لسان الدين فرأينا من اقام الفائدة ان نلحقهم بهذا الفصل، فمنهم الامام النظار اوحده الفضلاء ابو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي ترجمه في الاحاطة ترجمة حافلة واثني على امامته في علمي المعقول والمنقول ومشاركته في الكثير من الفنون وتقدمه في فني المنظوم والمنثور وانه سأل كتابه مشيخته فكتب بما دل به على جودة قريحته ومعرفة صحيحة، وفي آخر

الترجمة يقول منصور بن علي الزواوي، اجزت صاحبنا الفقيه المعظم ابا عبد الله بن الخطيب واولاده الثلاثة عبد الله ومحمدا وعليهما اسعدهم الله جميع ما يجوز لي وعنى روايته، ومنهم الشيخ الاديب ابو عبد الله اللوشي وصفه بشيخه في ترجمة الامير محمد بن يوسف النصري من الاحاطة ص 60 ثم ترجمة في ص 197 ناقلا ترجمته عن كتابه عائد الصلة والتاج المحلي واصفا له بالاجادة والتقدم في فنون البلاغة وكانت وفاته في عشرى ربيع الثاني من عام اثنين وخمسين وسبعمئة، ومنهم الامام ابو جعفر احمد بن ابراهيم بن احمد بن صفوان المالقى المعروف بابن صفوان وصفه في الاحاطة بقوله: بقية الاعلام من ادباء هذا القطر، وصدر من صدور كتابه ومشيخة طلبته، ناظم ناثر، عارف، ثاقب الذهن، قوى الادراك، اصيل النظر، امام في الفرائض والحساب والادب والتوثيق، ذاكر للتاريخ واللغة، مشارك في الفلسفة والتصوف، ملم بالعلوم الالهية، آية الله في فك المعمى لا يجاريه احد في ذلك ممن تقدم شأنه عجيب، ثم قال بعد صفحات جمعت ديوان شعره ايام مقامي بمالقة عند توجهي صحبة الركاب السلطاني الى اصراخ الخضراء عام اربعة واربعين وسبعمئة وقدمت صدره بخطبة وسميت الجزء بالدرر الفاخرة واللجج الزاخرة وطلبت ان يجيزنى وولدى عبد الله رواية ذلك فكتب بخطه الرائق بظهر المجموع ما نصه :

الحمد لله مستحق الحمد، اجبت سؤال الفقيه الاجل الافضل السرى الماجد الاوحد الاحفل الاديب البارع الطالع فى افق المعرفة والنباهة والرفعة المكننة والوجاهة بابهى المطالع المصنف الحافظ العلامة الحائز فى فنى النظم والنثر واسلوبى الكتابة والشعر رتبة الرياسة والامامة، محلى جيد العصر بتوليفه الباهرة الرواء ومحاسن بنيه الرائقة على منصة الاشادة والانباء، ابى عبد الله بن الخطيب، وصل الله سعادته وحرس مجادته، وسنى من الخير الاوفر والصنع الجميل الابهر قصده وارادته، وبلغه فى نجله الاسعد وابنه الراقى بمحتده الفاضل ومنشئه الاظهر محل الفرقد افضل ما يؤمل نجلته اياه من المكرمات وافادته واجزت له ولابنه عبد الله المذكور ابقاهما الله تعالى فى عزة سنية الخلال وعافية ممتدة الافياء وارفة الظلال، رواية جميع ما تقيد فى الاوراق المكتتبة على ظهر اول ورقة منها من نظمى ونثرى، وما توليت انشاء واعتمدت بالارتجال والرواية اختياره وانتقاه ايام عمرى، وجميع مالى من

تصنيف وتقييد، ومقطوعة وقصيد، وجميع ما احمله عن اشياخى رضى الله عنهم من العلوم، وفنون المنثور والمنظوم، بأى وجه تاذى ذلك الى، وصح حملى له وثبت اسناده لدى، اجازة تامة فى ذلك كله عامة، على سنن الاجازة الشرعى، وشرطها المأثور عند اهلها المرعى، والله ينفعنى وايهما بالعلم وحمله، وينظمنا جميعا فى سلك حزبه المفلح واهله، ويفيض علينا من انوار بركته وفضله، قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية العبد الفقير الى الله تعالى الغنى به احمد بن ابراهيم بن احمد بن صفوان ختم الله تعالى له بخير حامد الله تعالى ومصليا ومسلما على نبيه المصطفى الكريم وعلى آله الطاهرين ذوى المنصب العظيم وصحابته البررة أولى الاثرة والتقديم فى سادس ربيع الاخر عام اربعة واربعين وسبعمائة.

ومنهم الشيخ الفقيه ابو جعفر احمد بن عبد الكريم بن محمد بن جابر ابن على الانصارى الغرناطى رحل الى الشرق فأخذ عن ابى الحسن الغرافى والدلاصى والرضى الطبرى وغيرهم قال لسان الدين سمعت عليه اختصار التفريع مع تلخيص القاضى شمس الدين الربعى التونسى نزيل القاهرة بسماعه له على ملخصه وقد مات هذا الشيخ سنة ٧٣٩ ترجمه الحافظ فى الدرر الكامنة، ومنهم الشيخ ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن احمد الانصارى المعروف بابن السراج احد اعلام الطب بالاندلس ترجمة فى الاحاطة ترجمة ممتعة، واثنى على مشاركته وتضلعه فى المعارف ومهارته بالخصوص فى الطب وعلم النبات، ووصف تأليفه بالكثرة، ولم يتعرض فى الترجمة لآخذه عنه ولكنه فى ترجمة شيخه شيخ الاطباء بغرناطة احمد بن محمد الكزى قال اخذ عنه جملة من شيوخا، كالطبيب ابى عبد الله بن سالم، والطبيب ابى عبد الله بن سراج وغيرهما، وقد كانت وفاة ابن السراج هذا سنة ثلاثين وسبعمائة

اما الشيخ الطبيب ابو عبد الله محمد بن ابراهيم المعروف بابن سالم ثانى ابن السراج فى الاخذ عن ابى جعفر الذى صرح ابن الخطيب باخذه عنه فقد ترجمه فى الاحاطة أيضا .

ومنهم الشيخ الصالح ابو عامر محمد بن عبد الله بن عبد العظيم بن ارقم النميرى الوادياشى نقل ترجمته صاحب الشذرات عن الاحاطة وكانت وفاته سنة اربعين وسبعمائة، ومنهم الامام ابو القاسم اللوشى نقل عنه فى كتاب روضة التعريف بلفظ وقال شيخنا ابو القاسم اللوشى ومنهم الشيخ ابو محمد بن ابى المجد نقل عنه ابن الخطيب محليا بشيخنا فى

كتابه فى المحبة ايضا ومنهم الشيخ الكاتب ابو عبد الله بن عمر نقل عنه
فى كتاب المحبة ايضا ومنهم الامام البارع ابو القاسم الخضر بن احمد
ابن الخضر الشهير بابن ابى العافية، حلاه ابن الخطيب فى الاحاطة،
بفارس ميدان انبيان، وحامل لواء الاحسان فى هذا الشأن، وذكر من
صفائه ما يدل على امامته، ولم ينظم اسمه فى شيوخه الا انه فى كتابه
السحر والشعر وصفه بشيخه وانشد له :

لى دين على الايام قديم ثابت الرسم منذ خمسين حجة
افا عدى بالحكم بعد عليها ام لها فى تقادم العهد حجة
ولنقفل باب المشيخة بامام من اعلام الشرق الكبار، وفرد من
افراد الكمال فى قوة العارضة ومعرفة الفنون وكثرة الاستحضار، وهو
الامام ابو البقاء محمد بن عبد البر احد اعلام البيت السبكي ورجال
قضائه بمصر، فقد خلف لنا ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام رسالتين
تبودلتا بينه وبين هذا القاضى باعتهما استجارة ابن الخطيب لنفسه
ولاولاده من هذا الامام، ونحن ثبت الاصل والجواب كزيادة برهان على
تقدم ابن الخطيب فى معرفة الرواية والاسناد، وان رغبته فى الاستكثار
من شيوخ العلم كانت دائما فى ازدياد، وهذا نص الاستدعاء الذى جرى
فى اسلوبه على المتعارف اذ ذاك فى قوانين الدواوين والمكاتب
الشرقية واساليبهم المرمية :

ابقى الله ايام المجلس العلمى القاضى السيادى وجانبه
بالتعظيم معتمد وبهجة سعدة ليس لها حد ولا امد ، وساحة سروره
لا يغير عليها كمد ، ومورد فضله غمر لا تمد ، ولا زال
عين الاسلام التى لا يشوبها رمص ولا يصيبها رمد ، ودام فسطاط
الاسلام تقله من عنايته عمد، وما الذى يفتاح به المملوك مجلس قاضى
القضاة وهو الاوج، والمثابة التى يتزاحم فى استلامها الفوج، والبحر
الذى ابجائه هى الموج، والديوان الذى عجز عن حصر أشتات مجده
الفرد والزوج ، تالله لو امد لسانى طبع الفاضل البيسانى ، بل
المدد الحسانى، بل العقل الانسانى، لتوقعت خمول شانى، وانفت
الاسنة العربية من لقط حشائى، وخشيت لهول الهيبة ان يغشائى
فلج مقداره وان رغم الشانى، لا يتعاطاه مثل هذا الشانى، فكيف لى مع
القصور، والامد المحصور، بمبارزة الاسد الهصور، ومدافعة العلم المنصور،
وانى للمقوى بعنصر النور، ومن ذا يسبح بعد فور التنور، ولكن فضل

المجلس العالى للمقصرين شفيح، وان اتضع قدر المتسور على خطابه
فعلمه رفيع، والمتطفل قل ان يجيبه فى باب مثله صنيع، والمستعيز
بحرمه قد كنفه من كرمه جانب منيع، والموارد يقتحمها العير والجواد ،
والمسارح الكريمة يقصدها الرواد، والكعبة اليها يحج من البلاد السود،
فلو نتخذ المستأهل من غيره، او عومل السارى على مقدار سيره،
وبركته وخيره، لكان المطرود اكثر ممن صح له الورود، ونقع غلته البرود
ولكن الرحمة تشمل، والضعيف لا يهمل، والاغضاء اجمل، وان المملوك
لا زال يتلقى من محامد المجلس العلمى نوافح طيب، ونوافج روض رطيب،
وملامح بشر تذهب بما للزمن من تقطيب، ونعمات مطيل فى النعيم مطيب
وتعشق النفوس ليس بمقصود على مشاهدة طرف، ولا مشاهدة حسن ،
وظرف، وشم عرف، والعدل يمنع ان تقابل هذه الحجة بصرف، او يعبد
الله فى انكارها على حرف، فمن المشهور، والدائع بين الجمهور .

يا قوم اذننى لبعض الحى عاشقة والاذن تعشق قبل العين احيانا
وعشق الفتى بالسمع مرتبة اخرى، وليس فى هذه الدعوى عناد
ولها استناد الى قوله الارواح اجناد، فلو تركنى الدهر وما اسر من
التشيع لمثابته، للبيت داعى الشوق باجابه، وان تجاسرت على خرتى
لحجاب مهابته، شأن المحبين كلما خانهم الصبر، ولم ينل منها مواجد
كلومهم السبر، لكنه سد المسالك، فاستتبنا المالك ، واساء المملك
فاستعدينا عليه المالك، وبعثت رسالتى هذه متوسلة بوسيلة الحب
الصريح، عادلة عن التعريض الى التصريح، والبوح المريح، متلطفة فى
المثول بباب ايوانه، والنية هديها الى محله، وتعيدها سعادة الجد على
محله، والمرغوب من تلك المثابة التى تعشو الى نورها العيون، وتقضى
من صدقات طولها الديون، ان تحسب هذا المحب ممن سعد بحبه،
وصدق منه التوسل فى لقائه الى ربه، وان ينتظم فى ذوى ولائه وشيعة
علائه، فان قضى اللقاء حصل الكمال، واستوفيت الامال، وتظافرت
النيات والاعمال، وارتفع من صور القصد الاهمال، وان كان غير ذلك
نفعت النية، وللذين يؤمنون بالغيب المزية، ولما تحققت من مكارم السيد
العماد قاضى القضاة ابقاه الله ان يلتمس ما فى يديه احظى المتوسلين
اليه، افتتحت تعريفى بسؤاله، ومددت يدي الى نواله، ورغبت منه ان
يسم مغفلا، ويفتح الى العناية بابا مقفلا، ويأذن فى الرواية عن مقامه

المخدوم بين يدي الافادة والقدوم ، واتحاد الشرف المعدوم بصرحاء ملكته، ونسباً عبوديته، وكفلاء ظلاله، ونبهاء باسم جلاله، اولاد موجب حقه المحتوم، ومعظم مقامه المعلوم، وهم فلان وفلان، مطوقا نعمة الاسعاف جيد من يعرف قدرها في الاقدار، ويرقى الاهلة بامداده الى مراتب الابدار، وهو الكفيل باجابة السائل، واحساب العامل، والله در القائل :

ولو يمتهم في الحشر تحدو لاعطوك الذي صلوا وصاموا والمملوك يطالع العلوم الشريفة بين جل يقبض، وهيبة اسودها لا يرمض، وادلال عروقه تنبض، انه وجه الى تلك المحال الشريفة بهرجا زائفا، وبريقا خالفا مما جرى عن طبع قاصر، ووطن دار بنطقة للعد وحاصر، وليس الا الله ناصر، فان على طارقه ظلل اياديه، فالمسؤول من شففته الاغضاء عن معترف، والتجاور عن خطل من خرف، ويشكر الله الذي كمله اذا وقف على النقص وتأمله، ويخفض الجناح لمن امله، ويقابل بالشفقة من ام له، ومن له بالوصول الى مجلس المالك والى الله تجلته كما اعز بالنصر ملته، انما هو فرض يفرض، وامان على النفس تعرض، ونسأل الله لثابة المجلس العالي بقاء يتمتع المسلمين بمواهب العدل المشهور، والدين الذي تجلت شمس في مظاهر الظهور، والعلم الذي يجلو غياهب الديجور ويتكفل من الله بانماء الاجور، والسلام الكريم عليه من خاطب شرف وداده، وملتمس مواهب الله في اعانته وسداده

جواب ابي البقاء السبكي

قال ابن الخطيب راجعني قبل الانصراف عن الاندلس بما لفظه، بسم الله الرحمن الرحيم يبتهل الى الله تعالى بالادعية الصالحة مقره الكريم العالي المولوي القضاء العاملي الاوحدى الاثير البليغي الخاشعي الناسكي المقدمى المحققى المؤيدى المدثرى المشيرى الوزبرى الجمالى، جمال الاسلام والمسلمين، بركة الملوك والسلاطين، وزير الديار المغربية، ذا الرياستين اصبح الله عليه انعامه وافضاله، وسدد اقواله وافعاله، ولا زالت مماديحه الشريفة بالالسنه والاقلام متلوة، ومحامده المنيفة على الابصار والاسماع مجلوة، ولطائف للصادرين

والواردين محققة مرجوة، المملوك الداعي ببقائه، والمشتاق الى لقائه، ابو البقاء السبكي، يصف ما هو عليه من الشوق الذى يتجدد على مر الايام وجوده، والولاء الذى تبني على قواعد الاخلاص عقوده، والود الذى لا تنحل عراه ولا تنسى عهوده، والاخلاص الذى زكى بتحقيق الخاطر لصحته شهوده، وورد المثال الشريف، مشتملا على فضله المنيف، قد حاز من الفصاحة اتمها، ومن البلاغة اشملها واعمها، فسرّح المملوك نظره فى تلك الرياض الناضرات، وعلم انه لا طاقة له بمثلها فاقصر على هذه الكلمات، ووقف المملوك ايضا من تصانيفه الشريفة على كتاب الاحاطة فى تاريخ غرناطة، فوجده المملوك تصنيفا ليس له مثال، وتاريخا لم ينسج له على منوال، والله تعالى يبقيه لرُبوع الفضائل يعمرها، ولطلاب العوم الشريفة يغمرها، ومولانا يشرف بحرمة (كذا ولعله بخدمته) ومهمات على عادة احسانه وتفضلاته، والله يسبغ عليه ملابس نعمه ويحرس مقره الكريم بمنه ونعمه، وكتب فى الثالث والعشرين من المحرم سنة ثمان وستين وسبعمائة، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وهذا الجواب لا يسعف ابن الخطيب باذن الرواية والتحمل له ولا بنائه على رفق استدعائه ، كما ان طريق اخذه عن غيره من الشيوخ غير معلومة لفقدان فهارسه التى هى مظان البسط والاستيعاب وايضاح الخاص من الاذن والعام، ولا يجهل ما له من التقدم والمعرفة فى معالم الرواية، فقد اشتملت كتبه التاريخية وخصوصا الاحاطة على تراجم لاعلام الفن لا يتوافر على كتابتها الا من كان فى امامة ابن الخطيب معرفة بالشيوخ واستيعابا للمقروء، ويكفى الباحث ان يرجع الى ترجمة الوزير ابى عبد الله ابن الحكيم، ورفيقه فى الرحلة الامام ابن رشيد، وتراجم ابى عبد الله بن الفخار الاركيسى المالقى، وابى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطى الفاسى ، وابى عبد الله محمد بن احمد بن يوسف الطنجالى، وابن سلمون وابن مرزوق وغيرهم، ليجعل منهم نماذج تدل على تضلع هذا الامام فى معارف الرواية ومعالم الدراية وتقدم رفع تلك الراية.

ملقن ملهم فيما يحاوله جم خواطره جواب :أفاق
على ان الذى يهم بنوع خاص من احوال شيوخ ابن الخطيب هو ما يتصل بمعارفهم التى كانت مثل لسان الدين فى الاقتداء والاحتذاء

فاما الشريف ابو القاسم السبتي فيكفي ترجمانا عن معارفه قول تلميذه ابن خلدون فيه، شيخ الدنيا جلالة وعلمها ووقارا ورياسة، وامام اللسان فصاحة وبيانا وتقدما في نظمه ونثره وترسلاته، ولعل الالسنه قد قصرت في حق الثناء على كماله فانشد لنفسه على ما في كتاب السحر والشعر لتلميذه :

في النفس شيء واجب كتمانہ سأقوله ولو انهم سفكوا دمي
ما في الوجود سوى يصلح للعلا زعما ورب البيت ليس بمزع
اما الخطابة والقضاء فلم اكن ارضاها لكن تضايق مقدم
واما الامام ابو عبد الله المقرئ فقال فيه ابن خلدون أيضا برز في العلوم الى حيث لم تلحق غايته، واما الخطيب ابو عبد الله بن مرزوق فقد قال عن نفسه لي ثمانية واربعون منبرا في الاسلام شرقا وغربا واندلسا، وليس يوجد اليوم من يسند الصحاح سماعا من باب الاسكندرية الى البرين والاندلسي غيري، واما مسند افريقية ابو عبد الله محمد بن جابر الواداشي فحسبه مفخرة ان حافظ عصره زين الدين العراقي هم بالرحلة من مصر الى تونس لاجل السماع عليه فقط، واما الشيخ ابو البركات البليقي فقد حلاه تلميذه ابن خلدون أيضا بشيخ المحدثين والفقهاء والادباء والصوفية والخطباء وانه سيد اهل العلم باطلاق، واما الشيخ عبد المهيمن الحضرمي فقد وصفه تلميذه في الاحاطة بخاتمة الصدور وتاج المفرق وفخر المغرب على المشرق له الامامة في الحديث والتبريز في الادب والتاريخ واللغة والعروض والقدر المعلى في العربية والمشاركة الحسنة في الاصلين، وعلى هذه الاوصاف نجد الكثير من شيوخ لسان الدين، حتى ان آخر من استجازه وهو الامام محمد بن عبد البر السبكي ذكر ابن العماد في ترجمته من الشذرات انه زيادة على ما يشارك فيه معاصريه كان يعرف عشرين علما لم يسأله عن واحد منها احد لا من معاصريه ولا من تلاميذه، الا ان اصحاب الفضل على ابن الخطيب في ثقافته على ما نفهمه من بعض القرائن كانوا مقصورين على افراد كابن الفخار وابن الجياب، وابن هذيل، ولعل هذا الاخير الذي كان ابن الخطيب شديد الاعجاب بمعارفه كثير التعظيم له يرى فيه خاتمة علماء الاندلس هو اعظم منة وابعد الناس اثرا في تكوين معارف صاحبنا وخصوصا الجانب الفلسفي منها، فقد كان ابن هذيل فرد عصره في العلوم العقلية ولذلك لم يزل تلميذه ينوه بمعارفه في تاليفه، كما ان خصومه لم ينسوا ما كان بين

الشيخ والتلميذ من اكيد الروابط فاستغلوا تلك الرابطة العلمية حتى فيما
 دبروه على ابن الخطيب حيث انهم كانوا ينظرون الى ابن هذيل كبقية
 من اولئك الفلاسفة الذين لن يكافئوا من الامة الا بجبل المشنقة
 وبعد فمن العيب ان نترك للقلم حرية الافاضة في الحديث عن
 هؤلاء الشيوخ بعد ان خلف عنهم الشهاب المقرئ في نفعه ثلث الترجمة
 الخطيبية، ولعل الاولى من التكرار الذي ياباه الذوق وهو الاوفق بموضوع
 البحث ان نجمل القول في كلمة عن معارف هؤلاء الائمة الذين هم اساتذة
 المدرسة التي تخرج منها هذا النابغة العربي، وهي عند الايجاز تتخلص
 في القرآن الكريم وعلموه، من حفظ للفظه، وضبط لتجويده، وبيان لتأويله
 وحذق باعرابه، ومعرفة باحكامه، وتطلع الى اسراره، وكشف لحقائقه
 واشاراته، وتتصل بالحديث الشريف من جهة الحفاظ لمتونه، والمعرفة
 باصطلاحه، والشرح لغريبه، والبيان لمعانيه، الى الامامة في الفقه
 وفرائضه، والتشريع وأصوله، والتصوف والتوحيد، وطرق الزهد
 والتسلية، اما العلوم اللسانية، فلعل الاندلس آخر قطر اسلامي حافظ
 على عهودها الاولى، فلو سئل سيبويه عن الامة التي اقامت من كتابه
 سلما بارتقائه كانت تعرج الى ذروة الكمال فتحفظ متنه وتفهم معناه
 وتشرح ابياته وامثاله لما اختار الا الاندلس التي في مدارسها ومعاهدها
 كان النحو العربي يلتقي بحفاظ الكتاب واقطاب الآداب، فلذلك لم تزل
 العلوم العربية محافظة على جمائها العربي الى ان سقطت الاندلس الشهيدة
 وخنق صوت الاسلام فيها، وان اكبار الشرق لابي حيان وظهوره على
 اعلامه مع انه لم يكن بالاندلس الا فردا من افراد الكمال بها لا كبر برهان
 على ان اعظم مدرسة حافظت على ولائها للنحو العربي هي المدرسة
 الاندلسية، ففي شيوخ ابن الخطيب، كابن الفخار، والشريف الغرناطي
 من لا يقصر بهم السير عن اللحاق بالقافلة الاولى من ائمة الصناعة النحوية
 كما ان من حفاظ شيوخه، كابن جابر الوداعي، وعبد المهيمن الحضرمي
 وابي البركات البليقي، والشمس بن مرزوق من حقهم ان يسلكوا في
 سلسلة حفاظ الحديث والآثار ووعاة الاسانيد والاخبار، وان امامة المدرسة
 الاندلسية وتقدمها في المعارف العربية لتظهر في تراجم رجالها الذين
 للنظرة الاولى يفاعي القارئ تضلعهم في العلوم اللسانية، من نحو
 واعراب، وتصريف، واشتقاق، ولغة، وغريب، وبلاغة، وبيان، الى الامامة
 في الترسل والكتابة، والتقدم في معرفة الفنون الشعرية، من اجادة

لقرضه، ومعرفة بعروضه، واستقصاء لمآنيه، ونقد لعيوبه، وهذه الكمالات وحدها تكفى اذا فاخر ابن الخطيب بمدرسة تهذيبه ومعارف شيوخه، على ان وراء هذه المعارف التي كانت تغمر اندية العلم، وتغشى المعاهد الاندلسية، كأن لا يزال رجال تناطح همهم الجوزاء، فلا تقف بهم فى ابواب الكمال عند حد، ولا تعرف لهم فى العلوم والمعارف غاية، ففى شيوخ ابن الخطيب، كأبى جعفر بن صفوان، وابى زكرياء بن هذيل من ولجوا ابواب الفلسفة وعرفوا مسالكها، ومن شيوخه ايضا من كان الطب الاندلسى لا يزال يجد فيهم بقية، كابن هذيل، وابن السراج، وابن سالم، وابن شعيب وغيرهم وهم كثير، وبهذه المعارف التي كان يتحلى بها هؤلاء الشيوخ استطعنا ان ندرك سر هذه المعجزة التاريخية وما كان لها من علم جم ومشاركة، يتجلى اثرها بالخصوص فى مؤلفاته العلمية التي لم يقصرها على فن او فنين، بل بجانب الكتب الادبية نجد الموضوعات التاريخية، وبرفقة الفقه نجد ألفية الاصول، ومع الطب والنحو، والتصوف، والترهيد، والحساب، والتنجيم، والبيطرة، والبيزرة، والموسيقى، والرحلات، والمسالك، والممالك، والجغرافيا، والسياسة، وهى كتب سيبقى قليلها المحفوظ دالا على كثيرها، واسلوبها برهانا على عظمة منشئها، وسنطرق باب ما التقينا به منها فنعالج من حل المقفل وكشف المغلق ما يتعلق بالوجهة التاريخية، كسبب الوضع، وتاريخ الجمع، وما يتصل بذلك مما هو تاريخى محض، وبالله نستعين بضم النفل بعد ذلك الى هذا العرض الذى هو علينا حق وفرض

ابن الخطيب والتأليف

من ابرز صفات الكمال فى حياة ابن الخطيب، صرف عنايته الى العلم وتحصيله، وانصاف قلم الجمع والتدوين من وقته وانشائه، فانه وهو الوزير الذى كان اليه المفزع فيما ينزل بالدولة فى الداخل، ومن عدوها الرابض ربوض الاسد امام فريسته ينتظر غفلة من الحارس، لم تصرفه اشغال الامة، ولاقطعتة ملاذ الرياسة عن تعاطى العلم وجمعه، بل هو من الافراد الذين جمع الله لهم بين رياسة العلم ونظام الحكم، فقليل فى هذه الامة ممن كان يشغل منصب الوزارة من له فى ميدان العلم والتحصيل والجمع والتأليف ما لهذا الوزير الخطير والمؤلف المجيد، بل قال الاستاذ محمد

كرد على فى المقتبس بعد ان تعرض لمن آثر الهيام بالعلم على حب
الوزارة كآبى محمد بن حزم وابن الهيثم، انه يندر فى رجال هذه الامة
من جمع بين ولاية الاعمال وصرف اوقات الفراغ فى التصنيف وتنمية
ملكة العلم الا افراد قلائل، كالقاضى الفاضل، ولسان الدين بن الخطيب،
فابن الخطيب وهو احد مفاخر الاندلسيين علما وعقلا، لم تلهه الوزارة عن
النظر فى علوم كانت هى سبيله فى الوصول الى الوزارة هـ. والاستاذ وان
وفق فى ربط اسم ابن الخطيب بالقاضى الفاضل لكثرة وجوه المقارنة
بين هذين الوزيرين، حيث ان كلا منهما بطابعه كان كأستاذ مدرسة لكتاب
الادب والانشاء، وان كلا منهما كان لادبه اثر فى انقاذ وطنه، حتى قال
صلاح الدين ما فتحت البلدان الا بادب القاضى الفاضل، وان كلا منهما
عرف بالكثرة حتى قيل عن ادب ابن الخطيب ان حوض الملوك قد امتلا
من نظمه ونثره، وقيل عن انشاء القاضى الفاضل انه لو جمع لبلغ مائة
مجلد، وعن نظمه انه نحو مائتى وخمسين الف بيت، وان كلا منهما عرف
بسرعة الكتابة والتأليف حتى ان ابن الخطيب ألف مؤلفا فى ليلة، ونثر
القاضى الفاضل ديوانى ابنى تمام والبحتري فى ليلة كذلك فان مما يمتاز به ابن
الخطيب عن نظيره فى كثير من وجوه الكمال هذه التاليف التى جاوزت
سبعين مصنفا فى مختلف الفنون ليس للقاضى الفاضل فى ميزان المفاضلة
ما يعادل به كفة هذا الاحسان، فابن الخطيب من بين الوزراء وخصوصا فى
الاندلس لا يزال امة وحده، ومن مميزات كتبه انها تحمل طابعه المعروف
به فليس هو من اولئك المتكثرين بما لم يعطوه ولا من الذين يحبون ان
يحمدوا بما لم يفعلوا فما اتهمه احد وهو الوزير باستغلال جهوده غيره
ولا شك شاك فى هذه التاليف التى لا تذكر الا مقرونة باسمه ومضافة الى
سهاده وجهوده ان لغيره من اعلام بلده يدا فى اعانته عليها وجمع شتات
انقالها ومتفرقا فرحم الله ابن الخطيب ما اكثر عنايته وابعده همته فى ميدان
الجمع والتحصيل والسبك والتأليف .

وقت اشتغال ابن الخطيب بالتأليف

كل القرائن تدل على ان هذا الفارس المجلى فى شتى الميادين من
اولئك النوابغ الذين طبعوا على صناعة التأليف وفطروا على الجمع
والتقييد فانه لم يكده يتجاوز العقد الخامس من عمره حتى كانت اجزاء

مؤلفاته تعد بستين سفرا من بينها مجموع حافل وهو كتاب البستان كمل منه ثلاثين سفرا ولعل حظ التأليف من حياة ابن الخطيب ونشاطه هو فى هذه المرحلة الاولى ابرز منها فى غيرها من بقية المراحل التى يمكن ان يقصرها على اربعة هذه اولها المرحلة الثانية وهى ما بين سنة احدى وستين وتاريخ كتابة ترجمته الاولى الملخصة بآخر الاحاطة التى كتبها سنة خمس وستين وسبعمائة وانتاج ابن الخطيب العلمى فى هذه الاعوام الاربعة ظهر فى نحو خمسة عشر مؤلفا لم يصرفه عن كتابتها لاهم الغربة ايام التجائه الى المغرب ولا القيام بشئون الدولة بعد رجوعه الى الاندلس واسناد رياسة السيف والقلم اليه ، ومن هذه السنة الى سنة احدى وسبعين وهى السنة التى كتب فيها ابن الخطيب ترجمته الثانية، ظهر فى عالم التأليف نحو خمسة عشر مؤلفا ايضا من بينها اللوحة والريحانة وكتاب المحبة والسحر والشعر والمفاضلة والمقامات البلدانية، اما المرحلة الرابعة فهى التى رافقت ابن الخطيب الى دار غربته فاس حيث لم يزل للتأليف من نشاطه بقية بقية الى ان دعاه منادى الابتلاء فلباه، وكان من آخر ما صدر عنه كتاب اعمال الاعلام، وبهذا لاح لنا ان نحو الثمانين مؤلفا التى هى ارث الامة من ادب هذا الفرد الفذ هى من جهوده التى سكب فى سبيلها حياته ووهب لها نشاط الشباب وتجربة الكهولة والشيخوخة .

عرض ابن الخطيب مؤلفاته على قلم الاختبار

يذكر الكثير ممن ترجم للامام المجتهد عالم عصره ابى عبد الله الشريف التلمسانى كالشيخ سيدى احمد بابا فى النيل والكفاية وابن ابى مريم فى البستان ان من انصاف اعلام الاندلس واعترافهم بجلالة هذا الامام، عرض ابن الخطيب مؤلفاته عليه فقد كان هذا العالم الشهير صاحب الانباء العجيبة والتواليف البديعة، اذا ألف تأليفا بعثه اليه وعرضه عليه وطلب منه ان يكتب بخطه وقد سبق ان هذا الامام كان وجه احاطته الى الامام ابى البقاء السبكى قاضى مصر وفوض اليه اصلاح ما يراه غلطا وتكميل ما يتراءى له ناقصا فابن الخطيب، وهو فى مقدمة المبدعين من مؤلفى زمانه ليس من اولئك المغرورين الذين يتعالون على الخلق ويترفعون على صدور الشهو والغلط بل كان ابن الخطيب من اولئك الذين يعلنون

عن انتاجهم ويعرضون ما يصدر عنهم على فضلاء اهل العلم ليأخذوا آراءهم وبذلك انتشرت كتبه في حياته وبقي لها الذكر الجميل وكتب لبعضها البقاء على خلاف اكثر الآثار الاندلسية بعد وفاته .

اسماء مؤلفاته اجمالاً

تعرض ابن الخطيب لاسماء مؤلفاته في الترجمة التي كتبها لنفسه آخر احاطته فذكر منها : ١. التاج المحلى في مساجلة القندح المعلى ؛ ٢. الكتيبة الكامنة في ادباء المائة الثامنة؛ ٣. الاكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر؛ ٤. النفاية بعد الكفاية؛ ٥. طرفة العصر في دولة بنى نصر في اسفار ثلاثة؛ ٦. بستان الدول، تم منه نحو ثلاثين سفراً؛ ٧. ديوان الشعر سماه الصيب والجهام والماضي والكهام في سفرين؛ ٨. اليوسفى في صناعة الطب في سفرين كبيرين؛ ٩. عائد الصلة في سفرين؛ ١٠ كتاب الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة، في تسعة اسفار قال هذا متصل بآخرها؛ ١١. تخلص الذهب في اختيار عيون الكتب الادبيات الثلاثة؛ ١٢. جيش التوشيح في سفرين، قال ابن الخطيب ومن بعد الانتقال من الاندلس وما وقع من كيد الدولة؛ ١٣. نفاضة الجراب في علالة الاغتراب في اربعة اسفار؛ ١٤. كتاب عمل من طب لمن حب ومن الاراجيز؛ ١٥. رقم الحلل في نظم الدول؛ ١٦. الحلل المرقومة في اللمع المنظومة؛ ١٧. ألفية في أصول الفقه؛ ١٨. المعلومة في معارضة المقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج؛ ١٩. المعتمدة في الاغذية المفردة ؛ ٢٠. ارجوزة في السياسة المدنية الى ما يشد عن الوصف؛ ٢١. كالرجز في عمل الترياق الفاروقى؛ ٢٢. الكلام على الطاعون المعاصر؛ ٢٣. الاشارة ؛ ٢٤. قطع السلوك؛ ٢٥. مثلى الطريقة في ذم الوثيقة حتى في الموسيقى؛ ٢٦. البيطرة؛ ٢٧. البيزرة؛ ٢٨. فهذه ثمانية وعشرون مؤلفاً زيادة على النشر الذى وصفه بالكثره هى كل ما سجل لنفسه في الترجمة الصادرة عن قلمه سنة خمس وستين وسبع مائة وزاد في الترجمة المكتوبة سنة احدى وسبعين الموجودة بآخر اختصار الاحاطة ولا نراها الا بقلم المؤلف ايضا عدة مؤلفات تحت عنوان التوايف منها؛ ٢٩. كتاب اللمحة البدرية في الدولة النصرية؛ ٣٠. السحر والشعر؛ ٣١. ريحانة الكتاب في اسفار ثمانية؛ ٣٢. معيار الاختيار؛ ٣٣. مفاضلة مألقة وسلا؛ ٣٤. المسائل الطبية في سفر؛

٣٥. كتاب المحبة فى سفرين؛ ٣٦. رسالة تكوين الجنين؛ ٣٧. الوصول
 لحفظ الصحة فى الفصول؛ ٣٨. كتاب الوزارة؛ ٣٩. مقامة السياسة قال
 الى ما صدر عنى لهذا العهد القريب وهى؛ ٤٠. رسالة الغيرة على اهل
 الحيرة؛ ٤١. حمل الجمهور على السنن المشهور؛ ٤٢. الزبدة الممخوذة؛
 ٤٣. الرد على اهل الاباحة؛ ٤٤. سد الذريعة فى تفضيل الشريعة ؛
 ٤٥. تقريب الشبهة؛ ٤٦. تحرير الشبهة؛ ٤٧. استنزال اللطف الموجود فى
 سر الوجود ومن التأليف الصادرة عنه قديما؛ ٤٨. أبيات الابيات ؛
 ٤٩. فتات الخوان ولقط الصوان فى سفر يتضمن المقطوعات فكل ما نسبته
 المؤلف لنفسه فى كل من الترجمتين تسعة واربعون مؤلفا وزاد الامام
 المقرئ فى النفع وازهار الرياض؛ ٥٠. خطرة الطيف؛ ٥١. رحلة الشتاء
 والصيف؛ ٥٢. كناسة الدكان بعد انتقان السكان؛ ٥٣. الدرر الفاخرة
 والحجج الزاخرة جمع فيه نظم ابن صفوان؛ ٥٤. المباخر الطيبية فى المفاخر
 الخطيبية؛ ٥٥. خلع الرسن فى امر القاضى ابن الحسن؛ ٥٦. اعمال الاعلام
 فيمن بويغ من ملوك الاسلام قبل الاحتلام، قال فى ازهار الرياض وقد
 زادت مؤلفاته على الخمسين وزاد فى النفع؛ ٥٧ كتاب تافه من جم ونقطة
 من يم جمع فيه نثر شيخه ابن الجياب؛ ٥٨. تدوين شعره ايضا. ٥٩. شرح
 رقم الحل فهذه تسعة وخمسون مؤلفا هى مجموع ما ذكره ابن الخطيب
 لنفسه، وما زاده المقرئ فى نفعه وازهاره على ما فى بعضها من تكرار
 على ما سيأتى ايضا، وقد وقعت الاشارة الى مؤلفات له اخرى لا بأس
 ان نضيف اسماءها الى هذا العنوان تكميلا للفائدة، وان لم تكن بزايدة :
 الموفى؛ ٦٠. كتاب مساجلة البيان وقعت الاشارة اليه فى ص ٢١٥ من
 مختصر الاحاطة المطبوع؛ ٦١؛ اوصاف الناس فى التواريخ والصلات؛ هذا
 كتاب مذكور بلفظة آخر الرياحنة، ولكن عند واصف كتبه من بعض
 المستشرقين ذكره على انه كتاب قائم بنفسه؛ ٦٢. مدار الكنايات فى
 تراجم الادباء بالمغرب نسبه له صاحب كشف الظنون ص ٦٤٥ من الجزء
 الثانى؛ ٦٣. المنح الغريب فى الفتح القريب، اسم لمنظومة ابن الخطيب
 هنا بها مخدمه ابن الاحمر ملاها حكما ودررا؛ ٦٤. طل الغمام المقتضب
 من الصيب والجهام اسم لمؤلف لابن الخطيب، ولعله مختصر من ديوان
 شعره ذكره له ابن القاضى فى ص ٢٨٦ من درة الحجال؛ ٦٥. رحلة دونها
 فى سفارته الى ابي عنان المرينى، قال عنها فى مختصر الاحاطة قد تضمن
 رحلتى لوجهته والاخرى قبلها جزء؛ ٦٦. بضاعة المهولين فى اساطين

الاولين هذا كتاب هم المؤلف بجمعه تحت هذا العنوان، ووقعت الاشارة اليه فى كتاب اعمال الاعلام؛ ٦٧. نظم الملوك بهذا الاسم ذكر هذا المؤلف ص ١٧٥ من الكتاب المسمى بالاحاطة، وسيأتى ما يكشف اللبس والايهام من هذا الاسم؛ ٦٨. اختصار صحاح الجوهري وهو كتاب اجري ابن الخطيب ذكره فى رسالته الى ابن خلدون المذكورة فى ص ١٥٠ من هامش مقدمة ابن خلدون؛ ٦٩. فهارس الشيوخ والمرويات نسبها الى ابن الخطيب جماعة كابن القاضى وابن غازى من اجلها ترجم فى مجموعة فهرس الفهارس والاثبات الموفى؛ ٧٠. كتاب له فى الفقه ذكره له الكاتب الطنطاوى فى الترجمة التى صدر بها طبعة للمحة البدرية فى الدولة النصرية؛ ٧١. الاماطة عن وجه الاحاطة فيما امكن من تاريخ غرناطة، هذا كتاب اجري ابن الخطيب ذكره فى ص ٢٧ من اللحة البدرية وقد هذانا البحث الى انه اسم مختصر للاحاطة من وضع ابن الخطيب نفسه على ما يأتى بيان وجه القول فى تصحيح نسبته اليه؛ ٧٢. الحل الموشية، هذا كتاب نشر فى تونس منسوباً الى ابن الخطيب غلطاً، وقد ادرك القراء غلط هذه النسبة قديماً وحديثاً على ما سنشير اليه بعد بحول الله؛ ٧٣. اشعار وموشحات ذكرها الباحث جرجى زيدان ككتاب خاص فى اسماء مؤلفات ابن الخطيب وقال فى تاريخ ادب اللغة العربية ان هذا الكتاب يوجد فى برلين وغوطا؛ ٧٤. تحفة ذوى الارب فى مشكل الاسماء والنسب (فى ضبط ما وقع فى الموطا والصحيحين من الاسماء والنسب) تأليف ابن الخطيب نشره الدكتور تروغرتمان فى صفحات ٢٧١ ومقدمة بشروح وتعليق فى الالمانية والعربية صفحة ٣٣ طبع فى ليدن سنة ١٩٠٥ كذا جاء هذا الكتاب منسوباً الى ابن الخطيب فى ص ١٩٢ من المجلد الاول من مجلة المجمع وهى نسبة تحتاج الى تحرير؛ ٧٥. شرح الالفية، وجدت هذا الشرح منسوباً الى ابن الخطيب فى شهادة عدلية بوقوف العدول على عين الكتب الموقوفة على المسجد الاعظم بسلا فى اوائل القرن الثالث عشر؛ ٧٦. مركز الاحاطة فى ادباء غرناطة، ذكر هذا الكتاب فى اسماء مؤلفات ابن الخطيب الاستاذ محمد عبد الله عنان فى صحيفة ٣٥٩ من نهاية الاندلس؛ ٧٧ و ٧٨ يوجد فى خزانة جامع القرويين عمره الله بذكره تحت عدد ٣٠٣٤ وعدد ٤٠٣٥ بقايا مؤلفين لابن الخطيب احدهما على ما يظهر من صنيعه وترتيبه ضمنه مختارات من شعره مما صدر عنه قديماً مرتباً له على حروف الهجاء والثانى سجل

فيه بعض رسائله؛ ٧٩. فى القسم الخطى من الخزانة العامة بالرباط يوجد تحت رقم ١٢٣٣ بقية كتاب ادبى منسوباً الى صاحبنا لسان الدين ايضا اوله الباب الثالث والاربعون فى الهجاء ومقدماته، كما يوجد ضمن مجموع اشتمل على عدة رسائل لابن الخطيب كمعيار الاختيار والمقامة السياسية عدة وسائل منسوبة اليه الموفى؛ ٨٠. اخبرت ان فى خزانة الجزائر مجموعاً فى امداح الشقا من وضع صاحبنا الامام ابن الخطيب، فلا يبعد ان يكون له زيادة على ما كتبه لصديقه ابن مرزوق امداح تستغرق كثرتها جزءاً نبيلاً، فقد كان ابن الخطيب من المحبة فى الجناب النبوى بالمحل الذى لا يستغرب منه ان يصدر عنه فى مدح كتاب شفاء المجين ما يدخل فى باب التدوين، فهذه ثمانون مؤلفاً على ما فى بعضها مما هو محتاج الى زائد تحرير هو كل ما وقفت عليه مما نسب الى هذا الامام ولا ندعى اننا قد اتينا على مجموع اسماء تأليف ابن الخطيب، فان المورد عذب والمادة خصبة، وهيام ابن الخطيب بالتدوين لا تضبطه الارقام، فقد نفاجاً غداً من اخبار هذه المعجزة البيانية فى باب التأليف بما لا يستكثر على مثله، فلنقف الآن حيث وقف بنا السير وحسبى عذرا انه جهد المقل القاصر

انتشار كتب ابن الخطيب فى حياته

لما ترجم الامام ابو العباس ابن قنفذ الشهير بابن الخطيب القسنطينى لشيخه لسان الدين فى وفياته، قال: وسمعت جملة من تواليفه بقراءته هو فى مجالس مختلفة، فابن الخطيب كان من الثقة بنفسه وبقيمة مؤلفاته العلمية بالمنزلة التى اقامت منه مدرسا لكتبه ولا اظن ذلك الا فى فاس مأوى العلم والعلماء اذ ذاك، على ان لسان الدين كان لا يرضى بآثاره وكتبه على معاصريه، فقد بعث بالاحاطة وكتاب روضة التعريف بالحب الشريف الى مصر، ووجه قطعة من هذا الكتاب ايضا الى صديقه صاحب القلم الاعلى بالمغرب عبد الله بن رضوان، وكان يوجه تأليفه كما سبق الى الامام المجتهد الشريف ابى عبد الله التلمسانى واره لم يكن يخفى على صديقه ولى الدين بن خلدون ما ينتج من آثار، فمن رسالة له يخاطب بها هذا الصديق ويخبره بما تجدد عنده بعده وآخر ما صدر عنى كتاب سميته باستنزال اللطف الموجود فى اسرار الوجود قال امليته فى

هذه الايام التى آقيم فيها رسم النيابة عن السلطان فى سفره الى الجهاد
 بودى لو وقفتم عليه وعلى كتابى فى المحبة وعسى الله ان ييسر ذلك.
 ومن رسالة اخرى لابن الخطيب خاطب بها ابن خلدون ايضا واما ما يرجع
 الى ما يتشوف اليه ذلك الكمال من شغل الوقت فصدرت تقايد منها ان
 كتابا رفع الى السلطان فى المحبة من تصنيف ابن ابى حجلة فعارضته
 وجعلت الموضوع اشرف وهو محبة الله، فجاء كتابا ادعى الاصحاب غرابته
 وقد وجه الى الشرق وصحبتة كتاب غرناطة وغيره من تأليفى وانثال
 الناس عليه والله يرزق الاعانة فى انتساخه وتوجيهه، وصدر عنى جزء
 سميته الغيرة على اهل الحيرة وجزء سميته حمل الجمهور على السنن
 المشهور، وانا مكب على اختصار كتاب الجوهرى ورد حجمه الى مقدار
 الخمس مع حفظ ترتيبه السهل فهذه كلها براهين على ان ابن الخطيب
 كان يسعى فى تعميم النفع بتأليفه جهد الامكان، وبهذا العمل المثمر وقى
 الله بعض كتبه من المحن التى نزلت بالكتب الاسلامية وخصوصا جائحة
 الحرق والغرق والاتلاف التى اصابت بدافع التعصب الاعمى كتب الادب
 العربى بالاندلس عقيب تقلص ظل راية الاسلام به، ففى خصوص ساحات
 غرناطة اتى الحرق على ثمانين الف مخطوط عربى بأمر من الكردينال
 كسيمنس على ما فى ص ٢٠٦ من غرائب الغرب، فلم يسلم من كتب ابن
 الخطيب بعد هذه المحنة التى لا شك ان لها اثرا فى اتلاف الكثير منها
 الا نحو الثلث، لعل معظم الفضل فى نجاته وامتداد حياته يرجع الى ابن
 الخطيب نفسه الذى باشهار مؤلفاته بين معاصريه وابعاد كتبه عن محيط
 التعصب الممقوت، انقذ البعض من العتو الانسانى الذى مد يده الاثيمة
 فيها بدافع من الانتقام السياسى تارة، وبدعوى حماية الدين من ضرر
 انتشارها تارة اخرى، ولولا العناية الالهية التى ارادت ان تحفظ لهذا
 المؤلف المحسن بقاء الذكر والثناء بقاء كتبه التى هى شاهد فضله
 وكماله، لكان حظ كتب هذا الامام كحظ الكثير من كتب ائمتنا الاعلام،
 التى ذهبت ضحية التعصب والاهمال، فانه ليس لفرد من افراد المتأخرين
 من اعلام الاندلس من تحتفظ له المكتبة الاسلامية بقدر ما هو محفوظ، ومدر
 من آثار هذا الامام كما انه لم ينشر لاعلام وطنه ما نشر له من آثاره،
 وحسب ابن الخطيب فى باب العلم منقبة ان ينسب الفضل فى بقاء هذا
 الارث الادبى من كتبه الى الوسائل التى اختارها لحفظ آثاره .

ثناء الاكابر على كتبه

قليل من المتأخرين من اعلام هذه الامة من حالف التوفيق انتاجه كابن الخطيب الذى مع كثرة مؤلفاته لا يعرف قلمه الا بالابداع والاجادة، فقد قال احد افراد الادب من بيت الامارة وهو ابو الوليد ابن الاحمر كما فى النفح والازهار، ان لابن الخطيب الاوضاع المصنفات التى اذان احسانها هى المقرطات المشنفات منها فى التصوف الذى اكثر اهل الحقائق اليه نظر التشوف روضة التعريف بالحب الشريف، وقال الشهاب فى نفح الطيب ان كتب ابن الخطيب الآن بالمغرب هى قبلة ارباب الانشاء التى اليها يصلون وسوق درهم النفيسة التى يزينون بها صدور طروسهم ويحلون، ووقف قاضى القضاة البرهان الباعونى على بعض مؤلفات لسان الدين وكان من المعجبين بسحر بلاغته فكتب ما لفظه وقفت على هذا الكتاب من اوله الى آخره وعمت من بحر بلاغته فى زاخره وعدته من مناقب مؤلفه ومفاخره فانه برز فيه غاية التبريز واتى بما هو احسن من الذهب الابريز لا بل بما هو ابهى من الجواهر والنجوم الزواهر، وعجبت من تلك الالفاظ المشبهة لسحر اللاحاظ ورقة المعانى المحكمة المبانى، وقال الاستاذ محمد كرد على ان ابن الخطيب ما كتب كتابا الا عن فكر وروية وناهيك بما يصدر عن ابن الخطيب حسنة الاندلس ونابعة عصره، بل كثير من العصور قبله وبعده، ومحاسن لسان الدين فى خصوص مؤلفاته اعظم من ان يأتى عليها الوصف او يعمل فى حقها اداة القصر، فان كتبه لا تذكر فى اخباره الا مقرونة بالفاظ الثناء شمشية بأداة التعجب من تلك الموهبة الانشائية والقدرة البيانية، ولم تزل آثاره محل اعجاب وتقدير من عصره الى الآن لا عند أمته العربية فحسب، بل كتب ابن الخطيب ارث عالمى يرغب فيه كل من يتعشق الكمال، ولذلك لم يعدم ابن الخطيب فى كتاب الاستشراق افرادا درسوا كتبه، وتناولوها بالشرح والتعليق وقدموها الى عالم النشر ليشهد العالم الادبى اى ثروة ادبية كانت تفيض بها الذهنية الخطيبية واى كنز اشتملت عليه المكتبة العربية .

موضوعات كتب ابن الخطيب

كان لسان الدين من قوة الحافظة وسعة العارضة بحيث لا تستعصى عليه الاجادة والابانة عن حقائق ما كان يصرف العناية اليه من مختلف الفنون، فقد عرف بين معاصريه بالتضلع فى الكثير من معارف عصره، وتشهد لهذه المشاركة كتبه التى لم يقصرها على فن او فنين، فاننا وان حرمنا من الوقوف على الكثير من انتاجه العلمى، فان ما وقفنا عليه منها يدل على ان لسان الدين ممن اوتى بسطه فى علمه وموهبة فى نشره ونظمه، فقد طرق بكتبه عدة فنون جاز بها نطاق ما عرف به من امامة فى الادب والتاريخ، ودخل بها فى نحو العشرين فنا لا يلج باب التأليف فى جميعها الا من كان فى مشاركته وسرعة فهمه وادراكه، فاما التاريخ على اختلاف انواعه من تواريخ الدول ومناقب الرجال واخبار البلدان فيمكن ان يدرج فى فنونه جملة كتب مما اجاد فيه قلم الابداع كالاخاطة ومختصرها الاماطة، ورقم الحلل فى نظم الدول وشرحه، والحلل المرقومة وقطع السلوك فى نظم الملوك وطرفة العصر فى دولة بنى نصر، والملحة البدرية فى الدولة النصرية، وعائد الصلة، واعمال الاعلام. ويلتحق بهذا القسم كتب الفهارس والتاريخ الادبى، كالتاج المحلى وتكملته الاكليل الزاهر، والنفاية بعد الكفاية، والكتيبة الكامنة، وخلع الرسن من اخبار القاضى ابن الحسن، والمباخر الطبيعية فى المفاخر الخطيبية، وقسم الرحلات كنفاضة الجراب، وخطرة الطيف، والرحلة العنانية الافريقية. فهذه نحو العشرين مؤلفا لابن الخطيب فى خصوص التاريخ وفنونه، كالمسالك والممالك والجغرافية والبلدان والرحلات والتراجم. اما الفنون الادبية من شعر ونثر ووصف، وهى فنون طبعه ومعارف تخصصه فله فى الشعر ديوانه الصيب والجهم، ومختصره، واييات الابيات، وفتات الخوان ولقط الصوان، والدرر الفاخرة والمنح الغريب فى الفتح القريب وجيش التوشيح وجمع ديوان شعر شيخه ابن الجياب والسحر والشعر وله فى النثر كناسة الدكان وريحانة الكتاب وتخليص الذهب وتافه من جم، ومساجلة البيان وله فى الادب الوصفى معيار الاختيار والمفاضلة، وفى السياسة رجز السياسة، المقامة السياسية، كتاب الوزارة، وفى الطب وفنونه اليوسفى عمل من طب لمن احب الوصول لحفظ الصحة فى الفصول مقتعة السائل، المعلومة رجز فى الترياق تكوين الجنين رسالة فى الاغذية،

وفى الفقه مختصر فيه ومثلى الطريقة، وفى الاصول ألفيته التى اشتغل ابن خلدون بشرحها، وفى الموسيقى رجز فيها، وفى البيطرة مؤلف فى مجلد وفى البيززة مؤلف كذلك، وفى التصوف روضة التعريف وفى العربية شرح الالفية وفى فنون مختلفة من توحيد وغيره، الغيرة على اهل الحيرة وحمل الجمهور والزبدة الممخوضة وسد الذريعة وتقرير الشبه واستنزال اللطف الموجود، وفى اللغة اختصار صحاح الجوهري، ولعل اغرب هذه الموضوعات التى يدل وصفها على كبير امامة وعظيم مشاركة هى مجموعة بستان الدول، فان هذا المؤلف كانه دائرة معارف اراد ابن الخطيب ان يسبق بتدوينه التاريخ، فانهى منه ثلاثين سفرا عند الله علم ما اشتمل عليه هذا البستان من ورود وازهار وعلوم واسرار، ولكن جاء الاجرام الانسانى، فحال بين الامة وهذه الامنية بعتوه وطغيانه، كما حالت الايام بيننا وبين الكثير من هذه المؤلفات التى اراق فى تأليفها ماء حياته، وخلع عليها برد شبابه وقد طغى سيل الاهمال حتى على اسمائها فكشف الظنون على كثرة ما حشر فى هذا المجموع من صحيح ومضنون لم يذكر من اسمائها الا سبعة من ثمانين مؤلفا على ما فى ذكره من تحريف ووصف لا يدخل فى باب البسط والتعريف فلنودع الآن باب الاجمال عن هذه التأليف فانه لا يطرب الحادى ولا يروى غلة الصادى ولنتوج الحديث عنها وقد دخلنا فى التفصيل والبيان بأحقها بالتقديم واولاها بالاجلال والتكريم وهو كتاب الاحاطة

الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة

لعل هذا المدون الحافل والمجموع الجامع هو اشهر كتب لسان الدين، واشبه آثاره بالخلود أملاه بدافع من تلك الواردات التى حملت مؤرخى دمشق وبغداد ومن سلك سبيلهم من مؤرخى البلدان، الى كتابة تواريخ زادت اجزاء بعضها على عشرات، وجاء بعضها فى عدة مات ، وهو مجهود يبعث عليه فى الغالب التفانى فى حب الوطن من اجله، نجا نحوهم هذا المجتهد العامل، فشيد لمفاخر بلاده غرناطة معالم ونشر من محاسن رجالها مآثر احيى بها امواتا، ونشر عظاما ورفاتا، وأبقى هذا المجموع النفيس فى التاريخ الاندلسى صفحة خالدة لا تبليها الايام، ومآثره تذكرها الاجيال، مقرونة بالاكابر والاجلال، افتتح الكتاب بخطبة من سحر

بلاغته خرج منها الى ذكر مقتداه من مؤرخى الاوطان، وكتاب البلدان ، ثم شفع هذه الاجادة بقلم الافادة عن جغرافية البلاد وحلية أهلها وعوائد سكانها، وهو فصل من ريشة ابداعه، لا تزال اقلام المتأخرين تنقله كدليل على روعة قلمه فى اجادة الوصف وأبداعه ومن هذا الفصل تخلص الى الموضوع على خطة رسمها وطريقة اختارها، ونحن ننظم عقد الحديث عن هذا الكتاب الممتع والاثر النفيس فى بضع كلمات .

طريقة لسان الدين فى تدوين احاطته

يمتاز هذا الكنز الثمين من بين اعلاق الادب وذخائر التاريخ الاندلسى بمميزات قد لا نجد بعضها، فأحرى جميعها فى بقية ما يقرأ لكتاب ذلك القطر ومؤرخى ذلك العصر مما نشر أو لا يزال موعودا فى زوايا الاهمال وموضوعا على رفوف المكاتب الى الآن، وقد لا نغالى اذا قلنا ان ابن الخطيب قد اهتدى فى تدوين اخبار وطنه الى طريقة قل من وفق اليها، ونهج سبيلها ممن كتبوا فى اخبار البلدان ومناقب الاوطان، فابن الخطيب لم يقتصر فيما جمع على سرد الحوادث وعرض التراجم وتسجيل ما ابادته الايام من الآثار للتدبر والاعتبار ، ولكنه وهو المفكر والمبتكر معا، قد حمل ريشة الموفق المبدع، فنقل صورة قطر وحياة امة، وتاريخ اجيال، وجلاها امام من تأخرت به الايام فأصبحت مدنية غرناطة وكأنها مشاهدة بالعيان، وان تقدم بها الزمان، وأتى عليها ما صير غيرها فى خبر كان .

فبعد الفصول التمهيدية التى رسم فيها المؤلف قاعدة المملكة فى صورة ابان فيها عن عمق فى التفكير، وادراك لقيمة ما هو جدير بالخلود من عوائد الامم واخلاقها والاسباب التى عملت فى تقدمها وانحطاطها، يندر فى المفكرين والمبدعين من المؤلفين من يجيد فيها اجادته أو يقتفى خطاه وطريقته دخل فيما يعد فيه بحق طبقة وحده فى ترتيب غريب، واسلوب عجيب، تولى بنفسه كشف القناع عنه فى صدر الكتاب معلنا بأن ذلك الترتيب هو الذى انتهت اليه جبلته وصدقت فى اختياره مخيلته، فاختار ذكر الاسماء على الحروف المبوبة، وفصل الاجناس بالتراجم المرتبة فابتدأ بذكر الملوك والامراء ، متلوين بالاعيان والكبراء ، ثم بالفضلاء ثم بالقضاة والمقرئين والعلماء ، ثم بذكر المحدثين والفقهاء وسائر الطلبة

النجباء، ثم بالكتاب والشعراء، ثم بالعمال الامراء، وختم بالزهاد والصلحاء والصوفية والفقراء، ليكون الابتداء بالملك والاختتام بالمسك، ولينتظم الجميع انتظام السلك، مراعيًا في كل طبقة من سكن غرناطة بحكم الاصلة والاستقرار، أو طراً عليها مما يجاورها من الاقطار أو خاض اليها وهو الغريب أثباج البحار، أو الم بها ولو ساعة من نهار، فان كثرت الاسماء نوع وتوسع وان قلت اختصر واكتفى بما جمع ملاحظا في ترتيب الحروف من الاسماء والاباء والاجداد لشذوذ المواليذ والوفيات التي يرقها الزمان على الاستقصاء فلا يدعها الجهل بها تخضع لنظام، وذهب في التراجم الى ذكر نسب المترجم واصالته، وحسبه، ومولده، وبلده، ومحنته، ومذهبه، ومشيعته، وتأليفه ان كان من المؤلفين، ومميزات من امتاز بفن أو شعراً، جاعلاً ترتيب الكتاب على قسمين، القسم الاول في حلى المعاهد والاماكن والمنازل والمساكن، والقسم الثاني في حال الزائر والقاطن والمتحرك والساكن، وبهذا الترتيب الغريب والاسلوب العجيب، الذي سلكه ترتيب كتابه ندرك طبيعة روحه الاستقلالية حتى في تبويب اوضاعه العلمية وتقانيه في حب النظام الذي بدافع منه جعل لكل ترجمة من تراجم مجموعه عناوين قرب بها الفائدة على المستفيد، لن يدرك مدى هذا العمل المثمر الا من عنى بمراجعة المعاجم والكشف عن محط الفائدة من التراجم، فأكرم بها من جهود مبنولة في هذا المدون الجليل لن يتيسر مثلها الا لمن ايد بعناية وتوفيق ونهج نهج ابن الخطيب في نظم شمل ما تفرق من الوثائق .

قيمة الكتب العلمية

غالب الكتب التي عرفتها الطباعة في تراجم الاندلسيين كالمكتبة الاندلسية التي هي اليوم انفس ما يقتنى في هذا الباب، لا يغذى عاطفة الباحث، ولا يروى غلة المؤرخ والاديب، ولعل اجمع ما نشر الى الآن هو كتاب نفح الطيب، ومن حق الاحاطة ان لا ننكر احسانها وفضل تراجمها المبسوطه على هذا الكتاب زيادة على ان كتاب النفح هو من يمن ابن الخطيب على بلاده، وحسنة من حسناته التي اهداها الى وطنه بعد وفاته، واذا كان في ذخيرة ابن بسام الجارى طبعها ما فيه كفاية الاديب، فانها بالنسبة لبقية اصناف الكبراء واعيان العلماء، لا تسد خلة ولا تشفى من غلة .

ولعل حظ المحفوظ من المخطوط ليس بأجدي فائدة على المغرم
 باخبار الرجال وتراجم مفاخر الاجيال حاشا كتاب الذيل والتكملة لكتابي
 الموصول والصلة لمؤرخ المغرب وامامه الذي عن فضله يعرب ابى عبد
 الله محمد بن عبد الملك المراكشى فمؤلفه فى رجال الرواية والاسناد من
 احصاء للشيوخ والرواة وضبط للولادة والوفاة وتصحيح للرحلة والسماع
 وجمع للاجزاء والاجازات وما له بفنون الرواية اتصال فرد الكمال ورجل
 الاجادة والاتقان قل فى المتأخرين من اخلص لرجال هذه الفنون كاخلاصه
 او جراه فى جمعه وتحريره ، الا ان هذا الامام وان كان
 قد قام بواجب رجال الفن الحديثى ، فنظم شمل محاسنهم فى كتابه الذى
 هو من خير ما يفاخر به مؤرخو الاندلس والمغرب ، فان كتاب الاحاطة
 بالنسبة لبقية اصناف الامة ، ليس فى المجاميع الاندلسية من يسد
 فراغه ويغنى غناه ، فانه من مجموع التاريخ الاندلسى كانه ديوان احصاء
 فيه يجد كل صاحب فن مبتغاه ، فالزاهد والمجتهد والملك والاديب فى
 قلم لسان الدين كالمهندس والموسيقى والفيلسوف والمنجم والطبيب
 لكل طائفة من قلمه نصيب لا تطيش من ميزان عدله كفة احسانها ، ولا
 يحمله الهوى على التقليل من مميزاتا .

فكتاب الاحاطة من التاريخ الاندلسى عموما وعاصمة بنى الاحمر
 خصوصا ، هو المرأة الصافية التى نبصر فيها الصفحة الخالدة من جمال
 ذلك القطر الاسلامى الموءود منذ لاح نورها فى أفق التاريخ ، وهى مادة
 المنصفين من المصنفين اليها فى استفتاء اخبار الجزيرة يرجعون ، وفى
 موردها العذب يكرعون ، ومن مادتها التى لا ينضب معينها يغرفون ، ففي
 هذا الكتاب من اخبار الملوك وادبهم السلوك وما يتصل بهم من رؤساء
 وحجاب ووزراء وكتاب ما يتيسر معه للباحث ان يقيم منه صورة كاملة
 الادوات يعرف بها نظام الحكم فى الاندلس ، وبالاخص فى عهد بنى الاحمر ،
 الذى ترك فى كتبهم من سيرهم ودقائق اخبارهم ما فيه العبرة والذكرى ،
 وفيه من اخبار الزهاد والعباد والخطباء والوعاظ والولاة والعمال ورجال
 الشورى والقضاء ، ما فيه للاكياس تحفة وللانفاس سلوة ، وللاسماع
 زائد امتاع ، وهى للمؤرخ كما هى للاديب مورد اخبار وديوان اشعار
 وبقاة ازهار وحانوت عطار ومستودع اسرار ومعرض آراء ونكت وانظار .
 اما قيمتها العلمية بالنسبة لخبار القطر الاندلسى فهى فى مقدمة
 مواد المتأخرين فى الكثير من تراجم الاندلسيين الا ان ملتقط الفائدة

منها ربما اخل بواجب العزو اليها لكثرة شنه الغارة على هذا الكنز الثمين واغترافه من هذا المورد الذي لا ينضب له معين، فالاحاطة من اعظم مواد من كتبوا في طبقات المالكية كما هي عمدة من كتب في النحاة واللغويين كالشيخ جلال الدين، بل هناك من استعان بها في جمع اعلام مذهب الامام الشافعي وهو الحافظ قطب الدين الخيضرى وقد ظن عصره الشمس السخاوى ان هذا الكتاب مقصور على مالكية بلاده، فأخذ على منافسه التجاه الى نسخة الوقف من الاحاطة ليستعين بها في تدوين طبقات اعلام مذهبه، الشافعي وعد ذلك من غفلته وهي مماكسة من حافظ عصره يردها الواقع، فالاندلسيون وان عرفوا بالمذهب المالكي فقد زارها من مختلف البلدان ورجال المذاهب المتنوعة جماعة لم يهمل قلم التدوين من مؤرخى الاندلسيين اخبارهم، والاحاطة نفسها قد اشتملت على جماعة من اعلام المذهب المطلبى كآبى عبد الله محمد ابن ابراهيم الحسنى المتوفى سنة احدى وثلاثين وسبعمائة، والشهاب احمد بن الحسن الفرضى والشيخ ابى عبد الله محمد بن على بن يحيى بن على الغرناطى وغيرهم ممن لا تدعوا الحاجة الى عرض اسمائهم، وما زالت همم العلماء تتطلب الفائدة ولو فى غير مظانها، فكتاب الاحاطة بكثرة فوائده وتراجمه لا يخيب ظن راجيه، ولا يوصف ببخل فى اخبار اصحاب الملل والتحل والاهواء والشعوذة والكهنة والممخرقين، كما انه من خير ما يرجع اليه فى معرفة اخبار المهندسين والمنجمين والحيسوبيين والعديدين والنباتيين والفرضيين، ففى هذا المجموع المتمتع يجد الباحث طرفا ونوادير من اخبار رجال هذه الفنون التى لبعضها ب حياة هذا العصر ارتباط، وللباحثين من كتاب الادب الحديث فيها زائد اغتباط .

اما الطب وفنونه فابن الخطيب بدافع من امامته فى هذه الفنون قد خلد من اخبار الاطباء ونواديرهم واسماء مؤلفاتهم ما تتوج به مواد من يعنى بالذيل والاستدراك على طبقات الاطباء .

اما من همه البحث فى انتاج رجال العلم بهذا القطر الاندلسى فالراغب فى هذا الفن لن يجد لاشباع نهمه وتحقيق مهمته كاحاطة ابن الخطيب التى احتفلت بآثار الاعلام فجعلت التأليف فضلا من فصول الترجمة فلا يهمل منها الا ما لا خطر له او الذى لم يبلغه خبره .

وعلينا ان لا نهمل فضل هذا الكتاب على التاريخ الافريقى عموما والمغربى خصوصا والسبتى منه بنوع أخص، ففى الاحاطة تراجم رجال

اعظم بهم من رجال تناولهم قلم هذا الامام بالتنويه والاجلال على وفق شرط الكتاب فكان تخليد اخبارهم من صالح الاعمال كالقاضي ابي الفضل عياض السبتي وولده الامام ابي عبد الله محمد، والكاتب ابي جعفر بن عطية، والكاتب ابي العباس احمد بن علي الملياني، والامام ابي اسحاق ابراهيم بن عبد الرحمن ابي بكر التسولي التازي، والعالم الطيب والفيلسوف الاديب احمد بن شعيب الفاسي وقاضي فاس ابي عبد الله محمد بن عبد الملك الفشتالي والمحدث ابي عبد الله محمد بن علي بن العابد الانصاري الفاسي والحافظ الشهير محمد بن عمر السبتي الشهير بابن رشيد والرحالة الشهير محمد بن عبد الله ابن محمد بن ابراهيم الطنجي المعروف بابن بطوطة وشيخ الادب مالك ابن المرحل السبتي والاستاذ الحافظ محمد بن عبد المنعم الحميري السبتي والاديب اللغوي الكبير محمد بن علي بن هانيء السبتي والامام المحدث الكبير عبد المهيمن الحضرمي السبتي وامام الجماعة القاضي ابي القاسم الشريف السبتي وشيخ فاس ابي الحسن الصغير وقاضيتها الامام الكبير محمد بن احمد المقرئ والشيخ المتفطن ابي عبد الله محمد بن يحيى العبدري المعروف بالصدفي الفاسي والشيخ الفقيه المتكلم ابي عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن سعيد الكرسوطي ونادرة عصره محمد بن شاطر الجمحي والقاضي ابي عبد الله محمد بن عياض بن محمد بن القاضي عياض، وابي اسحاق ابراهيم بن ابي بكر بن عبد الله بن موسى الانصاري نزيل سبتة وصاحب القلم الاعلى ابي محمد عبد الله بن يوسف الانصاري الشهير بابن رضوان والامام الاصولي ابي القاسم السبتي الشهير بابن الشاط، والرئيس الجليل ابي طالب عبد الله بن محمد العزفي السبتي، وامراء المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ويعقوب بن عبد الحق المريني، وابي الحسن المريني وابي سالم المريني والامير ابي بكر بن ابراهيم اللمتوني، والامير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، والامير ادريس ابن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن الموحدى، والامير مزدلى اللمتوني والامير منديل بن يعقوب بن عبد الحق، وامير المسلمين ابي عنان المريني في آخرين من امثال هؤلاء الامراء الكرام والعلماء العظام الذين الى ابن الخطيب يرجع الفضل في تدوين الكثير من اخبارهم، وبالاخص من عاصره منهم فان التاريخ المغربى لن ينسى فضل الاحاطة في نشر معاسن رجاله وتخليد آثارهم، وان التاريخ السبتي بالخصوص لمدين

لهذا الكتاب بالصفحة العلمية التي خلفها وراءه كالدليل على ان هذه المدينة المغربية ذات المآثر التاريخية كانت الى عهد لسان الدين لا تزال برزخ الوصل بين الثقافتين المغربية والاندرلسية.

ومزايا هذا الكتاب وان اتسعت مداها فلا نعرف لها نهاية فان المعجز والجدير بالاشادة والتنويه من كل ما ذكر هو البيان الذي كتب به ابن الخطيب هذه المجموعة التي تبلغ اجزاؤها خمسة عشر سفرا على ما يوجد في ترجمة المؤلف بقلم مؤلفه في آخر اجزاء احاطته، فان الواقف على كتابه والمتتبع للاسلوب الذي اختاره لعرض محاسن رجال بلاده، لا يبصر من تراجم الكتاب الا صورا قائمة من آثار المترجمين وآثاراً قاطعة تشهد بما اوتي هذا المبدع من القدرة على التعبير والابانة عما يعجز عن اداء بعضه قلم البليغ، ولقد سبق للاستاذ محمد كرد علي ان أبصر سر هذه الموهبة البيانية في كتابة تراجمه كما في ثلثي مجلدات المقتبس فلم يخف اعجابه باسلوب لسان الدين، وقال ان له في الانشاء نمطا خاصا به وتعبيرات لا توجد لغيره من كتاب المشرق والمغرب تمثل في كلامه روحا عاليا ولفظا شفافا ومعنى جزلا تقره الترجمة في الاحاطة فيتجلى لك المترجم به كأنك تراه، وما اظن كتاب التراجم من الافرنج اليوم بأقدر على وصف رجالهم من صاحبنا ، ولا عجب فهو قد غدى ايضا بتلك التربة المسكية والهواء الصافي والماء العذب واللبقاع تأثير في الطباع ، وما المرء الا نسخة ثانية من محيطه هـ. ومن مقاله في الانشاء والمنشئين كما في ص ١٢٢ من خامس مجلدات المجمع العلمي لو لم يكن لسان الدين الا الاحاطة لكفى هذا الكتاب في تفوقه وكتابته وشعره فانه صور وترجم لهم كأنك تراهم، فانه كاتب ومصور على ما يظهر هـ. وبهذا الكتاب ونظرائه من تراث عصر الاسلام الذهبي في الفردوس المفقود أقام البرهان على مميزات الادب الاندرلسي صاحب مقال (اللغة العربية وخزائنها) المنشور في المجلد العاشر من مجلة المجمع العربي كما ان الاستاذ محمد كرد علي عند الاشادة بأعمال المستشرقين وحديثه عن تراجم المجموعة الاندرلسية لم يسعه الا تجديد اعجابه باحاطة ابن الخطيب كما في ص ٣٣٦ من خامس مجلدات المجمع العربي. ولعل من الفرق بقارىء هذا البحث ترك التعرض لمميزات انشاء لسان الدين وخصوصا في الاسلوب الذي اختاره لكتابة احاطته وتدوين تراجمه فلندع من اليد قلم التنويه بالقيمة الادبية التي يحتلها هذا المجموع

بين كتب الادب والتاريخ علماً منا بأن كل ثناء قد يعد نقصاً من قيمة الكتاب ولنقتصر على هذه الإشارة ان لم توف بالواجب العبارة والاعتراف بالعجز عن الادراك ادراك .

مصادر ابن الخطيب فى احاطته

فوق جلالة المؤلف التى تخلص على آثاره طابع القداسة قيمة الوثائق التى هى لقلم التدوين معدن النحت ومادة البحث، فبقدر اهمية المستندات تعظم قيمة الكتاب ويعلم الخطأ من الصواب وابن الخطيب من المواد العلمية والوثائق التاريخية يكاد يكون امة وحده ففى كل كتاب من كتبه العلمية والتاريخية ينقل عن اصول عتيقة ومصادر هى بالغرابة خليقة حظ الراغب فى الوقوف عليها معرفة اسمائها، اما الكثير من المسميات فهو اليوم بين دفين حرق وتغريق وحليف بتر وتمزيق ، واسير سجن فى مكان سحيق، الا اشلاء خلفتها الايام وراء الركب كالنواذب على ذلك المجد الذاهب، وقد اشار ابن السكاك فى كتابه نصح ملوك الاسلام الى كثرة الوثائق التاريخية التى دخلت فى يد لسان الدين وانه بذلك استحق الامامة والتقديم على غيره فيما ينقله ويحكيه، ولعل غرابة الوثائق التى هى مصادر ابن الخطيب فى احاطته هى التى استرعت انتباه القاضى ابن السكاك وغيره كقوله فى مقدمة الاحاطة، واما ما رفع الي من الموضوعات العلمية والوسائل الادبية والرسائل الاخوانية، لما اقامنى الملك صنما يعتمد، وخيالا اليه يستند، صادرة عن الاعلام وحملة الاقلام، ورؤساء النشار والنظام، فجم يضيق عنه الاحياء، ويعجز عن نشره الاستقصاء، وربما تضمن هذا الكتاب كثيراً ومنظوماً ثيراً، ودرا كثيراً جرى فى اثناء الاسماء، وانتمى الى الاجادة اكرم الانتماء، فهذه ثروة ادبية ومادة لكتابه لا يظفر بها الا من كان فى مرتبته من الدولة التى من اجلها كانت الامة تخطب وده بانتاجها الادبى، زيادة على الكتب العلمية التى هى من خير ما يطرق به ابواب الوزراء ، على ان ابن الخطيب وان اكتفى بهذا الاجمال فى عرض مصادره فى صدر الكتاب فانه لم يستغن عما دونه الاقدمون ولا اخل بنسبة فوائده العلمية الى مراجعها الاصلية، فمن الاصول التى استمد منها كتاب المقياس لابي مروان الوراق، والاستيعاب للرازى والميتين لابي مروان بن حيان، والانوار الجلية لابي الصيرفى ،

والتاريخ الصغير له، وتاريخ رجال الاندلس لمطرف بن عيسى، والمغرب والبيان المغرب لابن عذارى المراكشي، والطالع السعيد لابي الحسن ابن سعيد، وسمط الجمال لابي عمرو بن الامام، وتاريخ ابن الفياض وكتاب التذكرة لابي بكر بن شبرين، وتاريخ ابن حمامة وقضاة قرطبة للخشني، وتاريخ مالقة لابن عسكر، والقدر المعالي لابن سعيد، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وصلة الصلة لابي جعفر بن الزبير وطبقات صاعد الاندلسي، ونزهة البصائر والابصار لابي الزبير، والموارد المستعذبة للشيخ الوزير ابي بكر ابن الحكيم، وذيل تاريخ مالقة للقاضي ابي الحسن النباهي، والمؤتمن للامام ابي البركات البليقي، وعنوان الدراية للغريسي، وترجمة القاضي عياض لولده القاضي ابي عبد الله، ومختصر الرسالة العلمية لابن ليون، وبهجة النفس وروضة الانس لصالح ابن شريف الرندي، وتاريخ فتح الاندلس لابن القوطية، ومختصر نور المريدين، وتاريخ ابن مسعدة، ومقامات ابن شرف، وشعر من لا شعر له لابي البركات، ومختصر رحلة الحافظ ابن رشيد، والكتاب الخزائني وتاريخ البيرة للحافظ ابي القاسم الغافقي وتقييد الامام ابي القاسم بن جزي، وعجالة المستوفز للامام ابي عبد الله بن مرزوق ومشيجة القاضي المقرئ وغير ذلك مما يعد الكثير منه اليوم في حكم النادر او المفقود، وربما استمد من بعض كتبه كعائد الصلة وهو ذيله على صلة ابن الزبير والتاج المحلي والاكيل الزاهر وتلخيص الذهب وطرفة العصر في اخبار بني نصر، وكتب اخرى يترجم ما ذكرناه عما اخفناه او منعنا من الوقوف عليه عدم الاطلاع على الاصل

على ان ابن الخطيب ليس في حاجة الى من يقيم له الدليل على بعد همته وسعة اطلاعه وكثرة مصادره التي كان يستمد منها في تدوين مؤلفاته وانما التقطنا اسماء هذه المواد من تراجم الاحاطة ليدرك طالب الفائدة مبلغ الجهود التي صرفها هذا الامام في جمع تراجم كتابه، فلا يذهب مذهب من اتهمه بشن الغارة ومد اليد الى كتاب صديقه ابن جزي ولنعلم كذلك بأن حظ الاندلسيين من ميراث آبائهم الى عهد ابن الخطيب كان لا يزال سعيدا، فان اكثر تلك المصادر لم تعد اليوم في متناول الباحث وفي بعضها من زادت مجلداته على الستين فسبحان من له وحده البقاء وكل شيء هالك الا وجهه

وقبل نفص اليد من سرد اسماء هذه المصادر يحسن بنا ان نضيف اليها ما صدر به الكتاب من قوله، بذلت فيه جهدي واقطعته جانب سهدي فلم اجد واحدة الا استنجدتها ولا حاشية الا احتشدتها ولا ضالة الا انشدتها، والمجتهد في هذا الغرض مقصر والمطيل مختصر اذ ما ذكر لا نسبة بينه وبين ما اغفل وما جهل اكثر مما نقل، وبحار الممداد مسجورة وغايات الاحسان على الانسان محجورة، ومن اراد ان يوازن هذا الكتاب بغيره من الاوضاع، فيتأمل قصده ويثر كامنه ويبد خباياه تتضح له الكرامة ولا تخفى عليه النصفة ويشاهد مجزى السيئة بالحسنة والاغراب، عن الوصفة بالظنة اذ الفاضل في عالم الانسان من عدت سقطاته فما ظنك بمفضوله وللمعاصرة مزية المباشرة ومزيد الخبرة وداعى التشفى والمعارضة وسع الجميع البشر وشملهم البر .

تاريخ تدوين الكتاب

في الترجمة التى ختم بها اللسان احاطته وهى الترجمة التى ينقل عنها الشهاب المقرئ كما فى ص ٦٥٢ من رابع نفحة وقعت الاشارة عند الالمام بذكر التأليف الى تاريخ تدوين هذا المؤلف وانه من الكتب التى صدرت عنه قبل مفارقة الاندلس، وهذه الاشارة منه وان لم تقم مقام النص فى تحديد الزمان وتعيين السنة التى دون فيها كتابه فانها تدل على ان هذا الكتاب هو من كتبه التى خلع عليها برد شبابه ، لان التاريخ الذى فارق فيه الاندلس ووفد على هذه البلاد كان بعد محنته الاولى حوالى فاتحة سنة احدى وستين وسبعمائة على ما تعرفنا به حوادث حياته فى مقامه وتنقلاته، ولا يرد على هذه الوثيقة تاريخ الترجمة التى ألحقها بآخر كتابه، فتاريخ الترجمة وان كان فى سنة خمس وستين وسبعمائة فان المؤلف فى يد مؤلفه كالمكلف، لا يرفع عنه القلم الا بالموت، فليس ببعيد وقد انتهى المؤلف فى التاريخ الذى افاد به ان تكون الترجمة من وحى الساعة التى ارتأى إلحاقها بآخر كتابه، فوقع تسجيلها فى التاريخ الذى خطرت بباله، وضمها الى الاصل الذى مضت على انهاءه اعوام، ويدل على قدم تدوين هذا المؤلف وان المجتمع العلمى قد عرفه بمجلداته المتعددة قبل التواريخ المبثوثة فى القسم المنشور من المجموع الذى يحمل اسم الاحاطة عدة وثائق من بينها الرسائل التى

تبودلت بين لسان الدين وصفيه ولى الدين، فإن من الرسائل التي حفظتها لنا المذكرات الخلدونية رسالة مؤرخة بثنائي جمادى عام تسعة وستين وسبعمائة تحدث فيها ابن الخطيب الى صديقه بما تجدد عنده من كتب ورسائل، ثم عرفه بارسال كتاب الاحاطة الى القاهرة فى اسلوب يدرك منه الواقف عليه ان ابن خلدون قد عرف الاحاطة قبل، اذ لو كان هذا الكتاب مما تجدد وضعه بعد مفارقة صديقه للاندرلس، لكانت الافادة بما اشتمل عليه أولى بالحديث من غيره.

ومعلوم ان الزمان الذى عرفت فيه الاندلس هذا العبقري فى عهد وزارة صديقه كان بين سنة اربع وستين وفتح عام ستة وستين وسبعمائة

وهناك وثيقة ثالثة وهى الرسالة التى بعث بها ابن الخطيب مصحوبة بنسخة كاملة من الاحاطة الى امام مصر وقاضيه ابى البقاء السبكى فقد زاد فى ضعف الثقة بالجزء المنشور الذى امتدت تواريخ تدوينه الى سنة احدى وسبعين وسبعمائة وقوفنا على جوارب السبكى وهو مؤرخ بالثالث والعشرين من شهر الله المحرم فاتح عام ثمانية وستين وسبعمائة.

ولعل من اهم الحجج الكفيلة برفع اللجاج عند الاحتياج وثيقة الوقف التى كتبت على ظهر النسخة المرسلة من ابن الخطيب الى القاهرة ورغبة منا فى الافادة بها نحن يعنى بالمقارنة بينها وبين الوثيقة التى سبكتها براعة خلف ابن الخطيب فى ابداعه الوزير ابو يحيى بن عاصم نذكرها بنصها على وفق افادة الشهاب بها .

الحمد لله وحده وقف الفقير الى رحمة الله تعالى الشيخ ابو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الاندلسى نفع الله تعالى به عن موكله مصنفه الشيخ الامام العلامة بركة الاندلس لسان الدين ابى عبد الله محمد بن الشيخ ابى محمد عبد الله بن الخطيب الاندلسى السلمانى فسخ الله تعالى فى مدته وفتح لنا وله ابواب رحمته ومنحنا واياء من رفده وعطيته، واسكننا واياء أعالي جنته جميع هذا الكتاب «تاريخ غرناطة» وهو ثمانية اجزاء هذا رابعها عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذى احضره وهو انه قوض اليه النيابة عنه فى جميع اموره المالية كلها وشئونه اجمعها والنظر فى احواله على اختلافها وتباين اجناسها تفويضا تاما على العموم والاطلاق والشمول والاستغراق لم يستثن شيئا مما تجوز النيابة فيه الا اسنده اليه

وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بثغر الاسكندرية المحروس ادام الله تعالى ايامه كمال الدين خالصة امير المؤمنين ابي عبد الله محمد ابن الربيعي المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذى الحجة عام سبعة وستين وسبعمائة وقفا شرعيا على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخا ومطالعة، وجعل مقره بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء رحم الله تعالى واقفها، وجعل النظر فى ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين ابي العباس احمد بن حجلة حرسه الله تعالى، ثم من بعده لناظر اوقاف الخانقاه المذكورة فلا يحل لاحد يومن بالله العظيم ويعلم انه صائر الى ربه الكريم ان يبطله ولا شيئا منه ولا يبدله ولا شيئا منه، فمن فعل ذلك أو اعان عليه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم، ومن اعان على ابقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، واشهد الواقف الوكيل عليه فى ذلك، وذلك فى الثانى والعشرين لشهر الله المحرم عام ثمانية وستين وسبعمائة انتهى نص الوثيقة، وهى كالمؤكد لبقية المستندات الدالة على تقدم تاريخ تدوين الاحاطة على تاريخ الاجزاء المطبوعة وان خزائن الوقف قد عرفت الكتاب فى ثمانية اسفار قبل انتهاء تدوين هذين الجزئين المنشورين تحت اسم الاحاطة، ولعلنا سنعيد الالتفات الى تحقيق هذه النسبة ومبلغ صلة الجزئين المختصرين من الاصل، اما الآن وحديثنا يتعلق بتاريخ التدوين فعلينا ان لا نهمل رأيا غريبا خلفه لنا احد اعلام الادب فلندكره اولاً ثم لنعقب عليه ثانياً .

نظريّة الامير ابن الاحمر حول تدوين الاحاطة

قال الامير ابو الوليد بن الاحمر تلقينا ممن نشق به ان الكاتب المجيد الاصيل حسبا البارع ادبا، ابا عبد الله بن جزى وقد على السلطان ابي عنان صاحب المغرب فى حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، فآكرم جنابه وكمل من تقريبه واصطناعه اارابه، فانتدب الى ذكر وطنه الاندلسى وصاح بمن عذ له اياويح الشجى من الخلى وبرع غاية البراعة فى التاريخ الذى جمعه ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه فلم يكن شىء من الكلام الا قال الاحسان وانا معه استوعب ما شاء، وابدع فى كل ما نقل سواء كان شعرا او انشاء، ولكن سابق اجله منع من الامتاع بمجمله ومفصله،

وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدنا أمير المسلمين ابي
الحجاج فى غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة، فعين لتعريف
صاحب المغرب بالكائنة خاص الدولة ورئيس الجملة ابا عبد الله محمد بن
عبد الله ابن الخطيب، فوقف من تاريخ ابن جزى على شاطئ نهر فياض
وانتشق من ورقاته ازاهر رياض وحمله النظر فى بدائعه على أن يأخذ فى
جمع كتابه المسمى بالاحاطة فيما تيسر من تاريخ غرناطة، ووجد لذلك
موجبا اغراه بجمعه، وهو ان الشيخ الحجة الشاعر المفلح ابا اسحاق بن
الحاج وقد على الاندلس بعد جوبه الاتفاق وترحله الى ما وراء الشام
والعراق، واعلامه انه يذهب فى بدأة تاريخ مذهب ابن جزى وغيره وكان
وحيدا فى فنون الآداب والمساجلة لاعلام الكتاب، وبحكم الاتفاق على اثر
وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان ابي عنان وجد الحاجب الخطير
ابا النعيم رضوان، قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة واقنعه
بالاسم من ذلك المسمى، وبان وقفه دون طموحه الى عادته من المرقب
الاسمى فانتهج الانتباز من تلك الرياسة الخطيبية، ان الفى الخطة على
جلالة مقدارها وتوضح انوارها فى مرتقى اجلالها واكبارها واخذ فى
تأليف الاحاطة مستديعا تصحيح الموالد والوفيات والاسماء والمسميات
ومستكثرا من طرق المصنفات ليتم قصده من الاطباب ونقله الى العيون
الرائعة من كل كتاب والقى جميع مقاصده والمعظم من تنظيم فرائده بيد
الشيخ العمدة معلم الجملة منا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
ابى عبد الله الشريشى قدس الله تعالى ضريحه، وهذا الشيخ الذى لم
يجاوز سن الكهولة فى ذلك الوقت هو الذى تولى من المبيضات نقله
واحكم جنسه وفصله والختم على مجلدات ستة، ولما عاد ابن الخطيب الى
الاندلس بعودة جدنا الغنى بالله تعالى الى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة
تلاحقت الفروع من كتاب الاحاطة بالاصول وانجز من التبحر فيه الوعد
المطول ووضعت بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتممة من اثنى عشر
سفرا انتهى كلامه .

والذى يسرع فى تلاوة منشور اديب امراء بنى الاحمر بحسن نية
وسلامة طوية قد تخفى عليه الغاية التى من اجلها تكلف هذا الامير كتابة
هذا المنشور الذى هو باعلان عن مسروق اشبه منه بعرض فائدة ولكن
الذى ينعم النظر فى معانيه ويتلوه على ضوء العداوة التى ورثها هذا
الحفيد عن اسلافه، الذين لابن الخطيب فى تخليد مفارحهم الآيات البيئات

لن يخرج منه الا مومنا بمعرفة الهدف الذى رمى اليه هذا الاديب وهو تحطيم جهود لسان الدين وانكار فضله على تاريخ بلاده بهذا المجموع الذى كان فى ذلك العصر قد شرق ذكره وغرب .

فالتصميم ووضع اللبنة الاولى فى تشييد صرح هذا المجد هو لابن جزى الذى برع غاية البراعة فى التاريخ الذى جمعه ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه فاستوعب ما شاء وابدع فى كل ما نقل الخ. ومبتكر الفكرة والعامل على انجازها هو الشيخ ابو اسحاق بن الحاج، ومادة الكتاب من جمع للولادات والوفيات وضبط للاسماء والمسميات، ثم الظفر به باستدعاء ذلك من معاصريه، فلم يبق من مجهوده فى مجموعه الا طرف التأليف التى ما حشرها فيه الا حبا فى تكثير سواد الكتاب ورغبة فى الاطناب، وبعد هذا جاء دور استغلال بسطاء الكتاب فألقى بهذه الاشلاء الى شيخ كتاب ليضم بعضها الى بعض ويستصفى منها مجموعا متعدد الاسفار، هذا ما يمكن استخلاصه من هذا العرض الذى وان افرغ فى اسلوب قد تذهب على القارئ الغاية المرجوة من ورائه فانه ما اريد به الا سلب ابن الخطيب من موجوده فهل لابن جزى تاريخ لغرناطة عليه شن ابن الخطيب الغارة .

للسواذ من كتاب النقد قديما وحديثا آراء قد توصف بالعقم احيانا عند ما يبلغ بهم الاغراق فى الخيال الى اتهام المحسنين من المؤلفين بمد اليد الى انتاج غيرهم بمجرد تواطىء الخواطر على بحث موضوع خاص فينسب المتأخر الى اختلاس ما للسابق، وقد تكاشفنا الايام بان لا سابق هناك ولا لاحق وانما هو الرجم بالغيب بدافع من الهوى وحقد المعاصرة والقول بالظن الذى لا يغنى عن الحق شيئا، فقد تجرؤوا على حافط بغداد وشيخ مؤرخيها ابى بكر الخطيب وتقولوا على مؤلفاته وبالاخص منها التاريخ فقالوا انها مختلسة من كتب عين الدولة ابى محمد عبد الله بن الصورى مع شهرة هذا الامام واتقانه وقالوا عن صحاح ابى نصر الجوهري مع جودته انه نفس ديوان الادب لخاله ابى ابراهيم الفارابى اغار عليه كما استولى على الاسم والمسمى ابو سعيد اللغوى فكوفىء ابو نصر بن اتى على صحاحه باللفظ وهو اللغوى الاديب محمد بن تميم البرمكى فى كتابه المنتهى، بل ذهبوا الى أبعد من هذا فقالوا عن كتاب سيبويه وهو الكتاب الذى طارت شهرته فى الآفاق انه اجتمع على تأليفه نيف واربعون انسانا وانه هو اصول ومسائل الخليل ونسبه آخرون الى ابى عمرو

الثقفى، وانه نفس كتاب الجامع اخذه سيبويه فبسطه واضطرب حكم
آخرين فى تحقيق نسبة العين الى الخليل مما حمل الامام ابن در ستويه
الى افراد هذا التردد بمؤلف خاص وحاولوا تجريد الامام ابى عبيد من
كتابه غريب المصنف مع شهرة نسبته اليه وانقطاعه الى تأليفه وقضائه
نحو ثلاثين فى جمعه وتنسيقه ونسبوا المصنف الى كتاب الصفات
للنضر بن شميل كما رموه بأخذ كتاب غريب الحديث لابى عبيدة ومد
اليه الى غريب القرآن له وتجاهلوا الجهود التى بذلها ابن الفقيه فى جمع
وثائق كتابه فادعوا ان كتاب البلدان هو لغيره بل قال الخراصون عن
كتب الاقدمين وتقول الظانون على آثار المتأخرين بما نرى الامساك عنه
اولى من الافصاح ولو بطريق الرد والانكار فى عصر انتشر فيه فرض الشك
والارتياب، فحديث ابن الاحمر عن تدوين احاطة ابن الخطيب هو فى نظر
المنصف من جنس تلك الاتهامات التى اعتدنا سماعها من نقاد المؤلفين
وان جمجم وصرحوا ولوح وافصحوا والتهمة وان كانت وهمية فانها لا
تعدو كون ابن جزى قد سبق ابن الخطيب الى التدوين فى موضوع
احاطته مع ان اللسان فى نفس كتابه لم يخف عنا وقوفه على هذا الاثر
النفيس، كما افاد بأسماء كتب طرقت ابواب تاريخ غرناطة شكرا منه
للمحسن على احسانه وارشاده لمن يقابل بينها وبين مجهوده فى كتابه،
ونحن نثبت اسماء ما وقفنا عليه فى هذا الباب مما وقعت الاشارة اليه فى
تراجم الكتاب ، لان البحث قد يستدعى الحديث عنها فتكون احالتنا فى
ذلك على معلوم.

السر المذاع فى تفصيل غرناطة على كثير من البقاع

هذا كتاب ذكره ابن الخطيب فى ترجمة الحكيم الماهر النباتى
الشهير ابى عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن احمد بن محمد بن
يوسف الانصارى الاصل، الغرناطى المعروف بابن السراج احد شيوخ
المؤلف وكانت وفاته سنة ثلاثين وسبعمائة

مثالب اهل غرناطة

هذا كتاب ثانى وهو كسابقه كل منهما يعرف موضوعه من عنوانه
اجرى ذكره ابن الخطيب فى ترجمة ابى جعفر احمد بن محمد بن احمد

ابن عبد الرحمن المعروف بابن مسعدة العامري الغرناطي المتوفى سنة تسع وتسعين وستمائة، وقال انه وجد فى خزائنه زمام يشتمل على مثالب اهل غرناطة مما يحدث على الايام فى افرادهم من فلتات يجرىها عدم الاتصاف بالعصمة استقر عند ولده الفضل زعموا ثم خفى اثره، ستر الله عيوبنا، وحديثه عن هذا الكتاب حديث من لم يقف عليه ولا نرى هذا المجموع الا مكتوبا بأسلوب ما احدث من هذه المذاكرات التى تمزق فيها الاعراض على وفق ما تمليه الاغراض وقانا الله مصارع السوء

ادباء غرناطة

هذا الكتاب بهذا الاسم دعاه سيد الحفاظ فى الدرر الكامنة فى ترجمة الاديب ابى عبد الله محمد بن محمد بن احمد بن قطبة ناقلا ترجمته عن احاطة ابن الخطيب والموجود فى ترجمة المذكور من الجزء المطبوع وشرع فى تأليف يشتمل على ادباء عصره من غير ان يقصر موضوع كتابه على ادباء بلاده فلعل ذلك من تصرف مختصر الاصل

تقايد غرناطة

هذه التقايد وان لم يعن بالنقل عنها كثيرا، فمما شوهد فى ترجمة ابى عبد الله محمد بن الحسن بن على المرادى الغرناطى المعروف بابن المؤذن المتوفى سنة تسع وستين وستمائة نعلم انها وثائق تاريخية غرناطية .

تاريخ الغافقى

هو التاريخ المشهور للامام الناقد ابى القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى، تعرض له اللسان فى صدر الكتاب، وقال عن مؤلفه انه قام من هذا الواجب بفرض واتى من كله ببعض فلم يشف علة ولا سد خله ولا كثر قلة وقد تكرر النقل عن هذا الكتاب فلم يبخل على مؤلفه بنسبة فوائده اليه

شعراء البيرة

فى عشرة اجزاء .

تاريخ عرب البيرة

كتاب فى فقهاء البيرة

آخر فى شعرائها

ثالث فى العرب النازلين بها

هذه الكتب التى لها صلة بموضوع الاحاطة وماضى تاريخ غرناطة، وان كنت لم اجد لها ذكرا فيما وقفت عليه من تراجم كتاب ابن الخطيب فقد تكفل بذكر الاول الحافظ ابو محمد بن حزم فى رسالة المفاضلة وتعرض للثانى القاضى ابو الفضل فى شيوخه ولا اخال هذه الكتب الا نفس مؤلفات الامام ابى القاسم مطرف بن عيسى الغسانى الايبى الغرناطى الذى اليه يعود الفضل فى وضع اللبنة الاولى فى تاريخ بلاد غرناطة ، وقد اجرى ذكره الحافظ ابو الوليد بن الفرضى فى كتابه و اشار فى وفاته، الى انها كانت سنة ست او سبع وخمسين وثلاثمائة

تاريخ ابن جزى

هذا هو الكتاب الذى قد يظن من لا علم له بالامانة العلمية التى هى فى مقدمة اوصاف اديب هذه الملة، ان هذا الامام قد تعمد تجاهل مجموع صاحبه وعدم اقرار الحق فى نصابه، لذلك قام بواجب رده الى صوابه اديبنا ابن الاحمر مع انه وهو المستغنى بمعارفه عن تكميل نفسه بموجود غيره قد خلف عن صاحبه فى عدة كتب من آثاره صفحات مشرقة هى خير ما يقرأ اليوم فى تراجم بنى جزى ، وقد قال عند الكلام على مؤلفات ابن جزى ، اخبرنى عند لقائه اياى بمدينة فاس فى غرض الرسالة عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، انه شرع فى تاريخ غرناطة ذاهبا هذا المذهب الذى انتدبت اليه، ووقفت على اجزاء منه تشهد باطلاعه، وفيه بخطه من الاجزاء الحديثية والفوائد والاشعار ما يفوت الحصر ويفوق الحد. هـ. فهل بعد هذا الوصف من ابن الخطيب والاعتراف بالوقوف على اجزاء من الكتاب والشهادة لصاحبه بالاجادة ما يترك لابن الاحمر حق التعلق بالروايات المبهمة رغبة فى الحط من قيمة الجهود المبذولة من مؤرخ قاعدة مملكة اسلافه، ماذا يريد ان نفهم من قوله (لما عاد ابن الخطيب الى الاندلس عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاهت الفروع من الاحاطة بالاصول، وانجز من التبحر فيه الوعد الممطل) فهل من السهل ان نمسك معه حبل هذا الوهم فنزعم بان ابن الخطيب كان على علم من موت صاحبه ابن جزى فى هذه العدو، حيث ان وفاته كانت سنة

ثمان وخمسين وسبعمائة، وانه كان ينتظر الفرصة السانحة ليمد يد النهب والاختلاس الى كتابه، فلما قدرت عليه المحنة التى تلتها الغربة والمقام بهذه العدو بسط يده على ميراث غيره، وضم اصل ابن جزى الى فرعه وبذلك انجز الوعد الممطول والتحقت الفروع بالاصول، فأصبح الكتاب فى اثني عشر سفرا، بعد ان كان فى ستة، لان ابن الخطيب اذا كان مع استدعائه الاسماء والمسميات والولادات والوفيات وحشرة العيون من طرف واشعار المصنفات لم يجتمع له الا ستة اسفار، وهو اذ ذاك مقيم بوطنه ومركز سلطانه ومقصود من مواطنيه، والوافدين على ابوابه بالوثائق التاريخية التى دخل بيده منها ما لم يقع الا فى يد ملك شامخ الملك كالحكم كما لابن السكك، فمن المستغرب جدا ان نصدق بان هذه البلاد ايام اغترابه بها قد اسعفت مشروعه بوثائق ساوت اسفارها اسفار الاصل، لولا مجهود ابن جزى الذى اضاف ابن الخطيب الى مجموعه، فأصبح بها الكتاب فى اثني عشر سفرا بعد ان كان فى ستة، وهى نتيجة لم يرد هذا الناقد غيرها، كما انها فى نظر البحث دعوى عارية عن البرهان وفى حاجة الى وثائق تزكيها وتأييدها كالمقابلة بين وثائق مجموعة ابن جزى وتراجم الاحاطة، ليطمئن الاصل من الفرع وتزكية هذا المخبر الذى اخبره بشهادة آخرين وخصوصا من بيت ابن جزى الذى كان له من عظيم الشهرة ونباهة الذكر واصالة المجد والحسب ما لا يتيسر معه لابن الخطيب ولا لغيره مد اليد الى انتاج احد افرادهم ولئن قدر، فليس من الحكمة ان يخرج ابن الخطيب كتابه الى العموم، فما عهد الناس سارقا يعرض مسروقه على العدو والصديق والقريب والبعيد، ويتولى بنفسه الوقف والتجسس، فلم يبق الا الاعراض عن هذا الوهم الذى قصد به الخدش فى وجه نزاهة ابن الخطيب والخط من قيمة احاطته، فلا ابن جزى كتابه المذكور له فى ترجمته وعند الله العلم بمآله، ولا ابن الخطيب احاطته التى خلد فيها الفخر لبلاده واودعها نماذج من سحر بيانه على ان رأى ابن الاحمر وان اعتبر فطيرا فيما اتهم به صاحبنا كناية وتصريحا، فان نظريته حول تاريخ تدوين هذا الكتاب قد تفيدنا كثيرا، لانها تؤيد ما نقلناه عن لسان الدين من عد هذا الكتاب فى الكتب التى صدرت عنه قبل الانتقال عن الاندلس، وانه عند رجوعه الى الاندلس بعد رفع المحنة سنة ثلاث وستين، كانت احاطته من كتبه التى تحظى بالعرض على أنظار الاعلام وعلى دور الوقف فى بعض ممالك الاسلام،

وليس ببعيد تحديد زمان تدوين الاصل فيما بين سنة خمس وخمسين وفاتحة العقد السابع من القرن الثامن وهو بدون ريب قبل التاريخ الذي فيه تم تدوين الاجزاء المطبوعة

فلنطو الحديث عن تاريخ التدوين الذي هو من اهم ما استعنا به في حقيقة الجزئين المطبوعين ولنودعه الآن شاكرين .

الاحاطة بين الذيل والاختصار

حسنا فعل لسان الدين وذكرنا خالدا ابقى لنفسه في الشرق، لما وقف نسخة من احاطته بخطه على طلاب العلم والادب بمصر، فقد علمته المحن النازلة بكتبه ايام نكبته طريق الاحتياط لمنشأته، فلم ير لها حصنا يحميها من كلب الانسان وعتو الطغيان واحكام المتجرين بالاديان، كمكاتب الوقف الاسلامي، فقدر لكتاب الاحاطة ان يأخذ مكانه من اوقاف القاهرة ومكانته من عشاق العلم والتاريخ بها، فقد كرع من معينه واقتطف من زهر افنانه في عصر مؤلفه، وبعده جماعة من اقطاب العلم وائمة الادب والتاريخ كالحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة، والشمس ابن الجزري في طبقات القراء، والشهاب المقرئ والامام ابن مرزوق، وابي الحسن علي ولد المؤلف، والقطب الخيضرى في طبقات الشافعية، والشمس السخاوى والجلال السيوطى في بغية الوعاة والبدر بن فرحون في طبقات المالكية، وولى الدين بن خلدون، والنور على الحموى، والشيخ ابى عبد الله القوصونى والعارف البكرى والعلامة ابى الفضل بن الامام التلمسانى والمؤرخ ابن دقماق، والشهاب ابن حجلة والبرهان الباعونى، والامام الراعى، والشيخ يحيى العجيسى والبدر البشتكى والشمس ابن طولون والشهاب المقرئ وغيرهم ممن لا يعرف لهم حد ولا يضبطون بعد، من هؤلاء الائمة المنتقى والمستفيد والمعلق والمستمد، ولقد قال الشهاب المقرئ ان المشاركة اشد اعجابا بهذا الكتاب من المغاربة، واكثر لهجا بذكره على قلته بهذه البلاد المشرقية، فليس بغريب بعد هذه العناية ان يخرج المعجبون بهذا الكتاب من نقطة الاستفادة ومادة الانتقاء الى الذيل والاختصار .

مركز الاحاطة بأدباء غرناطة

ولعل اشهر من يجرى ذكره على الالسنه ممن تناولوا كتاب الاحاطة بقلم الاختصار هو احد اعلام الادب في عصره البدر محمد بن ابراهيم

الدمشقي الاصل الشهير بالبشتكى المتوفى سنة ثلاثين وثمانمائة، فقد عرف هذا العالم بالتبريز في الفنون الادبية، فحملة الهيام بحب هذا الكتاب على اختصار اسفاره الثمانية في مجلدين ضمن كل سفر منهما فوائد اربعة اسفار من الاصل، وسمى كتابه مركز الاحاطة في ادباء غرناطة، ومن هذا الاسم ندرك محط رغبة هذا المختصر من الكتاب، وان قلم الاختصار قد وقف من هذا البحر على نهر الادب، فاغترف منه ما ظهر مجموعه في سفرين، قال الامام المقرئ في النفج وقفت على ثانی السفرين وبآخره ما لفظه (هذا آخر ما اردت ايراده وفوفت ابراده من كل طرفة وتحفة وفائدة ادبية ونادرة تاريخية في كتاب الاحاطة بتاريخ غرناطة، ولما كان المعول عليه والباعث الداعي اليه ذكر ادبائه ومؤثر علمائه سميته مركز الاحاطة بادباء غرناطة، والحمد لله اولاً وآخراً وظاهراً وباطناً علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقير الى عفو ربه محمد بن ابراهيم بن محمد البدر البشتكى لطف الله تعالى به بمنه وكرمه مستهل صفر سنة تسعين وسبعمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل) هـ. وهذا الكتاب الذي يحفظ في طيه قسما مهما من وثائق الاصل من الكتب التي نالت حظها من عناية معاصري مؤلفه فقد اجري ذكره الحافظ شمس الدين ابن طولون في كتابه ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر وافاد، بأنه قد وقف عليه بخط مؤلفه في مجلدين وعليه خط الحافظ ابن حجر في خزنة قاضي القضاة الحافظ قطب الدين الخيضرى ومن عناية الله بهذا الاختصار انه من الكتب التي لا تزال محفوظة الى الآن، فقد افاد مؤرخ الادب العربى المستشرق بروكلمان بان مركز الاحاطة بادباء غرناطة يوجد في باريس تحت رقم ٨٧ - ٥٨ وقال جرجى زيدان في تاريخ ادب اللغة العربية انه يوجد في برلين ومدريد وباريس.

مختصر ابى جعفر البقنى

هذا مختصر ثان لكتاب الاحاطة نقل عنه ابو العباس السودانى في ذيليه على الديباج كفاية المحتاج ونيل الابتهاج وخصوصاً في ترجمة ابن خلدون فان من انقاله عنه في هذه الترجمة والف (يعنى ابن خلدون) تاريخه المشهور الذى سحر به الخاص والجمهور وسماه بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر، اخترع فيه مذهبا عجيبا وطريقا مبتدعا من الحديث على العلوم وتنقيح الفهوم وما يعرض

للإنسان من الاعراض الذاتية والخيالات والحلوم هـ. وهذا النص يدل على ان صاحب هذا المختصر لا يقتصر فى اختصاره على نصوص الاصل بل يضيف اليه ما تجدد بعده، كما يدل على ان عصر مؤلف هذا المختصر مقارب لعصر البدر البشتكى كل منهما من اعلام القرن التاسع، وقد ذكر بلفظ البقى فى ذيل الديباج ولفظ البقنى وقع النقل عنه فى طبقات المالكية لاحد اعلام القرن الحادى عشر، ولعله الاقرب الى الصواب، فان هذه النسبة من الانساب التى التقينا بها فى تراجم الاندلسيين واليهما ينسب ابو العباس البقنى والعلم على جهة القطع عند الله وحده

الروض الاريض

كان الفقيه الكاتب الوزير ابو يحيى بن القاضى ابى بكر بن عاصم من كبار من تخرج بمدرسة ادب لسان الدين حتى انه لامامته وتقدمه فى علوم اللسان واستيلائه فى ميدانى النظم والنثر على امد الاحسان، كان المنصفون يرون فيه ابن الخطيب الثانى، وقد خلف فى باب الابداع عدة اوضاع من بين اعلاقتها النفيسة كتاب الروض الاريض وهو كتاب جعله مؤلفه ذيلا على الاحاطة كما جاء وصفه بهذا فى ازهار المقرئ ص ٥٨ وص ١٧١ وتعرض له مذيّل الديباج ايضا وقال عنه انه فى اسفار وقد دلت الشذرات التى اقتطفها المقرئ من هذا الروض اليناع و اضافها الى ازهاره على ان المؤلف قد حاول ان يكون مجموعته ذيلا حقيقيا يمت الى الاصل بصلة الابداع والاجادة لذلك صرف اليه جهوده وانفق فيه من بيانه موجوده الا ان الايام قد لعبت بهذا الاثر النفيس كما ذهبت بمحاسن غيره من ميراث ذلك القطر المبكى عليه وعلى فجيعة الادب فى معارف رجاله فلا نعلم عنه الا ما سبق للمقرئ ضمه الى محاسن رياضه

مختصر آخر للاحاطة

افاد الكاتب جرجى زيدان فى تاريخ ادب اللغة عن مختصر جديد لهذا الكتاب نسيه الى احد المستشرقين وهو المستشرق كازيرى، وهى افادة تدل على ان العناية بتلخيص الاحاطة والانتقاء منها قد عرفت اقلام الغربيين كما عرفت سابقا اقلام الاندلسيين والمصريين ومع ان المعروف

من جهود المستشرقين هو الاهتمام بنشر آثارهم، فانا لا نعلم عن هذا الكتاب الا ما خلفه لنا مؤرخ الادب العربى، فلا يستغرب ان يكون هذا الملخص من الكتب التى عرفها عالم النشر الغربى .

الاماطة عن وجه الاحاطة فيما امكن من تاريخ غرناطة

هذا الكتاب لم يكشف عنه القناع ولم يطمع عن اسمه اللثام الا مؤلف الاحاطة فى تاريخ الدولة النصرىة من غير عزو الى احد . فمن هو صاحب هذا الكتاب، والى اى احد من كتاب تاريخ غرناطة يمت بصلة الانتساب او باقوى الاسباب؟ قد يظن انه احد المجاميع الغرناطىة التى وقعت الاشارة اليها سابقا، ولكنه ليس بمجموع الحافظ ابى القاسم الغافقى لان كتابه الغرناطى يدعى بتاريخ البيرة، ولا هو كذلك بكتاب الاديبي ابى عبد الله بن قطبة، لان كتابه قصره على الادياء على ما سبق عن ابن الخطيب وابن حجر والوثيقة المنقولة فى ص ٢٧ من اللوحة البديرىة لا صلة بتراجم الاديبي، وقد يظن بهذا الكتاب انه كتاب ابن السراج شيخ لسان الدين، لولا ان هذا المجموع قد اسماه مؤلفه بالسراج المذاع بتفضيل غرناطة على كثير من البقاع، فما كان لابن الخطيب ليخلع اسما آخر على كتاب هو نفسه تولى الافادة باسمه، وبترجمة جامعة، فلم يبق من بين الكتب التى لها ارتباط بتاريخ هذه البلاد الا كتاب المثالب لابن مسعدة وشعراء البيرة وفقهاؤها وقبائل العرب بها لابنى القاسم الالبيرى والتقايد الغرناطىة وهى اوضاع تاريخية وغرناطىة الموضوع ، قد اغنتنا باسمائها وادراك المقصود فيها عن البحث فى شروط هذا الاستلحاق ، فهل الاماطة هى اسم مجموع صاحبه ابن جزى ، فانه هو الكتاب الذى الى الآن لم نهتد الى اسمه .

لعل من حق هذا السؤال ان لا نسرع بالجواب عنه الا بعد عرض الوثيقة التى وقع نقلها عن الاماطة فى ص ٢٧ من لمحة ابن الخطيب عند تعرضه فى القسم الرابع لعوائد الغرناطين واوصافهم على اختلاف اصنافهم من كتاب (الاماطة عن وجه الاحاطة فيما امكن من تاريخ غرناطة) قال احوال اهل هذا القطر فى الدين وصلاح العقائد احوال سننىة والاهواء والنحل فيهم معدومة ومذاهبهم على مذهب مالك بن انس امام دار الهجرة جارية، وطاعتهم لامراء محكمة واخلاقهم فى احتمال المعاونة الجبائىة

جميلة وصورهم حسنة معتدلة انوفهم بيض الوانهم مسودة غالبا شعورهم متوسطة قدودهم، فصيحة السنتهم عربية لغاتهم يتخللها عرف كثير وتغلب عليها الامالة واخلاقهم ابيه فى معانى المنازعات وانسابهم عربية وفيهم من البربر والمهاجرة كثير

ولباسهم الغالب على طبقاتهم الفاشى بينهم الملف المصبيغ شتاء تتفاضل اجناس البز من بتفاضل الجدات والمقادير، والكتان والحريز والقطن والمرعزى والاردية الافريقية والمقاطع التونسية والمازر المشفوعة صيفا فتبصرهم فى المساجد ايام الجمع كأنهم الازهار المفتحة فى البطاح الكريمة تحت الاهوية المعتدلة

وجندهم صنفان اندلسى وبربرى، الاندلسى منه يقوده رئيس من القرابة او احظياء الدولة، وزيهم القديم شبيه بزي جيرانهم وامثالهم من الروم فى اسباغ الدروع وتعليق الترسه وجفاء البيضات، واتخاذ عراض الاسنة وبشاعة قرايبس السروج واستركاب حملة الرايات خلفهم كل منهم بسمة تخص سلاحه وشهرة يعرف بها، ثم عدلوا الآن عن هذا الزى الى الجواشن المختصرة والبيضات المذهبة والسروج العربية واليلب اللمطية والاسل اللطيفة، والبربرى منه ترجع قبائله المرينية والزيرية والتجانية والعجيسية والعرب المغربية الى اقطاب ورؤوس يرجع امرهم الى رئيس على رؤسائهم وقطب لعرفائهم من كبار القبائل المرينية يمت الى ملك المغرب بنسب والعمائم تقل فى زى اهل هذه الحضرة الا ما شد فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند الغربى منهم

وسلاح جمهورهم العصى الطويلة المثناة بعضى صغار ذات عرى فى اوساطها تدفع بالانامل عند قذفها تسمى بالامداس، وقسى الفرنجة يحملون على التدرج بها على الايام

ومبانيهم متوسطة واعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد والغناء بمدينتهم فاش حتى بالدكاكين التى تجمع كثيرا من الاحداث .

وقوتهم الغالب البر الطيب عامة وربما اقتات فى فصل الشتاء الضعفة والفلة الذرة العذبة أمثل اصناف القطنى الطيبة وفواكههم رعدة والعنب بحرلانة كرومه التى ينالها الخرج على اربعة عشر الفا لهذا العهد، وفواكههم اليابسة عامة التمام متعددة يدخرون العنب سليما من الفساد الى ثلثى العام الى غيره من التين والزبيب والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز الى غير ذلك مما لا ينقطع مدده الا بفصل

يزهد في استعماله وصرفهم فضة خالصة وذهب ابريز طيب محفوظ لا
تفضل سكتهم سكة .

وعادة اهل هذه المدينة الانتقال الى حلال العصير اوان ادراكه بما
تشتمل عليه دورهم والبروز الى الفحوص بأولادهم وعيالهم، معولين على
شهامتهم واسلحتهم على كبت عدوهم واتصال ابصارهم بحدود ارضه .
وحليهم في القلائد والدمالج والخلخيل والشنوف الذهب الخالص
الى هذا العهد في أهل الجدة واللجين في كثير من آلات الرجلين فيمن عداهم
والاحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد ونفيس الجواهر
الكثير فيمن ترفع من طبقاتهم المستندة الى ظل دولة او عرق اصالة
موفورة .

وحريمهم حريم جميل موصوف باعتدال السمن وتنعم الجسوم
واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب الشذا وخفة الحركات ونبل الكلام
وحسن المحاورة الا ان الطول يندر فيهن وقد بلغن من التفنن في الزينة
لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتنافس في الذهبيات والديباجات
والتماجن في اشكال الحلى الى غاية بعيدة هـ .

وقد تأثرنا بسحر هذا الوصف كما تأثر به من سبق الى نقله عن
ابن الخطيب كالامير شكيب في حله السندسية ومحب الدين الخطيب في
الزهراء ولعل قوة البليغ تنتهى دون ان يستطيع تصوير امة وتخليد
حياة مدنية فى بضعة اسطر كما فعل هذا العبقري الموهوب الذى لو تعدد
اخفاء نفسه لثم عنه ادبه الوصفى من اسلوبه المعروف به على انه فى
عرض هذه الفائدة ما زاد على عزوها الى كتاب دعاء بالاماطة وهو كتاب
للمرة الاولى التقينا به فى كلامه وقد احوال عليه فى فصل لن يشك الواقف
عليه انه من ادب وصفه الذى كأنه وقف عليه

فهل كتاب الاماطة هو كتاب آخر لابن الخطيب وقع اكتشافه او هو
احد مختصرات الاحاطة لاحد معاصريه وقف عليه فآثر النقل عنه على
الاصل تنويها بذكره او هو كتاب الاحاطة نفسها دعاها مؤلفها بهذا الاسم
الجديد تفننا او هو كتاب خارج عن نطاق الاحاطة لاحد من كتب فى تاريخ
قاعدة بنى الاحمر؛ هى فروض كلها تتسع لها دائرة الامكان، اما الكتب
المؤلفة فى تاريخ غرناطة قبل الاحاطة فقد سبق الكلام على ما وقع
الوقوف عليه من اسمائها مع وصف مختصر يكفى لاقضاء الاماطة بالفصل
المنقول منها عنها، واما مختصرات الاحاطة فقد احطنا ما وقفنا عليه من

اسماؤها بوصف موجز يشعر بأنها ما جمعت الا بعد تدوين كتاب اللوحة البدرية، فلم يبق من مجموع الفروض الوهمية والاحتمالات العقلية الا اضافة هذه الاماطة الى الاحاطة، وانه اسم ثان اطلقه ابن الخطيب على كتابه كبقية الكتب التى تعددت اسمائها واتحدت مسمياتها او عد هذا الكتاب فى ضمن الكتب التى لم تقف على اسمائها، وتعتمد صاحبنا اهمال ذكره كبقية كتبه التى لم يجر ذكرها فى ترجمته عند عرض اسماء مؤلفاته .

ولعل من الرفق بنا وبالقارىء ان نسرع فנסجل بان هذه الوثيقة التى توجد فى تاريخ الدولة النصرية منقولة عن الاماطة عن وجه الاحاطة هى بنصها مع تغيير يسير توجد فى صدر الجزء الاول من الكتاب الذى نشرته شركة الطبع العربية تحت عنوان الاحاطة فى اخبار غرناطة، فهل هذا الكتاب الذى عرفته طباعة الشرق واسواق كتبها ومن وقف عليه من رجال ادب هذا الجيل هو كتاب الاماطة نشرته الطباعة بعنوان الاحاطة غلطاً . ان من حق الذين نصبوا انفسهم لنشر الممتع والمفيد من الآثار العلمية ان نقدر جهودهم، فبدلاً من المضايقة التى قد تؤدى الى قطع حبل العمل علينا ان ندرك العقبات التى تعترض طريق الناشر ويصعب عليه تذليلها، ونأشر الجزئين وان كان قد اقام لنفسه اعذاراً فى التصدير الذى قدمه بين يديه وحاول امداد المكتبة الاندلسية بوثائق الاحاطة التى تحتل الصدر افادة وابداعاً، فقد اساء الى سمعة الطباعة الشرقية بابرار هذه النتف مجردة من كل اعتناء واهتمام ، لذلك لم يقدر لهذا القسم المطبوع ما كان ينتظر له من نجاح عند عشاق ادب لسان الدين، فقد قال احد المستشرقين ان مختصر هذا الكتاب الذى صدر بعضه فى القاهرة هو ناقص الى حد كبير ولا يوثق به فيما يختص بالاعلام الاندلسية، وقال الاستاذ محمد كرد على كما فى ص ٥٤٣ من ثانى من مجلدات المقتبس ان لنا ريبة فى كون هذا الكتاب الذى طبع منه مجلدان وبقي منه ثالث هو كل ما كتبه ابن الخطيب فى رجال عاصمته، وعبارة صاحب النفح تساعد على هذا الشك، فكتاب الاحاطة منذ ظهر بعضه الى عالم النشر وهو محل شك من الذين درسوه وعرفوا ما وصفت به هذه الموسوعة العلمية قديماً وحديثاً .

هذا وقد هدانا البحث الى ان هذا القسم المطبوع هو غير كتاب الاحاطة الذى ملئت دواوين العلم بالنقل عنها على رغم ظهور هذا المختصر

وصدره يسعل بعنوان الاصل، ومنا رنا الذى به عرفنا الطريق فقطعنا فى ضوئه المرحلة الاولى هو تاريخ التدوين، فمما ذكرناه سابقا فى تاريخ تدوين الاحاطة ان هذا الكتاب مما صدر عن ابن الخطيب قبل سنة ستين وسبعمائة، وانه لم تأت سنة ثمان وستين حتى كان تأما فى اوقاف مصر ومرجع طلاب الفائدة منه، بينما حوادث المطبوع لم تزل تفيدينا بما تجدد بعد العقد السابع من القرن الثامن، وهذه الحجة وان كانت فى نظر المنصف كافية، وان القسم المطبوع الذى قامت البراهين على انه من وضع ابن الخطيب ايضا هو من كتاب آخر له فى الموضوع، الا ان من لا يرى هذا الرأى قد يتعلق بتعدد النسخ واختلافها بالزيادة والنقص ويذكرنا فى معرض الدفاع عن رأيه باختلاف الموطئات والصحاح المرويات وما عرف للائمة قديما وحديثا فى اوضاعهم العلمية من تقديم وتأخير وزيادة وتغيير فالمطبوع على فرض وجود مجموع هذه الاوصاف فيه لا يزيد على انه منشور عن اصل لم يزل مرجعا لقلم مؤلفه يحذف منه ما ظهر له العدول عنه ويضيف اليه ما تجدد عنده الى قرب وفاته فهو بحكم هذا المنطق آخر ما صدر عن مؤلفه فاعتماده اولى من غيره والرجوع اليه كأفضل وثيقة من الكتاب واجمع نسخة قد يكون من المتعين على ناشره فلا تنافى اذا بين تاريخ الاصل الموقوف بمصر سنة ثمان وستين وتاريخ هذا القسم المنشور الذى لم يرفع عنه القلم الا بعد سبعين، وهى شبهة قد تحمى هذا القسم المطبوع من دعوى الاختصار لو لم نلتق فى طريق بحثنا بعقدة ثانية وهى حجم الكتاب وعدد اجزاء الاصل

تعرض لسان الدين لعدد اسفار الاحاطة فى الترجمة الثانية التى كتبها لنفسه فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة والحقها بآخر الجزء الخطى الذى هو تنمة القسم المطبوع على ما نظن فقال، وكتاب الاحاطة هذا وهو فى خمسة عشر سفرا، وبهذا العدد وصفها ابو الوليد بن الاحمر على ما نقله عنه الشهاب المقرئ فى ص ١٨٩ من ازهاره ويوجد على ظهر مجلد خطى بالمكتبة العامة ما لفظه: الجزء الخامس عشر من الاحاطة بالتعريف بعلماء غرناطة لمالكة محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري الحسنى، ووصف حجم الكتاب، بهذا العدد المنقول عن ذكر هو اكثر ما وقفنا عليه فى اقلام من تعرضوا لعدد اجزائه، وفيهم المؤلف نفسه، ولا ينبئك مثل خبير وسبق عن ابن الاحمر الذى هو من بين الجماعة التى جعلت حجم الكتاب فى خمسة عشر سفرا ما هو صريح بان هذا المجموع

بعد ما تلاحت فروعها باصوله اصبحت النسخة المتممة في اثني عشر سفرا
وهي التي وضعت بخانقاه سعيد السعداء ، فلعل ابا الوليد قد وقف على
ما لابن الخطيب بعد ذلك ، فاضطرب كلامه في وصف الكتاب على ان
نسخة سعيد السعداء التي يقول عنها انها في اثني عشر سفرا لم تكن الا
في ثمانية على ما سبق التصريح به في وثيقة الوقف ، اما نسخة الوقف
التي كانت في اثني عشر سفرا فهي التي وصفها المقرئ في ص ٥٥ من
الازهار نقلا عن الشيخ ابي عبد الله بن الحداد الوادي اشى بقوله : كان
على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، الفائقة الكمال من الاحاطة في تاريخ
غرناطة المحبسة على المدرسة اليوسفية من الحضرة العلية ، بخط قاضي
الجماعة ومنفذ الاحكام الشرعية المطاعة صدر البلغاء وعلم العلماء وحيد
الكبراء واصيل الحسباء الوزير الرئيس المعظم ابي يحيى بن عاصم رحمة
الله عليه ما نصه :

الحمد لله الاستدلال بالاثر على المؤثر مما سلمه الاعلام وشهدت به
العقول الراجحة والاحلام ، وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الالباب
وتتقاصر الافهام وبه الاستمساك ان طرقت الشكوك او عرضت الاوهام ،
وحسبك بما يسلم في هذا المقام المتعالي من الادلة ، وما يعتمد في هذا
المجال المتضايق من البراهين المستقلة ، فحقيق ان يتلقى هذا النوع من
الاستدلال فيما دون الفن المشار اليه بالقبول ، ويستقيل المهتدي
لاستنباطه لما فيه من التبادر الى الافهام والتسابق للعقول ، واذا ثبت ان
المستدل بهذه الادلة سالك على سواء سبيل ومنتم من صحة النظر الى
اكرم قبيل فلا خفاء ، ان كتاب الاحاطة للشيخ الرئيس ذي الوزارتين ابي
عبد الله بن الخطيب رحمه الله من اثر هذه الدولة النصرية ادامها الله بكل
اعتبار ومآثرها التي هي عبرة لاولى الالباب وذكرى لاولى الابصار .
اما الاول فلأن الانبياء التي اظهرت صحتها واوضحت حجتها وشرفت
مقصدتها وكرمت مصعدها ، انما هي مناقب ملوكها الكرام ومكارم خلفائها
الاعلام ، واخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف
والاقلام ، وافذاذ حفظة الدين والدنيا والشرف والعليا والملك والاسلام
او ما يرجع الى مفاخر حضرة الملك وينظم نظم الجمان في ذلك السلك
من حصانة قلعتها واصالة منعها وقديم اختطاطها وكريم جهادها ورباطها
وحسن ترتيبها ووضعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الانس اهل ربعا
وما سوى هذه الاقسام الثلاثة ، فمن قبيل القليل ومما يرجع الى شرف

الحضرة ممن انتابها من اهل الفضل الواضح والمجد الاثيل، واما ثانيا
 فان راسم اياتها المتلوة ومبدع محاسنها المجلوة وناقل صورتها من
 الفعل الى القوة انما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمة
 ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الديمة فما ظهر فيه من
 كمالات الاوصاف على الانصاف، فأخلاف هذه المكارم النصرية ارضعته
 وعنايتها الجميلة اسمته فوق الكواكب ورفعته واليها ينسب احسانه
 ان انتسب ومن كريم تشريعها اكتسب من الفضل الظاهر ما اكتسب
 والحضرة هي منشؤه الذى عظم فيه قدره بل افقه الذى اشرق فيه بدره
 والتشريعات السلطانية هي التى فتقت اللهى باللهى واحلت من مراقى
 العز فوق السها وامكنت الايدى من الذخائر والاعلاق، وطوقت المنى
 كالقلائد فى الاعناق وقلدت الرياسة والاقلام اقلام، وثنت الوزارة والاعلام
 اعلام، فبهرت انواع المحاسن وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الاسن
 وبرعت التواليف فى الفنون المتعددة، واشتهرت التصانيف ومنها هذا
 التصنيف المشار اليه لما له من الادمة المتأكدة واذا ظهر هذا الاستدلال
 ووضح البيان ما كتبه الاجمال فلنفسح الآن بما قصد، ولنحقق من انجم
 السعادة ما رصد، وذلك ان لمولاي امير المومنين المجاهد فى سبيل رب
 العالمين الغالب بالله المؤيد بنصره ابي عبد الله محمد بن الخلفاء النصرين
 ايده الله ونصره، وسنى له الفتح المبين، ويسره مآثر لم يسبق اليها
 ومكارم لم يجز احد ممن وسم بالكرم عليها لجلالة قدرها وضخامة امرها
 من ذلك هذا القصد الذى آثر لها كالكتاب المذكور وسواه، مما هو واحد
 وفد فى معناه عقد فى جميعها التحبيس على اهل العلم والطلبة بحضرته
 العلية هنالك، ليشمل به الامتاع ويعم به الانتفاع، والله ينفع بهذا القصد
 الكريم ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم، وهذه النسخة فى اثني
 عشر سفرا متفقة الخط والعمل، اکتتب هذا على ظهر الاول منها بتاريخ
 رجب الفرد عام تسعة وعشرين وثمانمائة، عرف الله بركته بمنه آمين
 وهى وثيقة وان كان من حق الاختصار ان نكتفى منها بما يؤيد مطلوبنا
 منها وهى ان نسخة الوقف بالمدرسة اليوسفية هي التى كانت فى اثني
 عشر سفرا، لا النسخة التى وقفها مؤلفها على طلبة العلم بالقاهرة،
 ووضعها فى خانقاه سعيد السعداء فى ثمانية اسفار فوصفها ابن الاحمر
 فى اثني عشر سفرا ألا اننا تكلفنا ايرادها كنموذج من بلاغة ابن عاصم
 الذى كان معاصروه يرون فيه خلف ابن الخطيب، ومن اسلوب الحكيم

فى هذه الوثيقة اهداء كاتبها الى الشاء على لسان الدين من غير ان يجرح
قلوب اعدائه بنى الاحمر، اذ جعل ناحية الكمال فى المؤلف من اوصاف مواليه
الذين كان لهم الفضل عليه بما اصفوا عليه من حل وما اكسبه القرب
منهم من صفات الكمال، وهناك فائدة وهى ان نار التشفى من آثار ابن
الخطيب التى أوقدها اعداؤه فى محنته الاولى، وعقيب مفارقتة لبلاده لم
تأت على جميع ميراثه الادبى حيث ان خزائن اعدائه بنى الاحمر كانت
لا تزال تحتفظ بجملة منها كلاحاطة التى سعى هذا الملك فى وقفها ليعم
الانتفاع بها، وفى هذا الوقف المتكفل بحفظ الذكر لصاحبنا ما يدل على
ان فى عقلاء بنى نصر من كان ينظر الى امامنا الشهيد كأحد أولئك الافراد
الذين يذهبون ضحية تأمر الاعداء، والظن بمآل هذه النسخة التى كانت
من مشمول خزائن الوقف بعاصمة بنى الاحمر انها قد لقيت ما لقيته
بقية الآثار الاسلامية من رجال الكنيسة واعداء الثقافة العربية، اما اجزاء
الاحاطة التى لا تزال محفوظة فى دير الاسكوريال، فقد علم من تاريخ
تكوين هذه المكتبة أن الكثير من نفائسها يرجع اصله الى هذه البلاد،
فهى لا تمت الى النسخة الاندلسية التى كانت فى اثنى عشر سفرا
بصلة على ما نظن، ولعل النسخة المصرية هى اسعد حظا واعم نفعاً اذ
لم تنقطع صلة العلماء بها نقلاً واستفادة واختصاراً، وهى مادة الامام المقرئ
وخصوصاً فى وثائق النفع كما انها مادة غيره من الاعلام الذين تعرضوا
لوصفها، فقد قال عنها الحافظ شمس الدين السخاوى انها بخط ابن
الخطيب فى سعيد السعداء فى ثمانية اسفار ايضاً وبهذا العدد وصف
الكتاب الشيخ سيدى احمد بابا السودانى فى ذيلى الديباج وهو من مواده
ايضاً وقال آخرون انه فى تسعة اسفار، ولا اثر لتفاوت اجزاء هذه النسخ
فى حجم الكتاب، ولا هو كذلك دليل على ان نسخ الاحاطة تختلف بالزيادة
والنقصان، فإن الاصل على ما ترى واحد اجتهدت فى كتابته اقلام النساخة
فمنهم من خطه فى خمسة عشر سفراً، ومنهم من كتبه فى اثنى عشر سفراً
وانها مؤلفه فى ثمانية، والخلاف فيما يظهر خلاف كتاب لا يسرى
مفعوله الى اصل الكتاب.

ولعل من نقلنا كلامهم هم من اوثق من وقف على اصل الكتاب
فوصفه عن مشاهدة، وربما من بعيد صاحب مدينة العلوم فطف الكيل
واقصر عند العد على ثلاثة اجزاء ولعل صاحب كشف الظنون اجود منه
فى الوصف يدا وابعد فى الخبر مدى لما تكلم عنها وقال انها فى ستة

اسفار، اما مؤرخ الادب وكتب رجاله جرجى زيدان فحديثه عن هذا الكتاب حديث اسير تقليد قد اغتر بالقسم المطبوع وظنه من الاصل فقدر ان الكتاب فى ثلاثة اجزاء طبع منه جزءان وبقي الثالث وكلامه فى وصف الكتاب ككلام صاحب مدينة العلوم طنون واوهام فالاحاطة من المعاجم ذات الاسفار الكثيرة كما وصفتها وثائق الاوقاف واقلام الثقات، وان اقل عدد ذكر لهذا المعجم الكبير ثمانية اسفار

والآن وقد تأكدنا مما نقلناه فى وصف الكتاب من كبر حجمه وانه بين خمسة عشر سفرا وثمانية على اقل تقدير فما هى نسبة الجزءين المطبوعين على انهما منه مما بقى من الاصل، فان القسم المطبوع وان ظهر منشورا فى جزئين فانه لا يزيد على مجلد متوسط على ما كان عليه نظام المجلدات فى عهد تدوين الاحاطة، فهل القسم المطبوع هو عبارة عن مجلد من ثمانية او اثنى عشر او خمسة عشر على ما وصفت به نسخ الاصل .

يقول ناشر الكتاب الاستاذ رفيق العظم وهو ممن ساهموا فى احياء الاثار الاسلامية وعرفوا بالكشف عن دفائن كنوزنا العربية فى المقدمة التى صدر بها ما نشر: ان شركة الطبع قد عثرت على الجزء الاول من الاحاطة فى اخبار غرناطة فى دار الكتب الخديوية، ثم اخذت تبحث عن باقى اجزاء الكتاب وهما جزآن الثانى والثالث وبعد التحرى والتنقيب، وجدت عند السادة الافاضل مصطفى بك بيرم وشقيقه نسخة من ثلاثة اجزاء مكتوبة عن نسخة موجودة فى تونس، فاتفقت الشركة معهما على طبعه وتعميم نفعه، الا ان النسخة المذكورة محرفة بيد النساخ غير خالية من الغلط ولم يتيسر الوقوف على نسخة ثانية غير الجزء الموجود فى المكتبة الخديوية الذى وجد محرفا كعين الجزء فى النسخة المذكورة، فاضطرت الشركة حرصا على نشره الى صرف مزيد العناية بتصحيح الكتاب وبذل الجهد فى تحرى مظان الخطأ حتى ألجئت للتصرف القليل فى بعض الجمل الغير المفهومة، وما لم يتيسر لها فهمه تركته على اصله وهو شئ قليل لا يمنع من الاستفادة ولا يؤثر فى جوهر الكتاب .

وكلام الناشر صريح فى ان الاصل المطبوع عليه كان عندهم فى ثلاثة اجزاء وان جزء هذه النسخة الثلاثية كجزء المكتبة الخديوية كل منهما كثير التحريف وبحكم هذا المنطق كان من المنتظر من هذه الشركة التى قررت طبع هذا الكتاب ان يشهد عالم النشر نسخته الكاملة فى

اجزائها الثلاثة، ولكن الكتاب لم يظهر منه الا جزءان وقد يظن بالشركة انها قد عرض لها ما صرفها عن نسخة ال بيرم فاقتصرت على نشر مجلد دار الكتب المصرية وجعلته على جزئين، فالكتاب اذا من ستة اجزاء لم يطبع منه الا ثلثه ولكن الاستاذ محمد كرد على فى مجلة المقتبس أفاد بان المطبوع هو جزآن من نسخة ثلاثية، وان الذى صرف الشركة عن طبع الجزء الثالث كثرة التحريف الذى يتعذر معه على القارئ الوصول الى الحقيقة، اما جرجى زيدان فبعد ان ذكر ان الكتاب فى ثلاثة أسفار تعرض لما طبع منه فقال: ان شركة الكتب المصرية قد اهتمت بنشره فوجدت الجزء الاول منه فى المكتبة الخديوية واخذت تبحث عن الجزئين الاخيرين فصدر الجزء الاول منه مطبوعا فى نحو اربعمائة صفحة والثانى فى ٣٠٨ سنة ١٣١٩ وهى افادة منه لا توصل الى المطلوب، وهل المطبوع من الاحاطة ثلث الكتاب او ثلثاه، غير ان المجلد الخطى الذى قدرنا فيه تمام الاصل الذى طبع بعضه يدل على ان ما نشر يزيد على النصف قليلا فلا هو بثلث الكتاب ولا بثلثيه وهو الى النصف اقرب

على ان الباحث فى حقيقة ما نشر لو لم يظفر من ناشر الكتاب ببيان وتعريف ولا من صاحبى المقتبس وتاريخ الادب، باقادة وتنبية ولا وقف من اصل الكتاب على ما يغنى عن كل شرح وتعليل فان نظام المعاجم من خير ما يرشد فى الكتب المرتبة على الحروف عند الوقوع فى الحيرة الى ادراك الحقيقة، وقد رجعنا الى هذا النظام فوجدنا آخر الجزء الاول من الجزئين المطبوعين قد طوى فى احشائه تراجم خمسة عشر حرفا من حروف المعجم على نظام ترتيبها فى معاجم الاندلس والمغرب وتناول تراجم من حرف الميم الذى استغرق الجزء الثانى جريا على المتعارف فى المعاجم التاريخية من ان الحروف التى تستغرق تراجمها المعاجم هى الالف والميم والعين، فما السهل وقد ظهر معظم تراجم حرف الميم فى القسم المنشور، ان نعلم ما بقى وانه ان لم يكن ثلث الكتاب فالنصف، والنصف كثير فعاد بنا البحث والاستنتاج الى ان كتاب الاحاطة فى مجلدين ظهر نصفه او ثلثاه فى القسم المطبوع وباقيه وهو فى جزء تسبب فى اهمال نشره كثرة تحريفه، واذا كيف نوفق بين آراء من وصفها بأنها فى خمسة عشر سفرا وفى مقدمة من وصفها بهذا العدد مؤلفها، وبين رأى من يراها فى مجلدين، فهل مؤلف الكتاب من اولئك الذين يتشبعون بما لم يعطوا، فما يمكن ان يكتب فى سفرين متوسطين خطته يميناه فى خمسة عشر سفرا

او ان ما نشر هو عبارة عن مختصر من الاصل الذى قضى مؤلفه فى جمعه
اعواما .

لنا زيادة على شبهتى تاريخ تدوين الاصل وحجم الكتاب وهما
يختلفان كثيرا عما يوجد من تواريخ حوادث ماثورة فى هذا المختصر
المطبوع مع صغر حجمه براهين على ان اصل الاحاطة الى الآن لم تعرفه
الطباعة، وانه بمعظم ما ابقته الايام من اجزائه لا يزال موءودا فى مختلف
المكاتب العالمية ينتظر من رجال البحث من يسعى فى جمع شتاته ونشر
رفاته وما ذلك على المحسنين بكثير .

واول هذه البراهين واولاها بالعرض على آراء المنصفين تراجع
الكتاب، فقد رجعنا الى المذكور فى حرف الالف من الجزء المنشور
فوجدنا عدد من ترجم فى هذا الحرف لا يبلغ الستين بما فى هذا النزر
اليسير من ولادة واعلام وادباء وكتاب ورؤساء وقضاة وخطباء ووعاظ وزهاد
وعباد ومن شد الرحلة لقاعدة المملكة من مختلف البلاد من ملوك واعيان
وسفراء واعلام على وفق ما اشترطه من ذكر كل من طرأ عليها مما يجاورها
من الاقطار او خاض اليها اثبايح البحار او الم بها ولو ساعة من نهار،
فأين نصيب هذا الجيش الذى حشره فى مجموع الاحاطة ضرورى عند من
يعنى بجمع تاريخ قاعدة مملكة من ثيف وخمسين ترجمة هى كل ما يوجد
فى حرف الالف من الجزء المنشور، فهل اصيب بيان المؤلف بالعى فكسر
قلم الافادة ؟ او نضب المورد وقلت المادة فليس فوق ما ذكر عنده زيادة ؟
او خاف من مفاجأة العوارض فاقتصر فى تدوين الكتاب على نظم قلادة ؟
هى اسئلة قد يجد الجواب عنها من وقف على اصل الكتاب

على ان هذه الامنية وان لم نحظ منها الى الآن بمرغوب فقد استنطقنا
المعاجم التى عرفت بالاستفادة من اصل الاحاطة، فالتقينا ممن اسمه
احمد من تراجمها المذكورة فى حرف الالف بما زاد عدده على مجموع ما
يوجد فى هذا الحرف من القسم المنشور مع ان الكتب التى نخلناها لا
تزيد على ستة ولم تثبت منها الا ما وقع عزوه الى ابن الخطيب ولا يوجد
فى الجزء المنشور، فمن خصوص العلماء ممن اسمه احمد : ١. احمد بن
ابراهيم بن عبد الله بن خلف بن مسعود المجاربى؛ ٢. وابو جعفر احمد
ابراهيم بن جعد التجيبى المعروف بابن جعدة؛ ٣. واحمد بن ابراهيم بن
جعفر الاوسى القرناطى المعروف بابن جعفر؛ ٤. واحمد بن ابراهيم بن
عبد الله بن ابراهيم المعروف بابن بصله؛ ٥. واحمد بن ابي القاسم بن

عبد الله بن ابراهيم الغرناطى الخولانى؛ ٦. واحمد بن احمد بن هشام
السلمى المعروف بجدة؛ ٧. وابو جعفر احمد بن احمد بن خلف ؛
٨. واحمد بن احمد بن احمد بن عامر ابو جعفر السلمى؛ ٩. واحمد
ابن احمد بن محمد الازدى الغرناطى المعروف بابن القصير؛ ١٠. وولده
ابو جعفر احمد المعروف بابن القصير ايضا؛ ١١. وابو العباس احمد بن
بشير الغرناطى؛ ١٢. واحمد بن حسن بن علي الكلاعى البلبسى؛
١٣. واحمد بن حسين بن عمر الحضرمى المرادى الغرناطى؛ ١٤. وابو
جعفر بن رضوان بن عبد العظيم؛ ١٥. واحمد بن ابراهيم بن احمد
الغرناطى؛ ١٦. واحمد بن طلحة بن ابى بكر بن محمد بن احمد المحاربى
الغرناطى؛ ١٧. واحمد بن محمد بن خلف المعافى؛ ١٨. واحمد بن محمد
ابن علي بن سعيد عرف بابن مسعدة؛ ١٩. وابو جعفر احمد بن محمد
ابن كوثر؛ ٢٠. واحمد بن محمد محمد بن يزيد الاسدى الحكرى العكاشى؛
٢١. وابو جعفر احمد بن محمد بن احمد الرعينى؛ ٢٢. وابو حاتم احمد
ابن محمد بن احمد بن محمد بن احمد العزفى؛ ٢٣. واحمد بن محمد بن
احمد بن محمد بن الحاج الاشبينى؛ ٢٤. واحمد بن محمد بن احمد بن
يوسف بن احمد بن عمر الهاشمى الطنجالى؛ ٢٥. واحمد بن محمد بن
بكر القيسى؛ ٢٦. وابو جعفر احمد بن محمد بن حريث ابو جعفر الكندى؛
٢٧. واحمد بن محمد بن مومل الخثعمى؛ ٢٨. واحمد بن محمد بن عبد
الله بن يحيى الكلبى عرف بابن جزى؛ ٢٩. واحمد بن محمد بن عطوس ابو
جعفر الانصارى؛ ٣٠. واحمد بن محمد بن ابى القاسم بن محمد بن احمد
عرف بابن حرى بالراء؛ ٣١. وابو جعفر احمد بن محمد بن يوسف
الغرناطى؛ ٣٢. وابو جعفر احمد بن محمد الاموى الكفاد الغرناطى؛
٣٣. واحمد بن محمد بن يوسف الرعينى؛ ٣٤. وابو جعفر احمد بن محمد
ابن خلف القشبرى؛ ٣٥. وابو جعفر احمد بن محمد بن سليمان الغرناطى؛
٣٦. وابو جعفر احمد بن محمد بن فرج الغرناطى المرادى؛ ٣٧. وابو
جعفر احمد بن محمد القرشى العبدرى الغرناطى؛ ٣٨. واحمد بن محمد
ابن احمد بن عبد الرحمن بن مسعدة العامرى الغرناطى؛ ٣٩. وابو جعفر
احمد بن محمد بن سماعة القيحاوى؛ ٤٠. واحمد بن عبد الكريم بن محمد
ابن جابر بن علي بن فتح الانصارى؛ ٤١. واحمد بن عبد الله بن عبد المنعم
الطنجالى؛ ٤٢. واحمد بن عبد الله بن يونس ابو جعفر الانصارى
الغرناطى؛ ٤٣. واحمد بن عبد الصمد الخزرجى؛ ٤٤. واحمد بن عتيق

ابن باق ابو جعفر الجهنى الغرناطى؛ ٤٥. واحمد بن عثمان بن محمد بن ابراهيم التجيبى؛ ٤٦. واحمد بن عثمان بن ادريس من بنى عبد المومن؛ ٤٧. واحمد بن على بن احمد بن ابراهيم الشقورى؛ ٤٨. واحمد بن على ابن احمد بن محمد الازدى؛ ٤٩. واحمد بن على بن عتيق الغرناطى؛ ٥٠. واحمد بن على بن محمد بن عبد البر الخولانى؛ ٥١. واحمد بن على ابن احمد بن على حفيد ابى جعفر بن الباذش؛ ٥٢. وابو جعفر احمد بن على بن حكم الغرناطى؛ ٥٣. واحمد بن على بن محمد بن احمد الغرناطى؛ ٥٤. واحمد بن سعد بن على بن محمد الانصارى المعروف بالحزيرى؛ ٥٥. واحمد بن سليمان بن يوسف الغرناطى؛ ٥٦. واحمد بن يوسف بن مالك الغرناطى ابو جعفر رفيق ابن جابر؛ ٥٧. واحمد بن عبد الله بن احمد بن يوسف بن احمد بن عمر الهاشمى الطنجالى.

فها نحن نرى ان الاحمد بن الدين نقلت تراجمهم عن الاحاطة فى المصادر الموثوق بها كطبقات القراء والدرر الكامنة وبغية الوعاة وذيلى الديباج وجذول الاقتباس، قد قارب عددهم الستين ولا ذكر لهم فى القسم المنشور بحيث لو استقصينا حرف الالف ونقلنا من المصادر التى تعنى بالنقل عن الاحاطة ما حقه ان يستدرك على ما ذكر فى المطبوع لتضاعف العدد مرات وبهذه الحقيقة المشاهدة بالبيان لم يعد البحث فى حاجة الى زيادة بيان ، فالجزء المطبوع ناطق بتاريخ تدوينه ونسبة حجمه الى اصله وقلة تراجمه التى هى على نسبته الربع تقريبا من عدد تراجم الاصل انه مختصر من مختصرات الاصل، وقد ظن بعضهم ان قلم الاختصار قد مس العدد فقط، اما التراجم فهى بجانها كما كتبها لسان الدين، ولكن بعد البحث والمقابلة تبين انها نظرية خاطئة، فقد تصرف مقص المختصر فى الكثير من تراجم الاصل بالحذف، وربما يوجد فى هذا الملخص ما لا ذكر له فى الاصل وخصوصا الحوادث التى تجددت بعد تدوين الاحاطة، فان لهذا المختصر المنشور وحده فضل تسجيلها وحسب الراغب فى البحث ان يرجع الى ترجمة صفوان بن ادريس المنقولة عن الاحاطة فى النفح والى نفس الترجمة فى الجزء الخطى الذى هو تمة القسم المنشور المحفوظ فى المكتبة العامة ليدرك ما بين الاحاطة ومختصرها المنشور من اختلاف بالنقص والزيادة، على ان الحذف والاختصار وخصوصا من الاشعار هو الغالب على قلم صاحب هذا الاختصار فعلى من يطلب عين اليقين ان يقابل بين ترجمة الامام ابى البركات

البليغى المذكور فى ص ١٠١ من الملخص وترجمته المنقولة عن الاصل فى ص ٢٤٤ من نفح الطيب، وبين ترجمة الامام ابن مرزوق المنقولة عن الاصل ايضا فى ص ٢٠٠ من ثالث النفح، وترجمته من جزء المكتبة الذى هو تمة المنشور، وكذلك ترجمة ابن هذيل وابن خلدون وابن لب ويحيى ابن ابراهيم البرغواطى وابى اسحاق ابراهيم بن الحاج وغيرهم، فان هذه التراجم كغيرها وهو كثير تدل على ان المختصر المطبوع يختلف عن الاصل بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير، فالذى يغلب على الظن ان حجم هذا المختصر لا يزيد كثيرا على ربع الاصل، وانه عبارة عن تراجم انتقيت منه، منها ما ابقى على اصله وفى بعضها ما وقع التصرف فيه بالحذف من اشعاره والتقليل من رواته، وربما كان لضيق الزمان الذى جمع فيه هذا المجموع اثر فى هذا الاختصار حيث انه الف وهو فى ثلاثة اجزاء فى اقل من سنة على ما يستخلص من مجموع التواريخ التى وقعت الاشارة اليها فى اثناء التراجم وخصوصا فى ترجمة ابن خاتمة ص ١٢٩ من الجزء الاول وترجمة الامير ابى عبد الله بن الاحمر ص ٥٨ من الجزء الاول وترجمة المؤلف التى ختم بها الكتاب .

والآن وقد ادركنا كما ادرك غيرنا من تاريخ تدوين الاحاطة وعدد اسفارها ان هذا الكتاب الى الآن لم يطبع، وان القسم المنشور هو احد مختصراتها، فهل هذا الملخص الذى لم يفقد روح مؤلف الاصل هو بقلم لسان الدين .

ان الاصل الذى عليه اعتمدت شركة النشر لا محالة كان يحمل عنوان الاحاطة واسم مؤلفها، وقد عرفنا الاستاذ الناشر بوقوفه على نسختين من الجزء الاول، والظن ان كلا منهما كان يحمل عنوان الكاتب والكتاب، فليس من اساليب النقد العلمى ان نجرد الكتاب من اسمه واسم مؤلفه الا بعد التأكد من الوهم والغلط، وقد نظرنا فى الاسم فوجدنا ظهر الكتاب يحمل عنوان الاحاطة فى اخبار غرناطة، وبذلك سماه رفيق العظم فى مقدمة النشر، ودعاه آخرون بالاحاطة فى تاريخ غرناطة، ولا يعنيننا الآن من نطق الناس واختلافهم فى اسم هذا الكتاب بقدر ما يعنيننا من الاسم الحقيقى الذى أطلقه المؤلف على كتابه وقد رجعنا اليه فوجدناه يقول فى ترجمته التى ختم بها كتابه وكتاب الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة، وقال فى اللمحة البدرية: الاماطة عن وجه الاحاطة فيما امكن من تاريخ غرناطة، فهل هذان الاسمان اراد بهما المؤلف مسمى

واحدًا وهو كتابه الشهير، أو هما اسمان لموضوعين يدل أحدهما على الإحاطة، والثاني هو الإماطة عن وجهها، وهل الكتابان معا لابن الخطيب أو ليس له منهما إلا إحاطته، والكتاب الثاني وهو الإماطة لمؤلف إلى الآن لا يزال اسمه مجهولاً؟ هي احتمالات قد يتعلق بها من يذهب مع الفروض العقلية، إلا أن من السهل إدراك الحقيقة بمواجهة الواقع في القسم المنشور، وأنه عبارة عن مختصر الأصل كما جاء التصريح بذلك في تنمة هذا المختصر، فقد اتصلنا بمجلد خطي ترتبط تراجمه بآخر القسم المطبوع في نهايته ما لفظه، كمل مختصر الإحاطة بحمد الله تعالى وحسن عونه على يد كاتبه الفقير إلى الله تعالى أحمد بن مسعود الأوزالي بتاريخ أوائل ذي حجة عام سبعة وثمانين وتسعمائة، وهي وثيقة رافعة لكل إيهام، فلم يبق إلا البحث عن اسم هذا المختصر المطبوع بعضه واسم مؤلفه، ومن البديهي أن مؤلف هذا المختصر ليس هو البدر البشتكي الذي سبقت الإشارة إليه، لأن تاريخ تدوينه لمركز الإحاطة المقصور على الأدباء كان في العقد العاشر من المائة الثامنة، وهو عصر متأخر عن وقت تدوين المختصر المطبوع بنحو ربع قرن كما أنه غير أبي جعفر البقني أحد المختصرين للإحاطة، لأن ما سبق نقله عنه في ترجمة ابن خلدون لا يوجد في الترجمة المذكورة من تنمة هذا المختصر، فلا يبعد أن يكون هذا المختصر هو كتاب «الإماطة عن وجه الإحاطة» فيما أمكن من تاريخ غرناطة» الذي وقعت الإحالة عليه في اللوحة البدرية، وأن مؤلفه هو مؤلف أصله الإحاطة لسان الدين ابن الخطيب، وهو رأي وإن كان قد يبدو غريباً وخصوصاً في تجريد القسم المطبوع من اسمه المعروف به، ووضع اسم آخر مكانه فإن لنا على تسمية هذا المختصر بالإماطة عن وجه الإحاطة وتقوية أسس هذا الادعاء دعائم اقواها وجود هذه التسمية في كلام المؤلف، فإن مؤلفنا الإمام وإن عرف بالاهتمام بتمييز موضوعاته العلمية بأسماء خاصة وإن هذه العناية منه قد خرقت نطاق الرسائل والمؤلفات ووصلت إلى حدود القصائد والمقامات، فإنه ليس من أولئك المفتونين باطلاق الاسماء المتعددة على المؤلف الواحد فعدوله في كتاب اللوحة البدرية عن لفظ الإحاطة إلى الإماطة عن وجهها دليل على أن الكتاب الذي وقعت الإحالة عليه غير إحاطته الشهيرة وبما أن الفصول التي وقع نقلها في اللوحة البدرية عن كتاب الإماطة توجد بنصها في المختصر المطبوع، فهذا برهان واضح على أن الاسم الذي اختاره مؤلف

الاصل لمختصره هو الاماطة، لدلالته على اصله وظهور معناه من لفظه فليس بغريب على من لا معرفة عنده بحقيقة الواقع في هذا المختصر من الناشر والناسخ ان يشتبه عليه لفظ الاماطة بالاحاطة لوجود التقارب بين الكلمتين كتابة ونطقا وعلى فرض ثبوت تسمية هذا المختصر بالاحاطة في اصل عتيق، فجوابنا انه ليس اول كتاب طغت عليه شهرة الاصل فجمل اسمه تجوزا، على ان هذا الاضطراب في اسم القسم المنشور الذي جاء في بعض الاجزاء مغايرا للتسمية التي التقينا بها في كتاب اللحة البدرية لا يسرى مفعوله الى ما اثبتته الواقع من ان الكتاب المطبوع بعضه هو مختصر من الاصل، وان الاحاطة الى الآن لم تطبع كما انه لا يقصى هذا المختصر عن انتاج مؤلفنا لسان الدين، فاما الادلة على الاختصار فقد استوفيناها سابقا، ولنا على ثبوت نسبة هذا المختصر الى مؤلف الاصل براهين البرهان الاول تاريخ تدوينه، فقد افادت التواريخ التي توجد منثورة في تراجم هذا المختصر ان هذا الكتاب قد وقع الشروع في جمعه بعد الفراغ من الاصل، فقد ترجم لصديقه ابي جعفر بن خاتمة كما في ص ١٢٩ من الجزء الاول، وقال هو الآن بقيد الحياة وذلك في ثاني عشر شعبان سنة سبعين وسبعمئة وفي ترجمته الثانية التي ختم بها هذا المختصر قال والحال على ما ذكر الى هذا العهد، وهو اول عام واحد وسبعين وسبعمئة، فالتاريخ ناطق بتدوين هذا المختصر في عصر مؤلف الاصل، وجمع كتاب يشتمل على ثلاثة اسفار في نحو ستة اشهر لا يتيسر الا لمن رزق التأييد في سرعة التدوين كمؤلفنا لسان الدين .

ثاني الادلة الترجمة التي توجد بآخر هذا المختصر فقد يظن انها نفس الترجمة التي عقدها لنفسه آخر احاطته ولكن بالمقابلة وجدناها تختلف عنها كثيرا فقد صدرت عنه الاولى سنة خمس وستين وسبعمئة بينما تاريخ الثانية نجده في سنة احدى وسبعين وسبعمئة، وقد استوفت آخر ترجمتيه الكثير من اخباره واستدركت ما تجدد من مصنفاته وما كان ليكتب ترجمة ثانية ويضعها بخاتمة مختصر من احاطته لولا ان هذا المختصر هو من جملة مؤلفاته ويؤكد هذا البرهان مقارنة تاريخ الترجمة الثانية لتاريخ الفراغ من تدوين هذا المختصر كما تدل عليه تواريخه ثالث الادلة طابعه الادبي الذي هو من مميزات ادب لسان الدين فقد يقرأ الباحث الترجمة والترجمتين من الاصل والفرع وفي كل منهما

ما ليس فى الاخرى فلا يشك فى وحدة الاسلوب، وان مؤلف الاصل
والمخلص واحد

البرهان الرابع جرت عادة من يرغب فى اختصار كتاب ان يتعرض
فى المقدمة للاسباب الحاملة على اختصار الاصل كعدم ترتيب او قلة
ضبط وتهذيب فيقدم بين يديه مميزات اختصاره كمبرر له على مد اليد
فى ميراث غيره، وهذا المختصر المطبوع خلو من هذا كله فلا ذكر لاصل
ولا لمؤلف ولا لاسباب، وهذا فى الغالب لن يصدر الا ممن له حق
التصرف فى الاصل والفرع، ولذلك على ما نطن ترك المؤلف خطبة
الاصل على وجهها فى هذا الفرع، ولم يترك لقلم الاختصار حريته الا فى
التراجم، وبهذا التصرف الغريب الذى لا يعهد فى المختصرات اشتبه
على ناشر الكتاب وقرائه اصل الكتاب بفرعه، فسوق العلم وقلم النقل
لا يعرفان من هذا المختصر الا كتاب الاحاطة التى لا يزال بعضها خطيا .
البرهان الخامس قد علم مما سبق ان وقت تدوين هذا المختصر
كان فى حياة ابن الخطيب وفى عهد وزارته الثانية التى كانت له فيها
الدولة والسلطان وكان مقصودا من اعلام الامة وادبائها، بآثارهم العلمية
يتوجونها باسمه ويطرقون بها باب قلبه لكسب وده، فلو قدر لاحد الكتاب
ان يمد يد الانتقاء والتلخيص من اصل الكتاب لكان من أكد المهمات
احراق بخور المدح والثناء اشادة بذكر المؤلف، والمؤلف ان لم يكن
تزلفا الى المؤلف بحكم منصبه فجريا على المتعارف اذ ذاك بين رجال
العلم والادب، كانه من حقوق المؤلفين على طلاب الفائدة من آناهم
بانتهاء واختصار، فوجود الكتاب مجردا عن ادب السلوك يؤكد نسبته
الى مؤلف الاصل

البرهان السادس ان هذا المختصر وان ظهر منشورا على انه من
الاصل، فان نسبته الى ابن الخطيب فى نظر الناشر والقارى غير
مشكوك فيها، وليس فى مجموع ما وقع الوقوف عليه من اجزاء هذا
المختصر ما يقلل من قيمة هذه النسبة، وقد قال ابن النديم كما فى
صحيفة ٤٩٩ عند الكلام على الكتب التى توجد منسوبة الى جابر بن
حيان وما قيل فى تصنيف الناس لها ونسبتها اليه، وانا اقول ان رجلا
فاضلا، يجلس ويتعب فيصنف كتابا يتعب قريحته وفكره باخراجه
ويتعب يده وجسمه بنسخه ثم ينحله لغيره، اما موجودا او معدوما ضرب
من الجهل، وان ذلك لا يستمر على احد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة

واحدة بالعلم، وإى فائدة فى هذا وإى عائدة، وابن النديم وإن غفل عن الأسباب التى من أجلها يتكلف المؤلفون وضع أشياء على السنة غيرهم أما ترويجا لبدة، وأما حبا فى الانتقام من شخصية فاضلة، وأما رغبة فى ترويج الكتاب باسم من له شهرة، فإن اختصار الإحاطة هو عمل يعتز به مؤلفه فوجوده منسوباً إلى ابن الخطيب دليل على أنه هو الذى تولى تدوينه .

البرهان السابع أن المتتبع للحوادث التى انفرد بها هذا المختصر لتأخر وقوعها عن تاريخ تدوين الأصل يجد لها صلة بأخبار ابن الخطيب نفسه، كما يعلم ذلك من مراجعة ترجمة ابن خلدون من آخر هذا المختصر، ومن ترجمة الإمام أبى إسحاق ابن الحاج على ما فى صحيفة ٢٠٩ من الجزء الأول ومن مراجعة ص ٥٨ وص ٤٨ وصحيفة ١٢٩ من الجزء المذكور، فمسلسلة الحوادث بمفردها تؤكد بأن مؤلف هذا المختصر هو مؤلف الأصل .

فهذه جملة براهين أن لم يكن كل واحد منها دليلاً قائماً بنفسه فهى بمجموعها تقوم مقام الحجة القاطعة على أن أصل الإحاطة إلى الآن لم يطبع، وأن القسم المطبوع هو مختصر منه من جمع لسان الدين نفسه وقد نضيف إلى مجموع ما سبق تعليلاً بسيطاً استفدناه من عصر التدوين ومن نفس التراجم وهو أن هذا المجموع قد شغل به نفسه عند تبلبل أفكاره وتوقعه الشر ممن أخلص اليهم وهو فى عقر داره وأنه لما كان عازماً على مفارقة وطنه صرف معظم العناية فى التراجم التى انتقاها إلى أخبار الكثير من أعلام هذه البلاد فهو منه كهدية وافد اندلسى على وطن مغربى، ففيه لتاريخ أعلام هذا القطر الممتع النفيس والذكر الباقى

هذا ومع الوثوق بهذه النتيجة، فهناك ما يمكن أن يلقى فى طريق هذا البحث كشبهه، فمن الشبه التى ترد على تسمية هذا المختصر بالإحاطة عن وجه الإحاطة - وهى تسمية لم ترد إلا فى كتاب اللوحة البدرية - وجود اسم هذا الكتاب فى أسماء التأليف من الترجمة الثانية التى بها ختم ابن الخطيب مختصره، فليس من المقبول منطقياً إطلاق اسم الإحاطة، وقد جاء ذكره فى كتاب الف حوالى منتصف العقد السابع على كتاب لم يفرغ من جمعه إلا فى فاتحة العقد الثامن، وجوابنا أن كل ما توصلنا إليه من طريق البحث هو ضبط التاريخ الذى انتهى فيه المؤلف من تدوين هذا المختصر، أما معرفة الوقت الذى فيه وقع الشروع فى

الجمع على جهة الضبط فليس امامنا ما يرشد اليه نفيًا او اثباتًا فليس بغريب أن يحيلنا ابن الخطيب في لمحتة البدرية على اماطته، وهو لم يكتب منها الا كراريس، ومن المؤلفين قديما وحديثا السماح لهم بالحديث عما لا يزال مستقرا في الازهان كالحديث عما يشاهد بالعيان، وكم من كتاب وقع الشروع في جمعه وتحديث الناس عنه وهو جزازات في مهد تكوينه.

الشبهة الثانية في ترجمة المؤلف التي ختم بها مختصره ما لفظه (وكتاب الاحاطة هذا في خمسة عشر سفرا) والمشار اليه بهذا على ما يفهم من عبارته هو هذا المختصر ومعنى هذا ان هذا المختصر اكبر من الاصل لانه في الترجمة الاولى التي ختم بها احاطته عرفنا، بأن الكتاب في تسعة اسفار ولفظه على ما نقله في النسخ ص ٦٥٣ (وكتاب الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة كتاب كبير في اسفار تسعة، هذا متصل بآخرها) وهي شبهة واردة على معظم ما بنيناه. ١. على الكتاب المنشور الذي قطعنا بأنه مختصر من الاصل؛ ٢. وعلى تسمية هذا المختصر بالاماطة مع تصريح المؤلف بقوله (وكتاب الاحاطة هذا)؛ ٣. وعلى قولنا ان هذا المختصر في ثلاثة اسفار مع تصريح المؤلف، بأنه في خمسة عشر جزءا، ولا طريق للتخلص من هذه الشبهة الا بمواجهة الحقائق ، فمن المقطوع به ان هذا الكتاب الذي طبع بعضه باسم الاحاطة هو مختصر منها وان المطبوع منه جزآن وباقية وفيه تنمة نحو مجلد فهو في ثلاثة اسفار لا في خمسة عشر سفرا كما هو صريح عبارة المؤلف، وما دام المقصود من وضع الاسماء للكتب هو تمييز بعضها عن بعض فمن المستغرب عادة في نظام التأليف عند ابن الخطيب، وهو المغرم بوضع الاسماء للرسائل والمقامات فضلا عن الكتاب الذي تعددت اجزأؤه ان يضع اسما لمؤلفين كبيرين، فالاقرب في التوفيق بين الواقع وقوله (وكتاب الاحاطة هذا في خمسة عشر سفرا) هو الحمل على مجموع ما صدر عنه مما يتعلق بتاريخ غرناطة بين اصل ومختصر وقد علم مما سبق ان الاحاطة قد كتبت في اثني عشر سفرا كما وصفها بذلك جماعة من المؤرخين، وفي هذا العدد كانت النسخة المحبسة على المدرسة اليوسفية، فاذا اضفنا الى هذا العدد مختصر الكتاب الذي هو في ثلاثة اجزاء يصير المجموع خمسة عشر سفرا وفي ضمن هذا التوفيق ما يؤيد نسبة المختصر المطبوع الى مؤلف الاصل، وهناك شبهة ثالثة قد يتعلق بها من يرى

ان هذا المختصر هو من تدوين أبى الحسن على ولد لسان الدين، ففي صحيفة ٣١ من الجزء الاول توجد خطبة فى الدعوة الى الجهاد، سيقّت كأنها بقلم مؤلف الكتاب (اعنى لسان الدين) مع ان هذه الخطبة قد ذكرها صاحب النفح كنموذج من بلاغة الولد، وقد استرعت هذه الشبهة نظر الناشر فاستدل بها على كثرة ما يوجد فى الاصل من بتر وتحريف وجوابنا هو ان ابا الحسن ولد المؤلف فى وقت تدوين هذا المختصر كان من ابواب الملك بالمنزلة التى تؤهله لانشاء الخطب والرسائل، وقد ترجم والده فى هذا المختصر لاختيه عبد الله وساق الكثير من اشعاره فليس بغريب ان يذكر هذه الخطبة التى هى من انشاء ولده على فى كتابه على انه لم ينسبها لنفسه ولم يقل انها من آتشاءى او املاى كما هى عادته عند تسجيل آثاره بل ساقها فى اسلوب يشعر القارئ بانها لغيره حيث قال وفى باب النصيحة للمسلمين ما صدر فى هذه الدولة وعلى فرض وجود هذه الخطبة فى هذا المختصر منسوبة الى المؤلف، فليس هو أول اثر ظهر منسوباً الى الابناء وهو من وضع الاء ويقرب من هذه الشبهة ما يوجد فى هذا المجموع ايضا فى اول الترجمة او اثنائها من التعبير بقال المؤلف او ما يشبه هذا اللفظ مما يصلح تكة لمن يرى ان مؤلف هذا المختصر هو غير مؤلف الاصل ونظرة خاطفة يليقها الباحث فى كتاب اللحة البدريّة يدرك بها صنيع المؤلف فى الكتب التى يتولى اختصارها، وما هذا المجموع من الاحاطة الا ككتاب اللحة من اصله طرفة العصر الا ان كتاب اللحة كتب له خلود الاسم لاهتمام مؤلفه بذكره فى اسماء مؤلفاته، اما مختصر الاحاطة فقد أحيطت به أشواك ونصبت فى طريقه أشراك وانضم التحريف الى التلخيص، واختفى الاسم فزادنا ضغنا على ابالة، وكل ما يمكن استخلاصه من مجموع ما سبق هو ان الكتاب المطبوع هو؛ ١. مختصر فقط؛ ٢. وانه فى ثلاثة اجزاء طبع معظمه وبقي منه نحو مجلد؛ ٣. وانه كأصله كل منهما من جمع ابن الخطيب؛ ٤. وان اسم هذا المختصر على ما نظن هو (الاماطة عن وجه الاحاطة فيما امكن من تاريخ غرناطة) ومرد العلم بعد هذا الى من لا تخفى عليه خافية

تعاليق وآراء على كتاب الاحاطة

كانت النسخة الموقوفة بمصر من هذا الكتاب مرسحا لاقلام الادباء ومعرضا لمختلف الآراء من ثقات العلماء ففي المعجيين بها من اكتفى بقتص فوائد ومنهم من طوق جيد حسننها بقلائده، ومنهم من وقف منها موقف الحارس كولد المؤلف الذي كان لا يتردد في تسديد سهام الملام على كل من نصب نحوها الاقلام، ونحن في هذا العرض نثبت من ذلك امثلة كنماذج من اساليب النقد المشربة بروح ذلك العصر، وقد قال الشهاب المقرئ ان ابا الحسن كتب بهوامش احاطة والده كتابات مفيدة، اما تكميل لما اغفله ابوه واما اخبار عما شاهده هو او رواية عن المترجم به او جواب عن ابيه فيما انتقد عليه، فمن ذلك ان ابن الخطيب عند التعريف بالسلطان ابي زيان المريني تعرض لذكر وزيره عمر بن عبد الله ابن علي اليبانسي، واصفا له بقيم الامر والمثل في الكفاية والاستطلاع، بالعظيمة وهي اوصاف تؤذن بكفاءة وحزم هذا الوزير، فعلق الخطيب ابن مرزوق على هذه الترجمة بما دل على ان هذا السلطان قد اغتيل بتدبير هذا الوزير عليه، وان الله قد انتقم من هذا الوزير على يد من سعى في البيعة، وهو السلطان ابو فارس عبد العزيز، فكتب ولد ابن الخطيب دفاعا عن والده وعن الوزير ما صورته رحمة الله عليك يا عمر بن عبد الله ابن علي، فلقد كنت غسلت ملك المغرب من درن كبير، وقمت على ملك لهو وضعف شهير، وشهرت سيف الحق على الزواكرة الخرق فابتهج جند الدين، قال المقرئ ومراده الرد على ابن مرزوق في ذمه للوزير وقوله الزواكرة لفظ يستعمله المغاربة ومعناه عندهم المتلبس الذي يظهر النسك والعبادة ويبطن الفسق والفساد، وعند الله تجتمع الخصوم، وبدرت من ابن الخطيب كلمة دسيس في ترجمته لصفيه وشيخه ابن مرزوق، فعلق عليها المترجم بما دل على براءته مما نسب اليه، فكتب ولد المؤلف، نعم ماتوا وعند الله تجتمع الخصوم، وتعرض في الترجمة لمحنة هذا الامام ايضا، وان الحال قد اشتد لما ابصر رفيقه في السجن يذبح بالقرب منه فكتب عليه ابن مرزوق ما يفيد بان المقتول لم يقتل ذبحا ولا كان معه حين قتل فكتب بعضهم على تعليقه ما لفظه (هذه دعوى والمؤرخ اعرف) فكتب آخر تحته اتخبرني عنى، وترجم ابن الخطيب للشمس محمد بن جابر الهواري وهو من مفاخر الاندلس ترجمة لا

تناسب قدره، فكتب ولد لسان الدين نعم الرجل ورفيقه ابو جعفر حسن الله تعالى اليهما، فلقد احسنا الصحبة في الغربية وانفردا بالنزاهة والفضل وعلو انهمة الا ان المصنف (يعنى والده) قصر فيهما بعض قصور ومنهما يطلب الاغضاء والصفح، فالرجل مات، وذكر الاموات بالخير مشروع وساق ابن الخطيب قصيدة لابن جابر ايضا، وكأنه استطالها فقال اثر نقلها نجزت وما كادت فى عبارة اخرى رآها ابن مرزوق لا تتفق مع مكانة ابن جابر، فعلق عليها بقوله ما انصف المصنف هذا الفاضل فقدره شهير ومكانه من الفضل كبير، وعلمه عزيز ولعله لم يطلع الا على ما اودعه فطارده ابو الحسن ابن الخطيب بقوله، نعم يا سيدى ابا عبد الله ابن مرزوق لم ينصف المترجم به، ولولا انهما (يعنى ابن جابر ورفيقه) بالحياة ما صدر منكم التنبيه ولو حصلا تحت الصفيح لم تعملوا فيهما قلما، هكذا شأن الدنيا بقله الوفاء شنشنة معروفة والحقد على الاموات شأن المغاربة، اهـ. ولعل ابن المؤلف من هذه التعاليق التى وصفها امامنا المقرئ بالافادة الشئ الكثير، لعل ما ذكرناه فيها هو اجودها وان كنا لم ندرك من المتعة الادبية والافادة العلمية ما ادركه منها ناقلها والذي وقع منا موقع الاستغراب هو اطلاق الحرية للاقلام فى وضع هذه التعاليق على نسخة اصبحت وقفا على المسلمين فليس فى معظم ما ذكر ما يفيد تصحيحا لخطأ او استدراكا لفائدة مثمرة، وانما هى كلمات اكثرها من وضع ولد المؤلف، رد بها ما رآه ماسا بمقام والده هى الى العصبية التى لا يرضاها الانصاف اقرب منها الى البحث العلمى، وخصوصا التعاليق التى رشق بها شيخه وشيخ والده الامام ابن مرزوق مع ان هذا الامام لم يفارق قلم تعاليقه الوفاء والتقدير لحبيبه ابن الخطيب، فرحم الله ابا الحسن بن لسان الدين ما كان اولاه بتنظيف قلمه واقرار الحق فى نصابه وسبحان من حسن هذه التعاليق فى نظر الشهاب فوصفها بالافادة وللناس فيما يعشقون مذاهب

حفظ المكتبة العربية من الإحاطة ومختصرها

من دواعى الغبطة ان صلة الادب العربى بالاصل ومختصره الى الآن لم تنقطع، ولعل اسعد المكاتب حظا بهذا الارث الاندلسى هى المكاتب الغربية، كما هو الشأن معها فى معظم الدخائر الاسلامية، فقد جاء فى تاريخ الادب العربى للمستشرق بروكلمان ما هذا تعريبه

الاحاطة بتاريخ غرناطة ١٠٨٢ ... ٨٦٧٤ بانجلترا بريدش مزيوم
اوريانطال اسكوريال رقم ٢ فى المجلد الثانى ١٦٧٣ و ١٦٧٤ مكتبة
مدريد ٢٩ القاه ٢ مرة ٥ - ٩ مدريد ٢٧ - ٣٣ اكاديمية التاريخ ٣٤
وفى عدة مكتبات .

وفاد صديقنا الاستاذ الكبير سيدى عبد الله كُنون الحسنى نزيل
طنجة، بوقفه على نسخة الاسكوريال : انها مجزأة الى اثنى عشر جزءا
لطيفا، وان ارقامها المتسلسلة بلغت عند نهاية الجزء الثانى عشر عدد
٥٠٠ من الصفحات الكبيرة ذات ٣٢ سطرا . ويحتوى الجزء الآخر على
٨٣ ص. منها ٧ فقط فى تنمة تراجم حرف الياء، والباقى كله فى ترجمة
المؤلف لسان الدين، ويؤكد صديقنا كُنون ان هذه النسخة ما هى الا
مختصر للاحاطة بدليل افتتاح كل جزء منها بهذه العبارة : «ومن السفر
كذا من ترجمة القضاة» مثلا او المقرئين او الطارئى الخ، وان عبارات
صريحة وردت فى كثير من تراجمها تدل على اختصار الترجمة، وانه جاء
فى آخر النسخة ما يلى :

«انتهى من السفر الاخير منه حيث عرف بنفسه وبشيوخه رحمة الله
على الجميع» ؛ «قلت وهنا انتهى ما قصدناه ، وتم بحول الله ما اردناه
واستوفيناه واستلحقناه» ؛ «وذلك بغرناطة اقالها الله وصانها، وعمر
بالعلماء الاعلام وصالحى الاسلام عمرانها» ؛ «وبتاريخ اوائل ربيع الاخر
من عام خمسة وتسعين وثمانائة ، والحمد لله وسلام ؛ على عباده
الذين اصطفى» .

ثم يقول الاستاذ كُنون انه لاحظ أن خط هذه النسخة هو عين الخط
الذى كتبت به نسخة ريحانة الكتاب لابن الخطيب الموجودة فى الاسكوريال
ايضا تحت رقم ١٨٢٥ وبما ان كاتب الريحانة هو ابو جعفر البقنى كما
صرح باسمه فى آخر النسخة، فيغلب ان يكون هذا المختصر الموجود
بالاسكوريال هو مختصر البقنى للاحاطة الذى سبقت الاشارة اليه . وهذا
نص ما يوجد بآخر نسخة الريحانة؛ وليلاحظ قرب تاريخها من تاريخ
مختصر الاحاطة واتحاد كلمة الختام :

«انتهى هذا الكتاب المسمى بريحانة الكتاب ونجعة المنتاب على
يدى ناسخها» ؛ لنفسها ثم لمن شاء (الله) من ولده من بعده عبيد الله المقر
بذنبه الراجى غفو ربه احمد بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن احمد
ابن عبد الله البقنى الانصارى غفر الله ذنوبه، وستر عيوبه بتاريخ

اواسط شوال عام ثمانية وثمانين وثمان مائة، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

هذا ما أفاده الصديق المذكور على بخل فهرس المكتبة بوصف النسخة ، ووقع الاتصال بالسفر المأخوذ بالتصوير الشمسي عن الاسكوريال ويلوح انه من المختصر كسفر دار الكتب المصرية المنتسخ في سنة ١٢٩٦ وهو في نحو اربعمائة صفحة، فقد سجل في الفهرس على انه من اصل الاحاطة، مع انه من مختصرها ، وسمعنا عن عدة اسفار توجد في مكتبة الازهر، ولكننا الى الآن لا نعلم عنها كبير شىء ، وقد تردد صدى عناية بعض كبار المستشرقين بجمع شتاته، وان الهمة مصروفة الى التقاط ما يوجد منه فى مختلف المكاتب بقصد نشره ، ومع ان وجود نسخة كاملة منه فى مكتبة خاصة غير ميسور اليوم، لتعدد أجزاء الكتاب، فان الهمم الفعالة تقرب البعيد وتذلل المستحيل ولعل مختصر هذا الكتاب هو اليوم اسعد حظا من الاصل بتحقيق الامنية فى طبعه طبعا علميا لتعدد نسخه، فمما عرف من نسخ المجلد الخطى الذى هو تنمة المختصر المطبوع جزء العائلة الفاسية، وهو على رغم قدم تاريخه قد شوهه التحريف، وقد اخذ عن هذا السفر فرع خطى ثم نقل بالتصوير الشمسى الى القسم الخطى من الخزانة العامة، ثم وقع الاعلان عن مجلد آخر اشيع انه بخط مؤلفه جلبه من القطر الجزائرى احد افراد العائلة السودية، ولكن بالوقوف عليه ظهر انه صفر من جميع نواحيه، ثم وقع الظفر بنسخة ثالثة من هذا المجلد ايضا، ومع جمال خطه وقدم تاريخه، فقد افسد جماله التصحيف كسابقه، وهذا السفر هو الآن كالسفر الفاسى على ما بلغنى بالخزانة الملكية بالرباط، فهذه ثلاث نسخ تعتبر كأصول لتنمة القسم المطبوع من الميسور على من يعنى بهذا الكتاب ان يصحح من مجموعها ما يتم به طبع هذا المختصر، اما الاصل الذى لم يعرفه عالم النشر الى الآن، فقد تفاجئنا الايام من اجزائه، بما لا تضبطه ارقام المكاتب العمومية، فانه منذ الف الى العهد القريب وهو مورد لكتاب الادب والتاريخ، فليس بغريب أن تجمعنا الايام مع ما لا يزال موءودا منه فى المكاتب، طعما للحشرات ووقودا فى سلة المهملات، وما ذلك على همم الباحثين ببعيد .

وبعد فقد طفنا بهامش الاحاطة باحثين ومعلقين ووقفنا من هذا البحر الذى تلاطمت امواجه واتسعت فجاجه، موقف الامام المقرئ سابقا، الا انه وهو الغواص على جواهره، قد استطاع السباحة فى عرضه والولوج الى قعره، فملأ النفخ والرياض من درر شعره ونثره واكتفينا بالوقوف على الشاطئ للذود عن حوضه، والقيام بأداء نفله وفرضه، فاذا كنا فى هذا البحث قد اكثرنا من تكرار الفاظ سئمتنا وسئمتنا كالاحاطة والمختصر والملخص والمجموع والاصل والفرع والتدوين والتاريخ والاسفار، والبرهان واللسان والترجمة الاولى والثانية وما شاكل هذه الالفاظ التى قد يستغنى ببعضها عن منوم، فغذرنا هو الرغبة فى الايضاح والسعى لرفع كل ايهام، فقد ادركنا كما ادرك غيرنا ما اصاب هذا المجموع النفيس من تحريف وتشويه وبتر وتشويش، فثألنا ان يكون حظ اعلامنا منا اقرار قلم المسخ على العبث بمخلفاتهم العلمية، لذلك صرفنا الوجهة الى رفع الاشواك التى احاطت بالاحاطة فشوهت جمالها وقللت محصولها مع العلم باننا فى هذه الاشارة، قد جاوزنا الحد الذى كان مقدرا لهذا الكتاب من الذكرى الخطيبية، فرحم الله معجزة البيان وأمير دولة الاقلام، فلو لم يخلد من آثاره الا احاطته لكانت بمفردها كافية فى الدلالة على بعد غوره، وعلو كعبه وثقوب ذهنه وحصافة رأيه وزائد تحريه فيما يبدعه ويبديه، فلنودعها الآن لنأخذ فى بحث كتاب آخر قد لا يقل عنها قيمة بالنظر لاحوال المجتمع الذى عاش فيه وهو كتابه .

نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب

فان هذا الكتاب من الموضوعات الجليلة التى صدرت عن لسان الدين بعد مفارقتة للاندرلس عقيب المحنة الاولى، فلا يبعد ان يكون من انتاجه ايام مقامه فى المغرب بين فاتحة سنة احدى وستين وآخر سنة ثلاث وستين، وقد افاد المؤلف فى ترجمته بان الكتاب فى اربعة اسفار وقال فى وصفه انه موضوع جليل، فلم نعد بعد ثناء مؤلفه عليه على بخله باوصاف كتبه عند سرده لها فى ترجمته فى حاجة الى توثيق عدل امين ووصف شاهد عين،

فالكتاب على ما تفيد بعض شذرات منه من اعظم ما يرغب فيه الباحث فى تاريخ هذه البلاد وخصوصا فى عصر المؤلف الذى ترك لنا

عن المغرب صورة ما كان عليه اذ ذاك من مسالك وعوائد وآداب واخلاق
وابقى لنا صفحة خالدة فى تراجم اعلام ومفاخر رجال لن يدرك مدى هذا
الاحسان من امام البلاغة والبيان الا من يهمله من تاريخ هذه البلاد دراسة
احوال المجتمع، فليس فى وثائقنا التاريخية ما يغنى غناه بل بالغ
بعض كبار المستشرقين فشافهنى عن هذا الكتاب بانه أعظم مؤلفات
ابن الخطيب قيمة واكثرها فائدة، ولا فائدة - وقلمنا من تقرير كتاب
الاحاطة لم يجف - فى محاسبة الناس على رغائبهم وآرائهم فنفاضة الجراب
بحق من اعظم موادنا التاريخية لن يجهل قيمته الا من يعمل لقطع صلة
الحاضر بالماضى، اما الذين يهتمهم الاشادة بماضيهم فلن يجدوا فى
مجموع ما كتب عن ذلك العصر كنفاضة الجراب الذى هو من اعظم
حسانات هذا الوافد الميمون على تاريخ هذه البلاد، وقد كنا نظن ان قلم
ابن الخطيب فى ريحانة الكتاب سينفتحنا بفاتحة هذا الكتاب فى باب
التحاميد كما فعل مع خطب الكثير من مؤلفاته لكى ندرك من مقدمة
الكتاب الغرض الذى رمى اليه والمقصود الذى من اجله جمع هذا المجموع
التاريخى، ولكن قلم لسان الدين فى تخليد هذه الصفحة كان ضئيلا
فلنطو صفحة السط والبيان ولنقتصر فى تعريف بهذا الكتاب على
كلمات .

اسم الكتاب

وانه لمن المؤسف ان نستهل الحديث عن هذا الكتاب بالتنبيه
على ما وقع فى اسمه من التحريف، فقد كتب فى الدرر الكامنة للحافظ
ابن حجر بنفاضة الجراب فى علالة الاعراب، وسماه الامام ابن غازى فى
روضه الهتون بنفاضة الجراب فيمن بقى من الاصحاب، ونقل عنه صاحب
جوهر الكمال فدعاه بنفاضة الجراب فيمن جمعنى وياه الاغتراب، ورام
صديقنا المرحوم ابن زيدان ضبط هذا الاسم فى تاريخ مكناس فقال كما
فى ص ٢٣٦ من الجزء الاول نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب بمن
بقى من الاصحاب وهناك فى تحريف اسم هذا المؤلف الجليل الفاظ
كثيرة لعدة من المؤرخين قد يظن من يقف على نسبتها لابن الخطيب انها
اسماء مؤلفات له وكلها فى الحقيقة ترجع الى الاسم الذى وضعه المؤلف
لهذا الديوان التاريخى وهو نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب .

موضوع الكتاب

على اليد من هذا الكتاب ورقات، وفي تواريخ مدن المغرب
كمكناس وسلا والرباط وآسفى ومراكش واغامت منه صفحات وكلها
ترشدنا الى ان النفاضة عبارة عن مجموعة تاريخية ضمنها مؤلفها الكثير
مما شاهده في هذه البلاد مع تراجم من التقى به من اعلام المغرب
وادبائه، فهو من جهة كرحلة للمؤلف في هذه البلاد سجل فيها ما استرعى
اهتمامه ورآه خليقا بالتدوين، ومن جهة اخرى هو مدون تاريخي غير
قاصر على المغرب كما يظن، فقد احالنا عليه مؤلفه في استيفاء اخبار
بنى نصر في كتابه اللوحة البدرية ص ٩١ وص ١١٣ وص ١١٩ ، وفي
مختصر الاحاطة ص ٢٤٠ من الجزء الاول، فموضوع الكتاب على ما
يتراءى لنا تاريخي أدبي جغرافي وصف فيه الكثير من مسالك هذه البلاد
وسكانها وعوائد اهلها، ولكن مؤلفه الجليل لم ينس حق بلاده ، فالكتاب
اندلسى مغربى .

تاريخ تدوينه

فى الروض الهتون المطبوع منه والخطى الذى يقول الاستاذ ابن
زيدان انه بخط مؤلفه الامام ابن غازى فى معرض الاشادة بمكناسة
واعلامها ما لفظه : ومنهم الجماعة الذين لقيهم ابو عبد الله بن الخطيب
بها سنة احدى وسبعين وسبعمائة حسبما ذكره فى رحلته المسماة
بنفاضة الجراب فيمن بقى من الاصحاب، وهو تاريخ قد اغرب فيه هذا
الامام فان ابن الخطيب بعد ان فارق المغرب ورجع الى الاندلس سنة
ثلاث وستين وسبعمائة لم يطقا تراب المغرب الا فى سنة ثلاث وسبعين
فقبل التاريخ الذى حدثنا عنه ابن غازى عرف ابن الخطيب مكناسة وعرف
الادب نفاضته، حيث حدثنا فى ترجمته الاولى والثانية عن هذا الكتاب
واحالنا عليه فى عدة من كتبه التى سبق تدوينها هذا التاريخ، فابن الخطيب
قد كان بمكناس سنة احدى وستين كما حدثنا عن هذه الرحلة فى كتابه
اعمال الاعلام ص ١٩١ لا سنة احدى وسبعين كما تفهمه عبارة ابن غازى
وتدوين النفاضة على ما نظن كان فى هذه العدة لانه فى ترجمته لنفسه
ذكر اسمه فى الكتب التى صدرت عنه بعد الانتقال عن الاندلس عقب

محنته الاولى، فلا يبعد ان يكون من الكتب التي ألفها أيام انقطاعه بسلا
وذلك بين سنة احدى وستين وثلاث وستين، ثم اضاف اليها ما تجدد
عنده بعد ذلك، فالكتاب في الحقيقة كانه ثلاثة اعوام من حياة المؤلف
نود ان لو اظفرتنا الايام به لنشهد صيد الخاطر ونقل الموائد وشوارد
الفوائد، ولكن بقلم لسان الدين بن الخطيب، وقد علمنا ان هذا المجموع
قد اشتمل على رحلة ابتدئت من فاس وختمت بمراكش ونواحيها، وهي
رحلة وان اكتشف فيها ابن الخطيب ما يحسن ذكره ويلطف من القارىء
موقعه، فقد اكتشفت لنا من حياته نواحي سوف نشير الى ما تحسن اليه
الاشارة اليه منها وقديما اقام الحكماء من حوادث الاسفار وجوب الاقطار
معيار الاختبار لخفايا الاسرار .

رغبته في زيارة مراكش

قبل ان يرافق ابن الخطيب في هذه الرحلة الميمونة يحسن بنا
ان نمهد لها بكلمة تركها لنا صاحب الاستقصاء فان هذا المؤرخ الفاضل
يرى ان ابن الخطيب بعد ما خلصه الله من النكبة بانتقاله الى هذه العدو
عن له رأى في التزهّد والانقطاع الى الله تعالى واغتنام بقية العمر فيما
يعود عليه نفعه في العاجل والآجل برفض السلطان، وأسبابه وترك ما
يلجئه للوقوف ببابه فتلطّف في استيذان السلطان ابنى سالم
رحمه الله وطلب منه الاذن في الذهاب الى جهات مراكش والوقوف على
آثار الاقدمين بها والتطّارح على أوليائها والمثول بأعتابها والتعلّق
بأذيالها والتمسك بأسبابها جاعلا ذلك مفتاح العزلة والتخلّي عن الدولة
فاذن له وكتب الى العمال باتحافه والاعتناء به فتباروا في ذلك كما
يفصح عنه بعض شعره هـ. وهذا التطور الفجائي الذي طرأ على حياة
لسان الدين عقب المحنة التي كادت تودي بحياته، فحن الى حياة الزهد
والتخلّي عن سياسة الملك ومظاهر سلطانه، هو الذي يلوح لكل من
يعنى بدراسة اخباره ومراحل التطور في حياته، فما افصح عنه مؤلف
الاستقصاء وصدر به كتمهيد لهذه الرحلة التي استغلها اعداؤه ضده
ونسبوه فيها الى احتراف الكدية والتخلّي عن ملكه بعد ادبار ايامه
والابتعاد عنه وهو في حاجة الى تأنيس غربته بقربه هو الاوفق باخلاق
هذا الوفي المخلص على ان ابن الخطيب عقب المحنة لتى أتت على

موجوده قد ركبته ديون وأظن ان نزول الملك بحاشيته واسبابه على دار الملك بفاس قد حجب ما ينبغي ان يقابل به ابن الخطيب كوزير وربما فكر في المقام بهذه البلاد وهو بفاس، ورأى من الاحوط ان يستمد الاعانة على مبتغاه من ذوى النخوة العربية والنجدة المغربية ، فاستصدر مكتوب التوصية وكان له من ولاية الدولة وأعيانها ما حقق رجاءه وايا كان، فلم يزد ابن الخطيب على ما كان مسنوناً اذ ذاك وما زال الملوك قديماً وحديثاً يعدون من مظاهر اكرام الضيوف تسهيل وسائل الراحة لهم باقامة المنازل وكتابة الرسائل عند رغبة الضيف في زيارة الاماكن المحترمة وشهود ما نأى من آثار المملكة، ولعل تاريخ المغرب لم يشهد يمن حركة وبركة رحلة كرحلة لسان الدين التسي اثبتت من حقائق هذه البلاد في ذلك العصر ما فيه المتعة للقارئ والمادة للمؤرخ الباحث واليكم المنشور الميريني الذي به كان ابن الخطيب يمهّد الطريق لسيره ويطالب بالقيام بحقه على ما في هذا المنشور من محو قلة من قيمته.

هذا ظهير كريم شاد بالتنويه - - الجميل والاکرام السابغ الاذیال وأعاد النعم بعد ابتدائها عمیمة النوال وارفة الظلال والقی فی ید المعتمد به صحیفة الاعتناء المقال مقتنصة دیوان الآمال ورفع لواءه العزیز المنال علی النظراء والامثال حکم بأعماله وإمضاء امره الکریم وامتثاله عبد الله المستعین بالله ابراهیم ابن مولانا امیر المسلمین المجاهد فی سبیل رب العالمین ابی الحسن ابن مولانا امیر المسلمین المجاهد فی سبیل رب العالمین ابی سعید ابن مولانا امیر المسلمین المجاهد فی سبیل رب العالمین ابی یوسف بن عبد الحق اید الله امره واعز نصره للشیخ الفقیه الاجل الاعز الاسنی الوزير الاجل الامجد الانور المحترم الملحوظ الاثیر الاکمل السری الحظی الزکی الاخلص ابی عبد الله بن الشیخ الوزير الفقیه الاجل الاعز الاسنی الامجد الحسیب الاصل الانوه الانزه الاثیر الاکمل المبرور المرحوم ابی محمد بن الخطیب وصل الله حظوته ووالی عزته وجدد له الحظوة التي لباسها وصحح بنظر البر والاکرام قیاسها وشید میانی التي مهد اساسها، ولما وفد علی بابہ الکریم عائذا بجواره وملقیا فی ساحة العز المشید عصا تسیاره ومجریا فی میدان البر والترحیب الی أقصى مداه وأنس فی حضرتنا الکریمة انوار العناية التي كانت هداه واحللناه من بساتینا المحل الذي اشتمل

به العز وارتداه وكمل له الامل ووفاه واذا له تفننا في اسداء النعم
 الثرة وتلقى وفادته بوجوه القبول والمبرة في زيارة التربة المقدسة
 بشالة المعظمة حيث ضريح مولانا المقدس ومن معه من اسلافنا الكرام
 نور الله مثواهم وجعل الجنة مأواهم، وهذا النظر الكريم وان عد من
 انواع التكريم والاحسان العميم فهو السعى الذي نصرف اليه وجه
 القبول والرضى والاهتمام والرغبة التي لها موارد الاسعاف عذبة
 والتقرب الذي نوثر له مهاد البر المستدام فلفاعله مزية الاعتناء
 والتقديم وجزاء القيام بخدمة سلفنا الكريم وقد اذا له في مشاهدة
 تلك الجهات من حضرتنا العلية بمراكش المحروسة للقاء الاعلام واجتلاء
 المعاهد الكرام والآثار الباقية على الايام كيف احب وعلى ما شاء من
 اراحة او المام مصحبا بمن ينوه به في طريقه من الخدام تنويها للكرامة
 وتجديدا وتقديرا للعناية، وتأكيذا ليعلم بذلك ما له ببالنا الكريم من
 الاعتناء وما اعتدنا مع محبي اسلافنا الكرام من الجزاء ويجرى في جميع
 مئاربه واحواله على النهج السوى المرعى حال اياه الى مقره من
 حضرتنا العلية ومحل من بساطنا الاشرف وعرضه القائمين ببره واکرامه
 بين ايدينا فيجنى المبادر الى توفية آماله ثمرة اعماله ويقابل القائم
 ببره شكر خدمته والله المستعان وكتب في المدينة البيضاء مهدها الله في
 الحادي والعشرين لربيع الثاني عام احد وستين وسبعمائة ، وليعتمد
 وزيرنا الشيخ الاجل الاكمل الاحطى ابو الحسن على بن العباس اكرمه
 الله على أن يدخله الى المساكن العلية بقصبة مراكش حرسها الله ليشاهد
 الآثار السلطانية التي انتظمت في سلكننا وعفا عليها جديد ملكنا فليعلم
 ذلك وليعمل به والله المستعان، وكتب في التاريخ المؤرخ به، قال ابن
 الخطيب في ترجمته عند ذكر التشريفات الملوكية وقد صدر لى هذا
 المنشور الرفيع من أمير المسلمين ابى سالم عند تشوفى الى مطالعة بلاده
 الغربية وجهاتها المراكشية بقصد لقاء أهل الصلاح والعبادة وزيارة
 ملاحد السادة هـ. وابن الخطيب لم ينس حق التمهيد لهذه الرحلة فترك
 عنها جملا في كتابه ريحانة الكتاب تؤيد رأى من يرى في نفاضة الجراب
 انه عبارة عن رحلة للمؤلف قام بها في هذه البلاد، قال لسان الدين ومن
 ذلك كلام في الرحلة لما خف عبد مقامه صحبة وفد طاعته ومقدم سنة
 امره العزيز وطاعته باذلا في البدار جهد استطاعته طائرا بجناح الحب
 لاول أمر الامكان وساعته فرأى السرير قد استقل به غاصبه والملك قد

تقررت مناصبه فأدى الفرض وقرض فأحسن القرض ، وعرض كتاب المدح وملأ بها الارض وصدر قافلا وفي ثياب العز رافلا واقتضى من اذنه فى زيارة البلاد المراكشية ما يبدى منه لمن غاب عنه خلال كماله ويهنئ بتمام الامر ونجح مآله ويلتمس بركة الضريح النى يحسب الراغب بآماله وظهر له ان يدون رحلة وجهته المنسوبة الى عناية امره ويفتق كرامة فخرها عن زهره مستعينا بالله فى سره وجهره .

مفارقة ابن الخطيب مدينة فاس

قال ابن الخطيب خرجنا من أم القرى ومجمع الورى وكعبة السير والسرى مدينة فاس دار الملك الاصيل والعز المشرف الاثيل حيث القصور البيض والملك الطويل العريض، والابواب المحروسة، والبساتين المغروسة والمياه المتدفقة والجنود المرتزة والمبانى العظيمة والرباع المرتفعة عن القيمة والدين والدنيا من غير شرط ولا ثنيا حرسها الله وكلاهما وقد بقينا نلتفت الى معاهد السادة وعلق الودادة ومراقب اولى الجود والاجادة .

هم اسكنونا فى ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأكنت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الندى لاقوه منا لملت
وشيعنا من كرم ذمامه وعرف بربع الوفاء المامه جملة من الصدور
والشموس والبدور تذكرت عند وداعهم المهيج للشكاة والمدامع
المشتبكات قول شيخنا ابى البركات .

يا من اذا ما رمت توديعه ودعت قلبى قبل ذاك الوداع
وبت ليلى ساهرا حائرا اخادع النفس ببعض الخداع
يا محنة النفس بما لوفها من اجله قد جاء هذا الصداع
وكان المبيت بدشار البوير من احوازها دشار نسفت الطريق
بلالة اهله واعدم الله المروءة من فتاه وكهله ومن الغد قطعنا المرحلة
الاهلة والطريق الطاعمة الناهلة حيث السهل الممدود والماء المورد
والجسور المحنية والدشر السنية والاثار المرينية الى مدينة مكناسة .

مكناسة الزيتون من قلم ابن الخطيب في نفاضته

اطلت علينا مدينة مكناسة في مظهر النجد، رافلة في حلة الدوح مبتسمة عن شنب المياه العذبة سافرة عن اجمل المرأى قد احكم وضعها الذي اخرج المرعى قيد البصر وفذلكة الحسن ، فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين ان تخلفه حسنا ووضعا من بلد دارت به المجاشر المغلة والتفت بسوره الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو اليه الطرف رحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية واشراف ربوة ومثلت بازائها الزاوية القدمى المعدة للوراد ذات البركة النامية والمأذنة السامية والمرافق المتيسرة يصاحبها الخان البديع المنصب الحصين الغلق الخاص بالسابلة والجوابة في الارض يبتغون من فضل الله تعالى تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية بروق الشبيبة ومزية الجودة والانفساح وتفنن الاحتفال وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلة الهمم واخذنا التنجيد، فجاءت فائقة الحسن ما شئت من ابواب نحاسية وبرك فياضة تقذف فيها صافى الماء اعناق اسدية ، فيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين وتفضل هذه المدينة كثيرا من لداتها بصحة الهواء وشجر اصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداماة البر بجوار ترابها سليما من الفساد معافى من العفن اذ تقام ساحات منازلها غالبا على اطباق الآلاف من الاقوات تتناقلها المواريث ويصاحبها التعمير وتتجافى عنها الارضة ومحاسن هذه البلدة المباركة جملة قال ابن عبدون من اهلها والله دره :

ان تفتخر فاس بما فى طيها وبانها فى زيها حسناء
يكفيك من مكناسة ارجاؤها والاطيبان هواؤها والماء
وبساحتها شرقا جبل زرهون المنبجس العيون، الظاهر البركة
المتزاحم العمران الكثير الزياتين والاشجار عنصر الخير ومادة المجبى
وفى المدينة دور نبهة وبنى اصيلة والله تعالى ولى من اشتملت عليه
بقدرته وفيها اقول :

بالحسن من مكناسة الزيتون قد صح عنر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذى يجرى بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين آباطح وافتر ثغر الزهر فوق غصون

ولقد كفاها شاهدا مهما ادعت
 جبل تضاحكت البروق بجوه
 وكأنما هو بربرى وافد
 حييت من بلد خصيب ارضه
 وضفت عليك من الاله عناية
 وفيما نقلناه مع ما يوجد فى ص ٢٧ من الروض الهتون وص ٢٣٣
 من الاتحاف وص ٤٣٦ من رابع النفح وما فى ريحانة الكتاب تغيير
 يسير فليحرر .

ابن الخطيب والمجتمع العلمى بمكناس

افيد ما يقرأ فى التاريخ العلمى بهذه المدينة هو ما خلفه عنها
 لسان الدين فى نفاضته فبعد الصفحة التى وصف بها هذه المدينة التى
 آل أمرها الى أن أصبحت قاعدة مملكة المولى اسماعيل منها اتخذ
 عاصمة لسلطانه واىوانا لبنيانه ومحشرا لعبدانه، خلف لنا كذلك فى
 صحيفة العلم أسماء رجال وتراجم اعلام لم يشغله هم الغربة وتعب
 الرحلة ومظهر الرياسة وعزة العلم، عن البحث عنهم والاستفادة منهم
 فساجل ادباء وراسل اعلاما، وقرأ وسمع وافاد واستفاد وكان الايام التى
 قضاه بهذه المدينة كانت فى تاريخ العلم والادب بمكناس ايام مواسم
 واعيان فمن افراد العلم بهذه المدينة الذين التقى بهم لسان الدين
 ابو محمد عبد الحق بن سعيد، اخذ عنه مؤلفه الخارمة على الرسالة
 الحاكمة لابی بكر بن العربى تعقبها هذا الشيخ بهذه الرسالة وصفها ابن
 الخطيب بالنبل والحسن والاجادة كما وصف مؤلفها بالامامة والفصاحة
 والقيام على مختصر ابن الحاجب قياما انفراد به فيما دون تلمسان وهى
 شهادة تدل كذلك على تقدم ابن الخطيب فى الفقه ومعرفته بمميزات
 فقهاء وقته، واجتمع كذلك بالشيخ الفقيه ابى على الحسن بن عثمان
 ابن عطية احد الاعلام المشار اليهم بالامامة فى الفقه والفرائض والحساب
 والمروفين بالادب والفضل والدين ونظم الشعر تعرض لمنظومته فى
 الفرائض واثنى على بسط عبارتها وحضر مذاكرة الشيخ ابى على عمر
 ابن عثمان الوثنريسي ووصفه بالفقه والادراك والتقدم فى فنون العربية
 والتقى باديب مكناسة الشيخ الاديب الاخبارى العدل ابى جعفر احمد بن
 محمد بن ابراهيم الاوسى الجنان، وقال عنه انه من اهل الظرف

والانطباع والفضيلة، كاتب عاقد ناظم ناثر مشارك فى فنون من العلم له تصنيف حسن فى ثلاثة اسفار اسمه المنهل المورود فى شرح المقصد المحمود، شرح فيه وثائق ابى القاسم فاربى فيه على الاجادة بيانا وافادة ناولنى اياه واذن فى حمله عنه وانشدنى كثيرا من شعره فمن ذلك ما صدر به رسالة يهنئ بها ناقها من مرض .

البس الصحة بردا قشيبا وارشف النعمة ثغرا شنيبا
واقطف الآمال زهرا نضيرا واعطف الاقبال غصنا رطيبا
ان يكن ساءك وعك تقضى تجد الاجر عظيما رحيبا
فانتعش دهرك ذا فى سرور يصبح الحاسد منه كئيبا

قال ابن الخطيب وقرأت بالدور الخشبي فى الدار التى نزلت بها ابياتا منتقشة استحسنتها لسهولتها فأخبرنى انها من نظمه وهى :

انظر الى منزل متى نظرت عيناك يعجبك كل ما فيه
ينبئ عن رفعة لمالكه وعن ذكاء الحجا لبانيه
يناسب الوشى فى اسافله ما يرقم النقش فى اعاليه
كأنه روضة مدبجة جاد لها وابل بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها وأوقفتها على تجليه
فهو على بهجة تلوح به ورونق للجمال يبديه
يشهد للساكنين ان لهم من جنة الخلد ما يحاكيه

فى ابيات أخرى قال ابن الخطيب وفاتحته محركا قريحته ومستثيرا ما عنده بقولى :

ان كانت الآداب اضحت جنة فلقد غدا جنانها الجنان
اقلامه القضب اللدان بدوحها والزهر ما رقمته منه بنان

وذكر ابن الخطيب بعد البيتین سجعا بليغا ثم قال فراجعنى الجنان بما نصه :

يا خاطب الآداب مهلا فقد ردك عن خطبتها ابن الخطيب
هل غيره فى الارض كفء لها وشرطها الكفاة قول مصيب
اصبح للشرط بها معرسا فاستفت فى الفسخ فهل من مجيب

ايها السيد الذى يتنافس فى لقاءه ويتغالى ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه وتقتنص شوارد العلوم برواية كلامه فكيف بمدناة عيانه جلوت على من بنات فكرك عقائل

نواهد واقمت بها على معارفك الجمة دلائل وشواهد واقتنصت بشرك
 بديهتك من المعانى او ابد شوارد وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضا
 عذبة الموارد ثم كلفتنى من اجراء ظالع فى ميدان ضليعها مقابلة الشمس
 النيرة بسراج عند طلوعها فأخلدت اخلاذ مهيض الجناح وفررت فرار
 الاعزل عن شاكى السلاح وعلمت اننى ان اخذت نفسى بالمقابلة وادليت
 دلو قريحتى للمساجلة كنت كمن كلف الايام مراجعة امسها او طلب ممن
 علته السماء محاولة لمسها وان رضيت من القريحة بسجيتها وظهرت القدر
 الذى كنت امتحت من ركيثها اصبحت مسخرة للراوين والسامعين ونبت
 عن اسمى دواوينهم كما تنبو عن الاشيب عيون العين ثم ان امرك
 يا سيدى لا يحل وثيق مبرمه ولا يحل نسخ محكمه فامتثلت امتثال من لم
 يجد فى نفسه حرجا من قضائك ورجوت حسن تجاوزك واغضائك ابقاك
 الله قطبا لفلک الكارم والمآثر وفصا لخاتم المحامد والمفاخر والسلام .
 ورسالة ابن الخطيب التى اهمل ذكرها صاحبا الروض والاتحاف هى
 المذكورة فى الريحانة ولفظها :

ما كنت ايها الفاضل الذى زار وتفقد وضاء كوكبه الدرى وتوقد
 فأنسى سناء الفرقد اظن هذا البلد يشتمل على مثل درتك درجة
 ولا يشرف بمثل ثبيرك برجه ولا يشمخ بمثل بطلك سرجه
 حتى اجتليت منك معارف شتى وغاية فضل لا تحد بحتى فعلمت ان
 البلدان بخيارها لا بتعدد ديارها والاماكن بأربابها لا بتعدد ابوابها وقد
 علمت انى ضعيف وقرأى خفيف لا قدر ولا حفيف انما هو يبذل ونفس
 فى الانقباض تهزل ومذاكرة تهز دوحها وتنشق روضتها فان اردت
 ان تعدد ما افردت وتعيد من دول الفضائل ما اوردت
 لا يجد نكرا واغتنمت حمدا وشكرا والسلام .

ابن الخطيب وقاضى مكناس ابن ابى رمانة

كان الشيخ ابو عبد الله محمد بن على بن ابى رمانة هو المتولى
 لمنصب القضاء ايام زيارة ابن الخطيب لمكناس، وكان هذا الفاضل من
 اهل الدين والخير والحشمة والعفة والحياء والخشية والسداجة على ما
 وصفه به ابن الخطيب ولعل هذه الاوصاف القائمة به وهى فى الغالب
 تدعو صاحبها الى العزلة والابتعاد عن الخلق وخصوصا اصحاب المظاهر

والسلطان هي التي اخرته عن زيارة ضيف مكناس يوم وصوله ، فكتب اليه لسان الدين يأخذ عليه فيها تقصيره وتأخره عن زيارته بهذه الدعابة على حد تعبيره .

جفا ابن ابي رمانة وجه مقدمي ونكب عنى معرضا وتحاماني
وحجب عنى حبه غير جاهل بأننى ضيف والمبرة من شانى
ولكن دارنى مغربيا محققا وان طعامى لم يكن حب رمان
ثم وصل هذه الدعابة بقوله زيارة القاضى اصلحه الله لثلى ممن
لا يخافه ولا يرجوه تجب من وجوه اولها كونى ضيفا ممن لا يعد عند
الاختبار زيفا ولا تجر مؤانسته حيفا فضلا عن ان تشرع رحا او تسل سيفا
وثانيها انى امت اليه من الطلب بسبب بين موروث ومكتسب وقاعدة الفضل
قد قررهما الحق واصلها والرحم كما علمت تدعو لمن وصلها وثالثها
المبدأ فى هذا الغرض ولكن الواو لا ترتب الا بالعرض وهو اقتفاء سنن
المولى ايده الله فى تأنيسى ووصفه اياى بمقربى وجليسى، ورابعها وهو
عدة كيسى وهزبر خيسى وقافية تجنيسى ومقام تلوينى وتلبيسى
مودة رئيس هذا الصنف العلمى ورئيسى، فليت شعرى ما الذى عارض
هذه الاصول الاربعة ورجح مذاهبا المتبعة الا ان يكون عمل اهل المدينة
ينافيا، فهذا بحسب النفس ويكفيها، وان تعذر لقاء او استدعاء وعدم
طعام او وعاء ولم يقع نكاح او استرعاء فلم يتعذر عذر يقتضيه الكرم
والمنصب المحترم فالجلة الى التماس الحمد ذات استباق والعرف بين
الله وبين الناس باق، والغيرة على لسان مثله مفروضة، والاعمال معروضة
والله لا يستحي ان يضرب مثلا ما بعوضه وان كان لدى القاضى فى ذلك
عذر فليفده واولى الاعذار به انه لم يقصده والسلام .

وتفيدنا هذه الرسالة التي هي من اسلوب الدعابة فى ادب ابن
الخطيب، ان تأخير تهنئة الضيف بسلامة القدوم يوم وصوله يعد تقصيرا من
حق الضيف، كما تفيد من يرغب فى دراسة نفسية لسان الدين ان هذا
الاريحى الباقية وان قصد من هذه الرحلة لقاء اهل الصلاح وزيارة المعاهد
والديار فانه لم يستطع التخلص من مظاهر الرياسة والسلطان، فقد
اسمعتنا هذه الرسالة الفكاهية كثيرا من الفاظ الملك والقابه كمؤنس
السلطان ومقربيه وجليسه، وكالحقوق المفروضة والاعمال المعروضة
فلمنشور السلطان الذى كان يرافق ابن الخطيب لغة فى هذه الدعابة
وان ألبسها لسان الدين حللا من بيانه واصحبها ملحا احتجبت معها

موجدة جنانه فلهه وهو فى المرحلة الاولى من هذه الرحلة التى بنى عليها الكثير من آماله لسعادة مستقبله قد اخذه ما يأخذ اولئك الذين ينظرون الى الولاة كمفاتيح البلاد ومورد العناية والتحف واعداد الزاد فداعب هذا القاضى الفاضل الذى جمعته به روابط الطلب ومشيشة الامام شمس الدين ابن مرزوق وقد عرفنا من لسان الدين ما كان عليه هذا القاضى من فضل ودين وخشية وحياء كما افادنا عن اعلام آخرين من سكان هذه المدينة الاسماعيلية كالشيخ الفقيه ابى عبد الله محمد ابن احمد بن ابى عفيف والشيخ الفاضل يونس بن عطية الوائشريسى وآخرين ذكر الامام المقرئ جميعهم فى فضل مشيشة لسان الدين وليس فى اخبار ابن الخطيب معهم ما يفيد تلمذه لكل من التقى به منهم، وانما هم جماعة اكتفى من بعضهم بالاخذ عنه ومن آخرين بالمطارحات الادبية فنظم اخبارهم فى كتاب الرحلة على ما يصفها به بعضهم كابن غازى وغيره وهى نفاضة الجراب.

حياة البادية من وصف لسان الدين فى نفاضته

جمال هذا الوصف من قلم ابن الخطيب قد يطرب له من سكن البادية وعرف عوائدها التى لا تزال متوارثة الى الآن، اكثر من اولئك الذين لا تلفحهم شمس الطبيعة ولم يتذوقوا طعم حياة البدو، بل اكتفوا من ملاذ الحياة بسكنى البيوت كالدواجن والقواعد ورضوا من هذه الحضارة بشرب مائها الراكد، فمن الوصف الساحر الذى ابقاه لنا ابن الخطيب كصورة حية عن حياة البادية اذ ذاك، وهو فى طريقه الى قبلة وجهته مراکش، هذا الفصل الطريف، حتى اذا الشمس همت بتسلىق الجدران ونادت اهلها من وراء الحجرات وطقق عسجدها يذهب لجين الضحى وموساها تحلق خد الارض الموشية بعد ما التحى، قمنا نستشعر التجلد للبين وهو يفضح ونجمل حكم الوجد والدمع يشرح فودعنا الخليط المصاحب، وسلطنا الطريق غير اللاحب، وقد طفق ضباب له على الارض اكباب حجب الجهات، ولايس بين الامهات، فضلنا لولا أن الله هدانا، وسرنا وقد الحفنا السحاب وردانا والنبت قد اطلع ولدانا، ونواحل الطلول قد عادت فدانا، ثم ان مرآة الافق جلّت الغزالة صداها واتت كل نفس هداها، فحمدت السراة مغداها واقتحمنا الرمل

الذى اخرج الله مرعاه وحشش اليهم فحصر فدعاه ما بين خيام ورعاة غير
لثام وبيوت شعر ومعاطن بقر وغنم تملت بها الارض وانفس ضاق بها
الطول والعرض، وعجائز يئسن من المحيض بهدية قرب المخيض، وقد
اضطربت فى الفحص الافيح محلة الساعى ناجحة منه المساعى، فالاذواء
تعد والنطائح تمد والمطامع تمتد، والعاملون عليها حجتهم لا
ترد ولم تكد الشمس تقتعد سلم خط الزوال وتسدل من
رءوس الغوائم ذوائب الظلال، حتى نزلنا بعين الشعراء وانتبذنا عن
حصنه الى العراء حصن مثلوم ومهدوم موجود الانس به معدوم، الا انه
كثير الوقود ومناخ مقصود، ومعدن الحديد، وباب الوطن المديد، خيمنا
بظاهره خيفة برغوته ولم نخف من سباعه التى تزار حولنا وليوثه ،
فكانت الوقاية النادرة وأمنت، والمنة لله، البادرة وبلونا من واليه مبرة
وما فقدنا من اللطف مثقال ذرة وعند الصباح شرعنا فى الارتحال وعين
الشمس بكثرة الضباب مفتقرة الى الاكتحال، فسلطنا خندق هارون
الى دشار مكحول وهو الى الفناء موكل ورءوس الحراب من الاعراب
موكل ولما رأينا ربه غير مانوس وقد امتاز بلبوس البؤس، جزناه
الى ماغوس دشار الزاوية ومركز الخطوط المتوازية ومناخ الرفاق
السارية وحاضرة تامسنا حيث مجلس قاضيها وتشاجر ساخطها وراضيها
وحمام متوضيها دشار كبير يأكل من هوى ويشرب من بير فقد النظارة
وعدم مرافق الحضارة الا انه على الاختزان امين ولحفظ الحبوب ضمين
ما لم تعث شمال الفساد ويمين قد اتخذ به مسجد شان النقص مناره
لقصور درهمه وديناره فمنظره شنيع وحماه غير منيع ينتابه فى كنف
شاهده العدل فصم عن العدل وترفع عن خلق النذل وانشدته من الغد
ماذا لقينا بماغوس من اللفظ ليلا ومن جرس الاحراس والشرط
ومن رداءته ما لا يسوغ لنا شراب جرعته الا على شطط
ومن لغات حوالينا مبربرة كأننا فى بلاد الزنج والنبط
جرداء لا شجرات نستظل بها ولا أنيس يريح النفس من قنط
منارها قعد البانى بنصفته فلا تشير اليه كف مغتبط
كانه فيشة جاءوا لقلفتها بخاتن قط منها النصف عن غلط
لكن فاضل كتاب الشروط يحيى أبر فتى للفضل مشترك
احيا بها الانس يحيى بعد وحشتها وناب عن جلة من ذلك النمط

ورحلنا من الغد على شكر لقراء وصرف الركب الى محلة سفيان
سراه ، فسرنا نؤم حلة سفيان وملاعب الرعيان بين خيام قد استدارت
كالوذائل ، واشتملت على الولائد والعقائل ، ودشر ركبت الهضاب
باخصاصها وملأت الوهاد بقلاصها يسمح أهلها باللبن الحامض بعد ما
نزع جبنه وزبده ، وترجع للراغب فيها زهده ووجدنا الطاعون فى بيوتهم
قد نزل واحتج منكم الكثير الى القبور واعتزل وبقر وبزل واحتج
واختزل فلا تبصر الا ميتا يخرج وكميتا لجنازة يسرج وصراخا يرفع
وعويلا بحيث لا ينفع ، ففعلنا الهجوم والفنا الوجوم وتراوغنا عن العمران
وسألنا الله السلامة من نكرة ذلك القران ، وركضنا نبغى اللحاق بالبرج
حيث مخيم شيخ القبيلة ونروم المبيت بالمنزلة غير الوبيبة وقلت :
ترى لهذا السير من منتهى بناء اعضائى به قد وهى
قالوا نريد البرج قلت ارجعوا عن سهدكم قد جرت برج السهى
فزالت الشمس ومالت ثم سالت وانهارت فى حجر المغرب
وانهالت وبعد لاي ما بلغنا ومن الكد فرغنا ، ومنحة الراحة تسوغنا
ونزلنا بازاء خيام استدارت فى سنام ، وقد اشتبكت جبالها وتراصت
جبالها مدائن دورها شعر ، ووقودها بعور وسورها سدر وبقلمها لا يخلو
من قدر ، رقد جاورت بركا ريانة ومنازل بالامم ملثانة ومروجا مرقومة
الطراز وبطاحا مفضوضة الصدر ، وبأذر الشيخ فرحب وتبسط وتجب
رجل قد اكتمل وعلى الوخط اشتمل ، تدل منه المناشدة (؟) على نبل تحت
جهامه ، وتشق منه كمامة الفهامة عن بهامه ، ولم يقصر من طعام نظيف
واحتفال مضيف وركب لوداعنا فى موكب لجب غير محتجن ولا محتجب
وسأل عن الطبة ومناخ المطية قلنا المنزل الاثير حلة ابي كثير فهون
من محركات الرحلة واوضح من مذاهب تلك النحلة فوكل بلحظنا عينه
وقسم المرحلة بيننا وبينه وانزلنا من حلة مهدي بن موسى وقد امتدت
الينا أنامل البوسى فانتبهنا عن جوارها واصحرا عن قدرة دوارها ولم
يجد صاحبنا فيها مرغبا لجوده الذى بذله ، ولا قبولا لقراء الذى نجله
واجتنبناه اجتنابا اخجله وبتنا فى وقاية خفى جناحها الى ان اشتعل
فى نجمة الليل صباحها فركضنا تحت رواق ضباب ساتر ورزاد متناثر
لم تزل الشمس ترشفه والرياح تستكشفه حتى تقشع ، وبان الاسل من
البلقع فتعرفنا فى بعض طريقنا ان ابا مثوانا ومأم قرانا يجمع بيننا وبينه
الطريق ويلتقى بالفريق الفريق لمجمع بين العرب معقود ، ورأى مشهود

فقلنا تعجيل اجتماع وحظ ابصار بعد اسماع ومزيد استكثار بأبى
كثير واستمتاع، وعلى بريد تراءت الخيل تسيل الاباطح بأعرافها وتأخذ
الاجواء بأطرافها وخالفت بيننا بنيات الطريق باشتباها فنزلنا ببعض
تلك الجهات على مياها وخاطبته بما نصه :

فتارك ما قدمت سفيان رغبة	ولا خوف تقصير ولا سوء سيرة
وما نظرة منى اليك اعدھا	سوى منة لله فى كبيرة
وان كان ما لاقيت قبلك انجما	فأنت على التحقيق شمس منيرة
ورب صلاة قدم النفل قبلھا	ويشرب من قبل الثريد حريرة

ثم كان النزول بالزاوية حيث قبر ذمام واى ذمام ورعى واهتمام
دشار وجدناه والحمد لله محتويا على صحة محجوبا عن خطوب حواليه
ملحة رحب بنا اهله واسهل الينا رحبه وسهله واقتدى فينا بمذهب
الشيخ فتاة وكهله ولما اصبح بكربنا الى محلته الآهله وذكرنا والشىء
يذكر بضده ناهله ونظرنا الى خيام وحل وجديد وطلل ومبارك ومعاطن
ومسكن يعرف باصالة قاطن تيط اقوراق وما ادراك ما تيط حيث الجنب
العنيط والنشير البسيط والبحر المحيط فجرت بها للزال عين كما
سال لجين أو صقل صفحة السيف قين وتسمن ذروة البيوت منها قصر
مشيد تلغ منه جيد واغرى به تحكيم وتنجيد ودارت البيوت كما نسجت
العنكبوت واتجهت اليه الطرق والسبوت وعج بأزائه السوق المسوق
وبان من مجد ساكنيها البسوق وقلت :

نزلنا حلة الخلط الكرام	باخت الركن والبلد الحرام
ومن يك من ضيوف ابى كثير	غنى بالفعال عن الكلام
فان بيوته لكمأ سمعنا	بيوت الخيل والنعم الجسم
تظللها الفوارس بالعوالى	وتفرشها الولائد بالطعام

وقد سقنا فصل هذا الوصف البدوى بطوله وان كان فى قرائه من
يرى قلة محصوله لا سيما وقد شان وجه حسنه داء التحريف، خفت بذلك
كفة ميزانية فاخفى معها فضل احسانه ولكن من يعنى بدراسة الحياة
الاجتماعية فى ذلك العصر وخصوصا ما يتصل بحياة البادية قد يجد فى
نفاضة ابن الخطيب الممتع الطريف والوصف الغريب .

ابن الخطيب وقاضي دكالة

من رسالة لابن الخطيب داعب بها قاضي دكالة ومما خلفه عن بني بطن سراة مدينة آزمور علمنا أن ابن الخطيب قد اتخذ من دكالة طريقا الى مراكش، وقد التقى ابن الخطيب بقاضيها اذ ذاك، ولعله هو الرحالة المتفنن ابو عبد الله محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزموري الدار، احد من ولى القضاء بدكالة وآزمور، وكان من رجال الكمال في عصر لسان الدين علما ورواية ومشاركة وتضلعا واجادة تأليف وسعة رحلة، ترجمه مزيل الديباج في النيل والكفاية، كما تعرض له صاحب مقدمة جواهر الكمال في ص ١٤٢، فذكر ان له كتابا في الجغرافيا والهيئة، وانه توفي آخر القرن الثامن، فلا يبعد ان يكون هو القاضي الذي داعبه ابن الخطيب بهذه الرسالة التي من فصولها، وصلت اليها القاضي رقعتك التي تضمنت الفوائد، وصلتك التي استصحبته العائد، وشاهد فضلك الذي بين تصريحه الاصل والزائد، وبعد وصف رحلة حجازية لهذا القاضي ألم فيها بالمشاهد والآثار وان وصفت باختصار، واستنجاهه وفاء وعده بارسال عيون مما له من الاشعار مما يدل على ان هذا القاضي كان في صف شعراء المغرب اذ ذاك، واصل دعابته الادبية في هذه الرسالة الدكالية بقوله، كأن دكالة شرابة لسرو القاضي أكالة، ويدها لتحجير أيديهم وكالة هذه الحركة كانت لمحبه حركة الفتح، ووجهة المن والمنح فلولم يقع فيها بخار نميمة للقمته العين وعسر الهين والقاضي اعزه الله كمال وعين الكمال لا تنكر والغالب الفضل وغير الفضل لا يذكر وهو على التافه يشكر داعبته حفظه الله مداعبة من يعتقد خلاف مقاله ويرجع القناطير المقنطرة بمثقاله ولا يقول في حال سره بانتقاله ومع اليوم غد ولكل شيء أمد ويرجى ان يتمتع الله منه بوقت يقع فيه استدراك ويرتفع باختصاص النزول لديه اشتراك ان شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ابن الخطيب في أسفى

قال في النفاضة لما شارفنا أسفى ركب الينا صردوكها أحمد ابن يوسف حفيد الولي ابنى محمد صالح النائم في ظل صيته واثير الناس من اجله رجل آدم اللون قد تعجل الوخط منه ذو دقن كث جالس

السلطان وقاد ركب الحجاز وجر ببلده دنيا عريضة واقتعد غارب غنى
جم يفد على باب السلطان الى وطنه مجدد الصكوك مستجد
الخلعة خاطبته بين يدي قدومي بقولي :

يا حفيد الولي يا وارث الفخـــــر الذي نال فى مقام وحال
لك يا احمد بن يوسف جينا كل قفر يعيسى اكف الرحال

ابقاك الله مثابة انتفاع ونورا باعلى يفاع ومتضعا على علو
وارتفاع ترى الوتر فى اشفاع وتقابل الوهم بطراد من الحقيقة ودفاع
ان حثت على لقاء الاعلام شهرتهم فلك الشهرة، وانت العلم والشهاب
الذى تجلى به الظلم ورباط جدك بالمغرب الركن المستلم، فالى اين
يذهب عن جنابك الذاهب وقد وضحت المذاهب، والله المانع والواهب
وانى من لدن اجتليت غرتك التى تلوح عليها سيما الولاية ارثا واكتسابا
وانتماء الى جناب الله وانتسابا، باجزاء من ربك عطاء حسابا، أو مل
التوسل والتقرب واخطب منك الود الذى انسى به التغرب الى ان تهيا
بفضل الله وتيسر وتبين مجمل الشوق وتفسر فانا والحمد لله قد حططت
بمشوى الولاية رحلى وعثرت بازهار اسرار الابرار رحلى، واخذت من
الدهر ذحلى وحللت من رباط الشيخ ابى محمد بالحرم الامين وظفرت
من ود حافده بالذخر الثمين فيا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى
وجعلنى من المكرمين، عرفتك ابقاك الله بقصدى وحركة رصدى لتعلم
ان هذه الوجهة لقاؤك أقوى دواعيها وانجح مساعيها وبركة الشيخ نفع
الله به تلاحظها وتراعياها، والله عز وجل يبقيه مقصودا على بعد المكان
مرجحا فى الفضل طوق الامكان مطمئن القلب بذكر الله رطب اللسان
مدرجا فى الوصول اليه مقام الاسلام والايمان هـ.

وكان حلول لسان الدين بهذه المدينة عشية يوم الثلاثاء خامس وعشري
جادى الثانية سنة احدى وستين وسبعماية، ومدينة آسفى اذ ذاك لا تزال
فيها بقية من رجال العلم كالشيخ ابى الضياء منير بن احمد الهاشمي
الجزيرى احد رجال الادب والقيم على مارستان آسفى والمحدث الرحالة المؤرخ
ابى محمد عبد الله بن احمد بن معاوية الازمورى فى آخرين من اهل العلم
والادب الذين فيهم يجد الاديب بغيته والغريب سلوته، وقد خلف ابن
الخطيب فى وصف هذه المدينة ما يجده الواقف على نفاضته مما رسمته
عنها ريشة تصويره هذه الجمل المختصرة ولفظها : «وهذا البلد فسيح

طيب الهواء كريم التربة خصيب الجنب، واهله اولو خيرة وجنوح الى الصلاح، وهو لبنة التمام للمسورات بالمغرب ليس وراءه مدينة جامعة، ولا محلة مسورة، ودونه أمم تتصل بالسوس الاقصى الى تخوم الحبشة من وراء الصحراء .

وقال عن مسجد الشيخ ابى محمد صالح : هو مبنى عتيق ومجمع فسيح متعدد الزيادات والصحون والتعاريج سبق منه ما بين يدي المحراب بعض على ايدي قوم من الصالحين ورفعوا به عمدا تناهز الاربعين بادية ضخمة خشنة على سبيل من الجفا والسداجة يباشرها سقف لاطى من غير نقش ولا احكام عليها خشب بالية وقصب نخرة مما يدل على قدم العهد، وينبىء عن اجتناب فضول العمل فلم تمتد اليه يد التغيير، ودارت به الزيادات النبيهة والبلطات من جهاته، وبصحن هذا المسجد جباب للماء ينتابها الناس لسقيهم ووضوئهم ويقابل القبلة من جوفى الصحن زاوية بها فقراء يدعون ذكر الله، يتعاطون مقام التوكل فلا يغيب عنهم التفقد هـ. وقد عرفنا ابن الخطيب بأنه لما فارق أسفى قصد منزلا ينسب الى ابى حد وفيه من ابناء هذا الرجل شخص يدعى يعقوب قابيل ابن الخطيب بما هو له أهل فألطف واجزل وأنس ثم طلب منه تذكرة فكتب له هذه القطعة .

نزلنا على يعقوب نجل أبى حدو فعرفنا الفضل الذى ما له حد
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم نلله ولا زبد
يحق علينا ان نقوم بحقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد

ابن الخطيب فى مراكش

حياة لسان الدين ومواقفه بمراكش على ما سجلته نفاضة الجراب تختلف عما يألفه الناس من حياة العباقرة والمفكرين، فابن الخطيب كمواطنيه ومن جاورهم من اعلام ذلك العصر، كانوا لا يزالون عى منجاة من الهزة الارضية التى اثirt فى الشرق حول قاعدة التوسل والوسيلة ولا نريد ونحن فى طريقنا مسرعين ان نشير غبارها، وقد ملت المطابع حديثها قبل القراء، وشم الناس نار هذه الفتنة التى لا تزال جمرتها فى اشتعال، ووحد المسلمين فى انحلال واختلال، ولكننا ونحن نتحدث الآن عن ابن الخطيب، فمن حقه وحق الامانة التاريخية ان نترك له حق التعبير عن خواطره ومشاهده، ولن يضيره ذلك عند منصفيه، فانه من جيل كان

للحياة الروحية على ابنائه سلطان، وخصوصا ابن الخطيب الذي هشمتم
 الحوادث قلبه وحطمت آماله، فان الحياة الصوفية كانت قد اخذت تغزو
 قلبه، فيجد فيها ما يخفف من بلواه ويحكم تلك المواجه العرفانية والحياة
 الروحية، وما كان متعارفا اذ ذاك من القول بالتوسل والوسيلة، فارق ابن
 الخطيب مدينة العلم فاسا، وهو يحمل من سلطانه ابن الاحمر رسالة الى
 الشيخ ابي العباس السبتي رضى الله عنه من انشاء لسان الدين، كتبها
 على لسان الملك الى ضريح الشيخ، كما يكتب الانسان الى غائب
 عنه او صديق يحثق القراءة والكتابة، وبهذه اللغة التي كان قاموس
 العقيدة اذ ذاك يدعو الى استعمالها، حدثنا ابن الخطيب عن المملكة
 العباسية ايام مقامه بمراكش ونحن نثبت منها ما تتسع له العقول ويحظى
 من المعتقدين بالقبول، قالت النفاضة: كان سيدى ابو العباس السبتي
 رضى الله عنه مقصودا في حياته، مستغاثا به في الازمات، وحاله من اعظم
 الحالات الخارقة للعادة ومبنى امره على انفعال العالم من الجود وكونه حكمة
 في تأثير الوجود، له في ذلك أخبار ذائعة وامثال باهرة، ولما توفي ظهر هذا
 الاثر على تربته، ونشبت بلحده وانسحب على مكانه عادة حياته، ووقع
 الاجماع على تسليم هذه الدعوى، وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة الى
 بعثها له من اماكنهم على بعد المدى وانقطاع الاماكن القصية تحملها اجنحة
 نياتهم فتهدى اليه بمقاصدهم من كل فج عميق، فيجدون الثمرة المعروفة
 والكرامة المشهورة وروضته بتاغزوت احد ابواب مراكش، غير حافلة
 البناء ربما يتبرع متبرع باحتفالها، فلا تساعده الاقدار، وزرتها فرأيت
 فيها اشياخا من اهل التعفف والتصوف يسارقون خفية النظر الى مساقط
 رحمت الله تعالى عليها لكثرة زائريها فيقحم ذو الحاجة بابها خالعا نعله
 مستحضرا نيته، ويقعد بازاء القبر ويخاطبه بحاجته، ويعين بين يدي
 النجوى صدقة على قبره ويدسها في اواني في القبر معدة لذلك، ومن
 عجز عن التقدين تصدق بالطعام ونحوه، فاذا خف الزائر آخر النهار عمد
 القائم على تلك التربة الى ما اودع هناك في تلك الاواني، وفرقه على
 المحاويع الحافين بالروضة، ويحصون كل عشية ويعمهم الرزق المودع
 فيها وان قصر عنهم كملوه في غده، قال ابن الخطيب وترافع خدام
 الروضة لقاضى البلد وتخاصموا في امر ذلك الرزق المودع هناك فسألهم
 القاضى عن خرجه اليومى، فقالوا يحصل فى هذه الايام فى اليوم الواحد
 ثمانمائة مثقال ذهب عينا، وربما وصل فى بعض الايام لالف دينار فما

فوقها فروضة هذا الولي لا يحصى دخلها ولا تحصى جبايتها، فالقبر
يفيض واللجين يسيل وذو الحاجات كالطير تغدو خماسا وتروح بطانا
يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم، قال ابن الخطيب وانا
ممن جرب المنقول عن القبر فأطرد القياس وتزيغت الشبهة وتعرفت من
بدأ زيارته ما تحققت من بركاته وشهد على برهان دعوته .

ولابن الخطيب وقد تأثر بما آلت اليه قصور الموحدين بمراكش
وقصبة الملك عند وقوفه عليها والذكريات تشير العبرات :

بلد قد غزاه صرف الليالي	واباح المصون منه مبيع
فالذي خر من بناء قتيل	والذي قر منه بعض جريح
وكان الذي يزور طبيب	قد تأتى له بها التشريح
أعجمت منه اربع ورسوم	كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغاني	وجمال اخفاء ذاك الضريح
وملوك تعبدوا الدهر لما	اصبح الدهر وهو عبد صريح
دوخوا نازح البسيطة حتى	قال ما شاء ذا بل وصفيح
حيث شبت لهم من البأس نار	ثم هبت لهم من النصر ريح
اثر يندب المؤثر لما	طال بعد الدنو منه النزوح
ساكن الدار روحها كيف يبقى	جسد بعد ما تولى الروح

ولابن الخطيب على لسان سلطانه يخاطب الشيخ ابا العباس
السبتي :

يا ولي الاله انت جواد	وقصدنا الى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنا	نرتجي من علاك حسن الصنيع
فمددنا لك الاكف نرجى	عودة العز تحت شمل جميع
قد جعلنا وسيلة تربك الازا	كى وزلفى الى العليم السميع
كم غريب أسرى اليك فوافى	برضى عاجل وخير سريع

ابن الخطيب بجبل هنتانة

بهذا الجبل الحصين كان اعتصم السلطان الكبير ابو الحسن
المريني، بعد العز والسلطان والملك الشامخ البنيان، وانصراف الوجوه
الى ولده الثائر عليه ابي عنان، وقد كان عميد هذا الجبل الذي آوى اليه

هذا الذي اسلمه قومه لما فارقه ملكه هو عميد البلاد المراكشية واحد افراد البطولة، عامر بن محمد بن علي الهنتاني، وكان في الوقت الذي زاره ابن الخطيب قد اصبح مرموقا من الدولة بعين الاعتبار، نظرا لما قام به نحو الملك الذي كان قد اسلم الروح الى ربه، فقصده ابن الخطيب زيارة جبلة وهو في مراكش، فقدم بين يديه هذه الرسالة المتوجة بهذه الابيات :

تقول لي الاطعان والشوق في الحشا	له الحكم يمضي بين ناه وآمر
اذا جبل التوحيد اصبحت فارعا	فخيم قرير العين في دار عامر
وزر تربة المعلوم ان مزارها	هو الحج يسعى نحوه كل ضامر
ستلقى بمشوى عامر بن محمد	ثغور الاماني من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهه	ولله ما تلقاه من يمن طائر
وتستعمل الامثال في الدهر منكما	بخير مزور او بأغبط زائر

ثم شفع القطعة بهذا النثر: لم يكن همى ابقاك الله تعالى مع فراغ البال، واسعاف الآمال، ومساعدة الايام والليال، اذ الشمل جميع، والزمان كله ربيع، والدهر سميع مطيع، الا زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان، ويواصل امنه بين النوم والاجفان، وان ارى الافق الذي طلعت منه الهداية، وكانت منه العودة ومنه البداية، فلما حم الواقع، وعجز عن خرق الدولة الاندلسية الراقع، واصبحت ديار الاندلس وهي البلاقع، وحنت من استدعائك اياي المواقع، وقوى العزم وان لم يكن ضعيفا، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفا، والتمست الاذن حتى لا نرى في قبلة السداد تحريفا، استقبلتك بصدر مشروح وزند للعزم مقدوح، والله سبحانه يحقق السؤل ويسهل بمشوى الامائل المثل، ويهيئ من قبيل هنتانة القبول بفضلته انتهى، وفي هذه الزيارة الجبلية حدثنا ابن الخطيب في نفاضته انه شاهد بجبل هنتانة محل وفاة السلطان ابي الحسن حيث اصابه طارق الاجل الذي فصل الخطة ورفع المنازعة وعايته مرفعا عن الابتدال بالسكنى، مفروشا بالحصباء، مقصودا بالدعاء، فلم يبرح يوم زيارته ان قال :

يا حسنها من اربع وديار	اضحت لباغى الامن دار قرار
وجبال عز لا تذلل أنوفها	الا لعز الواحد القهار
ومقرر توحيد واش خلافة	آثارها تنبى عن الاخبار

تجربى بها فى جملة الانهار
تلتاح فى قنن وفى احجار
شبت بها الاعداء جذوة نار
فكأنها صرعى بغير عقار
رضيت بيعث النار لا بالعار
عبد العزيز بمرهف بتار
والباس فى طلق وفى مضمار
محض الوفاء ورفعة المقدار
بالاصل فى ورق وفى اثمار
فى جوها بمطالع الاقمار
نظراء دعوى الفخر يوم فخار
من اسلمته عزائم الانصار
والرؤى بالاسماع والابصار
بطل بين تقاعد وفرار
مستظهرا منها بعز جوار
وقع الردى وقد ارتمى بشرار
فيما تقدم غربة المختار
نابت سفارهم عن الاشفار
فأجاب ممثلا لأمر البارى
خلصت اليه نوافذ الاقدار
اولوه لولا فاطم الاعمار
الا القيام بحقها من دار
ويعيد ذاك الترب ذوب نضار
من ملكه بجلائل الاوطار
اثر العناية ساطع الانوار
من غير ما ثنيا ولا استعصار
عن درهم فيهم ولا دينار
ونحورها باهلة ودر ارى
بدلوه من نصر ومن ايثار
من لا يضيع صنائع الاحرار
يرضيه فى علن وفى اسرار

ما كنت احسب ان انهار الندى
ما كنت احسب ان انوار الحجا
مجت جوانبها البرود وان تكن
هدت بناها فى سبيل وفائها
لما توعدا على المجد العدا
عمرت بجلة عامر واعزها
فرسا رهان احزا قصب الندى
ورثا عن الندب الكبير ابهما
وكذا الفروع تطول وهى شبيهة
ازرت وجوه الصيد من هتانة
لله اى قبيلة تركت لها الـ
نصرت امير المسلمين وملكه
وارت عليا عند ما عظم الردى
وتخاذل الجيش اللهم واصبح الا
كفرت صنائعه فيمم دارها
وأقام بين ظهورها لا يتقى
فكأنها الانصار لما ان سمت
لما غدا لحظا وهم اجفانه
حتى دعاه الله بين بيوتهم
لو كان يمنع من قضاء الله ما
قد كان يأمل أن يكافى بعض ما
ما كان يقنعه لو امتد المدى
فيعيد ذاك الماء ذائب فضة
حتى تفوز على النوى أوطانها
حتى يلوح على وجوه وجوهم
ويسوغ الامل القصير كرامها
ما كان يرضى الشمس او تدر الدجا
او ان يتوج او يقلد هامها
حق على المولى ابنه ايثار ما
فلمثلها ذخر الجزاء ومثله
وهو الذى يقضى الديون وبره

حتى تحج محللة رفعوا بها علم الوفاء لا عين النظار
 فيصير منها البيت بيتا ثانيا للطائفين اليه اى بدار
 تغنى قلوب القوم عن هدى به ودموعهم تكفى لرمى جمار
 حييت من دار تكفل سعيها محمود بالزلفى وعقبى الدار
 وضفت عليك من الاله عناية ماكر ليل فيك اثر نهار

ابن الخطيب بمدينة أغمات

لئن قدر على هذه المدينة التاريخية العفاء، فلم تبق الايام منها الا
 الاطلال، فقد قدر لها فى قلم لسان الدين البقاء، فقد اولاهها من عنايته
 فى نفاضته ما صيرها عند القارئ صورة ماثلة للعيان وان امست فى
 خبر كان، يقول عنها ابن الخطيب فى هذه الرحلة المباركة: مدينة أغمات
 فى بسيط سهل موطا لا نشز فيه، قد اختطت فى الفضاء الافيح فبلغت
 الغاية من رحب الساحة وانفساح القوة، مثلت قصبته عنها قبلة
 وسورها محمر التراب سحج الجلدة، مندمل الخندق، يخترقها واديان
 من ذوب الثلج وسور الجبل قامت بضفتيها الارزاء واردة وصادرة
 مرفوعة الاسوار منيعة البناء، يمر احدهما بشرقى المسجد طامى العباب
 فى محكم الجسور نظيف الحافة نزهة للابصار وعبرة لآعين النظار
 ومسجدهما المذكور عتيق عادى كبير الساحة، رحيب الكنف متجدد
 الالقاب، ومأذنته لا نظير لها فى معمور الارض اسسها اولوهم مربعة
 الشكل وما زالوا يبخسون الذرع ويجحدون العرض حتى صارت مجسما
 كاد يجتمع فى زاوية المخروط وادير عليه فارز من الخشب، يطيف ببناء
 لاط، وقد اطل بها فى جامورها فوقه ففتحت حتى ملحت واستجمعت
 الشهرة والغرابية واهل هذه البلدة ينسب اليهم نوك وغفلة علتها، ان
 صدقت الاخبار سلامة وسذاجة فتعمر بملحهم الاسمار وتنجل بنوادر
 حكاياتهم الاخبار اخبرنى من يوثق به ممن ولى عملها قال مكثت بها
 ايام الشتوة وخديم دار الاشراف يرفع لى فى كل يوم رسم دار الدباغ
 ابيض فطال ذلك فقلت له حتى متى يطلع هذا الرسم ابيض فقال :
 يا سيدى اصبر بعض ايام ولا ترى بعدى يوما ابيض، فهذا من الغفلة
 والنوك، فمنها ان ملك المغرب لما عجب من هذه المأذنة استأذنه فى
 نقلها الى بلده على سبيل الهدية، يجعلونها تحفة قدمه، وطرفة وقادته
 وبازائها المسجد بينه وبين النهر المار بازائه قبة عظيمة القبو، فخمة

البنية، فيها فوارة خرقاء فى خصه من الحجر الادكن، مشطوبة الباطن رحية القطر، قد تثلت بعض حافاتها لمماسه الايدى ومباشرة اجرام الخزف والفخار عند الاغتراف، بما ينبىء عن قديم عهد وطول مدة وللسلطان بهذه المدينة دور حافلة تدل على همهم ومعالي امهم واحتفال عوالم درجوا وامهم، قد ركلها العفاء، وجذب معاطفها الخراب، فما شئت من خشب منقوشة واطم مرقومة وبداخل هذه المدينة بساتين وجنات ولم يبلغ الخراب من مدينة ما بلغ من هذه الايام المهتزمة فتشعثت محاسنها واخلفت ملابسها واوحش عمرانها لتتابع الفتن وغيث الشرار الذين لا تعبدتهم الطاعة ولا تزعمهم الشريعة، انقذ الله لهاته البتار فريستها واستدرك بمدافعه مسكنها، وأطرفنى الخطيب بها بأخبار من اعتقل فيها من مخلوعى ملوك الاندلس وامراء طوائفها كالعتمد بن عباد، وابى محمد عبد الله بن بلقين بن باديس امير وطننا غرناطة، وأوقفنا على تاريخ صدر عنه ايام اعتقاله يشرح الحادثة على ملكه فى اسلوب بليغ، ختمه بمقطوعات من شعره تشهد لفضله اه.

حياة العلم بأغماط فى نفاضة ابن الخطيب

حدثنا الجزء الثانى من نفاضة الجراب باخبار جماعة من اعلام هذه المدينة الاثرية التقى بهم لسان الدين فى هذه الرحلة الموفقة، فأتنى على معارفهم، منهم الشيخ الفقيه القاضى ابو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الهرغى الزقندرى، قال ابن الخطيب: وزقندر معدن فضة ببعض تلك الجهات ولذك قلت أداعبه :

سألتك عبد الله ايضاح مشكل وأنت لكشف المعضلات بمرصد
زقندر قالوا عنه معدن فضة فما باله أبدأك قدرة عسجد

وقال فى وصفه فاضل متفنن حسن الهيئة، راجح كثير الوقار، بعيد عن الدخلة متساوى الظاهر والطوية مطرح للهوادة ما شئت من رجل غزير الحفظ جيد المعرفة مضطلع بفنون، سديد النظر جم المشاركة فى حديث، ورواية وتاريخ وجبر وكلام وفقه ونظم ونثر الى فضل المجالسة وحسن العشرة والغفلة عن نصيب النفس، والاحتطاب فى حبل الرفيق واقطاع غبيط السذاجة وفضل الفكاهة والجهر بالتلاوة فى سبيل الورد المرتب، ناشئة الليل، ومبادئ الاسحار، رحل وحج ولقى كثيرا من

الفضلاء واخذ عن عدد كثير من أهل المغرب دراية ورواية، فمن المراكشيين أبو العباس الغفائري، وأبو الحجاج الدغوغى، وأبو القاسم ابن معنصر، وأبو القاسم بن القساس وأبو عبد الله بن سعود، ومن أهل أغمات أبو يحيى الجزولى من حفاظ المذهب، ومن الفاسيين أبو محمد عبد العزيز القورى، والقاضى أبو عبد الله بن عبد الرزاق، ومن أهل تازة أبو محمد الرجالي ومن التلمسانيين الشيخ الفقيه النظار أبو موسى بن الامام والقاضى أبو العباس المديونى، والشيخ المحقق نسيح وحده فى العقلية أبو عبد الله الابلى، ومن التونسيين أبو عبد الله بن دمعون وابن هارون وابن عبد السلام والراوية أبو عبد الله بن جابر ومن أهل الاسكندرية أبو العباس بن فتوح وجمال الدين ابن سلامة القضاعى والعدل أبو الحسن بن الفرات والمشايخ الاربعة محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله، واسماعيل الضرير وأبو الحسن الافنانى وجمال الدين بن عبد الرزاق الدلاصى، وناصر الدين بن المنير، ومن أهل مصر قاضى المالكية تقى الدين الاخنائى، وأبو الحسن الماردينى وعز الدين ابن جماعة، وجمال الدين الدلاصى، وأبو حامد الشنبوكى، ومن أهل دمشق شهاب الدين بن فضل الله كاتب الانشاء وشمس الدين بن نباتة، وأبو الخير الحريرى، وشمس الدين السلاوى آخر أصحاب ابن عبد الكريم، وتقى الدين بن عبد الكافى، والعلامة الاديب أبو الفضل بن سرايا، ومن الصالحية عز الدين المقدسى، والمسند عبد الرحيم التنوخى، ومن أهل مكة شمس الدين النوفرى، وامام الموسم خليل بن محمد، ومن أهل المدينة عفيف الدين المطرى من ذرية سعد بن عباد، ولى قضاء مراكش فى منتصف رمضان عام ستين بعد ولايته أغمات وسبتة، ومولده بمراكش فى سابع عشر ربيع الاول عام خمسة وسبعمائة، وابتدأ لهذا العهد تخريج الاحاديث التى اشار اليها الترمذى، قال ابن الخطيب وانشدنى من نظمه ولها حكاية تدل على ظرفه وحسن عهده :

ولما تجاوزنا زلولا وسبتة وطاشت حلوم لم تكن بعد طائفة
تيقنت ان [لا منزلا] بعد سبتة يسر وان لا الف من بعد عائشة

قال ابن الخطيب توجه هذا الفاضل موانسالى متحفا الى جبل فامتع ما شاء حفظه الله واحسن مجازاته هـ. وهذا الفاضل وان التقى به ابن الخطيب القسطنطينى فى رحلته واثنى على دروسه فى التفسير والحديث، وقال انه لم يكن بها مثله، الا ان الذين ترجموه كصاحب ذيل

الديباج الذى قال عن وفاته انها سنة ثمان وثمانمائة لم يوفوه حقّه، والاوراق التى عندي منقولة عن الجزء الثانى من نفاضة الجراب، تذكر هذا الرجل فى الافراد الذين اجتمع بهم لسان الدين فى اعمات، فلعله هناك التقى به، وان اعمات كانت تابعة لقضاء مراكش، كما افادت النفاضة بعالم من اعلام المغرب التقى به ابن الخطيب فى هذه المدينة، وهو الشيخ العدل القاضى برباط اسفى عبد الرحمن بن ابنى العيش القيسى المعروف ببلده بطالب عافية، قال فى وصفه من الصدور الجلة واعلام النطبة بتلك البلدة، فضلا وعدالة وتفننا ومشاركة، يخوض فى كل فن ويلقى دلوه الى كل حوض اصيل الحفظ جيد البحث، بعيد عن السئامة لا يمر له وقت ضياعا الا عن مذاكرة فى فن، او اجراء طرفه غير مبال بتهويم نوع وهجوم هاجرة او مخالطة كد الى حسن العشرة ودماثة الخلق واينار التخلّى والعزلة والحووم على السلوك والترديد والتقى ابن الخطيب كذلك بأبى عبد الله محمد ابن عبد الله بن الفخار، أستاذ المدرسة العظمى، وصفه بالعلم والفضل والمشاركة والتفنن، وقال انه يقرىء بالمدرسة علم اللسان والاصلين والفروع فيمتع ويحسن ثم قال لسان الدين وانتابنى من الظرفاء الادباء الشيخ الفقيه المكنب ابو عبد الله محمد بن القاسم بن عمر بن عبد الله الصيرفى من أهل النبل والظرف، كتب عن أمراء مراكش واختص بنظم المولدات بها، قرأ على ابى عثمان بن جرار المقرئ النحوى بمراكش وابى العباس بن حسين الغفارى، والخطيب المحدث ابى عبد الله بن رشيد والقاضى أبى الحجاج الطرطوشى والمقرئ ابى الحسن بن برى وابى العباس بن القراف، قال ابن الخطيب وانشدنى من شعره :

من لم يفدك بنفعه أو جاهه فلايما استصنعته مخدوما
فلتخدم الله الذى من امه بضمير صدق يلق منه رحاما

ثم ذكر جملة من نثره تركناه لكثرة تحريف المكنوب منه، فقد نقلنا منه جملا ولا يجهل القارىء تشويه التحريف للكثير من ألفاظها والغاية من ذكرها هو التدليل على احسان ابن الخطيب الى تاريخنا بما خلده فى هذه النفاضة، فكثير من اعلام معاصريه بهذا البلد الى آثاره وخصوصا الاحاطة والنفاضة يرجع الفضل فى حفظها، فرحمه الله ما اعظم اياديه على هذا القطر المغربى فى حفظ آثاره وتخليد مآثره.

فهرس الجزء الاول من القسم الاول من كتاب ابن الخطيب من خلال كتبه

صفحة

7	تقدمة لعبد الله كنون
II	فاتحة الكتاب
16	بعض مصادر ترجمة ابن الخطيب
21	ابن الخطيب من الاندلس ونظرة عابرة في اوليته
29	عصر ابن الخطيب
35	اولية لسان الدين
38	ولادة ابن الخطيب
40	القاب ابن الخطيب :
42	ذو الوزارتين
44	ذو العمرين
45	ذو الميتين
46	ذو القبرين
46	ذو اللسانين
48	شيوخ ابن الخطيب
55	جواب ابى البقاء السبكي
59	ابن الخطيب والتأليف
60	وقت اشتغال ابن الخطيب بالتأليف
61	عرض ابن الخطيب مؤلفاته على قلم الاختبار
62	اسماء مؤلفاته اجمالاً

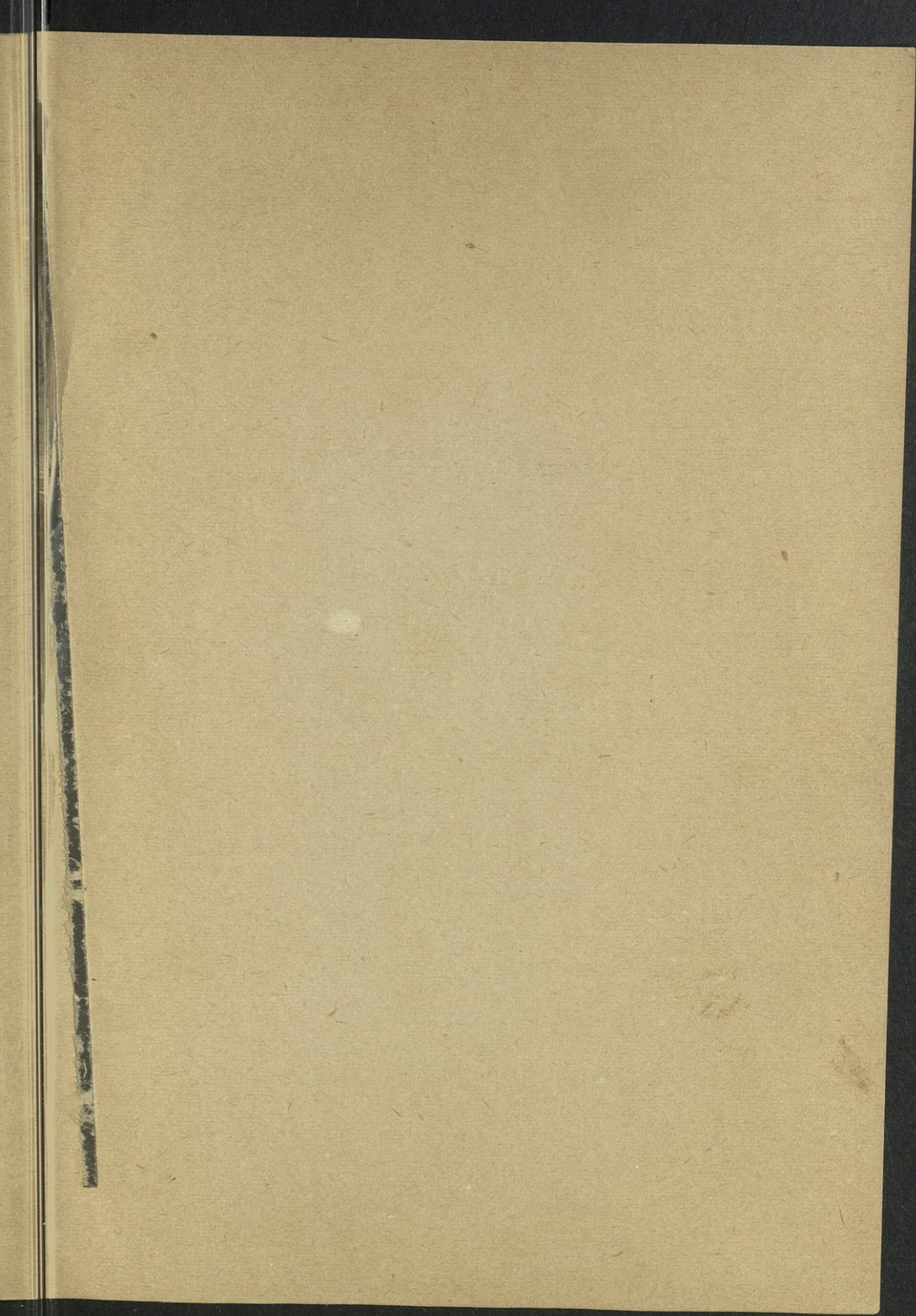
65	انتشار كتب ابن الخطيب فى حياته
67	ثناء الاكابر على كتبه
68	موضوعات كتب ابن الخطيب
69	الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة
70	طريقة لسان الدين فى تدوين احاطته
71	قيمة الكتاب العلمية
76	مصادر ابن الخطيب فى احاطته
78	تاريخ تدوين الكتاب
80	نظرية الامير ابن الاحمر حول تدوين الاحاطة
83	السر المداع فى تفضيل غرناطة على كثير من البقاع
83	مثالب أهل غرناطة
84	ادباء غرناطة
84	تقايد غرناطة
84	شعراء البيرة
84	تاريخ عرب البيرة
84	كتاب فى فقهاء البيرة
85	آخر فى شعرائها
85	ثالث فى العرب النازلين بها
85	تاريخ ابن جزى
87	الاحاطة بين الذيل والاختصار
87	مركز الاحاطة بأدباء غرناطة
88	مختصر أبى جعفر البقلى
89	الروض الاريفى
89	مختصر آخر للاحاطة
90	الاماطة عن وجه الاحاطة فيما امكن من تاريخ غرناطة
110	تعاليق وآراء على كتاب الاحاطة
111	حظ المكتبة العربية من الاحاطة ومختصرها

114	نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب :
115	اسم الكتاب
116	موضوع الكتاب
116	تاريخ تدوينه
117	رغبة ابن الخطيب فى زيارة مراکش
120	مفارقة ابن الخطيب مدينة فاس
121	مكناسة الزيتون من قلم ابن الخطيب فى نفاضته
122	ابن الخطيب والمجتمع العلمى بمكناس
124	ابن الخطيب وقاضى مكناس ابن أبى رمانة
126	حياة البادية من وصف لسان الدين فى نفاضته
130	ابن الخطيب وقاضى دكالة
130	ابن الخطيب فى آسفى
132	ابن الخطيب فى مراکش
134	ابن الخطيب بجبل هنتانة
137	ابن الخطيب بمدينة أغمات
138	حياة العلم بأغمات فى نفاضة ابن الخطيب

Handwritten text in a cursive script, likely Persian or Urdu, covering the upper half of the page. The text is arranged in approximately 15 horizontal lines. The ink is dark and the script is fluid. The right margin contains some faint, possibly numbered, entries.



الفلسفة والاخلاق
عند ابن الخطيب



معهد مولاي الحسن

الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب

بقلم

الاستاذ عبد العزيز ابن عبد الله

✽

القسم الثاني

(من الكتاب الذي نال جائزة معهد مولاي الحسن لسنة ١٩٤٨)

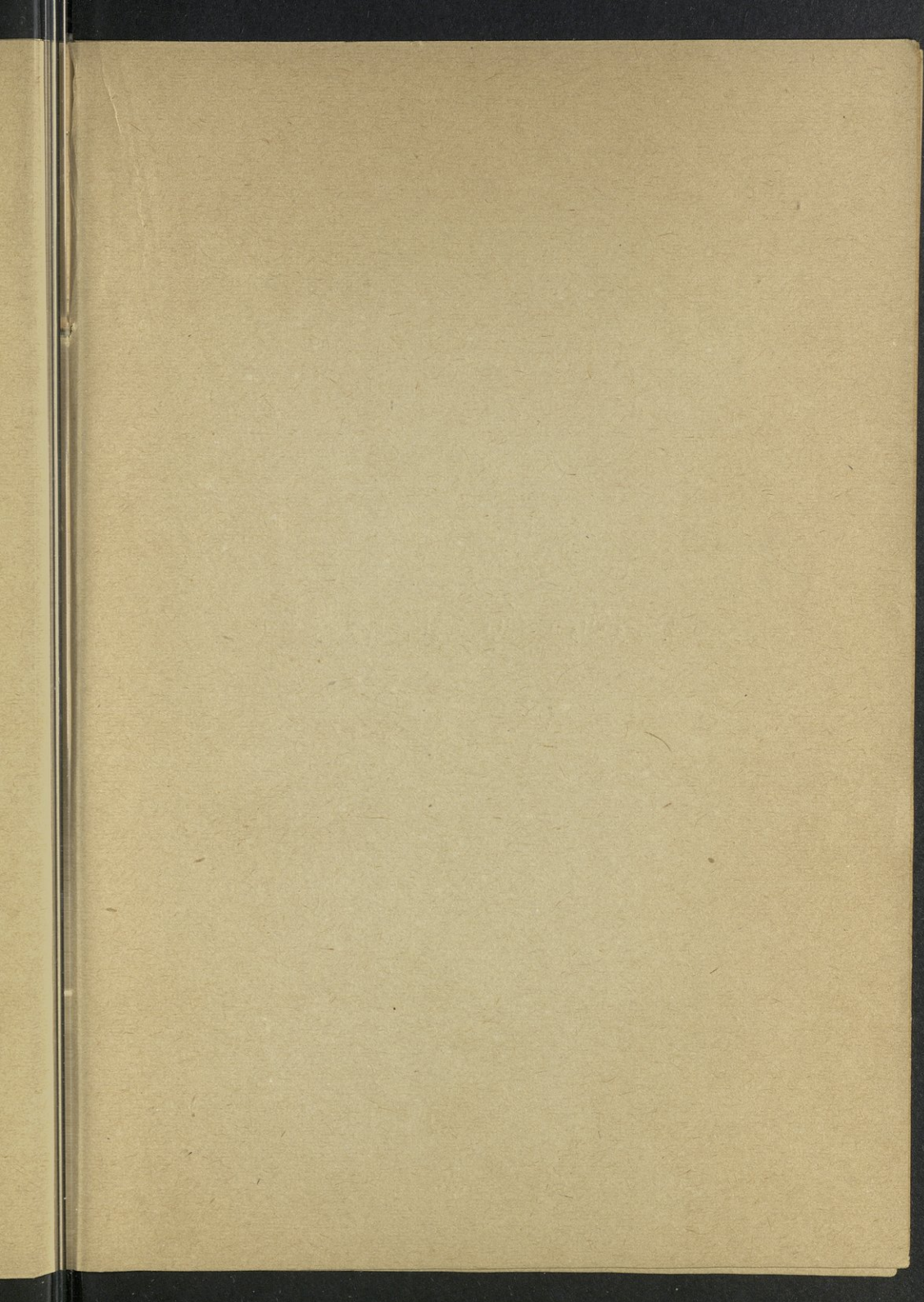
١٩٥٣

دار الطباعة المغربية

تطوان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلی اللہ علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ



الفصل الاول

الفلسفة والاخلاق

ما هي علاقة الفلسفة بالاخلاق في نظر ابن الخطيب ؟ هل الاخلاق جزء من الفلسفة، ام هي علم مستقل يستوثق رباطه بالشرع اكثر من العقل ؟ لنا ان ندعى ان نظرية ابن الخطيب اقرب الى الحل الثانى منها الى الحل الاول بدعوى ان الرجل حشر فى الروضة ما يسميه « بعلم التخلق ومكارم الاخلاق وطرائق الصوفية » فى سلك العلوم الشرعية .

ولكن اذا كان ابن الخطيب يعتبر الاخلاق حقا من الشرعيات فما باله يركز هذا العلم على قواعد ومقررات فلسفية ؟ انه يتحدث فى سياق تعاريفه الخلقية عن العقل ولكن ما هو العقل ؟ اننا لا نعرفه ولا هو كذلك ! وكلنا فى احتياج للرجوع الى الفلسفة نستشف من بحوثها حقيقة هذه اللطيفة ، وما قلناه فى العقل نقوله فى النفس، وقواها وفى الروح والقلب !

والحواس الخمس ؟ ألم يشر اليها ابن الخطيب فى القسم الخلقى من كتابه الروضة دون ان يعرفها ويبين ماهيتها وخصائصها ؟ والحب الذى يعتبره اساسا للاخلاق ؟ أليست ماهيته من الحقائق الفلسفية التى طالما حاول علماء النفس استكناها ؟ !

الحقيقة ان ابن الخطيب وان كان يدمج الاخلاق فعليا فى الشرعيات - الا انه يضطر فيرجع الى الفلسفة يستفسرها عن ماهية بعض القوى

وبعض آثار هذه القوى، وهذا كاف في نظرنا لان نقول بان ابن الخطيب لم يخرج عن سنن جمهور الفلاسفة الذين يرون ان الدراسات الاخلاقية - كعلم له اصوله وقواعده - تعتبر جزءا لا يتجزأ من الفلسفة (١)

بل انا نذهب اكثر من هذا فنؤكد انه اذا ما اعتبرنا ان ابن الخطيب كثيرا ما يمزج في الروضة بين مختلف العناصر الفلسفية والصوفية والخلقية دون حد فاصل ولا ضابط مميز - أمكننا ان نقول بان الفلسفة والتصوف والاخلاق كانت في نظر ابن الخطيب متقاربة رغم اتصال بعضها - كالتصوف والاخلاق - بالشرعية من جوانب مخصوصة، ولعل ابن الخطيب لم يكن مذهبه يعدو المذهب الكلاسيكي، وانما حمله على عدم التصريح باندراج الاخلاق في علم الفلسفة تفاديه تهيج شعور الشعب الاندلسي الذي بغض علماء الدين الفلسفة اليه بما رسموه من صور قاتمة عن الحاد الفلاسفة وزندقته، وهل يعنى ابن الخطيب ان يشرح للناس ان الاخلاق جزء من الفلسفة او ان الفلسفة جزء من الاخلاق ما دام همه مصروفا لشيء واحد وواجبه العلمى محصورا في نطاق محدود وهو غرس الفضيلة في النفوس ؟ لشد ما برهن ابن الخطيب على انه رجل العمل والتطبيق لا رجل النظر والشكليات .

وما يدريك لعل هذا المزج الذي اعتد لنا فلم نر فيه دليل وحدة الماهية - ناتج عن كون ابن الخطيب يحشر الاخلاق والفلسفة والتصوف، في فصيلة واحدة رغم ما قد يكون فيها من عناصر متنافرة !

وليس ذلك ببدع لان لفظتى - **الاخلاق والفلسفة** - تكادان تكونان مترادفتين في الاصطلاحات الجارية على ألسنة العلماء المحققين فقد أكد اندرى بريدو A. Bridoux في مقدمة كتابه الاخلاق (Morale - Hechette, 1945) بعد ما لاحظ هذا الترادف قائلا : «أليست الفلسفة في نظر كل واحد من الناس هي تقدير الخيرات والشرور حق قدرها ؟ أليس

(١) ثم ان ابن الخطيب صرح في الوصية بانه لا يرضى من الفلسفة الا بما فيه منفعة كحساب وهندسة وفلاحة او ما يصلح الجسم والنفس ! وهل يصلح النفس الا الاخلاق ؟ !

موضوع هذا التقدير هو تنظيم رغائبنا ومخاوفنا وحسراتنا وتعزيز قوى النفس والتزام سيرة خليفة بالرجل فى ثنايا جميع المحن والنكبات ؟ » .

* * *

اما كون ابن الخطيب يعتبر الاخلاق علما فهذا مما لا شك فيه ، لانه يعبر عنها صراحة « بعلم الشخلق » بل انه يذهب ابعد من ذلك فيحاول ان يثبت لهذا العلم - بتطبيقاته العلمية - صلته الطبيعية بعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الجمال ، بل بالفنون نفسها ، والا فما باله يدرج فى سلك نظرياته الاخلاقية فنون الشعر والموسيقى والغناء . محاولا تحليل دقائقها النفسانية ؟ الحقيقة ان ابن الخطيب ادرك كغيره من الفلاسفة وفى مقدمتهم - باكون وديكارت - ان العلوم توجهنا فى افعالنا واحوالنا بما تكشفه لنا من اسرار الحياة ! ومن البديهي ان معرفة الوظائف النفسانية ضرورية لكل عمل بشري لاننا اذا لم نتعرف ماهية هذه الوظائف التى هى من اهم ضوابط افعالنا وقننا فى غمرة من اخطر الغمرات !

وقد لا نجد هذه الصلة عند ابن الخطيب فى مثل وثائقها عند ابن خلدون الذى درس الاخلاق على ضوء الاجتماع وتطورات المجتمع فرأى لحياة البداوة الاولى خلقا يخصها ، ولحياة الحضارة تكييفا نفسانيا يناسبها ، ولعل ابن خلدون فى هذا الامر اقرب الى سان سيمون St. Simon الذى أسس برنامجه الخلقى على مبدأ تطور المجتمعات من الحالة العسكرية الى الحالة العلمية والصناعية .

ونسير ابعد من كل هذا فنثبت ان لسان الدين يرى - ككثير من علماء الاخلاق المسلمين - ان لكل علم آدابه اى هيئات نفسية تقتضى دراسة هذا العلم التكيف بها ، ومعنى هذا انه لا يوجد للاخلاق علمها فحسب كما يقول دور خايم Durkheim بل للعلوم كذلك اخلاقها كما يقول سبنسر (Spencer) . اما يتطلب العلم الاخلاص والاستقامة والصبر

والدقة والاحاطة والكمال وكلها مثل سامية وفضائل خلقية ؟ وذلك
المجهود الذى يبذله الانسان من اجل احراز درجة الكمال فى العلم ؟
ألا ينطوى هو ايضا على معنى خلقى رفيع ؟ !

ولم يغفل ابن الخطيب حقيقة اخرى وهى ان للاخلاق جانبين :
جانب فنى وجانب علمى فالجانب العلمى يتجلى فى تحرير القواعد
وتقرير الاحوال بينما يتركز الجانب الفنى على جودة تطبيق هذه القواعد
والاحوال من اجل رفع المستوى الخلقى وتحسين الاحوال النفسانية
عند الفرد والمجتمع .

ونحن اذا ارتفعنا من التفصيل الى الاجمال ومن الخصوص الى
العموم والجزئى الى الكلى - علمنا ان علاقة العلم بالاخلاق لا تعدو -
فى نظر ابن الخطيب - علاقة العلم بالعمل ولعل هذا هو معنى ما اشار
اليه ديكرت عند ما اكد (3^e partie. Discours de la Méth.) انه يكفى ان
نقدر الاشياء حق قدرها لتحسن اعمالنا وتتهذب فعالنا وعند ما قال :
(Préface des Principes) ان الاخلاق لا يمكن ادراكها الا بعد الكشف عن
جميع اجزاء العلم وانه ينبغى اعتبار علم الاخلاق كأكليل لغيره من العلوم
(Bridoux, p. 4).

ولكن ما هو مصدر هذه المعرفة البسيطة التى يجعلها ابن الخطيب
دعامة للاخلاق ؟ هل هو العقل ام تلك الفطرة الربانية التى جبل عليها
الانسان والتى تنبثق من قرارة طبيعته فتحفظه من الهفوات التى قد
تدفعه الى ارتكابها مداركه العقلية ؟

الغريب هو ان ابن الخطيب الذى يعتبر المعرفة أساس الفضيلة
الخلقية يرى ان الفطرة هى ينبوع الفياض بحجة «ان العقل لا يهdy الى
الافعال المنجية كما لا يهdy الى الادوية» المخلصة من الامراض وان
الفطرة السليمة قد تغنى عن الصنائع والعلوم .

ولكن هذا هو نفس ما يراه الفيلسوف الفرنسى روسو (Rousseau)
الذى يقيم حاجزا بين العلم والاخلاق ! ! غير ان ما يسميه ابن الخطيب

بالفطرة السليمة يسميه روسو ويعبر عنه فى مواضع كثيرة على الأقل -
بالضمير ولعله اختلاف فى التعبير فقط لان الضمير لا يمثل عند روسو
سوى غريزة الالهية .

وهذا هو ما يرتئيه كذلك الفيلسوف كانط (Kant) الذى تأثر
بروسو واتسق هذا التأثير العلمى بتأثره الفطرى بأمه التى كانت قليلة
المعرفة ولكن صارمة ملحة فى شعورها الخلقى .

فهل معنى هذا ان ابن الخطيب كان يعتقد فى آن واحد مذهبين
متناقضين تتشيع لكل واحد منهما مدرسة خاصة ؟ لا شك انه ليس
هنالك تناقض لان نظريات لسان الدين متماسكة لا نجد فى آخرها ما
يتنافى مع اولها ولكن لعل ذلك العقل الذى يشك ابن الخطيب فى قدرته
على هداية المرء وتخليصه من براثن المادة وعلاج نفسه من ادوائها
المستعصية هو ما يسميه «كانط» نفسه بالعقل النظرى *Raison théorique*
اما العقل بمعنى التعقل والتمييز اى الادراك البسيط للنسب القائمة بين
لاشياء فهو شئ ضرورى الوجود وفقدان الانسان له معناه تجرده عن
انسانيته !

فهذا العقل يتناسق مع الفطرة فى عملها الطبيعى ولا ينافيها لانه متمم
لها بل اساس ودعامة .

وكانط نفسه يترك فى الحاجز الذى اقامه بين العلم والاخلاق
منافذ تتخللها عناصر مختلفة وتتسرب فى ثناياها من الطرفين فاذا كان
«كانط» يربط العلم بالعقل النظرى والاخلاق بالعقل العلمى والفلسفة
التطبيقية فانه لا يمارى فى وجود لحمة بين العقليين كما لا يمارى طبعاً
فى وجود صلة ما بين العلم والاخلاق .

وهناك نوع من المعرفة يعتبره ابن الخطيب لزيماً للكمال ويجمعه
مع هذا الكمال فى اعلى درج سلم السمو الانسانى وهذا النوع هو معرفة
«العارف» الذى يدرك جوهر نفسه وكيف تصوير عقلاً بالفعل ويتخلص من
كدورات الطبيعة ويتجرد عن جميع العلائق القاطعة عن السبب الاول ويكمل
جوهرها كما تحب فيستتم معراجها الاول ويتم ويخلص الفطرة

الناقصة بعلماً على من العلوم المكتسبة... ويعلم النفس وعللها ولا يترك شيئاً من الصنائع العلمية والعملية التي تعطى تدبير الإنسان الا نظر فيه وحصله واتصل به ثم حمل نفسه من المشتقات التي تحصل اكتساب الصنائع المذكورة ويبحث عن حقائق الموجودات حتى يقف على ماهيتها ويفكر فى مبدع الخلق وينظر فى الذى يجب له ويجوز ويستحيل ويطلب القرب منه والوصول اليه بالعلم لا بالتجوهر» هنالك «يستقيم ويبلغ كمال الانسانية».

فهذا النوع من المعرفة يعتبر هو والكمال فرسى رهان والطريق التى تؤدى اليهما واحدة.

ونحن نستشف من هذا الاتجاه فى مذهب ابن الخطيب طابعاً أفلاطونياً لان الفيلسوف الالاهى أفلاطون يرى ان الرياضة التى تمارسها النفس من اجل الوصول الى الكمال هى فى نفس الوقت مرتقى يؤدى الى الحق والى الخير لان استكناه الحقيقة من خصائص النفس الطاهرة وقد نجد فى فلسفة ديكارت (Descartes) تناسبا بين اخلاق كاملة وعلم مكتمل ولكن نوع العلم يختلف عند الجانبين فبينما نجد ابن الخطيب يغلب عليه الطابع الالاهى اذ بنا نرى ديكارت يقصد بالعلم عموم المعرفة. وليست هذه النظرية مقصورة على ديكارت فان فلاسفة القرن الثامن عشر ميلادى اجهدوا انفسهم فى ابراز الصلة الضرورية بين تفتق العقل واكتمال الحاسة الخلقية (Bridoux, p. 11).

وقد وجد ابن الخطيب فى بعض الفلاسفة الاوروبيين مشايعين له فى حصر التلازم العلمى والخلقى فى معرفة مخصوصة مجردة عن الصبغة المادية الصرفة ومن هؤلاء الفلاسفة بركسن (Bregson) الذى خلف لنا صفحة رائعة فى رسالة التشكر عن جائزة نوبل فقد اكد ان اهل عصره يعتقدون بان الاختراعات الآلية تكفى - لمجرد تراكم اثارها المادية - لرفع المستوى الخلقى واسعاد البشرية ولكن التجربة تدل على ان تطور الآلات الصناعية لا يتمخض عن الفضيلة ولا عن السعادة بل تبرهن على ان توافر الذرائع المادية فى قبضة الانسانية من شأنه ان يسفر عن اخطار اذا لم يرفق بمجهود روحى يناسبه (Bridoux, p. 12).

وليس تلازم المعرفة والكمال بالشئ البدع الغريب لان حقيقة الانسان التى يهدف العارف الى استكناها ليعرف ربه تدرج فى كماله فالانسان كما يقول موديس بلونديل لا يكون مطابقا لحقيقته ولا يسبر غور نفسه الا اذا اجتهد فى انتجاع الكمال .

الاخلاق والالهيات

الانسان فى نظر ابن الخطيب نسخة من الكون وهو فى ذاته عالم صغير :

انا نسخة الاكوان ادمج خطها فسر ذوى التحقيق فى طى اوراقى
فمن عالم الاشباح ليلسى وظلمتى ومن عالم الارواح نورى واشراقى
والكون ظاهر وباطن فالباطن هو الامر والظاهر هو الخلق وعالم الامر
مجموع خمسة عوالم: عالم السر وعالم العقل وعالم الروح وعالم النفس
وعالم الصورة . وعالم الخلق خمسة عوالم كذلك : عالم الطبيعة وعالم
الافلاك وعالم الكرسي وعالم اللوح وعالم القلم . اما عوالم الامر فهى
روحانيات واما عوالم الخلق فهى جسمانيات والعرش الذى ينتهى اليه كل
من الامر والخلق روحانى من حيث باطنه جسمانى من حيث ظاهره .
ولكن هذا الكون نفسه ينطوى على عالمين : صغير وكبير كللى
وجزئى :

فالعالم الكلى ذات يطلق عليها الوجود ومجموعها ارواح مجردة
وانوار مجسدة واجسام منورة واجساد مظلمة اما الارواح المجردة
فاربعة : عالم العقل الفعال وعالم الروح الكلى وعالم النفس المطلقة وعالم
الصورة الفياضة، واما الانوار المجسدة فاربعة: العرش والكرسي والقلم
واللوح والاجساد المنورة الافلاك السبعة والاجسام المظلمة عالم الطبيعة
من نار وماء وتراب وهواء فهذه العوالم عشرون .

أما العالم الجزئى فهو ذات يطلق عليها انسان مجموعها عقل وروح
ونفس وفكر وتصور وذكر وحفظ وحس ودهان وطبعان ومرارة ومعاء
ورثة وكليتان وكبد وصنفراء ودم وسوداء وبلغم عشرون عالما وفقا للعوالم
المتقدمة .

فالعقل جزء من العقل الفعال والروح من الروح الكلى والنفس من النفس المطلقة والقلب فيض من الصورة الفياضة وهذا الفيض هو القابل لفيض العقل والروح والنفس .

فتعين ان الانسان نسخة من العالم: يتوق الى اصله غير ان لنفسه جهتين ونظرين: نظر الى اعلى بما فى النفس من يقظة ونظر الى اسفل بما فيها من اغراض طبيعية .

وحد العلم الالاهى عند ابن الخطيب هو « النظر فى وحدانية الله وما يوصف به وكيف صدر عنه الخلق وفى السياسات من ذات ومنزل » . فعلاوة على الاتصال غير المباشر بين العلم الالاهى والاخلاق الراجع لضرورة تسامى الفكر البشرى الى تحقيق كمال ذاته بالتعرف الى الصورة الاصلية التى هو نسخة منها ومظهر لها يستوثق رباط مباشر بين الالهيات والاخلاقيات والسياسيات .

وهل هناك دليل على وجود هذه الصلة الوثيقة اكثر من تصريح ابن الخطيب بان من موضوعات العلم الالاهى النظر فى السياسة الشخصية والمنزلية اى فى الهيئات التى يتكيف بها الفرد والمجتمع ! وهل هذا الا الاخلاق ؟ !

ولا شك ان من الضرورى لمريدى الفضيلة اجتياز ثخوم الطبيعة للبحث فى الآفاق العليا عن معنى كلى يساعده على تركيز الواجب وتحقيق القيم التى تحقق للانسانية صورتها الاصلية . قال الاستاذ بريدو فى كتابه الاخلاق ما ملخصه :

«هنالك طريق طبيعى يؤدى بنا الى تركيز الاخلاق على علم ما وراء المادة وقد فعل هذا كثير من علماء الكلام والفلاسفة ومعنى العمل الخلقي فى هذه الحالة هو الانصياع لاوامر الله الذى يقدر بارادته المطلقة الخير والشر او انتجاع الكمالات التى يرتضيها او تجنبها حركاتنا وسكناتنا مع النظام الكونى الامثل وفى جميع هذه الحالات يجب الالتجاء الى حقيقة عليا يتمخض كشفها عن توجيه لسيرتنا وتبيان لواجبنا » ولعل مذهب ابن الخطيب يتناسق مع المذاهب الثلاثة رغم فروق طفيفة تفرضها مقتضيات الدين فهو يعتقد ان الله حكيم يضع الاشياء

مواقعها لا يسأل عما يفعل يقدر الخير والشر بمحض حكمته وهو كذلك يرى ان واجب الانسان يقتضيه التخلق بالاخلاق القدسية ويطلب مريد الفضيلة ايضا بالانطباع بطابع الوجود الاصلى والنظام الكونى الذى قوامه العدل والاتزان والكمال ! واذا كانت الوجهتان الاوليان من صميم عقيدة الاسلام فان على الاتجاه مسحة من التأويل الفلسفى .

وليس معنى هذا ان الكمال يمكن دركه بمجرد الاستغراق فى شهود المثل الازلية كما عند افلاطون او الصفات القدسية كما عند ابن الخطيب والحامى فالرياضة لا بد منها والتدرج فى هذه الرياضة من سيىء الى حسن ومن حسن الى احسن لا مندوحة عنه لان العمل ضرورة لا تنفصل عن مجرى الحياة وجوهرها ولكن لكل عمل نظام ولكل نظام قانون ولكل قانون ارادة تضعه فما هى هذه الارادة ؟

اذا كان بعض الفلاسفة يعتقدون «جواز الاستغناء عن الصنائع والعلوم ومعرفة الله من قبول ذلك كله ويرون ان فطرة الانسان كفيلة وحدها بالابصال الى الله دون احتياج لبعث الرسل» فان ذلك مردود عليهم فى نظر ابن الخطيب لان النفس اذا تركت وفطرتها فان هذه الفطرة لا يمكن ان تحقق التهذيب المرغوب لضرورة تدخل وازع اعلا هو وازع الدين الذى يأتى به الرسل والانبياء اما العقل فان الطاعة والمعصية اللتين هما مظهر الكمال والنقصان متساويتان فى حقه لا ميل له الى احدهما ولا اختصاص به وانما يعرف ذلك بالشرع وكيف يوجب العقل الطاعة وهو ان اوجبها كان ذلك لغير فائدة وهذا محال فى حقه او لفائدة وهو محال ايضا سواء قلنا بان الفائدة راجعة لله او راجعة الى العبد الذى لا يرى العقل له غرضا عاجلا فى ذلك .

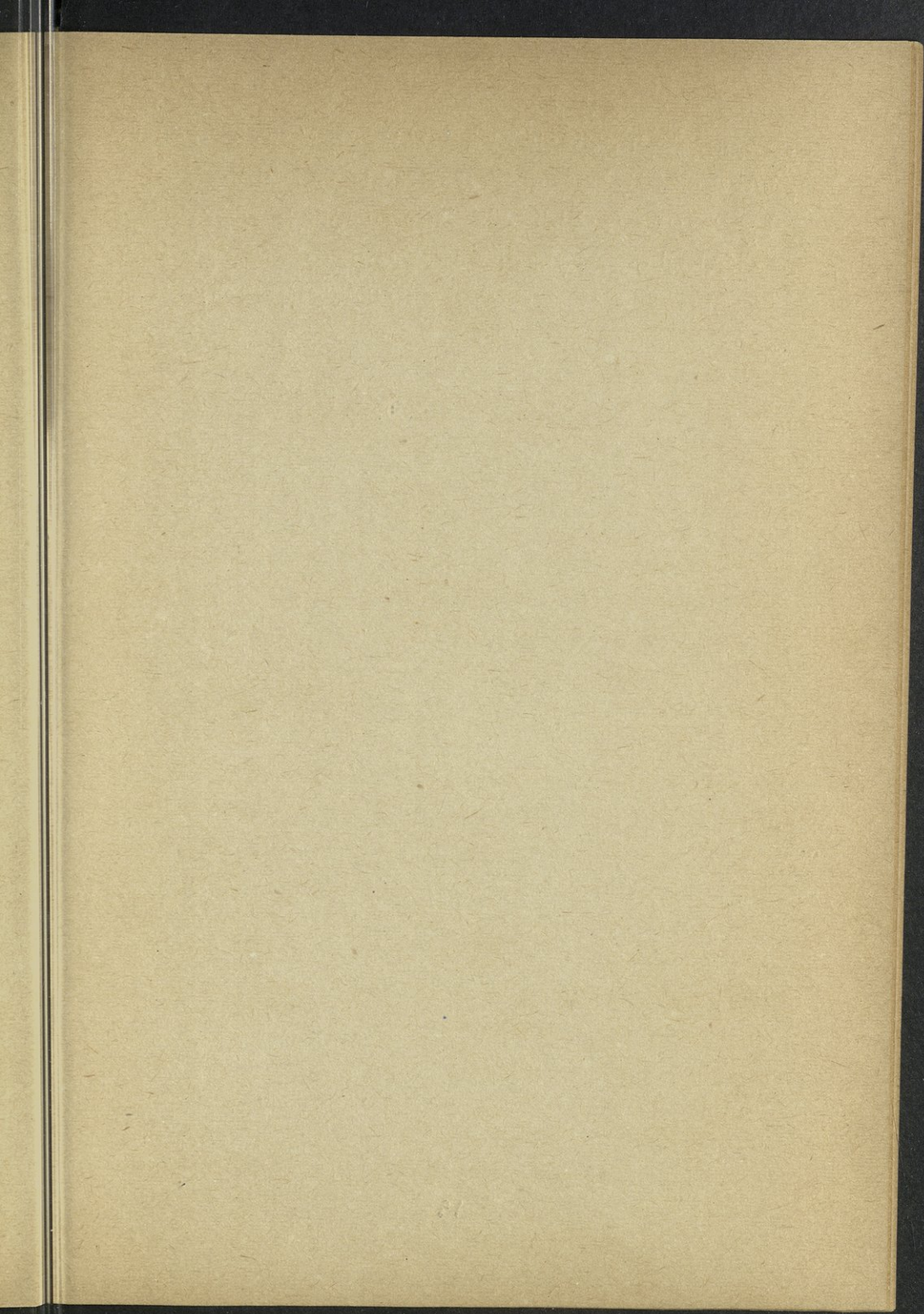
ولا شك ان الطباع اذ تركت وشأنها - رغم ما قد تكون مفطورة عليه من حب للخير ونزوع الى الكمال «فانها لا تذهب بافعالها الا الى الاسهل والاوجب» .

والحق ان لا وصول الى الله فى نظر ابن الخطيب الا نور النبوة «فالانبياء هداة الخلق ورعاة الهمل واطباء النفوس ودعاة الله الى السعادة الدائمة وادلاء العباد على سبيل الله والدار الآخرة» .

ويزيد ابن الخطيب المسألة شرحا وتبسيطا فيقول: «ان الانسان يفارق سائر الحيوانات بانه لا يستقيم عيشه مع انفراده وتولييه امر نفسه من غير شريك يعينه على ضرورياته حتى يكون مكفيا بآخر من نوعه... ولهذا اضطر الى التمدن والاجتماع فكان الانسان مدنيا بالطبع واذا كانت العناية الالهية الاولى قد رعت بعض الحاجيات الانسانية كانبات شعير الحاجبين (١) ليرفرف فوق العين ويبقى ما تحته منها فان الانسانية فى حاجة الى انسان يسن السنن ويربط التمدن لان العناية الالهية لا تقتضى الا المنافع الضرورية للبقاء التى لا يصلح النوع وينتظم بدونها ولان الانسان لا يمكنه ان يتصور الامور على وجهها الا بكد وطريق تعليمي وحتى ان وجد قليل من الناس يدركون الحق بمجرد فطرتهم السليمة فان هذه الحكمة ليست ميسرة لكل نفس... فوجب اذن ان يوجد شيء وان يكون ذلك الشيء انسانا وان تكون له خصوصية ليست لسائر الناس تدعو الى تصديقه والانكباب عليه وان يكون وراءه مدد الهى يسعفه

(١) وقد جعل ابن سينا النبوة «وظيفة حيوية» فى بنية المجتمع الانسانى وقرر ان الحاجة الى النبى «اشد من الحاجة الى انبات الشعير على الاشفار وعلى الحاجبين وتقصير الاخص من القدمين واشياء اخرى من المنافع التى لا ضرورة لها فى البقاء بل اكثر ما فيها انها تنفع فى البقاء ووجود الانسان الصالح لا يسن ويعدل ممكن كما سلف منا ذكره فلا يجوز ان تكون العناية الاولى تقتضى تلك المنافع ولا تقتضى هذا الذى هى اسها... فوجب اذن ان يوجد نبى وواجب ان يكون انسانا وواجب ان تكون له خصوصية ليست لسائر الناس حتى يستشعر الناس فيه امرا لا يوجد فيتميز عنهم...» الى ان قال: «ويجب ان يعرفهم جلالة الله وعظمته برموز وامثلة من الاشياء التى عندهم عظيمة وجليلة...» (انظر كتاب النجاة) ويتبين من هذا النقل الحرفى ان ابن الخطيب استمد من ابن سينا فى جل ما كتب عن الفلسفة وكم لهذا الاستمداد من نظير فى كتب لسان الدين!

بالمعجزة... والنبي يقرب المعانى الكلية الى عقول الجماهير ويعرفهم
جلال الله وعظمته برموز وامثلة هي اثيرة لديهم ومقبولة فى خيالاتهم
من غير ان يبدو عليه ان عنده حقيقة يكتمها العامة... ويقدر عندهم امر
المعاد على وجه يتصورونه وتسكن اليه نفوسهم ويضرب لهم الامثال فى
السعادة والشقاء بما يفهمونه.



الفصل الثانى

مصادر ابن الخطيب

لا يمكننا ان ندرس نظريات ابن الخطيب فى الاخلاق دون ان نربطها ربطا محكما بنظرياته فى التصوف لما بين هذين الشئتين الفلسفتين من اتصال وثيق فى مؤلفات ابن الخطيب لا سيما منها «روضة التعريف بالحب الشريف» حيث حشر «علم التخلق وطريق الصوفية» فى حلقة واحدة لدى ترتيبه للعلوم ! وما بالك برجل يستمد وجهته الخلقية ويدعم نظرياته فى السلوك الفردى والاجتماعى بأقوال الجنيد والحسن البصرى والشافعى وعبد الله بن سهل وابراهيم بن ادهم وابى نصر السراج ورؤيم والحلاج وابن العريف وابن الفارض مستلهما منهم تقسيماته وتراثيبه للاحوال والمقامات الروحية التى ليست سوى باطن للمجالى الخلقية الظاهرة ؟ على ان ابن الخطيب لم يكتف بالسير على غرار الصوفية الاقدمين بل استمد فى نفس الوقت من الفلاسفة الاوائل وزملائهم الاسلاميين وبالاخص الشيخ الرئيس ابن سينا الذى بلغ اعجابه به حدا بعيدا - ومن الادباء كابى الفرج بن خالصون وابى الفرج ابن الطيب البغدادى ومن شعراء كالمتنبى فى حكمياته وابى العلاء وابى العتاهية فى زهدياتهما وقد نجد بعض آثار ذلك ظاهرا بين ثنايا كتبه .

ولكن ليس معنى هذا ان مصادر ابن الخطيب وينابيع استلهامه محصورة فيما ذكر فانه استمد لباب اخلاقيات من آداب القرآن والسنة التى بعث صاحبها عليه الصلاة والسلام ليتم مكارم الاخلاق كما افادته تفاريع الفقه الذى تأثر - تأثر الغزالى - بتقاسيم احكامه .

وابن الخطيب قد قرأ واستفاد من كتب لم يشر اليها صراحة فهو ينقل فى سياق بحثه ويدمج فى تضاعيف كلامه امثالا وحكما ومقالات ينسبها لبعضهم مكتفيا بهذا العزو الغامض ولعله اختصر رغبة فى اليجار او انبهت عليه - لكثرة ما قرأ - بعض المصادر فاضطره ضيق الوقت لعدم التبسط فى مراجعتها واثباتها ولا شك عندى ان كتب الاحياء وميزان العمل وكتاب الاربعين ومنهاج العابدين (١) والتبر المسبوك فى نصيحة الملوك للغزالي كانت من بين هذه المصادر كما انه لا يبعد ان يكون من جعلتها ايضا ادب الدنيا والدين للماوردي وكليية ودمنة (٢) والادب الكبير والادب الصغير لابن المقفع وتهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق لابن مسكويه والشفا للقاضى عياض ورسائل اخوان الصفا وكذلك الرعاية للمحاسبي والرسالة للقشيري والقوت لابي طالب المكي .

ولا مناص لمن يدرس نظرية لسان الدين فى الاخلاق ان يطلع على جل ما وصلنا من كتبه وان كان سيعثر على كثير من التكرار والترديد فى ثنايا هذه الكتب ولعل اهم مصدر ينبغى الاعتماد عليه بعد «الروضة» هو شعر ابن الخطيب فقد كان الكثير من هذا الشعر مرآة انعكست عليها خلجات نفس الرجل وأنظاره الفلسفية والصوفية فى الكون والوجود والحب والجمال ومع ذلك فان نشر ابن الخطيب لا يخلو من حكم وامثال يتألف من مجموعها جزء من هيكل الفلسفة الخلقية الخطيبية زد على ذلك ان لتجارب ابن الخطيب الشخصية ولتجارب بعض شيوخه كابن هذيل وابى القاسم اللوشى وابن مرزوق وكذلك بعض تلاميذه كابن خلدون - يدا فى بناء هذا الهيكل المتناسق الاجزاء .

(١) نقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربى انه ليس له وانما هو لابي الحسن على بن خليل السبتى .

(٢) والذى يدل على ان ابن الخطيب عرف هذا الكتاب انه جعله مضرب المثل فى قوله :

قلت لما استقال مولاي زرعى ورأى غلة الطعام قليلة
دمنتى لانتجاعى لحرث كلت فهى اليوم دمنة وكليية

الفصل الثالث

أسلوب ابن الخطيب

• لا ينتظر ابن الخطيب سنوح الفرصة الجدية لادماج الحكم السامية في سلك كلامه فهو يرسل الامثال السيارة ويبيت في القارئ ارشادات ونصائح بمناسبة وبغير مناسبة ويستلخص من كل حادث تاريخي حكمة ومن كل واقعة وجهة ومن كل ترجمة صالحة أنموذجا للفضيلة ومثالا للاستقامة والكمال وما بالك برجل يتخذ قصائد المدح والذم والفخر مطايا للاعراب عن آرائه في ادق المسائل واهم القضايا ! ؟

وله طرائق في الكتابة ومناهج في البحث تختلف باختلاف المواضيع فهو اذا تحدث عن الحب والجمال اسمعك من قينارته ما يملك ومن نايه ما يشجيك وغمرك بفيض منعش من فنه البديع يسحرك بسجعائه المتجاوبة وراعك بتعمقه - رغم الابداع الفني - في الملاحظة والوصف والتحليل لارق خطرات النفس وادق خلجات القلب ! واذا كتب في التصوف اثار العاطفة والوجدان وحرك اوتار الكيان واهاج الخفقان ! واذا كتب في الفلسفة اسلس قياد العقل لمنطق بيانه وسحر لسانه ودامغ حجته وناصع برهانه وهو في ذلك كله جزل وديع يرسل النبرات في خفة ورشاقة ويتحرى الوضوح ويلتمس ابلغ السبل نفوذا الى الفكر المجرد وانجعها على انه قلما تنتظم ظواهر الايجاز والجزالة والجلاء في اسلوب ولكنها توفرت كلها عند ابن الخطيب الذي تجرد اسلوبه من ذلك الجفاف الملحوظ غالبا في البحوث الفلسفية والتحقيقات العلمية .

وليس ذلك ببدع من رجل غلب عليه الطابع الادبى ورقت شاعريته
وشعوره فسكبها زلالا رقراقا فى كل شىء حتى فى المناظرة والجدل !
وابدع ما يشير الاعجاب فى عبقرية ابن الخطيب هى تلك السعة النادرة
والغزارة الفياضة التى تجعله يحيط بالموضوع من جميع جوانبه ويحطق
من كامل اطرافه ويلم منه ما تنثر وتبعثر دون ان يحيد عما تحراه من ايجاز
والتزمه من دقة ووضوح !

وقد صدق ابن الاحمر عند ما حلى ابن الخطيب « باديب الدنيا ومفرد
العلم والثنيا وكاتب الارض الى يوم العرض » !

وقلما يعتمد لسان الدين الى تلك الخطايبات التى تغلب على
اسلوب الغزالى مثلا الذى يكثر فى ارشاداته وتوجيهاته نحو الخير
والصلاح من سرد الآيات والاحاديث والمأثور من القول وسبك الحكايات
ما تخيل منها وما وقع ! ومع ذلك فابن الخطيب ينهل كسلفه من فيض
الخيال ويعمل من نبع الفن ! ولعل هذا هو سر تلك الجاذبية التى نالت
منها مؤلفات الرجلين أوفر حظ واكمل نصيب !

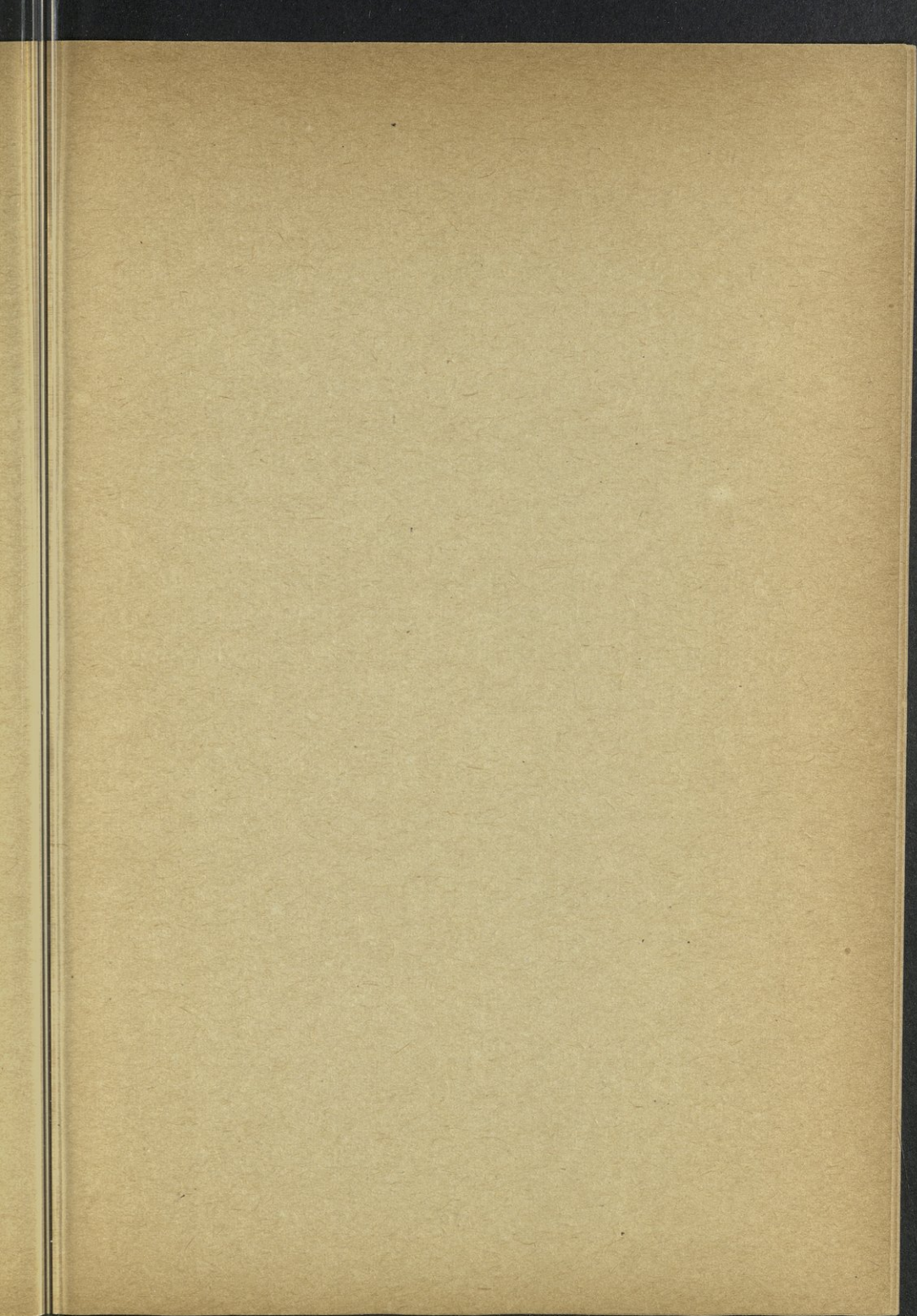
وقد اتفق الرجلان فى جانب من اسلوبيهما وظاهرة فى منهجى
بحثهما فتحرى كلاهما الدقة والجلاء فى استعراض حجج الخصم قبل
التعقيب عليها واستقصيا شرح الآراء لدى نقدها بطريقة تجعلها فى
متناول الجمهور فاتهم الغزالى بسبب هذا الاستقصاء الكاشف بمشايعة
الفلاسفة والفرق الضالة كالباطنية كما اتهم ابن الخطيب بالزيغ فى عقيدته
فكانت هذه التهمة المنكرة سببا فى احراق كتب الاول والايداء بحياة
الثانى !

فكثيرا ما يسرد ابن الخطيب تأولات الفلاسفة القدماء او شطحات
بعض غلاة الصوفية دون ان يكبد نفسه عناء نقدها فيقع القارىء فى حيرة
من حقيقة موقف ابن الخطيب لا سيما اذا لم يتبين هذا الموقف من بين
السطور وسياق الكلام غير انه قد يعود فى الصفحات التالية الى الموضوع
فيرسل اشارة او تلميح يدرك القارىء منها شيئا عن موقف ابن الخطيب
وربما عثر القارىء فى ثنايا مؤلفات الرجل التى عرجت على الموضوع

- على طائفة اخرى من التلميحات قد تسفر عن آرائه الحقيقية اذا جمعت عناصرها المبعثرة وقوبلت بمقابلة نقدية ! مثال ذلك قضية العقل ومكانته بالنسبة للشرع فى تقدير القيم الاخلاقية ففى بعض كلام ابن الخطيب نوع تناقض فى الظاهر لا يلبث ان يتلاشى اذا جمعت اطراف الموضوع المتناثرة فى كتب خطيبية اخرى كما سنرى فيما بعد (١) ! وقد وقع شئ من هذا للغزالي فى كتابه «مقاصد الفلاسفة» حيث عرض آراء الفلاسفة عرضا موضوعيا - كما يقولون - دون تعليق ولا انتقاد حتى ظن بعض المسيحيين المولعين بالفلسفة فى القرون الوسطى ان الغزالي من انصار هذه الفلسفة ولكنه ما لبث ان عاد الى تفنيدها فى كتابه تهافت الفلاسفة ! فاتضح ما كان قد انبهم وظهر ان الغزالي صارم فى تفكيره حتى لبعض الاسلاميين من هؤلاء الفلاسفة كالفارابى وابن سينا رغم ما قد نجده فى كثير من مصنفاتهما من آيات الاستقامة والايمان ! واذا كان الغزالي وابن الخطيب قد اتفقا فى اتجاهات مختلفة خلال دراستهما الفلسفية وأبحاثهما الاخلاقية فانهما قد اختلفا اختلافا بينا فى موقفهما ازاء ابن سينا اذ بقدر ما يسفه ابو حامد بل يكفر الشيخ الرئيس بقدر ما يجله لسان الدين !

ولله فى مواقف عباده شؤون ! !

(١) انظر موقف ابن الخطيب من الفلسفة ومن بعض غلاة الصوفية فى فصل «المذاهب الفلسفية والصوفية» ففيه مثال لما اشرنا اليه ونجد مثالا آخر فى مسألة الخير والشر وموقف الشرع والعقل منهما والاحق بالتقديم من هذين عند التعارض .



الفصل الرابع

مدى تأثير عصر ابن الخطيب في حياته

انتشرت في القرن الماضي بالديار الغربية نظرية كان لها تأثير في توجيه الدراسات الادبية وتكييف مناهجها وصبغ البحث عن شاعر او اديب او عالم بصبغة العصر الذي عاش فيه ذلك الشاعر او ذلك الاديب او ذلك العالم حتى صار من لوازم الدقة ومقتضيات الاستقراء رسم صور واضحة عن شتى مظاهر العصر ومختلف مجاليه ولعل من ابرز الفلاسفة الذين طبقوا هذه النظرية في اوربا رجلا كان له اتصال وثيق بالاساليب العلمية التجريبية لاسهامه في مختبراتها اسهاما مباشرا وهذا الرجل هو تين - Taine - الذي سيطرت عليه فكرة طبيعية تأثر الاديب بالجو الذي عاش فيه بيئة وجنسية وعصرا حتى اطلق لفكره العنان خلال بحوثه الادبية والفلسفية في استقصاء الظروف الطبيعية والسياسية وكذلك الملابس الاجتماعية والعلمية التي احاطت بالاديب او الفيلسوف الذي يترجم له فجاءت دراساته عبارة عن دراسة أمم وعصور لا دراسة افراد ! وقد يكون في هذه النظرية حظ وافر من الاصابة ولكن تطبيقها على هذا النحو من التطرف قد يعكس النتيجة ويشغل الفكر بمظاهر لا صلة لها بحياة ولا بنفسية الشاعر او الاديب على اننا نجد في كل عصر من العصور اشتاتا من الناس تأخروا عن عصرهم او تقدموه : اننا نجد في القرن العشرين رجلا يعيشون في اطار ضيق اجدر بالقرون الوسطى كما نعتز في ثنايا الاجيال الغابرة على افراد غلب على افكارهم وشعورهم طابع اشبه بالطابع الحديث !

إذا كان الادب ينبوعه النفس وكانت النفس تستمد جزئيا من جبلتها الاولى التى فيها مقادير مشتركة بين البشرية فان نتاج الاديب يكون بطبيعة الحال موسوما بميزات انسانية مشاعة بين جميع العصور والافراد كما يكون مطبوعا بخصائص ترجع الى طبيعة هذه النفسية التى قد يؤثر فيها المحيط الخارجى نوعا من التأثير ولعل هذا التأثير يقوى ويضعف تبعا لقرب ذلك المحيط وبعده فالجو العائلى يعكس فى نفس الصبى خواطر قد تلازمه الى الابد وتنتقش فى مرآته الباطنية انتقasha لاربا لا تمحوه الطوارئ مهما تكن قوتها فاذا كانت الأم او الأب مشبعا احدهما او كلاهما بفكرة صوفية او لادينية فان اثر هذه الفكرة قد يكيف اتجاه الابن فى جميع اطواره الحيوية ومراحله المعاشية !

ومع ذلك فان للظروف والاحداث الطارئة نوعا من التأثير يجب ان لا نغفله اذا اردنا ان نستكمل ضروب العوامل التى تتواطأ على خلق الاديب او الفيلسوف !

ولنضرب لذلك مثلا برجل عاصر ابن الخطيب ما بين سننى ٧١٣ و ٧٤٥ وولد كلسان الدين فى غرناطة او ما جاورها من ارباض قريبة حيث تسيطر نفس الطبيعة ونفس المناخ وتؤثر نفس الظروف والعوامل الخارجية وذلك الرجل هو اثير الدين ابو حيان البربرى . فقد كان الرجلان رغم وحدة المنبت على طرفى نقيض فى امور شتى كما كانا فرسى رهان فى امور اخرى قد يكون للظروف المشتركة يد فى تشكيلها :

كان كلاهما بوتقة للحوية الفياضة والنشاط العلمى الغامر ودائرة معارف تتكامل عناصرها واميرا استقل بالنفوذ فى منحى من المناحي العلمية والفكرية وقد تعادلت مؤلفاتهما عدا على وجه التقريب وتفتقت شاعريتهما فى الغزل والموشحات يجرى دمع ابى حيان عند سماع الاشعار الغزلية كما تترنج اعطاف لسان الدين اذا استشف نسيبا رقيق الحواشى وتشبيبا سيال الاطراف !

ولكن رغم هذا كله نلاحظ فى نفسية ابى حيان طابعا خاصا لا ندرى هل يرجع لارومته البربرية ام لظروف مخصوصة عجننت طينته ذلك العجن الغريب ؟ فهو بالعكس من لسان الدين فرور متطرف من الفلسفة يحقق على من يتعاطى علوم الاوائل ويستنكر الخوض فى المسائل الالهية والقضايا المتأفيزيكية - سئى الظن بالناس فخور بالبخل تتركز نظرياته الاخلاقية على مبدأ مجاملة الناس مع التحفظ والتحرز من العدو والصديق على حد سواء وشهود دوافع الغرض فى كل شئ حتى فى ذلك الاندفاع الطبيعى الذى يشعر به الاخ نحو اخيه والصديق نحو صديقه .

فلعل طبيعة غرناطة الغناء قد اسهمت فى تكوين شاعرية الرجلين ووجهتها نحو الحب والنسيب كما اسهمت فى انثاق نزعة الانبساط وروح الدعابة فى مزاجيهما ولكن رحلة ابى حيان الى الشرق فتحت آفاقا جديدة لم تتيسر لمعاصره لسان الدين فاتجه فى حياته اتجاها مغايرا لاتجاه ابن الخطيب واندفع يدرس اللغات الشرقية من تركية وفارسية وحبشية ويصنف فيها تصنيف العارف الخبير واصبح شيخ النخبة وامير المحذنين وقد يكون لاصله البربرى فيما لاحظناه من شذوذ وتشدد ومن تطرف فى سوء الظن لان العرب الذين وردوا على الاندلس تضاربت مطامعهم زمنا ما مع مطامع البربر فخلف ذلك التضارب نوعا من الاحتراس المتبادل تمكن من نفس ابى حيان وجعل فيها هذا الخلق الشاذ طبيعة مستصحبة ولعل تلك الرحلة الى الديار الشرقية كانت هى العامل فى كثير من التقلبات النفسية فى حياة ابى حيان فقد تمذهب خلالها بمذهب الشافعى بعد ان رفض آراء الظاهرية التى دان بها زمنا وافاد من اتصاله بشمس الدين ابن تيمية سلفية صارمة فى العقيدة ونفرة من تأولات الفلاسفة !

ذلك أنموذج حى يتبين منه مدى تأثير البيئات المتقلبة والظروف الاصلية والطارئة فى التكوين الخلقى والفكرى فان نشأة لسان الدين فى وسط موسوم بحسن السمات وكمال الوقار ونقاء العقيدة ووفير الصلاح قد طبعت نفسه منذ الطفولة بذلك الطابع الروحى الذى ما فتئ ينمو ويتربع حتى صار يتجلى بين الاونة والاخرى فى شكل نزوع صوفى تطفح به

نفس ابن الخطيب عند اشتداد الملمات وكانت عوامل مختلفة تتفاعل لتنمية هذه الروح الجذابة في طبيعة الرجل ولعل الاحداث التي كانت تعكر صفو حياة ابن الخطيب احيانا في ميدان السيف والقلم ومؤامرات القصر التي توالى مشاهدتها المؤلمة أمام ناظريه والاحاييل التي نصبها له اعداؤه الكثيرون والانقلابات التي فرقته بينه وبين ذويه ردحات من الدهر - كل ذلك تواطأ على تجلية هذه النزعة الروحية التي طغت عليها نعومة الحياة ورغد العيش واجتماع الشمائل وأسكنت نداءها الفطرى الخافت أزمننا مديدة ! ومن خبر آثار الانفعالات النفسية لم يستغرب هذه التحولات الروحية التي تخلق في الرجل الموتور شخصية جديدة في فكرتها ووجهتها جديدة في ذهنيته وعقليتها جديدة في كل شيء يمت الى صميم الذاتية وعميق الفردية حتى ينقلب شهود الذات الى انكار والانانية الى ايثار والوجود الى اقرار والانقطاع الى تواصل واستمرار وقد يكون ذلك الهوى الذى « خاض ابن الخطيب غماره واجتنى ثماره واقام مناسكه ورمى جماره » قد انقلب - بعد الشعور الطارىء الذى غمر نفسه وكشف لها عن تفاهة هذا الهوى - الى حب علوى تغلغل فى قرارة الروح فانار الوجدان وخلص العقل من شوائب الغرض وجواذب المادة وهكذا ادى الحب الجسمانى بابن الخطيب كما ادى بابن الفارض الى رحاب المحبة الالهية التى هى غاية الارادات الفطرية ومرماها :

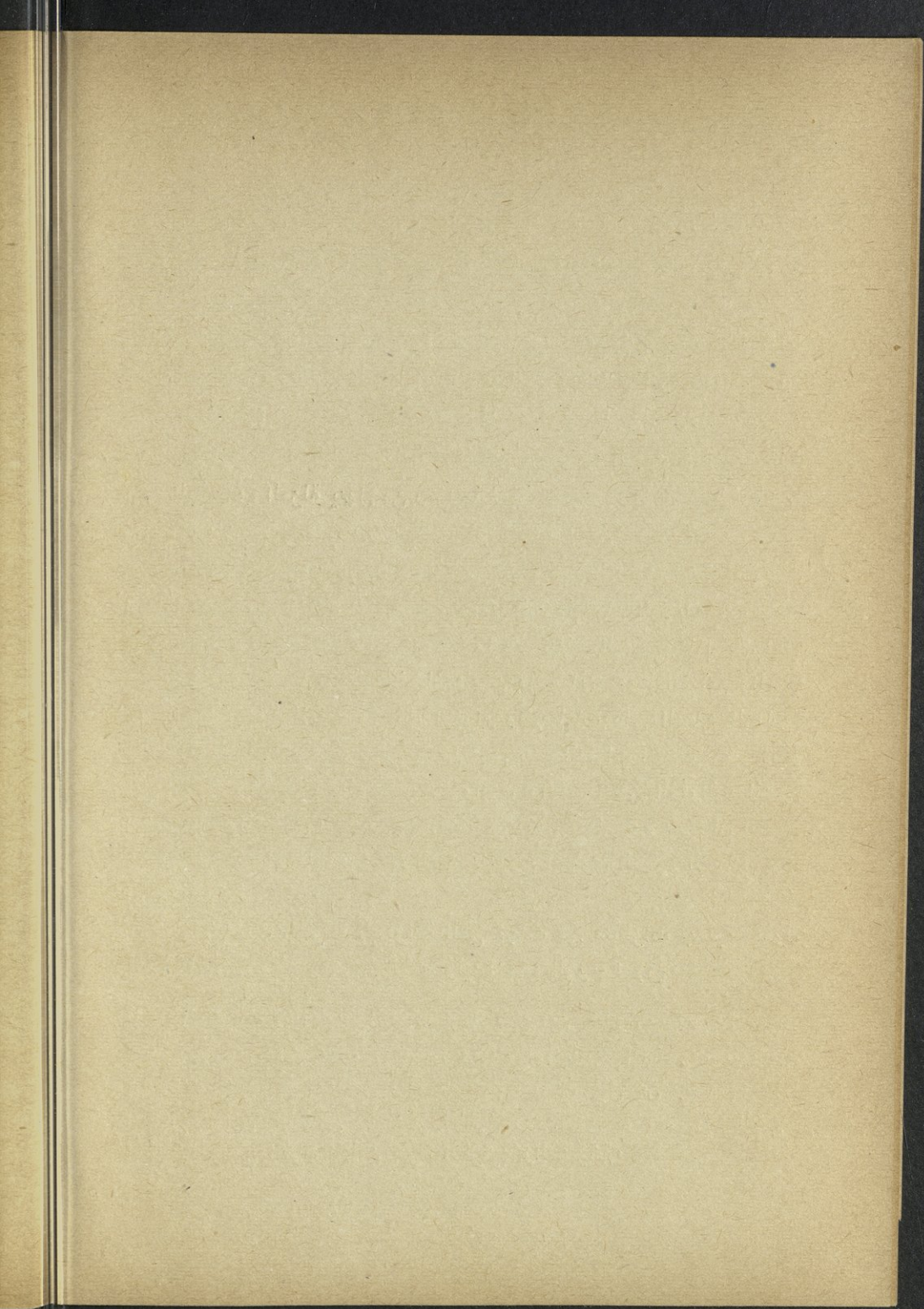
ألفت طريق الحب حتى اذا انتهى تعوضت حب الله عن حب غيره
وبداله من بعد ما اندمل الهوى برق تألق موهنا لمعانه
كيف لا وقد صاح لسان الدين بعد ان تأمل محاسن الجسوم قائلا :
« ما أكذب رائدنا المطرى واخبت زخرفها المغرى واقصر مدة استمتاعها
واكثر المساعى تحت قناعها ٠٠٠ أليست الداعية مرتفعة والباعثة منقطعة
وصورة الحسن دائرة واجزاؤها المتناظرة متناثرة ؟ ! أليس الجراب العنصرى
عائدا الى اصله ؟ أليس الجنس مفارقا لفصله ٠٠٠ ما ثم الا انفاس تركد
وتخبت وعلل تنشأ وتحدث وزخارف حسن تعاهد ثم تنكث وتركيب يطلبه
التحليل بدينه ويأخذ اثره بعد عينه وأنس يفقد واجتماع كان لم يعقد
وفراق ان يكن فكأن قد ! »

كل هذه عوامل جزئية ومؤثرات منفصلة قد يتأتى اجتماعها فى عصور اخرى غير عصر ابن الخطيب ويتمخض تفاعلها عن تكييف خاص لنفسية الفرد وتوجيه قاهر نحو المرامى الروحية فقد تدفع الازمات والحروب طوائف من الناس نحو الحياة الصوفية التى يجدون فى ربعها طمأنينة تغمرهم بزلالها المنعش فتعود الارواح بعد خلاصها من جلبلة العالم وضوضائه الى سكينتها الفطرية التى تتفتح فى بحبوحتها آفاقا علوية خلاصة وقد تستتب هذه النجوة العابرة ويتناول امرها فتنتقل من حالها الخاطف الى مرحلة قارة لا تلبث ان تصير مقاما من المقامات الصوفية المرموقة ! فابن الخطيب قد اعتراه السأم من ضجة السياسة وضوضائها فعمد الى هدوء العزلة ينهل من رقرقها فما كان منه الا ان استساغ طعمها واستمرأ لذاتها فانقلب الشوق الى ذوق ٠٠٠ !

على ان هذه الروح قد سادت فى عصر ابن الخطيب اوساطا كثيرة تملكها الملل من تقلبات السياسة وغوائل الحروب بين الولايات الاسلامية التى تصطدم تارة بعضها مع بعض وطورا مع كتائب المسيح فاذا كان لكل عصر روح تسوده فان عصر لسان الدين قد سادته روح السامة والمثل من التضارب على المادة وتهالك الافراد والجماعات على المتاع الزائل والاعراض العابرة حتى ود الكثير من اهل هذه الفترات المضطربة لو اتبع لهم القبوع والانطواء والتبتل والانزواء فرارا من الفتن المتوالية التى احاقت بهم والنكبات التى تعقبت المسلمين شر متعقب ولا شك ان النفس تصير فى هذه الازمات سلسلة القياد للنزوع الفطرى السليم الذى يوجهها اين شاء وكيف شاء .

ولعل تلك الحركة الصوفية التى تجلت فى مناظرات جدلية حول الطريقة والمشيخة والارادة كانت وليدة هذه الروح ! (١) .

(١) نجد اثرا لهذه الحركة فيما كتبه ابن خلدون جوابا عن سؤال ورد على فاس من عدوة الاندلس وذلك فى كتابه المخطوط الموجود بالخزانة الزيدانية بمكناس والمسمى «بشفاء السائل عن جملة مسائل» وقد اشار ابن عباد فى رسائله والشيخ زروق فى قواعده لهذه الضجة التى قامت فى القرن الثامن حول الطريقة والمشيخة .



الفصل الخامس

الاخلاق

(تمهيد)

ان طبيعة الخير والشر مبثوثة فى التركيب البشرى فالنفس والقلب قابلان للخير والشر والعقل والروح خير كلهما فاذا صبر الانسان نفس بين ابداء واعادة ادرك الخير لان الخير عادة متى الزم الانسان به نفسه صار لها طبيعة ثانية .

ولا يفرق ابن الخطيب بين ما هو خير او سعادة وكذلك بين ما هو شر او ضرر او شقاء فهو يستعمل هذه الالفاظ كالغزالي لمدلول واحد او ضده خلافا لعلماء الاخلاق الذين يفرقون بينها .

والخير والشر ظان مضمحلان لشيء ثابت قار لا يتحقق الا فى تلك الدار ! وهذا شبيه بما يرثيه ابن خلدون حيث يقول :

واعلم ان الخير والشر ينتهى مداه وان الله سوف يديل
والخير درجات والشر كذلك درجات لان الاعمال متفاضلة ومراعاة
الافضل يستوجب الكمال !

وحيث ان فى وسع النفس ان تتصنع وتتطبع فان تلك الهيئة التى تتلبس بها حينذاك هى ما يسمى بالاخلاق فاذا تخلقت النفس صدرت عنها الافعال بسهولة ويسر من غير فكر ولا رؤية فان كانت حسنة سميت خلقا حسنا وان كانت سيئة سميت خلقا سيئا والجنسان يتوزعان على القوى الثلاث : العلم والغضب والشهوة فبالقوة الاولى يسهل درك الصدق

من الكذب فى الاقوال والحق من الباطل فى المعتقدات والحسن من القبيح فى الافعال وبانقباض القوتين وانبساطهما تتحقق الحكمة او عكسها اى يكون الانسان ممثلا او مخالفا لرسم العقل والطبع والشرع والعدل يرعى القوى الثلاث فاذا استوت واعتدلت حصل عنها حسن الخلق مطلقا ومن استوى فيه بعضها حصل له من حسن الخلق بقدره وحسن القوة الغضبية هو ما يعبر عنه بالشجاعة التى لها طرفان : زيادة ونقصان هما النشاط والجمود .

وقد استمد ابن الخطيب تعريفه للخلق من الغزالى الذى قال فى ص ٥٦ ج ٣ من الاحياء ما نصه : «الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال المحموده عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا» .

ويلاحظ ان ابن الخطيب لم ينقص من عبارات هذا التعريف سوى لفظة «راسخة» وليس ذلك لاختلاف فى النظر لان ابن الخطيب يرى كالغزالى ان الهيئة الخلقية التى تصير للنفس طبيعة ثانية هى قارة قرار هذه الطبيعة الاولى التى يقول فيها ابن الخطيب :

وسجية الانسان ليس بناصرل من صبغها حتى يرى مرموسا
اما فيما يتعلق بالتقسيم الثلاثى للقوى الباطنية فقد ذكر الغزالى فى الميزان (ص ٩٠) ان الحكمة فضيلة القوة العقلية والشجاعة فضيلة القوة الغضبية والعفة فضيلة القوة الشهوانية والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب .

الخير والشر

يقول ابن الخطيب ان النفس انما تحب الملائم على الجملة وهو معنى الخير وتكره المنافر وهو معنى الشر ولا خير كالوجود ولا شر كالعدم فالوجود او ما كان سببا فى الوجود وما جر الى شئ منه محبوب والعدم او ما جر اليه مكروه .

وكان ابو العلاء المعرى يرى بعكس هذا ان العدم خير من الوجود
وان «بدء السعادة أن لم تخلق امرأة» وكان لنظره هذا اثر فى توجيهه نحو
حياة العزوبة والزهد .

وابن الخطيب يركز فى تفصيل هذه النظرية على شىء يسمى
بعاطفة الانانية وحب الذات فهو يرى ان المحبوب الاول عند كل شىء
نفسه التى بها احب ومن اجلها احب ومن جرائها آنس بالملائم ونفر عن
المنافر .

وهذا شبيه بما يراه المعرى حيث يقول :

اذا كان اكرامى صديقى واجبا فاكرام نفسى لا محالة اوجب
ومعنى حب النفس عند ابن الخطيب ايثار الوجود على العدم اى
ايثار ما تتخيله خيرا على ما تتخيله شرا وهذا هو سر كراهية الموت
وحب الحياة على كل حال فبقاء الوجود محبوب وكل ما نقص من كمال
الوجود عدم على قدره والعدم مكروه والنفس تعبر الى طلب الكمال فرارا
من الاحساس بالعدم فوجود صفات الكمال لها بالطبع محبوب .

فنحن نرى من هذا ان لسان الدين يقصد بالعدم كل ما نقص من
كمال الوجود فالعدم عنده مقابل للكمال الذى هو الخير والنفس اذا فزع
الى طلب الخير والكمال فانما تفزع من الاحساس بالشر لان حب الكمال
والميل الى الخير مركز فى طبيعتها وبعض الشر متمكن كذلك من غريزتها
ولكن أما قال لنا ابن الخطيب بأن النفس قابلة للخير والشر معا ؟
فما معنى هذا التناقض ؟ الحقيقة الا تناقض هناك فابن الخطيب يريد
بالنفس القابلة للخير والشر النفس على حقيقتها اما هنا فانه يقصد
بالنفس الروح والروح كما يقول القشيري لا تختلف عن النفس فى اللطافة
ولكن فى كونها محلا للاخلاق المحمودة اى مثارا للخير ومعندا للكمال
بينما النفس تكون فى بعض جوانبها محلا للاخلاق المذمومة .

واذا انحرف ذلك الحب الذاتى الذى يجعله ابن الخطيب من
دعائم الاخلاق - وتطرف تفرغت عنه طبائع مذمومة كالحسد والخبث
والعداوة وسوء النية وسوء الظن وحب الاضرار والبغى والغلبة .

القيم الاخلاقية

الحسن ما حسنه العقل والشرع والقبيح ما قبحاه ولكن ايهما نقدم في حالة التعارض ؟ هل النقل والشرع ام العقل والطبع ؟ لا نجد جوابا عن هذا السؤال في مبحث الاخلاق من الروضة ولكن اذا رجعنا الى مصنفات خطيبية أخرى وجدنا لسان الدين يغلب جادة الشريعة «لأنها اعرق في الاعتدال وافوق من قطع العمر في الجدل» ويصرح بأن العقل متقدم ولكن بناءه مع رفض اخيه (اي الشرع) متهدم ثم يقول : «لقد قطعت في البحث زمانى ٠٠٠ فلم اجد خابط ورق ولا مصيب عرق ولا نازع خطام ولا متكلف فطام ولا مقتحم بحرطام الا وغايته التى يقصدها قد فضلتها الشريعة وسبققتها وفرعت ثنيتها وارثقتها» .

على اننا نراه يؤكد فى مبحث التوحيد من الروضة «ان معرفة الله وطاعته واجبة بايجاب الله وبالشرع لا بالعقل ٠٠٠ وان العقل لا يهتدى الى الافعال المنجية فى الآخرة كما انه لا يهتدى الى الادوية المنجية من المرض» وعلى هذا فابن الخطيب لا يختلف عن سلفه الغزالى الذى يقيس الخير والشر بمقياس العقل والشرع مع تغليب هذا الاخير عند تعارض الادلة الفكرية والنقلية ولعل للعقل فى نظر الرجلين دائرة لا يتعداها ومحيطا لا يتجاوزه فى حين ان الشرع يسبح فى الافاق البعيدة المدى فكل ما يؤيده النقل المحرر يجب ان يؤيده المنطق المقرر ولا عكس .

ومشكلة التحسين والتقبيح هذه ترتبط عند علماء الاخلاق المحدثين بمشكلة القيم فهم يقسمون القيم من حيث هى الى خيالية (كقيم الاشياء الوهمية التى هى محط المطامح وحب الذات) واصطناعية (كالاشياء التى تقتضيها العادة وتتطلبها الاعراف المتجددة = «الموضة») ومادية (كالاشياء والملاسلات الضرورية للحياة) وجمالية وفكرية (كالحاجة الى النشاط والابتكار والاكتمال والانسجام) وهنالك قيمة ثالثة وهى القيمة الخلقية لاشياء وهى قيمة مطلقة مستقلة عن القيم الاخرى وهى التى تحقق مطامح الانسانية العليا وكمالها الا مثل فالعمل الخلقى له قيمة فى

مقدور الانسان تحقيقها ومن واجب كل انسان احترامها وعدم اهمالها وتنجيزها والا تجرد هذا الانسان عن انسانيته فالعمل الخلقى له اذن قيمة مطلقة لانه فرض عين لا يسقط طلبه على البعض اذا قام به الباقون وجميع القيم الاخرى ليست سوى ذرائع للقيمة الخلقية بل انها تنعدم وتنحط اذا لم تستومض بالاشعاع الخلقى فقد كان افلاطون يرى ان فكرة الخير هي أساس كيان الاشياء وقيمتها وان القيم المادية لا ينبغي السعى في تحصيلها الا بمقدار ما تسهم في انبثاق القيم الخلقية واستمرارها اما انتجاعها كغاية فهو عين الغواية وكذلك القيم الفكرية «لان العلم الذى لا تتخلله اخلاق - كما يقول بريدو فى كتابه الاخلاق (ص ١٣٢) - يؤدى بسهولة الى المسالك الوعرة .

ومشكلة المشاكل فى هذه القيمة الخلقية هي معرفة ماهيتها فهل لها حقيقة نفسانية وجدانية ام ان ماهيتها خارجة عن ذاتها مستقلة عنها ؟ فهل تقديرنا هو الذى يعطى هذه القيمة «قيمتها» ام ان هذه القيمة نفسها هي التى يستوحى منها «تقويمنا» ؟ وبعبارة اخرى فهل نجد فى القيمة الخلقية للاشياء ما نضعه نحن فى هذه القيمة ام ان هذه القيمة هي التى تمدنا بمحتوياتها ومضامينها كأساس لتقديراتنا الخلقية؟ لقد أجاب الفلاسفة الغربيون عن هذه الاسئلة الغامضة بأجوبة مختلفة فمنهم من اتخذ موقفا نفسانيا وجدانيا كم . ريبو فى كتابه «منطق العواطف Logique des Sentiment» حيث يقول بأن قوام قيمة الاشياء هو رغائنا واذواقنا وان فكرة القيمة من خلق الوجدان ولكن توجد نظرية معارضة لهذه وهي نظرية الاطلاق التى يقول بها شيلر وهارتمان فشيرليرى كابن الخطيب ان قيم الاشياء من التقديرات الالهية لان الله هو الذى يقدر الخير والشر فالقيم ليست فى نظره اضافية الى الفرد الذى يدركها ولكنها جواهر مستقلة عن الانية ورغباتها لانها من عالم آخر - عالم ما وراء المادة ! ويرى هارتمان كذلك ان القيم حقائق مطلقة عليا مستقلة عن رغباتنا وانها صادرة - كما يقول افلاطون - عن عالم المثل ولا تنكشف بعض مجالى هذه الحقائق الخلقية الا لبعض الخاصة بواسطة الالهام !

وقد قامت خلافات بين رجال الفلسفة القديمة حول وجهة الاخلاق التى قال البعض عنها بأنها طبيعية أى تتركز على الفطرة والطبع وقال آخرون بأن مبناها هو العقل الذى يجب ان نستشف من وراء نوره مبدأ لسيرتنا وقانوننا لاعمالنا وهنالك قوم آخرون انتجعوا وجهة الوجدان فاستمدوا او حاولوا ان يستمدوا من العواطف قوى كافية لتنجيز الواجب .

نظرية الطبيعة : يعتبر أبيقور (الذى مات قبل المسيح بـ ٢٧٠ سنة) ان من العبث البحث عن مبادئ الاخلاق وأصولها فى الشرائع او العقل وان الحقيقة الوحيدة هى الطبيعة والاحساسات المنبعثة عنها وهدفنا الامثل هو الانسحاق مع تيار هذه الطبيعة فاللذة - جسمانية او روحانية - هى مقياس القيم الاخلاقية وهى مبتدأ السعادة وخبرها وليس معنى هذا ان أبيقور يدعو الى الانغمار فى اللذة لان الافراط فيها يؤدى - فى نظره - الى الالم الجسمانى والاضطراب النفسانى بل يرسم لمنهجه حدودا فيدعو الى انتجاع اللذة التى لا يعقبها الم والى الفرار من الالم الذى لا يسفر عن لذة وعدم الاستسلام للمتعة التى من شأنها ان تحرمننا من متع اعلى واكمل وقبول بل استمرار الالم الذى يخلصنا من الم اشد منه او يؤدى بنا الى لذة كبرى وقد كان أبيقور مثالا كاملا وأنموذجا حيا لمذهبه يعيش عيشة التقشف والبساطة نباتى المأكلى يكتفى بالضروريات ودودا لان الوداد يشيع فى نفسه عدوبة وطمأنينة يلتزم الفضيلة لانها فى نظره باب السعادة .

وقد دحض ابن الخطيب النظرية الطبيعية فى الفصل الذى تحدث فيه عن الفطرة من كتابه «الروضة» وفند كذلك نظرية ابن طفيل فى رسالة حى بن يقظان» ذاكرا ان الطبع الذى لا يدعمه العقل والشرع لا يحمل الانسان الا على الاسهل والاوجب من الافعال وقد اضطر أبيقور الى الاستناد الى العقل لكبح جماح فطرته واطاع الفكر اكثر معا اطاع اللذة والهوى !

ولكننا نرى أبيقور الحكيم قد اتفق مع ابن الخطيب فى تحديد اوصاف العارف فقد وصفه الاول بالشجاعة وعدم التهيب من الموت

وبالقناعة والعدل ووصفه الثاني بقوله: «العارف هش بش بسام... وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء... العارف شجاع وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت؟ الخ (الروضة) .

وقد استمد من النظرية الابيقورية بعض علماء الاخلاق الانجليز كالفيلسوف بنطام Bentham (١٨٣٢-١٧٤٨) ولكن بنطام هذا لم يجعل اللذة الفردية وحدها هي المقياس بل اعتبر المجتمع ايضا فقال بأن الغاية الخلقية هي تحقيق اكثر ما يمكن من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس وبعبارة اخرى يتطلب بنطام الوصول الى اعظم قسط من الفائدة (ولذلك سميت نظريته بالنظرية الفائدية) (Utilitarisme) واذا كان بنطام لا يعتبر نوعية اللذة وكيفيتها فان الفيلسوف الانجليزى ستوار ميل (١٨٧٣-١٨٠٦) يؤكد ان لبعض اللذات قيمة ذاتية تجعلها فوق غيرها ك لذات الروح والقلب بالنسبة للذات الحسنة .

وهذه النظرية التى تجعل من الفائدة معيار الاخلاق مغالفة على طول الخط لما دعا اليه ابن الخطيب ودعا اليه الاسلام قبله من تضحية وايتار ! وليس تقريرنا هذا مناقضا لما قررناه اول هذا البحث من ان ابن الخطيب يجعل الانانية دعامة للاخلاق فالجهة منفكة والانانية هنا ليست هى الانانية هناك !

نظرية العقل : يعطى بريدو (ص ١٤٢) نماذج وامثلة لهذه النظرية الاخلاقية عند افلاطون واپيكتيت Epictète وكانط ونحن نفصل ذلك لنبين مدى الفرق بين هذه النظريات والنظرية الخطيية .

(١) نظرية افلاطون :

تأثر افلاطون بالمذهب الفيثاغورى الذى يعتبر النفس لطيفة ربانية انحدرت من عالمها العلوى وسجنت فى رمسها الجسمانى .
ونظرا لعنصر النفس الالهى ولما مرحت فيه من فضيلة مثلى خلال حياتها الماضية فى عليين بقى فيها ذلك الحنين الى عالم السعادة التى ذاقته من متعه الاطاييب فصارت تتوق الى الكمال وتطمح الى الخير .

ونحن نلمس مسحة من هذا الاتجاه الافلاطونى السينوى (١) فى اوصاف العارف الذى هو مثال الكمال عند ابن الخطيب وكذلك عند الصوفية فالعارف دائم التوقان الى العالم الاقدس يجتهد فى الاتصال به ومحاكاة كمالاته بالتشبه بالصفات القدسية وكذلك الحكيم عند أفلاطون يسعى جهده فى محاكاة عالم المثل ولا يخفى ما لابن سينا والحائى من تأثير فى تكوين هذه النظرية الخطيبية !

٢ (نظرية ابيكتيت :

ويرى انصار الفلسفة المتشددة (Stoiciome) مع زعيمهم «ابيكتيت» (Epictète) ان من خصائص الحكيم التجرد من الاهواء والعواطف السافلة وعدم التأسف على الفائت الذى ليس فى طوق الانسان حفظه والاعتناء بأن متاع الدنيا زائل (يرى هؤلاء المتشددون ان المتاع الفكرى هو المتاع الحق لانه مشاع بين العقول الانسانية) والتزام العفة والاحتمال والصبر وعدم الخروج عن الحد المحدود وعن المهمة المحصورة التى نيطة بالانسان فى هذه الحياة (كل هذه الصفات يعطيها ابن الخطيب لمطلق فاضل) فاذا صار الحكيم على هذا النهج قيل فيه بانه يعيش على سنن العقل . وقد كان لهذه الفلسفة العقلية اثر كبير فى نفوس امثال ديكارت وباسكال .

٣ (نظرية كانط :

اما كانط فبالرغم من ثقته بالفطرة الانسانية كالفيلسوف روسو (J. J. Rousseau) الذى تأثر به فانه يرى ان الوجدان متقلب غير قار وان العقل العملى التطبيقى ضرورى للتعرف الى الواجب فالارادة الحسنة هى اجمل شىء فى الوجود لا سيما اذا تغلبت بالعقل على الاغراض والاهواء والنزغات العاطفية وتجلت كأمر صريح Impérati P. calégosique يقتضى الطاعة دون شرط ولا قيد ولا اعتبار للنتيجة لان الخير كل الخير فى الخضوع للواجب (٢) والائتمار بأمر القانون (القانون الخلقي طبعاً) واذا اردت ان

(١) منسوب الى ابن سينا .

(٢) قارن هذا مع نظرية غاندى فى الواجب .

تعلم حسن الشيم من قبيح الصفات فانظر بعقلك ما ذا سينجم يا ترى عن تعميم صفة من الصفات لو عممت فاذا كانت ستمتخص حتما عن خلل فى نظام الوجود والعلائق الانسانية فاعلم ان القبح شيمتها .

ولعل كانط وابن الخطيب يتفقان فى اهم نقطة وهى اقتدار الانسان على كسب الخير فدرك الكمال فى مقدور الانسان ، والانسان حر مختار جدير بهذه الحرية وذلك الاختيار لانه دراك للخير بفطرته السليمة وبعقله العملى .

وقبل ان نختم الكلام على هذه النظرية العقلية نلاحظ ان بروكسن Bregson يقول بأن العقل ليس له نفوذ وانه لا يمكنه ان يقاوم وحده الاهواء والاغراض فالاخلاق عامة التكاليف وليس فى وسع كل الناس المكلفين بذل مجهود فكرى للوصول الى الكمال فينبغى الاستناد الى قوة أخرى وهى قوة الوجدان ولا يخفى ما لهذه النظرية من تشابه مع نظرية ابن الخطيب الذى تقدم الكلام عنها .

نظرية الوجدان :

تلتقى النظرية الوجدانية مع نظرية ابن الخطيب فى تركيز الاخلاق على الحب كأصل للوجود وقانون للاخلاق فالحب الالهى عون دائم فى اعتبار الاديان المنزلة وبه تتحقق سعادتنا الابدية التى تضمن بها علينا الدنيا واهل الدنيا .

هكذا يقول ابن الخطيب وهكذا يقول علماء الاخلاق المتشبعون بالروح الاسلامية او المسيحية لان هذه النظرية شائعة فى المسيحية والاسلام وممن قال بها الامامان ابن عربى الحاتمى وابن قيم الجوزية وقد وجدت الفلسفة العاطفية فى غضون التاريخ الفكرى دعاء متحمسين وفى طليعتهم روسو وادم سميث وبركسن .

ويرى هذا الاخير ان هنالك نوعين من الاخلاق : نوع يبذر فينا تقدير الواجب تحت ضغط المجتمع بحيث يكون مجموع العوائد الاجتماعية التى تؤثر على ارادتنا هو هيكل الواجبات ولكن هنالك نوع ثان من الاخلاق يرجع لباعث نفسانى وعامل وجدانى يهز الاكناف ويحرك الاعطاف ويتجدد فينا بتجدد مظاهر البطولة وذكريات الابطال والفضلاء .

والعجيب ان بركسن وابن الخطيب يتفقان على طول الخط فى هدتين
الوجهتين الخلقيتين فعلاوة على تقدير لسان الدين للعواطف الفطرية
السليمة من النزغات الشيطانية يدافع عن العوائد الاجتماعية ويطالب
باجرائها كمجموعة من الاخلاق العملية .

والوجدان عامل هام فى الحياة الخلقية فبقوة الوجدان وسموه تعرف
قيمة النفوس والعاطفة أجدى فى الاخلاق وأبلغ اثرا من العقل لان الانسان
يسير الى الخير بقلبه والارادة وان كان زمامها هو العقل - فان الكمال
يقتضى منها ان تذكىها العاطفة ويحركها الوجدان .

ولكن خصوم بركسن يعترضون عليه قائلين : ان فى العقل استدامة
وطمأنينة ينعلمان فى الوجدان فالعاطفة غير قارة والوجدان قابل للاغترار
والتطرف يتعجله الضنى وينهكه الاستمرار .

وللعاطفة جمحات لا يردعها الا منطق العقل !

الفصل السادس

أصول الاخلاق

ان اصول الاخلاق وامهات الفضائل عند ابن الخطيب هي نفس
الاصول عند الغزالي ترتيبا وتعريفا وعددا وهذه الاصول هي : الحكمة
والشجاعة والعفة والعدل فالحكمة حالة للنفس تدرك بها الصواب من
الخطأ في الافعال الاختيارية والعدل وهو المجموع حالة تسوس الغضب
والشهوة وتحملهما على سبيل العقل والشرع استرسالا وانقباضا
والشجاعة انقياد القوة الغضبية للعقل اقداما واحكاما والعفة تؤدب الشهوة
بأدب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الاصول الاربعة تصدر الاخلاق
الجميلة فيتفرع من قوة العقل مع اعتدالها حسن الرأي وسلامة الفطرة
واستقامة التدبير والتفطن لدقائق الاشياء ومن انحرافها مع الزيادة المكر
والخداع ومن انحرافها مع النقصان البله والحمق .

وينبثق من الشجاعة مع الاعتدال كسر النفس والاحتمال والكرم
والنجدة والشهامة والحلم والثبات والوقار ومن انحرافها مع الزيادة
التهور والصلف والكبر والعجب ومن انحرافها مع النقصان المهانة والذلة
والخسة وصغر النفس .

وينشأ عن العفة مع الاعتدال السخاء والحياء والصبر والقناعة والورع
والمسامحة والظرف ومن انحرافها مع الزيادة والنقصان الحرص والشره
والخبث والوقاحة والتبذير والمجانة والحسد والملق .

العدل

يطلق ابن الخطيب لفظة العدل فيريد بها الاعتدال اى لزوم الوسط وعدم الانحراف لا الى جهة التفريط والنقصان ولا الى جهة الافراط والزيادة فاذا قيل انسان عادل اريد به رجل يضع الاشياء مواضعها او يتركها على الاقل فى وضعها الطبيعى الذى اقتضته فطرة الاشياء ونظام الوجود فالعدل يقابل اذن الاختلال الذى يتمخض عن كل حركة بل كل سكون غلب عليها التطرف الى احدى الجهتين وابتعدت عن التوسط الذى هو مقياس الكمال واقول - سكون - لان الانقباض اى عدم الحركة فى حالة وجوبها والاخلاق الى السكون عند قيام باعث العمل هو ايضا خروج عن حد الاعتدال .

ذلك ما نجده ايضا عند افلاطون الذى ينقل عنه ابن الخطيب فى طبيعة من ينقل عنهم من الفلاسفة الاوائل فالنفس غير العادلة اى غير المعتدلة عند افلاطون هى النفس التى تستسلم للاهواء اى تنصاع لباعث الشهوة او داعى الكبرياء وهما عاملان وقوتان مطبوعتان على الافراط والخلل والكبرياء هنا هو ما يسميه ابن الخطيب بالغضب لان الكبرياء فرغ عن القوة الغضبية اما النفس العادلة فهى التى انضبطت فى الحدود المناسبة بفضل مراقبة العقل (يزيد ابن الخطيب الشرع) .

الى هنا ينتهى الاتفاق الصريح بين ابن الخطيب وافلاطون الذى ينظر الى العدل كتناسق باطنى للنفس التى تخضع اجزاؤها لنظام وتدرج اشبه فى حدودهما بالنسب الملحوظة بين نبرات اللحن الموسيقى - ولكن لعل لسان الدين الذى يقول بأن العدل حالة تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على سبيل العقل والشرع استرسالا وانقباضا « يقصد بهذه الحالة ما قصده افلاطون من توازن العناصر النفسية وتناسق نزاعاتها وميولها وقد تكون نظرية التوافق هذه اقوى عند افلاطون لانه لا يقتضى ولا يتطلب مجرد اتساق الميول ونحن نلمس هذا الاتجاه فى نفس الصراحة والجلاء الافلاطونى عند الغزالى الذى يقول : «وكما ان حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقا بحسن العينين دون الانف والفم والخذ بل لا بد من حسن الجميع

ليتم حسن الظاهر فكذلك فى الباطن اربعة اركان لا بد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق فاذا استوت الاركان الاربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهى قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث .»

ولكن افلاطون يزيد على كل من ابن الخطيب والغزالي بنظرية قوامها ان قيام هذا التوافق والتناسب بين ملكات النفس وقواها لا يطبع بطابع الاعتدال فحسب بل يمنحها الوجود بما يضيفه عليها من خواص طبعها فالنفس تفقد وجودها بمجرد ما تصبح فريسة للعواطف لانها تتشعب حينذاك الى عناصر حيوانية .

ونظرة واحدة الى المقامة السياسية الخطيبية التى يمكن ان نشبهها رغم قصرها بالمدينة الفاضلة او الجمهورية الافلاطونية - تكفى لمعرفة مدى التشابه الفكرى والتجانس النظرى بين افلاطون وابن الخطيب فى كثير من مقومات الحياة المدنية والسياسية !

فأفلاطون يرى ان من صميم العدالة الاجتماعية احترام قيم افراد الرعية وتقديهم او تأخيرهم تبعا لآحقيتهم المرتكزة على هذه القيم فالمساواة الحق التى هى عند افلاطون مبدأ العدل معناها معاملة الناس على قدر مستوى وقيمة طبيعتهم وذلك بتحويل كل واحد منهم ما يناسبه .

ونحن نجد نفس هذا التأسيس لمبدأ العدالة عند ابن الخطيب الذى يوصى الامير بالعدل فى رعيته وذلك بتوزيع المناصب على افرادها تبعا لقيمتهم واستعدادهم النفسانى والجسمانى وقد يصدك ما تجده فى غضون نصائحه من نكرة ارسقراطية ظاهرة كتوصيته للملك بان يجتنب فى خدمته «من كان منشأ خاملا ولاعباء الدناءة حاملا» ولكن اذا رجعنا لمطان اخرى من كتب الرجل ورسائله وجدناه يعتبر التقوى اساس التفاضل بين الناس وقد نرى فى تقييد ابن الخطيب الخمول بالمنداءة تحديدا لفكرته لانه كان يرى ان الغالب على المناشىء الخاملة عدم التشعب بمقومات الكمال الاجتماعى فاذا تحققت صفة التقوى فى الشخص انعدم احتمال النقصان .

ولا بد لاقامة هذا العدل من سلطة وهذه السلطة عند ابن الخطيب هي الامير الذى يجعل نفوذه وقفا على الاتصاف بالعدل والانصاف والحكم بالسوية» وكذلك الامر عند ارسطو وسانت طوماس (St. Thomas) الذى تأثر فعليا كابن الخطيب بنظريات الغزالي الخلقية والصوفية (راجع كتاب كارادوفو عن الغزالي وكتابه «مفكرو الاسلام».

وقد كتب بريدو فى كتابه «الاخلاق» لدى كلامه على العدل والمساواة ما ملخصه :

«يظهر ان العدالة وجدت فى المساواة اساسها الحق فالعدل ان ترضى بحياة الغير كما ترضى بحياتك وان تحترمها كما تحترم حياتك الامر الذى يؤدى بك الى الاعتراف لجميع الناس بحقوق متساوية وقد نص الفيلسوف كانط على هذا حيث قال : «اعمل دائما كما لو كنت تعتبر الانسانية - سواء فى شخصك ام فى شخص الغير - بمثابة غاية لا وسيلة» وكذلك برودون (Proudhon) الذى يقول: «العدل هو احترام الانسانية احتراماً تلقائياً متبادلاً مهما تكن الاشخاص والظروف ومهما تكن الورطة والخطر».

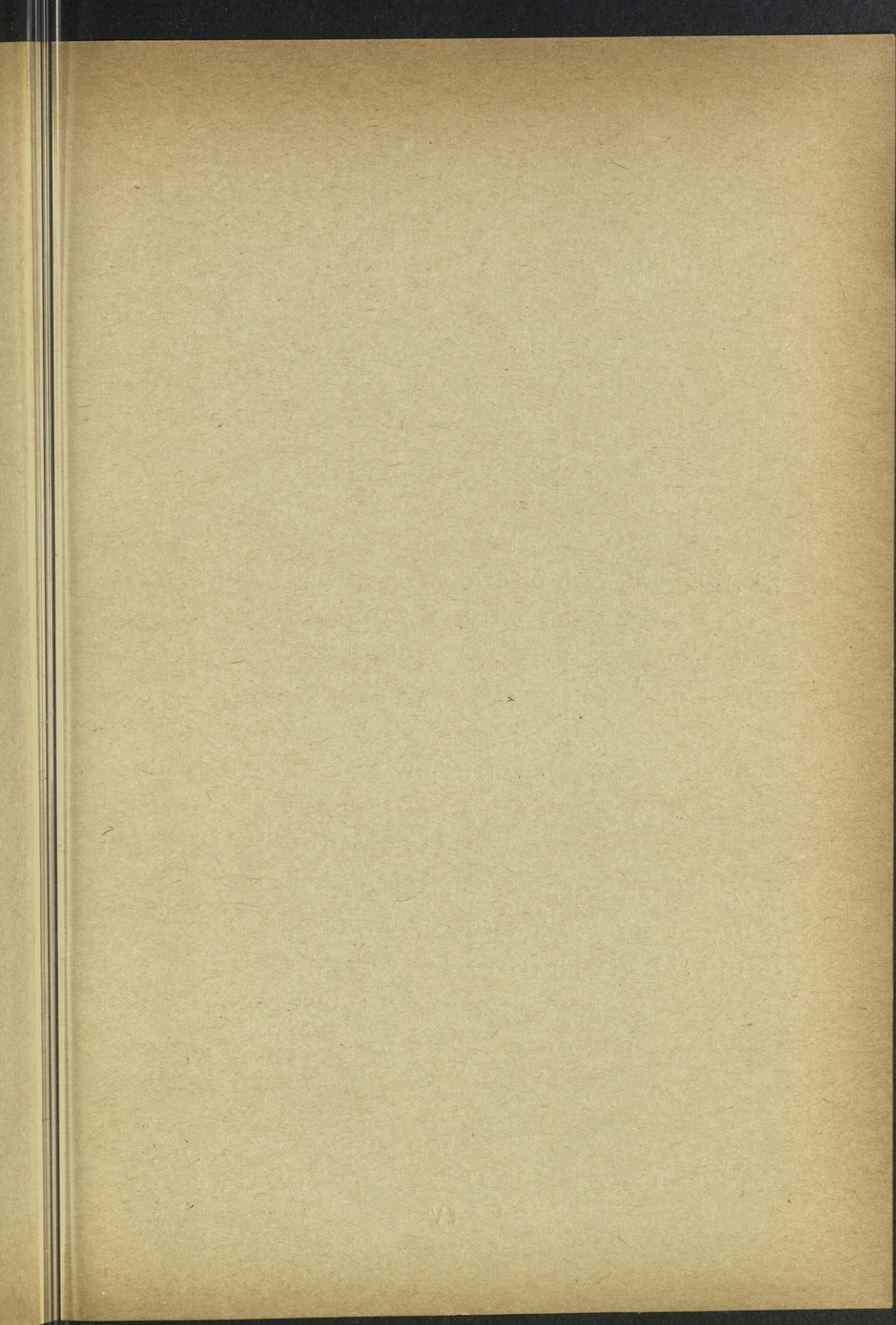
ونجد عند ابن الخطيب تطبيقات قيمة لمبدأ المساواة كأساس للعدالة فى مختلف ما كتب عن الاخلاق فهو يحذر من الزنا وينصح من غلبت عليه غرائزه ان يفكر قبل الاقدام على هتك عرض الغير هل يحب هو ان يزنى هذا الغير بأهله ! وهذا نهاية فى قوة الشعور بالمساواة الحاملة على الاعتدال وقل مثل هذا فى الربا او الغش والرشوة والتزوير فالعدل لا يقتضى تحريم الربا الا لان المساواة تنخرم بين الدائن والمدين حيث يؤدى الحال بأحد الرجلين الى الاثراء على كاهل صاحبه ! والتدليس والزور ؟ ألا يرميان فى جوهرهما الى سلب الغير من ماله ومتاعه لفائدة شخصية ؟ ! وكذلك الرشوة !

وهذا العدل نتاج للعقل عند جل الفلاسفة المحدثين لان العدالة - كما يقول بريدو - بناء مستديم يرتكز - كالعلم - على حساب وقياس قابلين للخطأ والانحراف اما عمل القلب فانه كالاخسان الذى يحس الانسان

بكماله بمجرد ما يفعله ! فضابط التمييز بين ميدان العقل وميدان الوجدان
فى الاخلاق عند هؤلاء الفلاسفة هو ما نشعر به من حاجة الى تصحيح كل
ما يصدر عن العقل بينما ينتظم نتاج الوجدان انتظاما لا يقبل النقص، ولعل
هذا هو سر ضرورة تقديم الخاطر الاول - كما يقول البصرى - فى كل
شىء لانه ينبعث عن الوجدان مباشرة وعن الفطرة السليمة بينما تمتزج
الخواطر التالية بعناصر عقلية تلمز بساطتها وحسن انتظامها وتحرف
ذلك الاندفاع الفطرى والانجذاب الغريزى نحو الخير والكمال .

ولعل هذا يفسر لنا ما نجده عند ابن الخطيب من تردد فى هذا الباب
فهو يصرح تارة بأن العقل لا يهذى الى الاعمال المنجية وان الشرع هو
مقياس الحسن والقبح والنقصان والكمال والفطرة السليمة هى التى
تؤدى الى الصواب ثم يؤكد تارة اخرى ان العقل يهذى (كما فى فصل
الاسباب من الحب للباب من الروضة) فلسان الدين يقصد بالعقل فى
كلتا الحالتين العقل النظرى (وان كنا نراه يطلق العقل احيانا على مطلق
التعقل والتمييز) لان التعقل والتمييز فى هذا الباب شيئان ضروريان لا
يمارى ابن الخطيب فى بدايتهما فى جميع الحالات والعقل النظرى هو الذى
يتردد الانسان فى قبوله كمييار للخير والشر فى الاخلاق! فلا يبعد ان يكون
تردد ابن الخطيب راجعا لكون مفعول العقل النظرى يقوى ويضعف تبعا للحال
والموضوع فاذا قوى قارب الشرع والوجدان الصحيح (او قل الفطرة
السليمة) فى الاصابة واذا ضعف ضاعت جدواه وتلاشت عائدته .

وقد كان باسكال يرى ان القلب (اى الوجدان والفطرة فى اصطلاح ابن
الخطيب لا القلب نفسه لانه محل الفكر) فوق العقل لانه اذ يحملنا على
الاحسان والعطف يكون واثقا من نفسه وثوق الغريزة ويكشف لنا عن
حقائق جوهرية بنور الالهام !



الفصل السابع

درجات الاخلاق

يرى ابن الخطيب انه لم يبلغ احد من كمال الاعتدال ما بلغ من فاق الخلق فى محبة الله ورسوله الذى بعث ليتمم مكارم الاخلاق وتتفاضل درجات الناس بحسب تخلقهم بالاخلاق النبوية وبحسب تفاوتهم فى ذلك يكون بقاء ذواتهم من ذاته والبعد والقرب من حقيقته ولا شك ان للنبيوة أعلا هذه الدرجات ثم تليها درجة العارف الوارث المتخلق بخلق القرآن وخلق الرسول، ومعنى التخلق باخلاق القرآن ان تحيد النفس عن الشرور والظلمات وهى الاوصاف التى لا يتصف بها « مفيض الخيرات ومعطى الوجود » ومفيد الكمالات والاتصاف بأوصافه وذلك يحصل بصلاح الاخلاق وخلع مساوى الاوصاف وقطع مواد الشهوات والاقتصار من شواغل الجسم على ما دون الضرورة حتى تستضيء النفس وتذهب كدوراتها ثم يقصر الفكر على جلال الله حتى يحصل الاستغراق ويتصل نور النفس بالانوار القدسية ويتحد بها .

علاج الاخلاق

وكما ان الجسم يتصف بكيفيات من حر والتهاب وبرد وجوع واعتدال هو واسطة من طرفين فكذلك القلب والنفس تتصف عند ابن الخطيب - بكيفيات الخواطر والخواطر هى المؤثرات فى القلب تنبسه بعد الغفلة وتحرك الارادة وتبعث على العمل .

والامراض النفسانية كالادواء الجسمانية ممكن علاجها ويكون ذلك على يد طبيب اطلعه الله بنور العرفان على تشريح النشأة والاطوار والخطرات حتى صار عارفا بحقائق الادواء النفسانية والادوية المزيلة لها وربما عالج المريض نفسه «فان رأى الطبيب بعد اعمال قوة الحس وحكم الفراسة علة المريض ٠٠٠ قدر الدواء بالنسبة لطبع المريض وقوته من الاقوان والاذكار والاعمال مما يقاوم العلة ويضاد السبب حتى يرتفع عن القلب الوجداني الاعتدالي عرضه وعن السر والروح مرضه» فاذا حصل البرء واستقرت حالة الراحة اقتصر بالمريض على ما يحفظ الصحة ثم اذا حسم الاسباب القصوى وقطع المواد بحسب كل شخص من مراعاة كم وكيف رجع الى تحليل المستقر ومقابلة المزاج بضده فعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالكرم ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المتشابهات ويحرى القياس على هذا في سائر الامراض ويلح ابن الخطيب على الطبيب النفساني في لزوم التحرى وتقدير العلاج وعدم الشطط فى تكييف الدواء فان كانت علة النفس مثلاً هي الكبر حاول ردها الى حد وسط من التواضع لا يفضى الى الملق والخسة لان العلاج اذا جمع وخرج عن الحد الصناعى اخرج المزاج الى طرف آخر من المضادة فلتقع اذن على الوسائط المحافظة وهذا التوسط هو ما يسمى «بالاعتدال فى قوى النفس وادوصافها دون الميل الى منحرف اطرافها» كما يقول القاضى عياض (الشفاء ص ٧٤) وهذا هو ما يقوله كذلك ارسطو الذى يعرف الفضيلة بأنها تحاشى الاطراف ولزوم الوسط .

والتهذيب لا يمس القوى المنسوب اليها الاعتدال والانحراف لان هذه القوى اصول لا تدفعها الحيلة ولا تستأصلها للمعالجة اذ هي مركوزة فى الغريزة الاولى بل هي من اركان الذات ومتممات الصورة التى بها يقع الاعتدال والتوليد والمدافعة «والحيلة انما تتناول تهذيبها وقهرها الى ان يحصل منها المراد الذى يسهل الوصول الى الله» .

وخير ذريعة لتهذيب النفس هي العلم فى نظر ابن الخطيب الذى لا يختلف فى هذا عن سلفه ابن سينا الذى لم يكن يرى للحياة المادية والخلقية معنى بغير المعرفة حيث يقول :

هذب النفس بالعلوم لترقى وذر الكل فهى للكل بيت
انما النفس كالزجاجة والعد م سراج وحكمة الله زيت
فاذا اشرقت فانك حى واذا اظلمت فانك ميت

ويؤكد ابن الخطيب «ان سبيل مجاهدة الهوى ورياضة النفس على فك اناملها عن هذه الخدع تكون من وجوه مكتسبة ومن وجوه غير مكتسبة فمنها ان تكون النفس مستعدة لهذا الشأن ملائمة له بفطرتها ومنها ان يكون المرتاض يعمل على شيخ يلقى رمته بيده فيهبه قبل ان يسبقه اليها الشيطان » .

واذا بقيت النفس جامحة رغم ما تحاط به من اسباب العلاج فقد يكون ذلك راجعا لكونها لم تؤخذ عن معرفة ودراية وهذه الحالة هى التى اشار اليها ابن الخطيب عند ما تساءل قائلا :

ما لى أهدب نفسى فى مطالبها والنفس تأنف تهذيبى وتهذى بى؟

غاية الاخلاق

واذا صحت هذه العلوم التى هى عامل مهم فى التهذيب تقدست النفس ومازجها صفاء وعرفت الكمال وواجهت الخير المحض وتعشقت بالانوار الالهية واعتلقت بالعروة الوثقى لا تلوى على ما تعشقت من لذات الجسم فنالت السعادة التى معناها الحياة الدائمة ومشاهدة انوار حضرة الحق وهذه السعادة هى غاية كل تهذيب وسلوك ورياضة ومجاهدة .

هكذا يقول ابن الخطيب ! ولا يخفى ما للروح الصوفية من اثر فى هذا الكلام ! ولعلنا اذا اقتصرنا على «الروضة» وحدها فى البحث عن الغاية التى رسمها ابن الخطيب للاخلاق وجدناها محصورة فى السعادة الاخرية او فى نيل مقام الكشف والشهود فى الدنيا فهل معنى هذا ان الرجل لم يكن يرى للاخلاق غاية اجتماعية ؟ ان الروضة يغلب عليها الطابع الصوفى والصوفية لا ينتجعون غاية سوى الوصول الى الله والتنعيم بقربه وهذا امر لا يعنى المجتمع لانه شىء بين الرب والمربوب ! غير ان ابن الخطيب

يصف لنا فى الوصية التى خلفها لاولاده وفى «المقامة السياسية» التى كتبها على لسان احد منادى هارون الرشيد - طائفة من الفضائل الاجتماعية ويحثنا عليها محاولا تحبيبها للنفس ببيان اثرها الطيب فى حياة الفرد والجماعة .

فبينما نرى الغزالى يغلب الفضائل الفردية التى لا تهم الا حياة صاحبها الحاضرة والمقبلة كالقناعة والعزلة والزهد - نرى ابن الخطيب يهتم - فى غير الروضة - اهتماما خاصا بالخلق الذى تنتظم به اسلاك الاجتماع كالامانة وحسن العهد ومراعاة الحقوق والعدل والصدق فى المعاملة والقول وهذه الشيم المثلى لها غاية فى ذاتها وليس الجزاء عليها فى الدار الآخرة الا شيئا عارضا اضافيا اقتضته الحكمة والعدل .

وبقدر ما يهتم ابن الخطيب فى الروضة بالفضائل السلبية التى لا تبعث صاحبها على المغامرة فى مضار الحياة كالتوكل والزهد والتفويض - بقدر ما يعنى فى بقية كتبه بالآداب الايجابية والفضائل العملية كالشجاعة والاقدام والسعى والكد واذا كان الغزالى لم يعن - كما يقول زكى مبارك فى كتابه «الاخلاق عند الغزالى» - بشرح الفضائل الايجابية فما ذلك الا لان «الاحياء» - وفيه عصارة نظرياته الخلقية - كتاب تملكته الروح الصوفية التى تغلب جانب التخلية على جانب التحلية لا سيما فى المراحل الاولى التى يعنى بها الاحياء ولا يخفى ان الزهد والجوع والتوكل والخوف - وكلها فضائل سلبية - هى من دعائم الحياة الصوفية والصوفى ميال الى التواضع رغب فى الخمول الذى هو اصل كثير من السمات السلبية ومثار لها .

الفصل الثامن

الارادة

الارادة مناسبة تتقدم كل عمل قبل الشروع فيه وهى تنبعث عن
الخاطر الذى يؤثر فى القلب ويحرك الرغبة (وليسست الرغبة فى اصطلاح
ابن الخطيب الا الارادة) ثم تتكفل تلك الرغبة بتحريك العزم الذى يحرك
بدوره الثبات والثبات هو الذى يبعث الاعضاء على العمل وعلى الاستمرار
فى العمل فمبدأ الافعال اذن خواطر لا تلبث بعد التأثير على القلب الذى
هو مركز المعرفة ان تنقلب الى ارادة وهنا يلتقى ابن الخطيب مع الغزالى
الذى يرى ان الارادة هى ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة وهذا النوع من
الارادة هو الذى يقصده علماء الاخلاق ويسميه الغزالى بالنية والقصد
حيث يقول : «ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى وهو حالة
وصفة للقلب» («احياء» ج ٤ ص ٣٨١) .

والخواطر تنقسم الى ما يدعو الى الشر وهو ما اتصف به الطرفان
الخارجان عن طبيعة الاعتدال ويسمى وسواسا لان سببه شيطانى والى ما
ما يدعو الى الخير وهو يتصف به الوسط ويسمى سببه ملكيا . قال
الحسن البصرى : « انما هما همان يحوكان فى القلب هم خير وهم شر »
والارادة تتبع الخاطر فى وجهته نحو الخير او الشر .

اما النوع الاخر من الارادة فهو الذى يقصد به نهوض القلب الى
طلب الحق والذى عرفه القشيري بأنه مبدأ طريق السالكين وابن سينا

بانه اول درجات العارفين ويسمى السالك فى هذه الطريق بالمريد وهو فى نظر كل من ابن الخطيب وابن خلدون لا ارادة له لان من كانت له ارادة فليس بمريد :

يقول ابن الخطيب :

أعط ما استطعت كل ارادة والا فمعنى القوم عنك بعيد
تكون مريدا ثم منك ارادة اذا لم ترد شيئا فأنت مريد
وقد قال القشيري : سمعت الاستاذ ابا على يقول : «الارادة لوعة
فى الفؤاد ولدغة فى القلب وغرام فى الضمير وانزعاج فى الباطن ونيران
تتأجج فى القلوب » .

وهذا النوع من الارادة يعبر عنه ابن الخطيب احيانا بالمحبة ويتساءل
هل يتأخر عن المعرفة ام يتقدمها فى كلام سننرج عليه فى محله .
وبفضل هذه الارادة طوى العارفون المقامات والاحوال !

وابن الخطيب يحشر النوعين من الارادة فيما يسميه بالاصول
(اصول الرياضة) غير انه يعبر عن النوع الاول بالقصد ويعرفه بالازماع
بينما يعرف الثانى بالتهوض لطلب الحق اما العزم الذى هو بين هذين
فالمراد به تحقيق القصد .

الجبر والاختيار

اختلف الفلاسفة وعلماء الاخلاق كما اختلف غيرهم من علماء الدين
فى حظ الارادة البشرية من الحرية فأطلق قوم لهذه الارادة الاختيار وقيدها
آخرون بالجبر ووقفت طائفة ثالثة موقفا وسطا بين هذا وذاك .
فماذا كان موقف ابن الخطيب ؟

انه يرى ان الكسب فعل يخلقه الله فى العبد كما يخلق القدرة
والارادة والعلم فيضاف الفعل الى الله خلقا لانه خالقه والى العبد كسبا
لانه محله الذى قام به . واذا كانت العرب تقول : «حركت القضييب فتحرك»
فتجعل الحركة بين فاعلين : حركة للمتحرك وفعلا للمحرك فذلك اقرب

- كما يقول ابن الخطيب فى الروضة - لمكان القصد والعلم والقدرة ثم الطاعة والمعصية للعبد من حيث الكسب ولا طاعة ولا معصية من حيث الخلق والخلق لا يصح ان يضاف الى العبد لانه ايجاد من عدم والفعل موجود بالقدرة القديمة لعموم تعلقها بالقدرة الحادثة «فالحادثة تتعلق ولا تؤثر وهى تصلح للتأثير لولا المانع وهى بالمنع احق بالقدرة القديمة عند التوارد» .

وابن الخطيب لا يختلف عن سلفه الغزالى الذى يقول :
«بل الله تعالى خلق القدرة والمقدرة جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا فاما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب واما الحركة فخلق للرب ووصف للعبد وكسب له فانها خلقت مقدورة بقدرة هى كسب وصفة»
(«احياء» ج ١ ص ١٢٠) .

ويستدل ابن الخطيب على هذه الوجهة التى يصفها بالسنية بالادلة السمعية كقوله تعالى: «انا كل شىء خلقناه بقدر» «الله خلقكم وما تعملون» وقد اثبت الله الكسب والفعل للعباد لانه يخاطبهم فى عدة آيات بـ «تعملون» - «تعقلون» - «تكسبون» - «تصنعون» .

ويستنكر مذهب الجبرية الذين يزعمون ان العبد فى قبضة القدرة كالميت بين يدي الغاسل لا علم له ولا اختيار ولا قدرة لانهم جحدوا - فى نظره - العقل والنقل فجحدوهم للعقل والضرورة ظاهر لان الانسان يفرق بنفسه بطريق الوجدان بين حركة اختيار واضطرار ويدرك ان حركة المختار هى غير حركة المرتعش ومن انكر هذا الادراك انكر ضرورة الوجدان .

وقد اقام الغزالى نفس الدليل عند ما تساءل مستنكرا: «كيف تكون (الحركة) جبرا محضا وهو (اى العبد) بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ ! » (نفس المصدر والصفحة) .

ولعل ابن الخطيب تأثر فى وجهته بالاحياء فاذا كان قد استمد فعلا فقد يكون اغفاله لايراد ما استدل به الغزالى من عدم احاطة العبد بتفاصيل ما لحركاته من اجزاء - على ان الحركة ليست اختيارا محضا - مقصودا

حيث لم يستسغ تعليق الاختيار على اثبات معرفة الاجزاء والاعداد عالما ان «العمل الاختياري - على حد تعبير زكي مبارك - قد تكون له لوازم ضرورية لا يتنبه لها المرء ولا تكون غفلته قاذحة في اختياره» وهذا يدلنا - ان صح - على ان ابن الخطيب وان كان كثيرا ما ينقل حرفيا عن بعض سلفه - الا انه ناقل محقق كغيره من الفلاسفة او المتفلسفين الذين تصرفوا في تراث السلف وصبغوه كلا او جزءا بصيغة تتفق ووجهتهم الخاصة !

وقد انتقد ابن الخطيب على الجبرية اخذهم بآيات الخلق واهمالهم لآيات الكسب وما اثبت الله من الصفات للعبد مساوين مثلا بين شرب الرجل الخمر وايجادها مع انهما في حكم الشرع مختلفان وفيما يرجع الى الحس والوجدان متباينان !

وكما يحمل ابن الخطيب على المتطرفين من الجبرية كذلك ينتقد مذهب القدرية الذين يزعمون ان الامر أنف اى مستأنف لم يسبق به علم ولا كتاب وانما يعمل عند كونه ولا خبر له قبل ذلك وان العبد يستقل بخلق افعاله ولكن القدرية يهملون بهذا الادعاء صريح الآية «الله خلقكم وما تعملون» كما ينقضون ما يدعمه الحس والوجدان من سبقية العلم من حيث المحاذاة والموافقة قبل الوقوع .

وعلى هذا فابن الخطيب كالفرازي من الصنف الثالث لا يقول بالاختيار المحض ولا بالجبر المطلق ولكن يتوسط بين الطرفين المنحرفين فينسب للعبد نوعا من الاختيار وينسب اليه قدرة حادثة صالحة للتأثير ويعلق به بحكم التبعية نوعا من المسؤولية في غير الحركات الاضطرارية وهذا الموقف الوسط هو موقف الاشاعرة الذين يرون ان الانسان مختار في قالب مجبور وانه اشبه براكب سفينة تمخر عباب المحيط فهو حر مختار يسير كيف شاء واين شاء داخل هذه السفينة ولكنه مجبور مسير هو وسفينته بعوامل خارجية وكذلك الانسان في سفينة الوجود والاشاعرة قريبون في هذا من القائلين بالنظرية الاتفاقية او نظرية الظروف والمناسبات (Occasionnalisme) ومعناها ان كل فعل انما هو في الحقيقة لله ولكنه يظهر على نحو ما يظهر اذا تحققت ظروف خاصة انسانية او غير انسانية حتى لكانما يخيل للانسان ان الظروف هي التي اوجدته ومن انصار النظرية الفيلسوف الفرنسي مالبرانش (Mallebranche).

الفصل التاسع

الوسائل والغايات

إذا قرأت «المقامة السياسية» لابن الخطيب خرجت بفكرة يتحاشى لسان الدين التصريح بها ولكنه يطبقها تطبيقاً صارماً وهذه الفكرة هي تلك التى تتلخص فى المثل المشهور «الغاية تبرر الوسيلة» فالتجسس على شئون الناس رذيلة ولكنه يشرف إذا اريد به وجه شريف كتجسس الملك على وزرائه وولاية مملكته لمعرفة كيفية معاملتهم للناس ومقدار ائتمارهم بأمره وطاعتهم لقانون الدولة. واستعمال القوة وسيلة غير شريفة ولكنها تنبى إذا صرفت لغاية شريفة كإقرار الأمن فى البلاد وكالضرب على أيدي الثائرين ! والغلظة من أسوأ الذرائع ولكنها تجمل إذا استعملت مثلاً فى تربية البنين لأن الاشفاق والحنان ادعى للاضرار بهم من غلظة الجنان ! وابن الخطيب يوصى الأمراء بأن يحذروا على خدمتهم بحد السيف مخالفتهم ولو فى صالحهم وهذه الوسائل سيئة فى ذاتها ولكنها تغتفر إذا راعينا أن إطلاق اليد مثلاً للخدم قد يفسد شئون المملكة ويؤدى الى الاضرار بحقوق الرعية .

والتهافت على المال رذيلة ولكن تهافت الملك على جمعه من وجوهه المشروعة فضيلة لأن المال الموفور المصون يمنع الحصون ولأن من قل ماله من الأمراء قصر آماله وقصور الأمل بالنسبة للامم معناه الوقوف والوقوف انحطاط وتقهقر .

فلم يبق اذن شك فى ان ابن الخطيب يجعل شرف الوسيلة
وخساستها منوطين بشرف الغاية وخساستها •

ولكن هذه الامثلة التى اوردها غير كلاسيكية بمعنى انها لا تعرض
كأنموذج فى دعم مثل هذه القضايا وكم كان بودنا ان نعثر عند ابن الخطيب
على ذلك المثل المألوف وهو اباحة الكذب لاغراض شريفة كما عند الغزالي
الذى يقول :

«الكلام وسيلة الى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه
بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام ان امكن التوصل اليه بالصدق
وان امكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان
تحصيل ذلك القصد مباحا وواجب ان كان المقصود واجبا وكما ان عصمة
دم المسلم واجبة فمهما كان فى الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من
ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم مقصود الحرب او صلاح ذات البين
او استمالة قلب المجنى عليه الا بكذب فالكذب مباح» (احياء ج ٣ ص ١٣٩) •
وقد تشدد الفيلسوف كانط فى معارضة هذا المنهج لانه لا يرى
لواجب الصدق ثنيا تبرر خرمه فالكذب فى نظره افحش الرذائل لان فى
الكذب اسفا بال عقل الذى لا يمكنه ان يهدف لغير البحث عن الحقيقة
واذا عتها - ومسا بثقة الالباء فالتزام الصدق فرض مطلق مستديم ولو ادى
الكذب الى انقاذ حياة فرد من الافراد •

وقد احدثت مشادة جدلية بين كانط وبينجمن كونستان (B.Contant)
الذى استنكر تشدد زميله واكد فى غير موازنة بأن الصدق لا يجب التزامه
الا فى حق من يستحقه وان من حقنا ان نخاتل بالكذب مجرما سفكا يبحث
عن رجل ليودى بحياته ولكن كانط لم يتردد فى التعقيب مؤكدا ان الصدق
فوق هذا الحق وان هنالك فرضا مطلقا ازاء النفس وازاء الانسانية وهو
صرف الفكر دائما نحو الحق واتخاذ الصراحة مطية لتبليغه والاعراب عنه !

الفصل العاشر

المعرفة والحب أساس الفضيلة

لا يمكننا ان نتبين الفضائل كما يراها ابن الخطيب دون ان نضطر الى مزجها وتخليها ودعمها بعوامل الحب وآثار الحب لان الحب عند لسان الدين هو اصل الوجود وباب لجميع المقامات الصوفية والاحوال النوقية وهذه المقامات تندرج فيه وتتخلله فلا يمكن درسها منفصلة عنه مجردة منه وما بالك بعاطفة ينبعث عنها - تبعاً لانحرافها لجهة النقصان او اعتدالها او ميلها لجهة الزيادة والافراط - جميع الاخلاق المذمومة وكامل السمائل المحموده ! أليس الخير هو ما يلائم طبع النفس ويظفر بحبها ؟ والشر هو ما يناقر هذا الطبع ويبوء بكراهية النفس وبغضها ؟ الحقيقة ان الحب عاطفة لعبت الدور الاول فى نظريات ابن الخطيب الاخلاقية بحيث لا يتأتى لمن اراد درس هذه النظريات ان يجردها عن فكرة الحب وان يحاول استشفاف كنهها والكشف بغير واسطته عن حقيقة الفضائل وخصائصها ومميزاتها .

ان جميع الفضائل مطلوبة من اجل الحب وهذا الحب مطلوب لذاته وهى اما وسيلة الى المحبة او ثمرة من ثمراتها فالتوبة هى من اسباب الحب لان الوصول الى المحبوب متعذر بغير تطهير السر عما سواه وكذلك الخوف الذى يسوق الراكب الى مناخ التوبة اما الزهد فهو حقيقة الخروج عما سوى المحبوب (والمحبة فى هذه الحالة متحجبة جداً) وما قلناه فى تلك الفضائل (او قل المقامات اذا اردت ان تبقى داخل النطاق الصوفى الضيق الذى يحصر فيه ابن الخطيب الوجهة الخلقية) نقوله كذلك فى الصبر والشكر والتوكل والرضى .

أليس الصبر هو حبس النفس عن البلوى وعقل اللسان عن الشكوى
ولجام الشوق الذى يلزم عند الطموح ويكسر سورة الجموح ؟ أليس هو
- فى حق الخواص - التلذذ ببلاء المحبوب واستعذاب العذاب عند استغراق
اسرار القلوب فى هوى المطلوب لمشاهدة المسبب فى الاسباب ورؤية
المعذب فى العذاب؟ انه مظهر للمحبة عال وظاهرة مختصة بها من غير زوال
والشكر! ؟ أليس هو السرور بالنعم وحسن استعمالها ؟ أليس حظ
الخواص - وهم مثل خلقية حية ! - من هذا المقام هو رؤية المنعم
والاعتراف بالعجز عن حق المحبوب مع عدم الاشتغال عن الواهب
بالموهوب ؟ وهنا يتأكد وجود المحبة لان الحب والشكر كلاهما ثمرة
للاحسان ولان هذا المقام قدر مشترك بينهما، واما التوكل الذى هو القاء
رسمة المحب بيد المحبوب واعلاق نعمته به فيكفى شاهدا على ارتباطه
بالمحبة ان الله يحب المتوكلين •

والرضى كذلك ثمرة من ثمرات المحبة ومقام كريم من مقاماتها اذ
الرضى بجميع ما يفعل المحبوب قدم فى الحب راسخة وغرة من غرر
القوم شاذخة » •

وما بالناس نذهب فى هذا العرض الطويل والسياق المتسلسل وقد
كان علينا ان نكتفى - فى معرض التمثيل - بالتوحيد الذى هو اساس هذه
المقامات ؟ أليس التوحيد هو اخص بالمحبة وألزم لها كما انها الزم له ؟
اذا ارتبت فى صدق هذا التلازم فخيرنى هل يتعين المحبوب بغير توحيد
وهل يتوحد الواحد دون ان يحتكر من قلب محبه سويده ؟ اللهم لا !
وليست الارادة والشوق الا ثمرتين ايضا لهذه المحبة !

ولكن هنالك عامل اساسى وباعث مهم لهذا الحب وهو المعرفة
« لان الانسان لا يحب محبوبا الا بعد سبق العلم بكمال ذاته » فاذا احبه
اشتاق اليه وقاسى مرائر الصبر فى طرق بابه وتجاذب نفسه الرجاء
والخوف من الحجاب وفوات الحظ فاذا تمكن الحب اثمر الرضى بمراد
المحبوب والزهد فيما سواه وتقريده بالكمال والجمال والتفويض اليه
والغيرة على حماه •

فالحب شجرة لها اغصان وافنان واوراق وثمار وهى الاصل الذى
تتفرع عنه الفضائل •

والاخلاق عبارة عن تعهد هذه الشجرة بالرى الكافى من عيون العلم
وشق الارض التى هى النفس بمحراث التكييف وتهيتها لما يراد منها
من ايداع بذر وغرس نواة واقتلاع الاصول الخبيثة وامهات الشكوك
كاعتقاد قدم العالم وعدم علم الله الجزئيات والاتحاد والحلول والتناسخ
والاباحة ثم ازالة الاعشاب التى تضر الشجرة المغترسة بالطبع وتعاديها
بالجوهر وهى الخلق الذميمة •

وقد ذكر ابن الخطيب انواعا ثلاثة من العشب التى تجب تخليه
الارض عنها :

(١) العشب البهيمية الراجعة الى القوة الشهوانية كالوقاحة والخبث
والتبذير والتقتير والشبق والهتك والزنا وما فى معناه والمجانة والعبث والحرص
والجشع والملق والحسد والشماتة ! فاذا اقتلع الانسان من نفسه وهى
ارض رياضته هذه الجذور المؤذية بالة العزم غرس مكانها عشباً شريفة
وفضائل مثلى كالعفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط
وحسن الهيئة والظرف والحيا والمساعدة وامثال ذلك •

(٢) ما يسميه ابن الخطيب بالعشب السبعية الراجعة الى بذر القوة
الغضبية كالتهور والفرح والصف والاشتشاطة والكبر والعجب والاستهزاء
والاستخفاف واحتقار الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم •

وعلى مقتلع هذا العشب ان يغرس مكانها الشجاعة والمكرم والنجدة
وضبط النفس والصبر والاحتمال والعفو والثبات والشهامة والوقار والرعى •

(٣) العشب الشيطانية الراجعة الى بذر مشترك من القوتين مثل
عشب المكر والخديعة والحيلة والغدر والنكث والدهاء والتلبيس والغش
والكذب •

وبعد اجتثاث هذه الجذور يتعين غرس «الصفات الربانية» محلها
كالعلم والحكمة والمعرفة والاحاطة بحقائق الاشياء •

ويذهب ابن الخطيب ابعد من ذلك فيحلل حتى بعض الادواء التى تطرأ على الارض (اى النفس والقلب) من جهة الطبع والمزاج : فكما ان الارض تنصف بكيفيات من حر والتهاب وبرد وجوع واعتدال فكذلك الارض تتكيف بكيفيات الخواطر المؤثرة فى القلب المحركة للارادة.

مراحل تهذيب النفس

فالتهديب يقع اذن فى ثلاث مراحل :

(١) **المعرفة** التى يكنى عنها ابن الخطيب بالرى والتى هى اساس كل نزوع الى الكمال والتى تسبق حتى على الحب ينبوع الفضيلة ولكن المعرفة التى لا يعيننا اكانت جبيلة أم مكتسبة انما تعين على تبين الفضيلة من الرذيلة والنافع من الضار فهى لا تكفى وحدها اساسا للخير فلا بد اذن من ارادة تثير الشوق الى الكمال.

فاذا كان سقراط يركز الفضيلة على العلم وحده ويعتقد ان الانسان لا يمكنه ان يعرف الخير دون ان يفعله ولا ان يدرك الشر دون ان يتوقاه فان غيره من علماء الاخلاق المحدثين يرى ضرورة انضمام عامل آخر الى المعرفة وهذا العامل هو الارادة التى تحرك العزم وتبعث على العمل فابن الخطيب محق فى عدم الاكتفاء بالمعرفة وحدها كباعث على الفضيلة والكمال وهو فى هذا اقرب لفلاسفة القرون الحديثة منه الى حكماء يونان.

ولعل الغزالى - رغم عدائه انصريح لهؤلاء الحكماء - اقرب فى هذا الاتجاه اليهم منه الى كثير من الفلاسفة الذين عاصروه او تقدموه فهو لا يشترط مع العلم شيئاً سوى اليقين واليقين نوع من العلم الجازم وليس غيره ولكن الدكتور زكى مبارك يرى ان التقييد باليقين يساوى ما اشترط من ارادة وحب «لان المرء متى يقن نفع شئ أحبه او كاد يحبه» ونحن نقول للدكتور: لقد غفلت عن مصدر مهم من مصادر الغزالى وهو الحكيم الترمذى الذى اكد فى الاصل ٢٣٩ من كتابه «نوادر الاصول» ان اصل الفضائل (ومثل لها بالحياة - اى الحيوية - والذكاء واليقظة والانقياد

والسرعة والوقار والحلم) هو «اليقين والحب والحياة» وان من استقرت «المعرفة» فى قلبه وهده الله لنوره ادرك الفضيلة وقد اراد الترمذى باليقين كالفزالى المعرفة الجازمة ولكنه لم يكفه اقتضاء اليقين عن لزوم الارادة والحب لان اليقين فى نظر الرجلين شىء والحب شىء آخر ولعل الفزالى انما اغفل الحب عمدا لانه يرى كسقراط ان المعرفة كافية وحدها للبعث على الفضيلة.

٢ (**العمل** وهو تهيئة النفس باستئصال ما خبث من الميول والنزعات والمعتقدات .

٣ (**غرس الفضائل** وتكييف النفس بأمثل الهيئات .

• ميقات العمل

ويبرهن ابن الخطيب عن حكمة نفسانية عند ما يطلب من مريد الفضيلة ان ينتجع وقت سكون النفس وهدهء الاعصاب لتحقيق غرس مثمر وهذا الوقت فى نظره هو الهزيع الاخير من الليل ثم يأتى بالدليل لدعم نظريته مؤكدا ان قوى الانسان الحالية وما تباطأ فيها من نزوع غضبى وميل شهوانى تكون اول الليل مليئة بخيالات اليوم اقرب عهد بانتقاش متأدياتها فى الحس المشترك فاذا انغمرت القوى بالنوم وانضمت الارواح الى مركزها عند غشيان الليل عادت نشيطة صافية فكان ذلك الوقت لباب اوقاتها وابعدها من الاكدار وفى هذا الوقت تكون الارواح الطبيعية والحيوانية وهى مراكب الارواح الالهية قد اخذت قواها لتمام الهضم بسبب النوم ولما يهب حينذاك من النواسم اللطيفة التى تنعش القلوب ببردها ولا شك ان النفس التى لم تمت فى منامها تعود عودا جديدا اضافيا وتكون ادراكاتها عند ذلك غير مشوبة .

ولعل هذا هو بعض سر تخصيص الصوفية العمل فى الثلث الاخير من الليل !

اختيار الدليل فى الرياضة

يرى ابن الخطيب انه لا مناص لمريد الفضيلة من دليل ينير له الليل ويذلل له العقبات .

فعلاوة على التدرج بالادعية والاذكار يجب على المريد ان ينتقى اعوانه وخلانه من بين «العقلاء حسان الخلق البعيدين عن الفسق والابتداع والحرص على الدنيا» .

والمرتاح محتاج فى نظر ابن الخطيب الى شيخ يلقى رتمه بيده فيهبذه «قبل ان تسبقه اليها يد الشيطان» لان من لم يكن له شيخ - فى نظر ابن الخطيب - كان الشيطان شيخه» ولكن هذا الاحتياج يكون بحسب علم المراتض وجهله .

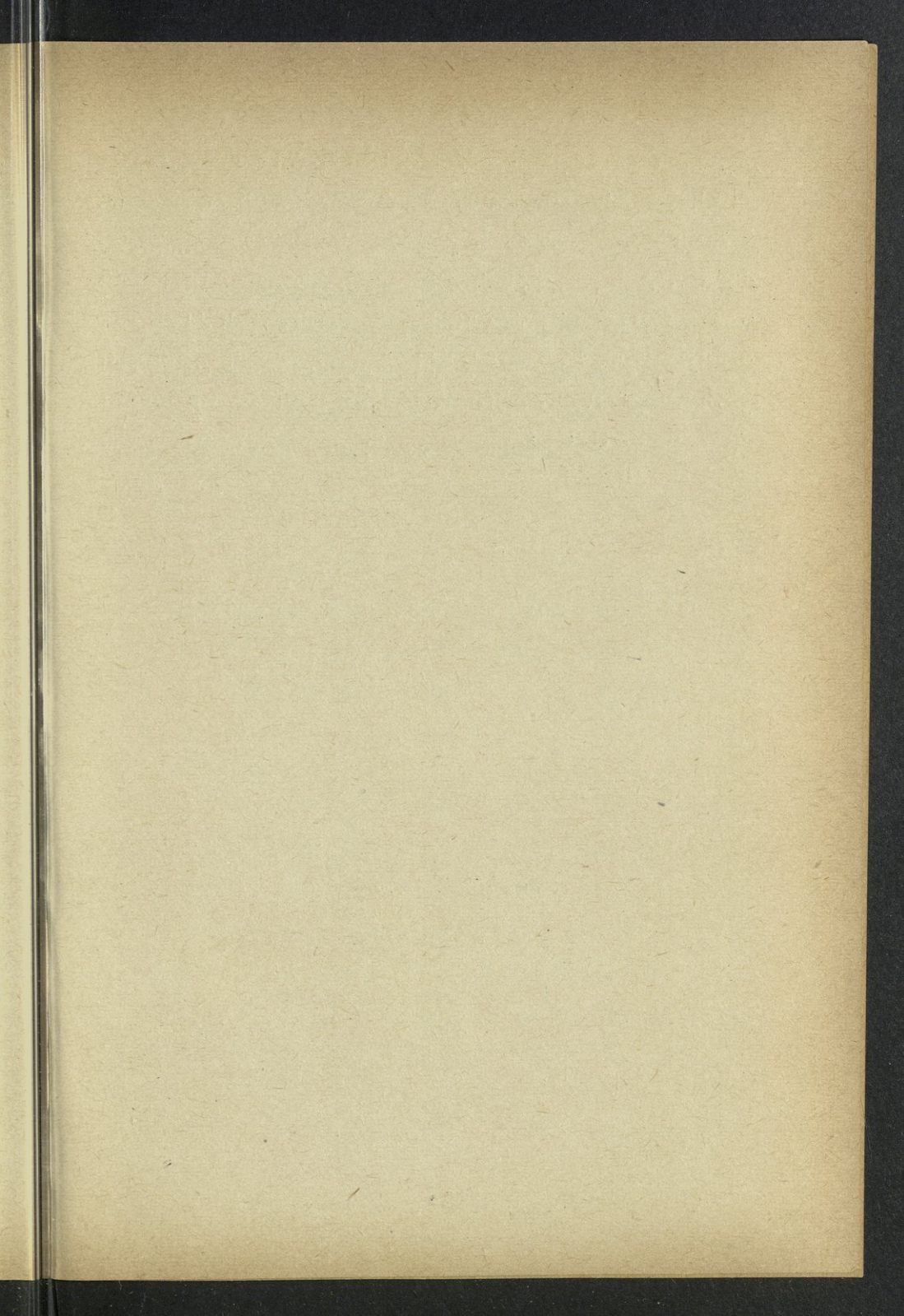
ويشترط فى الدليل العلم والتحقيق والسلوك :
اما العلم فلضرورة معرفة قواطع الطريق كالحلول والاتحاد ومعرفة الانوار من انوارات الشيطانية .

واما التحقيق فلانه لا يصح الاقتداء الا بمن عاين بنفسه سبب النجاة! والش رط الثالث هو السلوك لان المجذوب لا يقتدى به والسالك هو الذى يصلح للتربية ويستطيع ان يشق مع المتبع بعض مفاوز طريق الاكتساب .

وما كان المرشد ضروريا الا لكونه يمكن المريد من مفاتيح معارف الطريق ومعتصماته كالخلوة والصمت والجوع والسهرة : «فالجوع يرق به دم السويداء وينفسح مجال الروح وتومض من ثناياه بروق المكشفة والسهرة يشيد الروح ويحد الفكر ويمكن من غنيمة الفراغ والخلوة تحصن من الشواغل وفعل الحواس وتحفظ من العوائد» .

ولا بأس من الاستعانة بالالهام المناسبة الداعية الى الحنين الجالبة للوجد المرققة للشعور . . فى تهذيب النفس فاللحن يهيج القلب ويمحضه ويحرك داء المحبة .

ومن محركات العزيمة ايضا الوعظ الذى يرى ابن الخطيب ان الغرض منه هو «وجهة النفس من جو السرور واللعب بالزور الى جو الحزن والارتماض» من هنالك تاخذ بخطامها ايدى الاضطراب فتحصل اليقظة ثم التوبة ومنها يستقيم الطريق فى منازل السائرين الى الحق وعند ذلك يطوى بساط الزجر والوعظ بمد بساط الاعتبار والحب» وقد شبه لسان الدين النفس بالثكلى من حيث طبيعتها لما فارقت من عنصر نور الله والعوالم النورانية «التي هي الشعار والدثار والامل والدار والحياة والجمال والوجود والكمال» وان كانت لا تشعر بالسبب ولا تستحضر العلة .



الفصل الحادى عشر

حب الوطن

حب الوطن عاطفة شريفة تغلغلت فى احشاء الناس وفضيلة تركزت فى طباعهم وقد ناب ابن الخطيب منها علاوة على القدر المشترك بين البشرية حظ الموتور الذى زحزح عن مسقط رأسه ومسرح صباه ومعهد أنسه ومآلوف منتداه وأبعد قهرا عن مربع الآباء والاجداد ومنابت الخلان والانداد ولعل هذا الحظ الزائد ليس له من محالى الزيادة الا سنوح فرصة الاستعلان والا فقد كان كميناً فى نضاعيف الجنان .

قال ابن الخطيب فى مقامة يخاطب فيها الولي الصالح ابا العباس السبتي :

«مزق شملى وفرق بينى وبين اهلى وتعدى على وصرفت وجوه المكاييد الى حتى اخرجت من وطنى وبلدى ومالى وولدى ومحل جهادى وحقى الذى صار لى طوعا عن آبائى وأجدادى . . . وانا قرعت باب الله بتأميلك فالتمس لى قبوله بقبولك وردنى الى وطنى عن افضل حال» .

ولكن كيف كان ابن الخطيب ينظر الى هذا الحب ؟ هل هو فى نظره نوع من حب الذات انصرف الى مراتع ترعرعت فيها هذه الذات منذ نعومة الاظفار ؟ ام هو نوع من المناسبة تناسقت جناساتها الروحية وانتظمت اسلاكها منذ كان قلب الطقولة البريئة لا يزال على نقشه الفطرى ؟ قد يكون هذان العنصران اسهما معا فى تغذية هذه العاطفة وقد يكون لاحد العاملين انافة على صاحبه فى بعث هذه الروح فيكون لعامل الاغتراب

«يد فى تقويتها غير ان الذى يهمنى هو ان ابن الخطيب كان مشبعا بهذه الروح التى وصمه بالتجرد عنها المستشرق (بونس بواك) بدعوى هجره المزعوم لوطنه وايتاره الموهوم لمملكة بنى مرين على ربوع الاندلس الرطيب ولن اكلف نفسى عناء تفنيد هذه الدعوى ما دام (دو أليكو) قد تكفل بهذا الامر حيث كتب فى مقال له «بالوثائق البربرية» (القسم الاول المجلد الثانى سنة ١٩١٧) ما معناه : «وانا اريد هنا ان اجرد ابن الخطيب مما وصمه به بونس بواك (Pons Buigues) من انه سعى فى خراب وطنه» ثم ذكر ان من الغلط استعمال لفظة وطن فى حق المسلمين واطلاقها على المدلول الجارى عند الاوربيين اذ ديار الاسلام كلها للمسلمين وطن فلا ينبغى والحالة هذه اعتبار تنقل ابن الخطيب من خدمة مملكة اسلامية الى مملكة اسلامية اخرى جناية على الوطن ثم فند ما رمى به ابن الخطيب من نكران الجميل مستندا الى احداث ووقائع تشهد بما طبع عليه لسان الدين من جميل الاعتراف وطيب الامتنان وحسن العهد.

على ان ابن الخطيب لم يهجر وطنه طيعا مختارا وانما اكرهه على ذلك توارد الدسائس وتوالى الوشائيات وكيف يتهم رجل بنكران حق الوطن وشعره ونثره يفيضان بالحنين الصادق الى هذا الوطن !
أما قرأت قوله :

بلاد عهدنا فى قراراتها الصبا يقل لذاك العهد ان يسالف العهد
وقوله :

وطن قد قضيت فيه شبابا لم تدنس منها البرود مذمة
بنت عنه والنفس من اجل من قد خلفته خلاله مفتمة
ولعل ذلك الهجران القاهر هو الذى ضاعف فى نفس ابن الخطيب عاطفة النزوع الى الزهد والخلة بعد اليأس من احلام الحياة فقد قال بعد البيتين الاخيرين :

كان حلما فويح من امس الدهر سر واعماه جهله وأصمه
تأمل العيش بعد ما خلق الجسد ثم وبنائه عسير المreme

وكيفما كان الامر فان تغرب ابن الخطيب لم يكن عن طيب خاطر
وقد كان له اثر قوى فى حياته الخلقية ولو لم يكن من نتائجه الا تمحيض
وجهة الرجل نحو الحياة الصوفية لكفى !

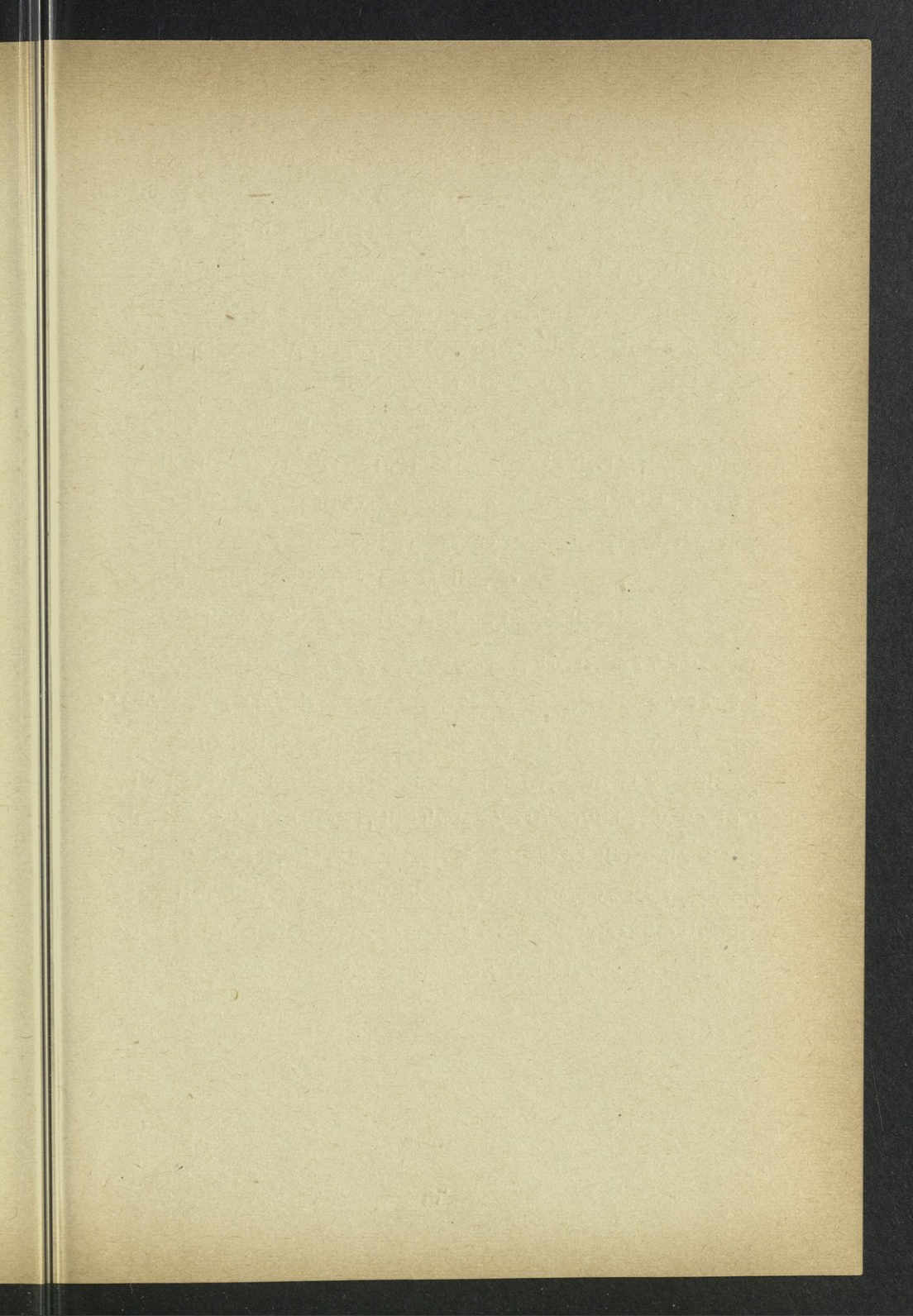
ولعل اصل هذه التهمة هى الرسالة التى وجهها ابن خاتمة لابن
الخطيب وهى مثبتة فى ازهار الرياض (ج ١ ص ٢٦٥) حيث انبه على
هجرانه الاندلس بقوله : «متى توازن الاندلس بالمغرب او تعوض عنها
الا بمكة او يشرب ؟ ما تحت اديمها اشلاء اولياء وعباد وما فوقه مرابط جهاد
ومعاهد الوية فى سبيل الله ومضارب اوتاد » .

ولكن المتهمين اهملوا رد ابن الخطيب على هذه المواجهة حيث قال :
«واما تفضيله هذا الوطن (اي الاندلس) على غيره ليمن طيره وعموم
خيره وبركة جهاده وعمران رياه ووهاده باشلاء عباداه وزهاداه حتى لا
يفضله الا احد الحرمين فحق برىء من المين» .

ولابن الخطيب فى توديع ابنه لما انصرف عنه الى فاس :

بان يوم الخميس قرة عينى حسبى الله اى موقف بين ؟
ووطن نازح وشمل شتيت كيف يبقى معذب بين دين ؟ !

غير اننا نجد الى جانب هذا التعلق نوع ازمة نفسانية كانت تعتري
ابن الخطيب من جراء تألب اعدائه عليه فى الاندلس فيظلم عليه جو العيش
وتدلهم فى عينيه الحياة ويتوق الى الفرار من مغانى الاندلس لا بغضا ولا
كراهية ولا مللا ولكن عزوفا عن وسوسة بعض اهلها الذين كان شغلهم
الشاغل ايفار القلوب على لسان الدين وقد ورد فى رسالة وجهها ابن
الخطيب لاحد وزراء ملوك بنى مرين - عبارة تشعر بهذه الازمة : «...فانى كما
يعلم الوزير ... منقطع الاسباب مستوحش من الجهة الاندلسية» .



الفصل الثانى عشر

القوى النفسية والحب

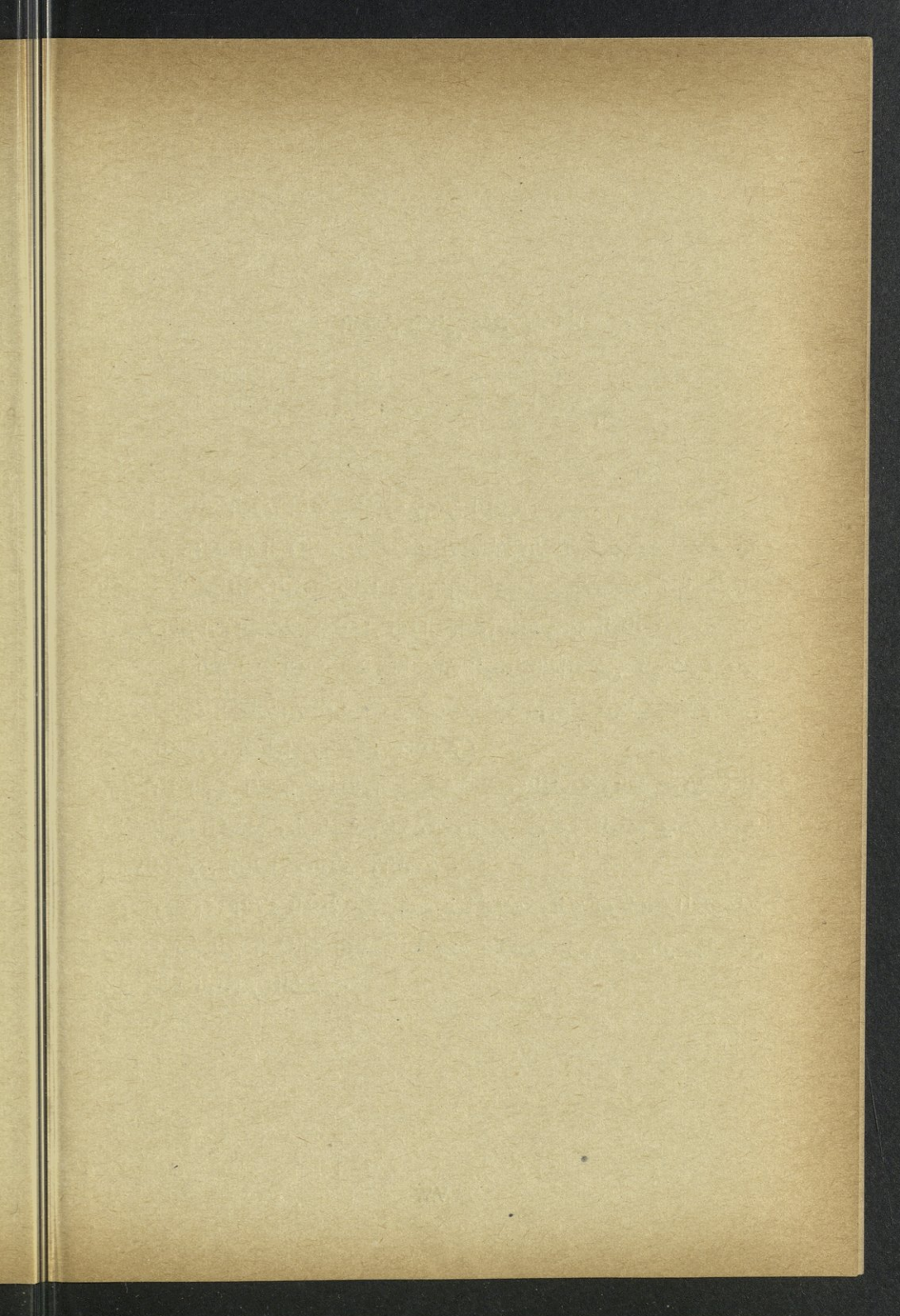
اختصت القوى النفسية بنوعين من الحب :

حب الكمال الروحانى : يحب الانسان من اتصف بأوصاف هذا الكمال كالمشائخ والعلماء والهداة والانبياء او ما يستفاد منه كمال البقاء كمحبة الامراء والمحسنين لاجل النوال الذى يحسن به البقاء .

حب الكمال لذاته : يحب الانسان الجمال لذاته فى كل شىء على اختلاف حال الكمال من الصور : فهو يحب معانى الشعر ليستخدم فى استمراره قوى التخيل والتفكير والتذكر .

اما القوة الغضبية فقد اختصت بحب الغلبة والقهر والاستيلاء والتشفى والانتقام والرياسة والظهور والظفر ومحبة المدح واستخدمت فى ذلك قوى التخيل والتفكير والتوهم .

وتفردت القوة الشهوانية بحب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وكل ذريعة الى السعادة الجسمانية وقد ركبت النفس فى الوصول الى ذلك مطية الحواس الخمس .



الفصل الثالث عشر

المناسبة في الاخلاق

لا ينحصر النزوع الفطرى فى محبة النوال والمواهب الروحانية والجسمانية والجمال المجرد كالصنائع المنتظمة ومحاسن المعاني او غير المجرد كالصور الجميلة بل هنالك نوع آخر من المحبة هو محبة المناسبة وهى محبة تنبثق لوقوع توافق وتناسب بين المحب والمحبوب بها حصل الائتلاف وهى نسبة موجودة فى الاحكام الخيالية كحنين الاجسام بعضها الى بعض وفى الارواح كمناسبة ارباب الصنائع والعلوم وارباب الاخلاق المتشابهة فالعالم يناسب العالم والمحب المحب لارتفاع الضدية التى توجب النفرة . وهنالك نسبة ثالثة بين العقول كالاتفاق فى المدارك ولا يخفى ما لهذه المناسبات من اثر فى تكييف الاخلاق !

عناصر الكمال

يتبين لمن تتبع اشعار ابن الخطيب الحكيمية من جهة وكتابات الصوفية من جهة اخرى ان الرجل كان يرى وجود درجات من الكمال ان لم نقل انواعا فهو تارة يحدثنا عن كمالات تشم منها رائحة المادية وتفرض لها حدود اذا تعدتها انقلبت الى نقصان ويصف تارة اخرى كمالات اذا تحققت انتظم العدل والطمأنينة فى الوجود وهذا الكمال هو الكمال الخلقى وهنالك كمال ثالث هو الكمال الصوفى متناهى الدرجات متشعب المجالى والنفحات .

اما النوع الاول من الكمال فهو ما يمكن ان نسميه بالكمال الاجتماعى وهو الذى يحذر ابن الخطيب مريد الفضيلة من الايغال فى استكسابه حيث يقول : «وليقف فى التماس اسباب الجلال وسمو القدر ورفعة الحال دون الكمال فما بعد الكمال غير النقضان والزعازع تسالم اللدن اللطيف من الاغصان » *

وقال :

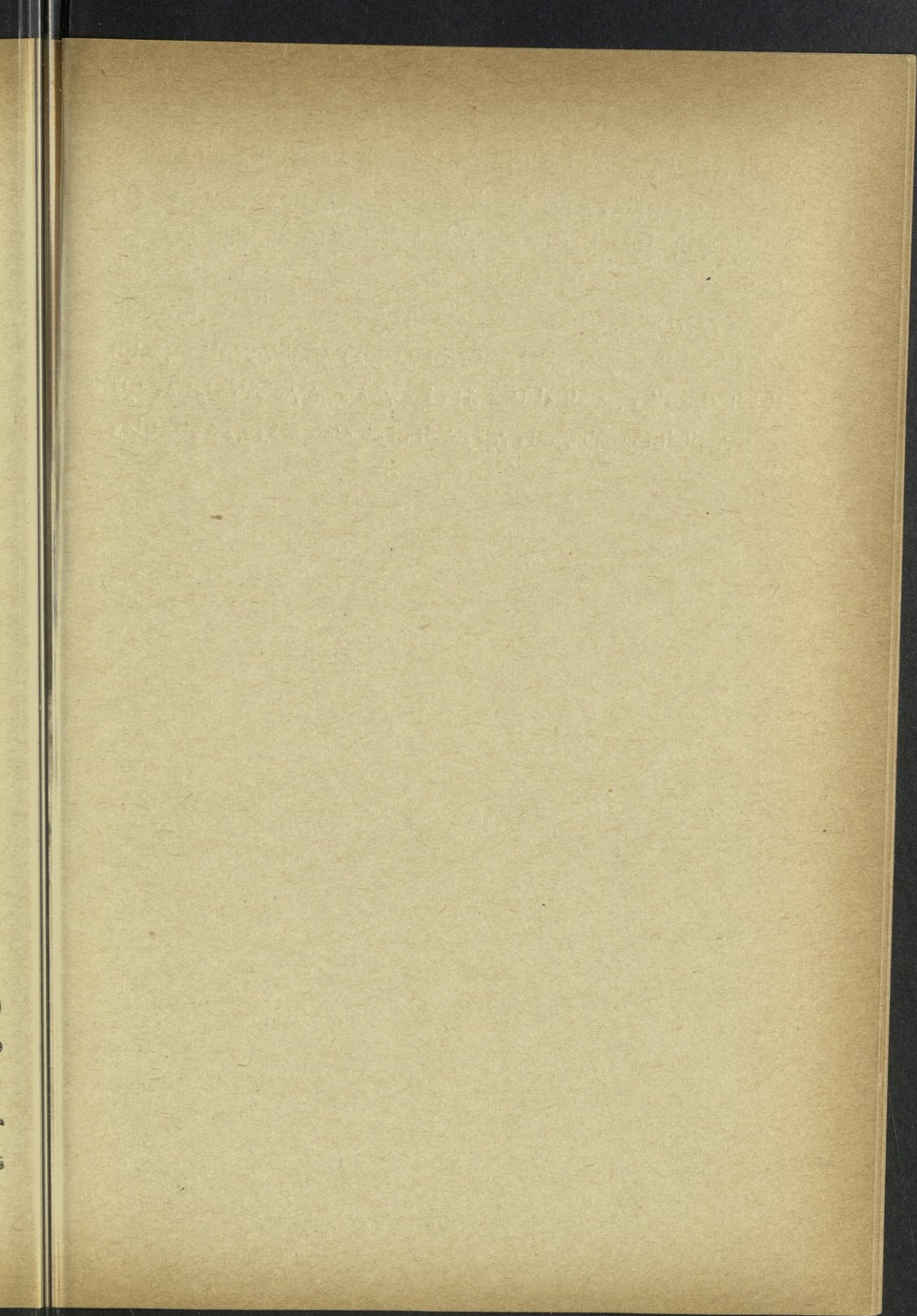
عوذ كمالك ما استطعت فانه قد تنقص الاشياء مما تكمل
واما النوع الثانى من الكمال ففيه نصيب من الصبغة الاجتماعية ولكن دعامته هى يمكن ان نعتبرها عنصرا اساسيا فى الفضيلة عند المسلم وركنا عند الصوفى وهذه الصفة هى التقوى ولهذا النوع من الكمال الذى نتطلبه غالبا من الرجال الذين نريد ان نعهد اليهم بالسلطة وان نقلدهم الولاية او الامارة - عناصر اذا تناسقت انتظم العدل والامن فى الوجود وقد حلل ابن الخطيب هذا النوع من الكمال فى قوله :

اذا اجتمع الاقدام والرأى والتقى وساعد سعد واستقل به عزم
ولاحت بأفاق السماح مخيلة من الجود يتلو برقها العارض السجم
وقام على التقوى بناء سياسة يمهّد من اساس اركانها علم
ورفت عليها نسبة طالبية فليس ظلام فى الوجود ولا ظلم
وكثيرا ما يطالب ابن الخطيب بالتقوى كأساس للفضيلة فهو يرى
مثلا ان العزم الذى هو فى نظره باب كل خير ومطية كل كمال لا يقوى
ويستطيل الا بالتقوى :

والعزم يفترع النجوم بناؤه مهما أقام على التقوى تاسيسا
بل يرى ان من اعوزته التقوى اعوزته كل فضيلة :

لا تعدم التقوى فمن عدم التقى فى الناس اعسر
واذا امرؤ خسّر الاله فليس خلق منه اخسر
وما ذلك لان التقوى «هى فذلكة الحساب وضابط هذا الباب» *

اما النوع الثالث من الكمال فهو كمال العارف الذى يكلل فى الدنيا
بالشهود مع البقاء وفى الآخرة بالنظر المرى والرضى الابدى .
ومن مجالى هذا الكمال كون العارف هشاً بشا يحل الصغير من
تواضعه مثل ما يجل الكبير ويبسط من الخامل مثل ما يبسط من النبیه
والعارف ايضا شجاع لانه بمعزل عن هيبة الموت جواد بمعزل عن صعوبة
الباخل صفاح لان نفسه اكبر من ان تخرجها زلة بشر نساء لاحقاد لان
قلبه مشغول بالله عن غيره فمن عرف الله صفا له العيش وطابت له الحياة
وهاهنا كل شىء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله رب العالمين .



الفصل الرابع عشر

العلوم والفنون في خدمة الاخلاق

لن نتكلم عن الفنون والعلوم فى نظر ابن الخطيب الا من حيث علاقتها بتحقيق السعادة الانسانية فى الدنيا او الآخرة ومن حيث ترتيبها واحقها بالاىصال الى الكمال .

يرى ابن الخطيب ان العلم عامل شريف «لانه خاصة الملا' الاعلى وصفة الله فى كتبه التى تتلى» وهو وصف كمال شرف به الملائكة والانبياء' وهو جامع بين سعادة الدنيا والآخرة اما فى الدنيا فالعالم يحظى من الملوك والسوقة بالاجلال لان ظهور الفضل يستوجب الاحترام ولكن هذه السعادة ظل زائل ونعمة عابرة وحظ فان .

اما الآخرة فاعظم رتبة فى حق الادمى هى السعادة الابدية فى عليين وافضل الاشياء ما يتوصل به الى نيلها (لان السعادة نكتسب) وهذه الوسيلة هى العلم .

غير ان ابن الخطيب لا يقصد من هذا العلم الا جزئه النافع لان العلم الذى هو بالنسبة الى النفوس بمثابة الماء بالنسبة الى الارض التى ينعشها ويغذيها غير صالح فى عموم انواعه كما ان الماء غير صالح مطلقا اذ منه الاجاج والملح والعذب الزعاف! على ان هذا النوع من العلم لا يجب ان يؤخذ منه الا القدر الضرورى لان الماء اذا غمر الارض افسد المسالك والمشارب فسقى ديارك غير مفيد صوب الربيع وديمة تهمى

والانسان خلق لا ليعلم فحسب بل ليعمل بما علم فلا ينبغي ان يستغرق كل وقته فى تحصيل العلم بحيث يبقى فيما يخص معيشتة عالة على الناس «اذ لا يجمل بنى المروءة ان يكون كلا على غيره» .
ولعل الانسان اذا عمل بالقدر النافع الذى يعلم تجلت له حقائق ولاحت له عجائب وانتقل من درجات المعاملة إلى الكشف فاعتلقت يده بالعروة الوثقى .

فما هو هذا الجزء من العلم الذى يحثنا ابن الخطيب على الكرع من معينه استعدادا لحسن العمل ويصفه فى الوصية التى خلفها لاولاده بأنه مفتاح الباب والموصل الى اللباب وانه وسيلة النفوس الشريفة الى المطالب المنيفة ؟

هذا الجزء هو علم الشريعة التى يتخلص فى معرفة مدلول كتاب الله من قصص واحكام وموعظة ومعرفة الحديث وأصول الدين والفقه وطريق الصوفية .

والجزء الذى ينبغي ان لا يستهلك المرء فيه حياته هو ما «ينجم بمنابت علوم الشرع المريعة من علوم اللسان» فهو من خير العلوم ما دامت لم تستغرق الاعمار فصوله ولم يضايق ثمرات المعاد محصوله لان علوم اللسان ليست سوى آلات لغير واسباب الى خير منها وخير .

والعلم النافع درجتان : درجة المتوغل فى طرف النظر وتصحيح الادلة وهذه هى الغاية القصوى فى الملة ودرجة المقتصر على فقه امامه ولكن حفظ القرآن ودراسة الحديث عنصرا اساسيان فى كلتا الدرجتين .

اما العلوم الذى يحذرنا منها ابن الخطيب أوكد تحذير فهى العلوم القديمة والفنون المهجورة الذميمة التى اكثرها لا يفيد الا تشكيكا ورأيا ركيكا ولا يثمر فى العاجلة الا اقتحام العيون وتطريق الظنون وتطويق الاحتقار وسمة الصغار وخمول الاقدار والخسف من بعد الادبار «فهذا ابن رشد قاضى المصر ومفتيه وملتمس الرشيد ومؤتبه عادت عليه بالسخط الشنيعة وهو امام الشريعة فلا سبيل الى اقتحامها والتورط فى ازحامها

فلا تخطوا سامكم بحامها الا ما كان من حساب ومساحة وما يعود بجدوى
فلاحة وعلاج يرجع الى النفس والجسم براحة وما سوى ذلك فمحمجور
وضرم مسجور وممقوت مهجور » .

الفنون

امتاز الانسان بالحاسة الفنية على غيره من انواع الحيوان فالنفوس
العارفة هي النفوس الانسانية التي تقبل صفات الوجود والحياة والنطق
والمعرفة والجمال بينما لا يقبل الحيوان والنبات سوى صفتي الوجود
والحياة ولا تقبل الجمادات الا صفة الوجود .

فقوى درك الجمال هي اذن من خصائص الانسان !

ويرى ابن الخطيب - وهو في ذلك متأثر بفلسفة الاشراقيين الذين
يتزعمهم من المسلمين السهروردي صاحب هياكل النور - ان النور الالهى
هو سر الحياة والوجود والجمال والكمال لان كل ما تقع عليه حواس الادراك
مما يفيدها جنسه او يثير نفعتها جماله او يبهرها نوره او يسوقها حبه
او يروفها تناسبه وحكمته ليس الا نور الله .

ولكل شىء اتصل به النور القدسى واشرف عليه كمال وجمال
يخصه والكمال مظهر الجمال ومراة صورته فكمال الشىء عبارة عن الصفات
المحمودة فى ذلك الشىء اما ظاهرا واما باطنا فكمال كل ذات بحسب ما
يليق بهذه الذات على سبيل نسبى اضافى فقد يكمل شىء بما لا يكمل
به غيره .

مثال ذلك ان الجمال صورة الانسان ظاهرا هو فى تناسب الشكل
واستواء البنية وحسن اللون وكذلك للحيوان والنبات احوال فى كمالها
الظاهر وهذا الكمال هو مجلى الجمال الروحانى والنفوس الانسانية
مؤلفة به واقفة عنده كلفة باستحسانه والميل اليه وربما تتعداه الى مظاهر
الجمال المبدد على صفحات الوجود من المياه والخضر والبساتين والروائع
الطيبة والاصوات اللحنة .

تراه ان غاب عنى كل جارحة فى كل معنى لطيف رائق بهج
 فى نغمة العود والصوت الرخيم اذا تألفا بين ألحان من الهزج
 وفى مسارح ازهار الخمائل فى روض الاوائل بالاصباح والدلج (١)
 والنفوس ببادىء الرأى لا تعرف سبب حنينها ولا علة ميلها ولا داعية
 استحسانها .

والكمال باطن مختص بالانسان وهو اجتماع الصفات الباطنية على
 الاعتدال :

اما الجمال فهو نوعان :

الجمال المطلق الذى لا يليق الا بالله وهو الجمال الذى يعلل ولا
 يكيف ولا يمثل ولا يعرف كنهه والجمال المفيد ايضا نوعان : جمال كلى
 وهو الجمال الالهى السارى من ذلك الجمال المطلق فيما سوى الله وجمال
 جزئى وهو اما خفى معقول عن الحواس يدرك بنور العقل الذى يناسبه
 ويستتبعه حتى يصل الى اصله وجلى وهو الذى يتصل بالجسوم لا على
 جهة الحلول فيها وانما هو اشراق وانارة والحواس هى التى تدرك هذا
 الجمال بواسطة الكمال الذى هو معاسن الصفات :

وعشق الجمال معناه - عند ابن الخطيب - عشق النور والخير -
 وسر هذا العشق هو المناسبة التى هى من ادعائهم الحب وليس فى عشق
 العادى للحادث جناح من الوجهة الخلقية اذا لم يكن هذا العشق مقرونا
 بالشهوات لانه قد يكون سلما للحب الحقيقى الموصل للسعادة .

ومن اخلاق النفوس وسجايا الذوات المركوزة فى فطرها السليمة
 الجنوح الى الكمال والحرص على الفضائل المؤدية اليه واذا كانت النفوس

(١) اورد ابن الخطيب فى الروضة هذه الابيات دون ان ينسبها
 الى صاحبها وهو ابن الفارض وهذه الابيات من امتع ما كتب الشيخ ابو
 حفص فى الحب والجمال وتأتى بعدها ابيات هذا نصها :

وفى مساقط انداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج
 وفى مساحب اذيال النسيم اذا اهدى الى سحيرا اطيب الارج
 وفى الثامى ثغر الكأس مرتشفا ريق المدامة فى مستنزه فرج

تحن الى الجمال الانساني فكيف لا يقع منها التشوف والحنين اذا مازجها صفاء وزكاء - الى العالم الالهى الذى هو «معنى كل جمال وكمال ونور وادراك واشراق وبهجة ولذة باقية خالدة» «فما اشأم من ضاع حظه من هذا الجمال الفياض والكمال المحض والوجود المطلق» .

هل يجب الجمال والكمال لذاتهما ؟

الانسان يحب الجمال لذاته سواء كان من الصور الباطنية كالمعانى والصفات ام من الصور الظاهرة كاشخاص الانسان والحيوان .

(١) الغناء والسماع

السماع فى نظر ابن الخطيب من اعظم الجواذب الى المحبة ومن اكبر مصائد النفوس والدواعى الى رفقتها وحنينها والنفس اذا رقت عشقت وكيف لا تتعشق الالحان والطير قد شوهد تدليه من الغصون على ارباب الاوتار ؟ !

ويستدل ابن الخطيب على شرف السماع بأن كثيرا من الامم اتخذت الموسيقى فى متعبداتها لتلطيف الاسرار وتهذيب النفوس وان الحكماء جعلوا صناعة الالحان فى ترتيب العلوم الرياضية متصلة بالعلم الالهى . وكيف لا يكون فى الموسيقى معنى قدسى وبعض الصوفية كأبى على القالى يقولون فى تعريفهم لحقيقة السماع ان النطق الذى ظهر الحق به ونطق به فى الازل يوم الميثاق صار كامنا فى نفوس الخلق فبقيت حلوة ذلك الخطاب فى الاسرار وسرت الرقة والوجد الى القلوب .

وهذا هو ما اشار اليه ابن الفارض حين قال مشيرا الى السماع فى تائيته :

وما ذاك الا ان نفسى تذكرت حقيقتها من نفسها حين اوحث
فحنت لتجريد الخطاب ببرزخ التراب وكل آخذ بأزمته

وقد علق القاشانى على هذه الابيات فى شرحه : «كشف الوجوه الغر» (ج ٢ ص ٦٢) فقال: «٠٠ ولهذا يهيم طائر روحه (اى العبد) عند السماع ان يطير الى وكر الازل».

ومن آداب السماع ان تكون اقواله مما لا تنكره الحشمة ولا يمنع منه الدين وان تكون آتته مما لا تناله خسة العادة ولا صنعه الاستعمال واغراضه مما لا ييسر محذور الشهوات.

وزيدة آدابه ان يكون المطلوب منه تلطيف السر والاستجلاب لقوى النفس .

وقد افرد ابن الخطيب فن الموسيقى بالتأليف وهذا نهاية فى التقدير .

وهو فى الظاهر على الاقل على طرفى نقيض من الغزالي الذى حرم المزامير والاوزار (الكتاب الثامن من ربح العادات من الاحياء) ومن ابن القيم الذى انكر الغناء على الصوفية ورآه افطع من شرب الخمر (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٧٩) والحقيقة هى ان موقف ابن الخطيب لا يختلف كثيرا عن سلفه فهو لا يطلق فى اباحة السماع اذا اشترط لجوازه شروطا ثلاثة متى تحققت انتفت عوامل التحذير وهذه الشروط هى عدم تلحين الهجر من القول وعدم استعمال المزامير التى اثبتت العادة خستها وعدم تأدية الغناء للمحذور من الشهوات كسماعه من امرأة لا يحل النظر اليها وتخشى الفتنة من سماعها او من الصبي الامر الذى تخشى فتنه.

(٢) الرقص

وما قيل فى السماع يقال فى الرقص الذى هو لزييم السماع ونتيجة له فهو مباح ما دام الغرض منه شريفا وكيف يتمالك الولهان الصادق عن الرقص اذا حركه الوجد والتهبت احشاؤه عند شهود عارض ؟ !

(٣) الشعر

والالحان مناسبة للطباع «نسبة الحظوظ» فاذا علقت هذه الالحان بالشعر كان التأثير ابلغ .

فللشعر قيمة خلقية ترجع الى اسهامه مع اللحن فى تهذيب النفوس وكذلك الى ما يحتويه غالبا من حكم وامثال توجه النفس احسن توجيه كما له قيمة مادية لانه لا يفيد صاحبه العز والجاه .

وابن الخطيب يستدل كالغزالي على جواز قول الشعر بكونه أنشد فى حضرة الرسول عليه السلام ولكن بينما نرى ابا حامد يقول «واما الشيعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح الا ان التجرد له مذموم» يرى ابن الخطيب بالعكس من ذلك ان صنعة الشعر اشرف الصناعات وان التجرد لها من امثل الحالات .

وقد ابان ابن الخطيب عن موقفه من الشعر فى قصيدة مدح بها ولى نعمته الامير ابا الحجاج فقال :

أمولاي ان الشعر ديوان حكمة يفيد الغنى والعز والجاه من كانا
وقد وجد المختار فى الحفل منصتا له وحبا كعبا عليه وحسانا
الى ان قال :

وان قيل قدر المرء ما هو محسن فصنعة نظم القول ارفع شاننا
وقد حلل ابن الخطيب علاقة الشعر بالحب فوصفه فى مقدمة الروضة بأنه من صاحبه بمنزلة التسييم وانه المزمар الذى ينفخ الشوق فى يراعتة والعزيمة التى تنطق مجنون الوجد من ساعته وانه رسول الاستلطاف ومنزل اللطاف !

٤ (الفطرة والتعليم

يرى كثير من الفلاسفة - قدماء واسلاميين - جواز الاستغناء عن الصنائع والعلوم والوصول الى معرفة الخير وتحقيقه بدونها لان الفطرة الانسانية فى نظرهم كافية وحدها ولا حاجة لها الى البراهين المنطقية وهم يرون ان معونة الله مركوزة فى الغرائز فاذا صحت الفطرة واعتدلت وزكت جاهدت الاخلاق المذمومة وهجرت الملاذ وبسلامتها واستقامة ادراكها تصير غنية عن سبيل التعليم .

ولكن ابن الخطيب فند هذا المذهب فى مبدئه وجوهره لا فى تفاصيله
 واستبعد صدق حكاية حى بن يقطان التى يقول فيها الششتري:
 ولا بن طفيل وابن رشد تيقظ رسالة يقطان اقتضت فتحة الجفا
 على انه ان صحت هذه الحكاية فان الطباع البشرية لا تذهب
 بأفعالها الا الى الاسهل والاوجب ومعنى هذا ان الفطرة لن تتكفل وحدها
 بالبحث عن طريق رياضة النفس لتنهجها لانها تكفى بما هو حيوى
 وتنصرف عن الكماليات التى تقتضيها كذا وعناء .
 وابن الخطيب لا يعارض فى كون الفطرة السليمة مركز فيها الجنوح
 الى الكمال والحرص على الفضائل المؤدية اليه ولكنه يرى ان الانسان
 لا يمكنه ان يتصور الامر على وجهه الا بكد وطريق تعليمي» .

٥ (الوراثة فى الاخلاق

يقول ابن الخطيب فى وصيته المشهورة : «لما علانى المشيب
 بغمته وقادنى الفكر فى رمته وادكرت الشباب بعد أمتة أسفت لما اضع
 وندمت بعد الفطام على ما رضعت» .

ونحن نستفيد من هذه العبارة شيئين :

اولا - ان نفس الصبى تكون فى فطرتها الاولى نقية طاهرة مستعدة
 للانتقاش ان خيرا فخير وان شرا فشر وان الطفولة هى زمن الغرس
 والتهذيب .

ثانيا : ان الانسان قد يرتضع من امه التى هى مهذبه الاول اخلاقا
 حميدة او ذميمة ولعل الغزالي قد اشار الى هذا المعنى حين حض فى تربية
 الطفل على ان تكون المرضع امرأة سالحة متدينة تأكل الحلال لان «اللبن
 الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشوء الصبى انعجنت طينته
 من الخبث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث» (احياء ج ٣ ص ٧٧)

وابن الخطيب يرى علاوه على ذلك ان للنسب الدينى اثرا فى تكوين
 الخلق الحسن لان العرق نزاع كما ورد فى الحديث ومعنى هذا ان للوراثة

يدا في التكوين الخلقي وان الانسان قد يرث من ابويه صفات تكيف نفسه
وقد اشار الى هذا بقوله :

ورثا عن النذب الكبير ابيهما محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهي شبيهة بالاصل في ورق وفي اثمار
وقوله :

ورث الجلالة عن ابيه وجده فكأنهم ما غاب منهم هالك
ومدح احمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدى ابى محمد صالح
الناظم فقال :

يا حفيد الولي يا وارث الفخر الذى نال فى مقام وحال
الا ان نفس الطفل - رغم ما تكون قد ورثته من سجايا ابوية -
قابلة للتكيف بالصفات التى تغرس فى طبع الطفل بطريق التعليم .

تربية الطفل

يرى ابن الخطيب وجوب المبادرة الى تهذيب الطفل فى نعومته حيث
يكون الطبع فتيا قابلا للتكيف .

فعلى الوالد ان يسعى فى تحسين آداب بنيه وان يجعل الخير دأبهم
وان يشتد فى ترويضهم على حسن الشيم لان الاشفاق والحنان اضر من
غلظة الجنان «وان يتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت وان يقنعها اذا هجمت
قبل ان يظهر تضعيفها ويقوى ضعيفها» فان اعجزته فى الصغر الحيل عظم
الميل كما يجب على الاب ان يكره لبنيه مجالسة الملهين ومضاحبة الساهين
وان يجاهد اهواءهم ويحذر الكذب على مقولهم .

وقد حذر ابن الخطيب المدرسين والمعلمين من حشو افكار الاحداث
بالشكوك الخالجة والمزلات الواجبة لان ذلك يفسد طباعهم .

وقد عنى ابن الخطيب بتربية اولاده عناية كبيرة فحلف لهم وصيته
المشهوره التى افعمها بدرر الحكمة كما انتقى لهم فى «الشعر والسحر»
طائفة من شعره وشعر غيره ؛ قال ابن الخطيب : « وانشدته (يريد ابنه)

وامرته بحفظه والتأدب به والمهج بحكمته:
إذا ذهب يمينك لا تضيق زمانك في البكاء على المصيبة
ويسراك اغتنم فالقوس ترمى وما تدرى أرشقتها قريبة
وما بغريبة نوب الليالى ولكن النجاة هي الغريبة.
ولعل هذه الطريقة التى تهدف الى بث الاخلاق الحسنة فى نفس الطفل
بتلقيه الحكمة الشعرية هى اجدى نفعا واكثر عائداً ومن المعلوم أنها لا
تزال عماد التهذيب الخلقى فى المدارس الحديثة التى تلقن لتلاميذها
الاحداث مقطوعات شعرية تتضمن حكايات صغيرة يستفيد الطفل من مغزاها
جملة الاخلاق الحميدة ولا يجهل بالاب ان يقتصر على هذا التلقين الخلقى
بل يجب ان يجعل من طبع بنيه ثرى لغرس العلم بادئا بتلقيهم القرآن الذى
هو اصل الاديان .

الفصل الخامس عشر

الحقوق والواجبات

ما هو الحق وما هو الواجب وما هو الفرق بينهما ؟ اما الحق فهو ما للانسان والواجب ما عليه . نقول : من حق العامل ان يأخذ اجرا فى مقابل عمله ومن واجب صاحب المعمل ان يخوله أجرته كاملة موفورة .

ولكن ابن الخطيب لا يفرق كالغزالي بين الواجب والحق والادب الا نادرا فبينما نراه يستعمل لفظة حق بمعناها العادى وهو ما للانسان كقوله فى الوصية «وللانسان مزية لا تجهل وحق لا يهمل» نراه مرة اخرى يطلقها على مدلول الواجب كما فى قوله : «والحق ان تحذف الابهة وتختصر ويحفظ اللسان ويغض البصر...» .

ولعل هذا الخلط راجع الى ان الفرق بين الحق والواجب يكون نسبيا اضافيا فى كثير من الحالات فانت عند ما تقول : حقوق الصحبة او حقوق الجوار تريد ما على الجار لجاره وما على الصاحب لصاحبه ولكن كلا الرجلين جار وكلاهما صاحب فى آن واحد فكلاهما له حق وواجب فى نفس الوقت على جاره وصاحبه وواجب لجاره وصاحبه وهذا الحق او الواجب متعلق بنفس الصفة وهى الصحبة والجوار وهذا اللبس شائع لان ادراكه دقيق وما اكثر ما نسمع ونقرأ امثال هذه العبارات «من حق فلان ان يفعل او ان لا يفعل كذا» بمعنى من واجبه .

وللانسان حقوق نحو ربه ونحو نفسه واخوانه واصدقائه وجيرانه ولا يتجاهل حقوق الناس الا جاهل .

ومن جهل الحقوق اطاع نفسه ببحر الجهل راسبة غريقة

معيار الحقوق

الحق هو ما اسبغ عليه الشرع والعقل هذه الصفة والحق لا يتغير بالنسبة للقوى والضعيف فالامير له على رعيته حقوق ولرعيته عليه حقوق وليس لقوته مهما استطالت ان تقلب ماهية الحق الى باطل وزينة الامير انصياعه للحق لا انصياع الحق له .

وهنا نظرية قديمة تنافى نظرية ابن الخطيب وغيره من الفلاسفة والاخلاقيين المعتدلين لانها تقول بأن الحق للقوة او الحق مع الاقوى وفي هذه النظرية ما فيها من طابع الوحشية الاولى ايام كان الانسان يرى كل شئ من حقه ما دامت له القوة على كسبه .

والغريب انه وجد من بين فلاسفة القرن الثامن عشر عالم يسمى هوبيس (١٥٨٨-١٦٧٩) ادعى ان مقياس الحق هو القوة وقد صارت نظرية هوبيس هذه المسوغ «المنطقي» للاستبداد وقدر لها ان تقوم بدور خطير فى تاريخ الانسانية فتستهتر بحقوق الامم والافراد .

وتذكرنا هذه النظرية بنظرية داروين مؤسس مذهب النشوء والارتقاء الذى يرى ان الاقوياء لهم حق البقاء فى الحياة لانهم اقوى من غيرهم واقدر على مواجهة الحياة .

وقد زعم الاستاذ اندرى بريدو ان القضاء والقدر فى الاسلام شبيهان بهذه النظرية لان الانسان ملزم فى الديانة الاسلامية - فى زعمه - بالاستسلام الى القوة لانها من عند الله وهذه سخافة لا تكلف نفسنا عناء تنفيذها لان كتب التوحيد وعلم الكلام طافحة بالتأويلات القويمة لحقائق القضاء ودقائق القدر .

وقد كتب الفيلسوف الفرنسى روسو صفحة قيمة فى تنفيذ نظرية حق القوة حيث قال : «ان الاقوى لا تكون لديه البتة القوة الكافية للتغلب دائما اذا لم يجعل من قوته حقا ومن طاعته واجبا ومن هنا قيل : الحق للاقوى» ثم قال : «ان القوة مناعة جسمانية ولست ارى ما ينجم عن مفعولها من آثار خلقية فالانصياع للقوة حركة اضطرارية لا اختيارية واكثر ما يقال فيه انه احتياط وعدم تهور فكيف يمكن ان يكون واجبا ؟» الى ان قال : «واى حق هذا الذى ينهار اذا انهارت القوة ؟» .

(١) واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء ان يسعى جهده فى كسب رضى مولاه «بالاستقامة التى هى الهوى المغلوب والامل المسلوب والاقتداء الموصل للمرغوب والعز والامن من اللغوب» فبرضاه ترفع الاغلال وبالتماس قربه يحصل الكمال اذا ذهب المال وأخلفت الآمال وتبرأت من يمينها الشمال .

فعلى المرء بالتمسك بحبل الدين الذى ارتضاه الله واصطفاه واكمله ووفاه وقرره مصطفاه من قبل ان يتوفاه - وبكتاب الله فلا يتأوله ولا يغلو فيه وعليه ان يتفقد نفسه مع الساعات وان يرعى حقوق الله من الازدراء والاستخفاف وان لا يلهج بالآمال العجاف ويكلف بالكهانة والارجاف وان يحذر القواطع عن السعادة وليقف الانسان فى التماس اسباب الحلال وسمو القدر ورفعته الحال دون الكمال فما بعد الكمال الا النقصان وليحذر طلب الولاية رغبة واستجلابا واستظهارا على الحظوظ وغلابا فذلك ضرر بالمروءات والاقدار داع الى الفضح والعار ومن امتحن بها اختيارا او جبر عليها اكراها واشارا فليتلق وظائفها بسعة صدره وليبذل من الخير فيها ما يشهد ان قدرها دون قدره .

(٢) الواجب نحو الاخ فى الدين

ذكر ابن الخطيب فى ثنايا ارشاداته طائفة من الواجبات التى للرجل على اخيه فى الدين منها :

- (١) الامانة لان الخيانة لوم وفى الديانة كلوم وعلى المرء ان يحافظ على الحشمة والصيانة وان لا يجزى من اقرضه دين الخيانة .
- (٢) الوفاء بالعهد : يجب على المرء ان لا يوجد للغدر قبولا ولا يقر عليه طبعاً مجبولا وان يقى بالعهد ان العهد كان مسئولا .
- (٣) نصيحة الاخوان .
- (٤) توفيتهم حقهم من كيل او وزن .

- ٥ (احترام اعراضهم باجتنا ب الزنا بذويهم فمن غلبت عليه غرائز جهله فلينظر هل يحب ان يزنى بأهله !
- ٦ (العدل لان الظالم ممقوت بكل لسان مجاهر لله بصريح العصيان والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد فى الصحاح .
- ٧ (ترك النسيمة والغيبة والحسد فى جانب الاخوان .
- ٨ (افشاء السلام فى الطرق والجماعات .
- ٩ (الرقة لذوى الزمانات والعاهات .
- ١٠ (ذكر المساكين من الاخوان اذا نصبت الموائد والتقرب الى الله فيهم باليسير من المال لان الخلق عيال الله واحب الخلق اليه المحتاط لعيله .
- ١١ (ترك الزور لان شهادته تقطع الظهر وتفسد السر والجهر .
- ١٢ (الالتزام للآخ بما يشتد به تواخيه .
- ١٣ (اظهار التعاضد والتناصر ومواصلة التعاهد والتزاور .
- ١٤ (عدم المن لان المعروف يكدر بالامتنان ويفسد ما بين الاخوان .
- ١٥ (حفظ السر وستر القبيح .
- ١٦ (استكثار الاوداء بعدم منافستهم فى الحظوظ السخيفة والتهاوش تهاوش السباع على الجيفة .
- ١٧ (ايثار الاخوان .

حقوق الصداقة

الصداقة ثلاثة انواع :

- ١ (صديق العلم والفهم والتعلم الذى يحتاج منه الى حسن الفهم متعلما وحسن البيان معلما وان لا يكون فى الغلبة والظهور ولا حسودا ولا متلونا ولا متملقا ولا خبيثا وشرها الحسد وحب الغلبة .
- ٢ (صديق الراحة : يجب ان يكون ظريفا حسن الخلق مساعدا .

(٣) صديق المنفعة : يجب ان يكون امينا ناصحا مجتهدا مميّزا
نوع المنتفع به .
وبالجملة فعلى الصديق اطراح الحسد والخبث والعداوة وسوء النية
وسوء الظن وحب الاضطراب والبغى والمطالبة .
وقد جعل ابن الخطيب من المحظور مداخله من لا خلاق له ممن لا يقبل
الله تعالى قوله ولا فعله فلا يكتنم سرا ولا يتطوق من الرجولة زرا ويرفض
زمام السلامة .

حقوق الصحبة

يجب امداد الصاحب بالمال بالمساهمة فى السراء والضراء وبالنفس
بمشاطرته الشدائد وباللسان بالصمت عما يكره تحت قانون الشرائع
وبالقلب بالرحمة والشفقة والعفو عن الزلات والتخفيف وترك التكليف
وصيانة المواعيد من الاخلاف .

حق الجار

ويجب رعى حقوق الجار وذكر ما ورد فى ذلك من الآثار كما يجب
تعاهد اولى الارحام الوشائج البادية الالتحام .

حقوق المرأة

ينظر ابن الخطيب الى المرأة نظره الى زهرة لها ما لكل الزهيرات من
بياض سريرة وروح منعش وهلهلة بنية وقابلية للانكسار والذبول وسرعة
الانفعال فهى مغرس الولد وريحانة الخلد وراحة القلب الذى اجهدهته الافكار
فمن الواجب اخذها بسلامة النيات والشميم السنيات وحسن الاسترسال
والخلق السلسال مع الاقلال من مخالطتها وعدم اناطة اى امر بها وعدم
طاعتها لان طاعة النسوان شر ما افسد بين الاخوان .

وقد بلغ شك ابن الخطيب في راحة عقل المرأة مبلغا اذاه الى
المناداة بضرورة عدم الاستناد الى رأيها والاعتماد على حكمها بل
معارضتها في ذلك على طول الخط واحتقار كل امر أعظمه النساء .
فهل كان ابن الخطيب يعتقد ان هذا الهزال العقلي غريزي في المرأة
على وجه الاطلاق ام ان حالة نساء عصره هي التي اوحى اليه بهذا الحكم
الصارم ؟ لعل هذا الموقف الذي اتخذه ابن الخطيب ازاء المرأة راجع الى ما
اصطبغ به نساء عصره من جهل كان مصدر بعض مظاهر الضعف الفكري
ولعل ما يكون في النساء عادة من شطط وتطرف وايغال وانحراف عن
مالوف الاعتدال هو الذي حدا ابن الخطيب ايضا الى عدم الركون اليهن في
جليل شؤونه وحقيرها !

ويرى ابن الخطيب انه يحق للمرأة ان تهذب لانها مدرسة الولد فكل
ما لا نريد ان نراه في البنين يجب ان ننحيه عن الامهات ويطالب لسان الدين
الرجال بالتشدد في حجاب المرأة واناطة رعيها بالنساء العجائز اللدنيات
الامينات النبيلات .

واجبات الملك

من واجب السلطان او الامير ان يسعى في تقويم نفسه قبل تقويم
رعيته وان يترفع عن تضييع الرعية ويأخذ كل طبقة بما عليها وما لها أحدا
يحوط مالها ويحفظ عليها كمالها (ونعله يقصد هنا بالكمال ما يطلق عليه
لفظ كرامة في اصطلاح علماء الاخلاق المحدثين) حتى يستشعر عليها
رافته وحنانه وتعرف اوساطها امتنانه وتحذر سفلتها سناناه وعليه بمنع كل
طبقة من تعدى طورها او مخالفة دورها .

ويلاحظ ان ابن الخطيب يجعل من حقوق الملك التدخل في كثير
من شؤونه رعيته الخاصة مما قد يجد الفكر الحديث مضضا في تقبله لبعده
عن مالوف الحريات .

وللملك وعليه حقوق وواجبات ازاء كل طبقة يبينها ابن الخطيب
تبياناً .

(١) الملك والاغنياء

يجب على السلطان :

- (١) منع الاغنياء من البطر والبطالة .
- (٢) منعهم من النظر فى شبهات الدين بالتمشدد والاطالة .
- (٣) منعهم من فحش الحرص والشره .
- (٤) حملهم على الاجتهاد فى العمارة على احسن المذاهب .
- (٥) نهيهن عن التحاسد على المواهب .
- (٦) ترويضهم على الانفاق بقدر الحال والتعزى بالفائت لان رده من المحال .
- (٧) تحديد البخل على اهل اليسار .
- (٨) اخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر ومنعهم من تأويلها منع القاهر .
- (٩) ان لا يطلق لهم التجمع على من انكر امره فى نواديهم .
- (١٠) ان لا يبيح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم .
- (١١) يجب تحسين النية لهم جهد الاستطاعة واغتفار المكاره فى جنب حسن الطاعة .
- (١٢) يجب على الملك ان يتحصن ان ثار جوادهم واختلف فى طاعته مرادهم .
- (١٣) ومن حق الاغنياء على الملك ان يرعى مصالحهم وان لا يقدم الا من آمن مكره وحمد على الانصاف شكره ومن كثر عليهم حياؤه من التأنيب وقابل الهفوة باستتابة المنيب ومن لا يتخطى عن محله الذى حله فربما عمد الى المبرم فحله .

(٢) الملك والوزراء

واجبات الملك :

الوزير الصالح افضل عدة عند الملك فعليه :

- (١) ان لا يتجوز فى اختياره .
- (٢) ان يجتنب منهم من يرى فى نفسه الى الملك سبيلا .

- ٣ (ان يرسل عيون الملاحظة على آثاره .
- ٤ (ان يحذر مصادمة تياره .

واجبات الملك : وعلى الوزير :

- ١ (ان يخلص للدولة .
 - ٢ (ان يزهد فيما فى يد الملك .
 - ٣ (ان يكون بعيد الهمة راعيا للذمة .
 - ٤ (ان يكون كامل الآلة محيطا بالايالة .
 - ٥ (ان يكون رحيب الصدر رفيع القدر .
 - ٦ (ان يؤثر العدل والاصلاح .
 - ٧ (ان يكون دريا بحمل السلاح .
 - ٨ (ان يكون خبيرا بدخل المملكة وخرجها وظهرها وسرجها .
 - ٩ (ان يكون صحيح العقد متحرزا من النقد .
- ولكن للملك ان يتساهل اذا اعياء وجود اكثر هذه الخلال وليرشح حينذاك للوزارة من سكنت نفسه واتصف بتقوى الله تعالى التى تفضل شرف الانتساب والتى هى للفضائل فذلكة الحساب .

٣ (الملك والجند

يجب على الملك :

- ١ (ان يستوفى على الجنود شرائط الخدمة .
- ٢ (ان يأخذهم بالثبات عند الصدمة .
- ٣ (ان يوفى ما فرض لهم من الجراية والنعمة .
- ٤ (ان يولى عليهم النبهاء من خيارهم .
- ٥ (ان يجتهد فى صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم .
- ٦ (ان لا يوطنهم مهاد الدعة .
- ٧ (ان يصرف ما فضل من شبعهم وريهم فى سلاحهم وزيهم والتزيد فى مراكزهم وغلمانهم .

- (٨) ان يمنعهم من المشغلات والمتاجر .
 (٩) أن يحسن اليهم لان النفوس لا تبذل من عالم الانسان الا لمن ملك قلوبها بالاحسان وفضل اللسان .

(٤) الملك والولة

- على الملك ان يرعى مواقف العمال (اي الولة فى اصطلاح ابن الخطيب) لانهم ينتئون عن مذهبه .
 (٢) ان يعرفهم فى امانته السعادة .
 (٣) ان يقفهم عند تقليد الارزاء مواقف الخوف والرجاء .
 (٤) ان يقيم فى نفوسهم ان اعظم ما به اليه يتقربون هو اقامة حق ودحض باطل .
 (٥) ان يصطع من تيسرت كلفته وقويت للرعايا الفتة ومن زاد على تأميله صبره وكانت رغبته فى حسن الذكر .
 (٦) ان يجتنب منهم من يغلب عليه التخرق فى الانفاق وعدم الاشفاق والتنافس فى الاكتساب وسهل عليه سوء الحساب ومن كان منشأه خاملا ولاعباء الدناءة حاملا .
 (٧) ان لا يجمع للعامل بين الاعمال فيسقط استظهاره ببلد على بلد .
 (٨) ان يحرص على ان يكون فى الولاية غريبا ومتنقله من السلطان قريبا ورهينة لا يزال معها مريبا .
 (٩) ان لا يقبل مصالحته على شىء اختانه فيؤدى ذلك الى المصانة فى الامانة ويكون مشاركا له فى الخيانة .
 (١٠) ان لا يطيل مدة عمله .

(٥) واجبات الملك نحو ابنائه

- (١) تحسين آدابهم .
 (٢) جعل الخير دأبهم .

(٣) ان لا يعاملهم بالاشفاق والحنان لان الخوف من هذين اكثر من الخوف من غلظة الجنان .

(٤) ان يكتم عنهم ميله .

(٥) ان يفيض فيهم جوده ونيله .

(٦) ان لا يستغرق بالكلف بهم يومه ولا ليله .

(٧) ان يثيبهم على حسن الجواب .

(٨) ان يسبق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب .

(٩) ان يعلمهم الصبر على الضرائر والمهلة عند استخفاف الجرائر

(١٠) ان يأخذهم بحسن السرائر .

(١١) ان يحب اليهم الامور الصعبة المراس وحسن الاصطناع

والاحتراس والاستكثار من اولى المراتب والعلوم والسياسات والحلوم والمقام المعلوم .

(١٢) ان يكره اليهم مجانسة الملهين ومصاحبة الساهين .

(١٣) ان يجاهد اهواءهم عن عقولهم ويحذر الكذب على مقولهم .

(١٤) ان يرشحهم اذا آنس منهم رشدا .

(١٥) ان يحذر عليهم الشهوات فهى داؤهم .

(١٦) ان يتدارك الخلق الذميمة .

(١٧) ان يفرقهم فى بلدانه اذا قدروا على التدبير لان حضرته

تشغلهم بالتحاسد .

(١٨) ان ينظر اليهم بعين الثقة لان عين الثقة ترى ما لا تراه عين

المحبة والمقة .

(٦) الملك والخدم

خدم الملك بمنزلة جوارحه التى يفرق بها ويجمع ويبصر ويسمع

فيجب ان يروضهم بالصدق والامانة ويصونهم صون الجمانة وان يأخذهم

بحسب الانقياد الى ما آثره والتقليل مما استكثره وليحذر منهم من قويت

شهواته لانها تتنازع فى استرقاقه وتشاركه فى استحقاقه وخير الخدم

من ستر ذلك عن سيده بلطف الحيلة وعلى الملك ان يشرب قلوبهم ان الحق فى كل ما حاول واستنزل وان الباطل فى كل ما جانب واعتزل وان يعطى لمن اكد منهم راحة يشتغل فيها بما يعنيه ولتكن عطاياء فيهم بالمقدار الذى لا يبطرهم ولا يرم محسنهم بالغاية من احسانه وذلك لترك لمزيدهم فضلة من رفته ولسانه وليحذر عليهم مخالفته ولو فى صلاحه بحد سلاحه وليمنعهم من التواثب والتشاجر وليستخلص لسر من فل افشاؤه وكان اصبر على النوب ولو دأعه من كانت رغبته فى الملك اكثر من رغبته فى احسان الملك وضبطه للوديعه احسن اليه من حسن الصنيعة .

والسفير يجب ان يكون صادق للهجة يؤثر الصدق ولو باختطار دمه ويستوفى للملك «وعليه فهم ما تحمل ويعنى باللفظ» ولعل ابن الخطيب يقصد بالعناية باللفظ دقة الاستعمال والتحرى فى وجوه الدلالة حتى لا يلزم من منطوقه المقصود مفهوم لم يرمه ولم يحرص عليه فكمن من كلمة يرسلها السفير لا يلقى لها بالا وهى اضر على سيده من معاهدة وقع التحرى فى بنودها والاحتياط فى فصولها .

اما الخادم الملازم فعليه ان يكون «لين الطبع حسن السجية مامون الجانب لا يكيد ولا يغدر ولا يحقد ولا يطمع فى مطمع ولا يعيد ما يسمع بريثا من المال يغلب عليه البشر» .

ويستفاد من كل ما ذكر ان ابن الخطيب ينظر الى الملوكية كنظام يستساغ فيه - فى حدود الدين والصالح العام - الحكم المطلق الذى لا يقتصر على ما له صلة بالحياة العمومية بل يتدخل فى شؤون حياة الفرد فى المجتمع وفى عقر داره .

٧) واجبات عامة للملك نحو نفسه ورعيته

وتوجد من بين هذه الواجبات طائفة تصلح لعموم الناس :

١) يجب على الملك ان يجعل قدرته وقفا على الاتصاف بالعدل والانصاف .

- (٢) ان يحكم بالسوية وان يجنح بتدبيره الى حسن الروية وان لا تقعد به اناته عن حزم تعين او تستغفره العجلة في امر لم يتبين .
- (٣) ان يطيع الحجة ما توجهت اليه وان لا يحل بها اذا كانت عليه فان خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على القهر ويبدل الانصاف في السر والجهر والغلبة بالخير سيادة وبالشر هودة .
- (٤) ان لا يرد النصيحة في وجه وان لا يستدعيها من غير اهلها فيشغبه اولوا الاغراض بجهلها .
- (٥) ان يحرص على ان لا ينقضى مجلس جلسه او زمن اختسله الا وقد احرز فضيلة زائدة او وثق منه في معاده بفائدة .
- (٦) ان لا يزهده في المال كثرته فالمال المصون امنع الحصون ومن قل ماله قصرت آماله والملك اذا فقد خزينته اخنى على اهل الجدة التي تزيينه وعاد على رعيته بالاجحاف وعلى جبايته بالالاحاف ويسار الرعية جمال للملك وشرف وفاقتهم من ذلك طرف وفي المال قدرة سماوية تصرف الناس لصاحبه والمال نعمة الله تعالى فلا ينبغي للملك ان «يجعله ذريعة الى خلافه فيجمع بالشهوات بين اتلافه (هو نفسه) واتلافه (اي المال) وما ينفق في سبيل الشريعة مامول خلفه .
- (٧) رعى اقدار العلماء لانهم في المملكة مشاعل متألفة ومصابيح متعلقة - ومصاحبهم والاسترشاد بهديهم :
- كل ملك يرى بصحبة أهل الـ علم قد باء بالمحل العزيز
- (٨) ان يصون المفاخر لانها اذا محيت خربت الدول .
- (٩) ان يسعى في حفظ الذكر بعمارة البلدان وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان .
- (١٠) ان تكون ثقته بالله اكثر من ثقته بقوة يجدها وكتيبة يستنجدها
- (١١) عليه بالاخلاص لان الاخلاص يمنحه قوة لا تكتسب ويمهد له مع الاوقات النصر .
- (١٢) ان يفضل حاصل يومه على منتظر غده .
- (١٣) ان لا يغضب وان يذكر عند الغضب ذنوبه الى ربه .

(١٤) ان يتشاغل فى هدنة الايام بالاستعداد لان التراخى منذر
بالاشتداد .

(١٥) ان لا يطلق فى دولته السنة الكهانة والارجاف ومطاردة
الآمال العجاف .

(١٦) ان يحذر على المدرسين والمتعلمين والعلماء والمتكلمين حمل
الاحداث على الشكوك الخالجة والمزلات الواجبة .

(١٧) ان يتلقى بدء نهاره بذكر الله تعالى فى ترفعه وابتذاله وان
يختم اليوم بمثل ذلك .

(١٨) ان يستريب بالامل وان لا يحمله انتظام الامور على الاستهانة
بالعمل .

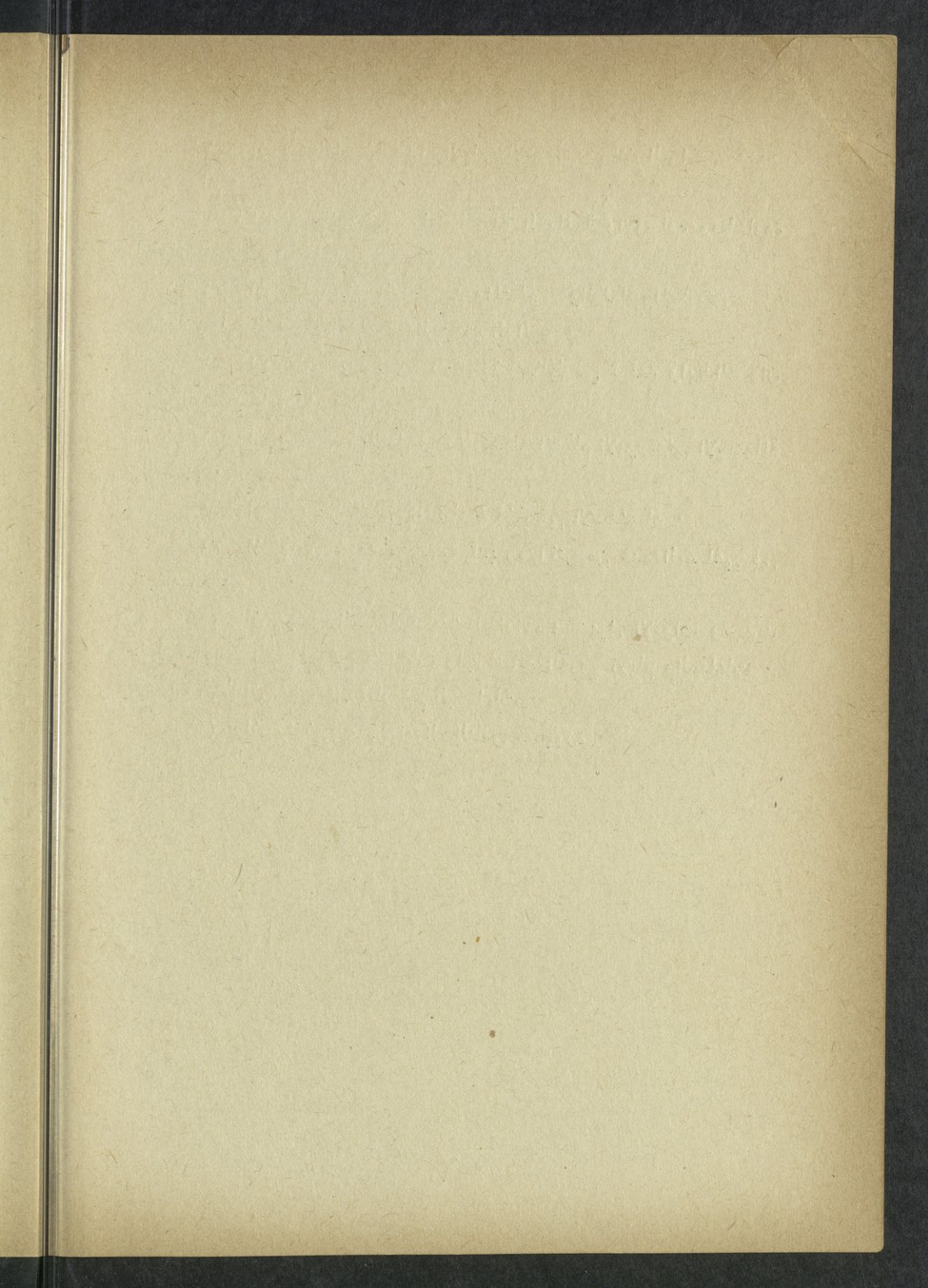
(١٩) ان لا يحقر صغير الفساد فيأخذ فى الاستئساد .

(٢٠) ان يكون خوفه من سوء تدبيره اكثر من عده المساعى فى
تدبيره .

(٢١) ان يجمل المملكة بتأمين الفلوات وتسهيل الاقوات وتجديد
ما يتعامل من الصرف فى البياعات واجراء العدالة مع الايام والساعات .

(٢٢) ان لا يبخس عيار قيم البضاعات .

(٢٣) ان تكون يده عن اموال الناس محجورة .



الفصل السادس عشر

فضائل الاعمال والاحوال

يستعمل ابن الخطيب فى اصطلاحاته الاخلاقية كلمة فضل وفضيلة فى مقابل الرذيلة ولكنه اذ يطلق لفظ فضل يريد به معنى اوسع من المعنى الذى يشير الى لفظ فضيلة :

انما الفضل ملة
ولا يشهر الانسان الا امتيازه
ختمت بابن خاتمة
بفضل فلولا الخمر ما كرم الكرم
وهو يعبر تارة عن هذا المعنى بالخلق الرضى :
ويعلم ثوب المجد بالخلق الرضى
كما يعلم الثوب الطراز او الرقم
وتارة اخرى بالعمل الرضى :
ويقصد وجه الله بالعمل الرضى
وتجنى ثمار العز من شجر العزم
وطورا بالمعالى :

فكن للمعالى والفضائل عاشقا
فلا در الا در مکتمل النهى
وان عسر المطلوب او ثقل العزم
بغير المعالى لا يرى وهو مهتم
ويلاحظ ان ابن الخطيب يستعمل كلمة او عبارة فينتجع بها تارة
معنى صوفيا خاصا وتارة اخرى معنى خلقيا عاما وتغلب المعانى الصوفية
على كتاب الروضة كما يغلب الطابع الخلقى المحض على الفضائل المتنثرة
فى تضاعيف رسائله وكتبه وسنحاول تحليل هذه الفضائل من حيث المعينان
فى الصفحات التالية مفصلينها حسب الترتيب الذى اعطاه اياها ابن
الخطيب .

وابن الخطيب يعتبر الاخلاق - اى التخلق العملى بالفضيلة - مرحلة من مراحل الحياة الصوفية فهو يرى ان العارف لا بد ان يتخطى مقامات يعرج من بعضها الى بعض حتى يستوعب المنازل ويطوى المراحل ويتصف باطوارها الثلاثة ودرجاتها المتفاضلة اسلاما وايمانا واحسانا ويكون مع طى سجلاتها موجودا فى جميعها قائما بصفات مرتبطة البدايات بالنهايات والفواتح بالغايات لا يحجبه الجمع عن الفرق ولا يقطعه الخلق عن الحق وهنا يصل العارف الى مقام الشهود وهو مقام فى التصوف والاخلاق محمود لان ذات العارف تصير خلاله مرآة يتجلى فيها الوجود .

والمقام ينتظم عند ابن الخطيب من علم وعمل وحال والحال هو ما يقع بعد العلم من الهيام بالمحبوب والوله به والتجرد له عن كل ما سواه والشوق الشديد الى لقائه والقلق لبعده والدهش منه والتهيب له والعمل على ملازمة مرضاته ومساارعتة لطاعته واحتمال ما يرد منه والتلذذ بجميع فعله وعقد حركاته وسكناته بأمره والتأنيس بذكره .

والعارف فى تدرجه هذا لا يختلف عن المرتاض الذى ينتجع وجهة خلقية وتهذيبا نفسيا فهو يقتحم المجاهدة ويمتطى الرياضة فيستوعب البدايات ثم يتبعها بقسم الابواب ثم اقسام المعاملات فالاخلاق فالاصول فالادوية فالاحوال فالولايات فالحقائق فالنهايات وهنا يدرك العارف ما يطمح اليه من سعادة .

الفضيلة والسعادة

السعادة نتيجة الفضيلة : فاذا حادت النفس عن الشرور والظلمات «وهى الاوصاف التى لا يتصف بها المبدأ الاول» واصلحت اخلاقها وخلعت المساوى وقطعت مواد الشهوات واقتصرت من شواغل الجسم على ما دون الضرورة شاع النور فى جوانبها فذهبت كدوراتها وغمرها السرور والابتهاج وحصل لها الاستغراق عند ما يتصل نور النفس بالانوار القدسية ويتحد بها وهناك تتذوق طعم السعادة .

هذا ما يراه ايضا ديكرات الذى يشبه الانسان بصاحب انقوس
الذى ان قصد السعادة وحدها اخطأ سهمه كلا من السعادة والفضيلة لان
السعادة دون الفضيلة فى وضعها ومنزلتها وان هدف الى الفضيلة اصاب
الاثنين وقد حمل كانط فى كتابه «اساس ميتافيزياء العوائد» (Fondement
de la Métaphysique des Mours. éd. Delbos p. 90) على المبادئ الخلقية عند
الايبقوريين الذين يعتبرون اللذة - رغم تشددهم الخلقى - مبدأ السعادة
ومنتهاها .

بدايات المراتاض

(١) اليقظة :

ويقال القومة وهى التنبيه من سنة الغفلة ويسمىها ابن الخطيب فى
القسم الخلقى بالعزيمة التى يحركها الوعظ ويبعثها التذكير .
وهو يرى ان العزم الصادق المرتكز على تقوى من الله باب الى
الفضيلة ومجاز الى الكمال :

والعزم يفترع النجوم بناؤه مهما اقام على التتى تأسيسا
والعزم باب النجاح فى كل شىء فهو بمثابة سوق «والتاجر الجسور
مرزوق» .

والعزم مصدر كل عز :

ويقصد وجه الله بالعمل الرضى وتجنى ثمار العز من شجر العزم

(٢) التوبة :

هى الرجوع من المخالفة الى الموافقة ومن الطبع الى الشرع ومن
الظاهر الى الباطن ومن الخلق الى الحق وتدخل فيها اليقظة والانابة
والمحاسبة بين متقدم ومصاحب وتابع وليس بينها كبير مهله وهى عبارة
عن معنى ينتظم من ثلاثة اشياء يوجب اولها الثانى وثانيها الثالث : علم
وحال وفعل فالعلم معرفة الذنوب وضربها والحال الندم والعمل العزم
والاقلع .

وشروط التوبة الندم والاقلاع والعزم على عدم العودة ورد المظالم ودرجاتها التوبة من الذنب ثم من استكثار الطاعة ثم من استقلال المعصية ثم من تضييع الوقت ثم مما دون الحق وانواع المتوبات قسمان : قسم بين الله وبين عبده وقسم فيما بينه وبين مثله، وباستصحاب التوبة ينقذح في القلب نور المحبة •

وقد كتب ابن الخطيب صفحات خالدة عن توبته من المغامرة في ضجة الحياة وجلبتها وخضم السياسة وضوضائها في تحليل نفساني رقيق •

وقد وجه لابن خاتمة الذي كان في عينه مثال الفضيلة رسالة ضمنها تحليلا لاسباب توبته حيث قال: «نظرت فاذا الجنب ناب والنفس فريسة ظفر وناب والمال اكلة انتهاب والعمر رهن ذهاب واليد صفر من كل اكتساب وسوق المعاد مترامية والله سريع الحساب...» ثم ان المرغب قد ذهب والدهر قد استرجع ما وهب والعارض قد اشتهب وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة واسماؤه على الجوار مخفوضة والنية مع الله على الزهد فيما في ايدي الناس معقودة والتوبة بفضل الله عز وجل منقودة غير معترضة ولا منقودة والمعاملة سامرية ودروع الصبر سابرية والاقتصاد قد قرت العين بصحبته والله قد عوض الدنيا بمحبته... انى الى الله مهاجر وللعرض الادنى هاجر ولاطعان السرى زاجر لنجد ان شاء الله تعالى او حاجر» •

وقال فيما كتبه لابن مرزوق :

«فليعلم سيدي ان الحياه ورطة والاستغراق في تيار الدولة غلطة وبمقدار العلو الا ان يقى الله تعالى تكون السقطه وبالفكر في الخلاص تفاضلت النفوس واستدفع البوس...» فالدنيا قد اختلت والافدام قد رنت والاموال قد قلت وشبيبة الدهر ولت» الى ان قال : «واما خدمة دولة فهي على حرام لا ينجح لي فيها ان اعتمدها مرام وكأني بالمشرق لاحق ولا نفاسه الزكية ناشق فما هي الا اطماع سرايها لماع فاذا انقطعت انفسحت الدنيا واتسعت! ومعايش في غمار او عكوف في كسر دار لندائمة استقالة واستغفار...» •

ويقول :

كأن قد صبح لله انقطاعي
وما يبقى سوى فعل جميل
وكل بداية فآلى انتهاء
ومن سام الزمان دوام امر
بتأملي جنابك وارتحالي
وحال الدهر لا تبقى بحال
وكل اقامة فآلى ارتحال
فقد وقف الرجاء على المحال

(٣) المحاسبة

وهي تأتي في الترتيب بعد العزيمة على عقد التوبة وهي في مقام الاسلام (الذي هو مقام التخلق) قياس بين النعمة والجناية والفضيلة والرذيلة بنور الحكمة ودعامتها سوء الظن بالنفس .

(٤) الانابة

وهي الرجوع الى الحق اصلاحا بعد الرجوع اعتذارا ووفاء وعهدا وحالا واجابة وهي في الميدان الخلقي مبدأ التخلي عن الرذيلة .

(٥) التفكير

وهو تلمس البصيرة لاستدراك النعمة .

(٦) التذكر

وهو الانتفاع باليقظة والاستبصار بالعبرة والظفر بشمرة الفكرة .

(٧) الاعتصام

وهو المحافظة على الطاعة .

(٨) الفرار

وهو الهرب عن الخلق الى الحق ودرجاته الفرار من الجهل الى العلم ثم من الخبر الى الشهود ثم مما دون الحق من شهود .

(٩) الرياضة

هي تمرين النفس علي الصدق ودرجاتها تهذيب الاخلاق بالعلم والعمل باخلاص .

(١٠) السماع

وهو من الجواذب المرفقة للشعور الباعثة على التهذيب .
فهذه الاقسام الصوفية العشرة يقابل مجموعها في الميدان الخلقى
المعرفة والارادة والعزيمة والتهذيب .

الابواب

(١) الحزن

هو التوجع لفأئت او التأسف على ممتنع وحزن العموم يكون على
التفريط في الحقوق وليس معنى الفأئت او الممتنع هنا الاعراض الزائلة
لان الحزن والارتماض عليها سخافة وقد قال ابن الخطيب في هذا المعنى
يخاطب السلطان ابا عبد الله ابن نصر عند وصول ولده من الاندلس :
الدهر اضيق فسحة من ان يرى بالحزن والكمد المضاعف يقطع
واذا قطعت زمانه في كربة ضيعت في الاوهام ما لا يرجع
فاقنع بما اعطاك ربك واغتنم منه السرور وخل ما لا ينفع
فضابط الاعتدال في هذا الحال هو القناعة وانما الباعث على الرضى
والانبساط الاقتناع بأنه « لن ينفع متاع بعد الخلود في النار ابد الا بدین
ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله اصدق الواعدين » .
واعظم شيء حزن عليه ابن الخطيب هو ما اضاعه من عمره في الآمال
العجاف :

لهفى على عمر مضى أنضيته فى ملعب للترهات فسيح
وقد نجد روح التحسر والارتماض سارية فى كثير مما كتب ابن
الخطيب آخر حياته فهو يقول :

الى كم ارانى فى البطانة كانا وعمرى قد ولى ووزرى قد عدا
تقضى زمانى فى لعل وفى عسى فلا عزمة تمضى ولا لوعة تهنى
تشاغلنى بالدنيا ونمت مفرطاً وفى شغلى او نومتى سرق العمر

ولكن نفس ابن الخطيب كانت رغم هذا الحزن متفائلة :
 ان كان ماض من زمانك قد مضى باسائة قد سرك المستقبل
 هذا بذاك فشفع الثانى الذى ارضاك فيما قد جناه الاول
 واذا تغمذك الاله بحسنه وقضى لك الحسنى فما ذا يخذل؟

٢ (الخوف :

لعله يقصد دوام الخشية من الله حيث ذكر الخوف فى «فصل لزوم
 المحبة للمقامات» من الروضة قبل التوبة لانه هو الذى يشوق الى مناخها.

٣ (الاشفاق

وهو دوام الحذر مقرونا بالترحم ولعل الذى يقابله من الاحوال
 الخلقية هو ما يسمى عند علماء الاخلاق المحدثين Sorapules اى نوع
 من القلق الادبى يحز فى الصدر وهو درجات اما قلق على النفس من العناد
 او على العمل من الضياع او على اليقين من طروء الشك او على القلب من
 العوارض ومن نتائجها فى الميدانين الصوفى والخلقى حفظ الحدود .

٤ (الخشوع

وهو الجمود لمتعاطف او مفزع ولعله يقصد به السكينة وعدم الانفعال
 للسراء والضراء وهذه حال خلقية مثلى تستلزم قوة فى النفس واعتدالا
 فى المزاج ومن نتائج هذه الحال مراقبة آفات النفس التى تستخفها
 الشدة او النعماء ورؤية الفضل للغير .

٥ (بداية الطمانينة

وذلك باستواء مرتبة المدح والذم فى النفس .

٦ (الزهد

وهو الخروج عما سوى المحبوب ثم التخلّى عن شهود هذا الخروج
 وقد سبق لنا بعض الحديث عنه .

٧ (الورع

وهو آخر مقام الزهد فى معناه الخلقى وفروعه تجنب القبائح وتوفير
 الحسنات ثم تجنب ما لا بأس به لاجل ما به بأس .

٨ التبتل

وهو الانقطاع الى الله ولعل ابن الخطيب لا يريد من التبتل سوى الانقطاع عن الشر الى الخير وعن الرذيلة الى الفضيلة والا فهو لا يعتبر من الفضيلة الانقطاع الكلى عن الناس لان روح الاجتماع جبلية فى الانسان لانه مدنى بالطبع والخروج عن الطبع انحراف عن خطة الاعتدال التى هى مقياس الخير .

٩ الرجاء

حقيقته انتظار ما هو محبوب والفرق بينه وبين التمنى والانتظار انه ان كانت حصلت له بعض اسبابه فهو تمن وان كانت الاسباب منغرفةسمى غرورا او مجهولةسمى انتظارا وحالة الرجاء افضل من حالة الخوف كما ان حالة التفاؤل افضل خلقيا من حالة التشاؤم وكثيرا ما يصاحب النفس المجاج من شدة الخوف وظلام اليأس لانها كالصبي لا يستنزل عن اللقمة فى يده الا بالمسانطة والرغبة والحيلة ولا يستخلص منه بالعنف الا عن مشقة والله تعالى هو محل رجاء العبد عند الشدة :

لا ترج الا الله فى شدة وثق به فهو الذى ايدك
حاشاك ان ترجو الا الذى فى ظلمة الاحشاء قد اوجذك

١٠ الرغبة

هى فوق الرجاء وفيها مراتب : الرغبة المتولدة عن العلم ثم الرغبة التى مصدرها الحال ثم رغبة اهل الشهود ولعل هذا النوع هو ما يسميه ابن الخطيب فى قسم الاخلاقيات بالارادة الناشئة عن المعرفة والتى لا يفرق هناك بينها وبين الرغبة .

المعاملات

١ الرعاية

صون الاعمال والاحوال والاقوات والعناية بها .

٢ المراقبة

دوام ملاحظة المقصود .

(٣) الحرمة :

التحرز عن المخالفات والمحاسدات وصيانة الانبساط من الجراءة
والسرور من الامن والشهود من السبب ويقابل صيانة الحرمة فى الاخلاق
بالنسبة لذات الشخص نفسه حفظ الكرامة ولزوم الوقار .
وابرز مظهر للوقار فى نظر ابن الخطيب هو طهارة النفس من الحسد
لان هذه الصفة متى تمكنت واخذت بلب الرجل الا وحملته على ارتكاب
ما يخل بالمروءة .

وقد يطلق ابن الخطيب لفظة الوقار فيريد بها على سبيل المجاز
الصمود للشدائد وعدم استخفافها بالعقل فقد قال يمدح السلطان محمد
ابن حجاج :

ولك الوقار اذا تزلزلت الربا وهفت من الروع الهضاب المنل

(٤) الاخلاص

وهو تصفية العمل مما يشوبه كشهود الفضل وطلب العوض والمخلص
يرى عمله من عين الجود .

(٥) التهذيب :

تطهير العمل من برائن الجهالة وسفاسف العادة .

(٦) الاستقامة :

هناك نوعان من الاستقامة : استقامة صوفية وهى روح يحيى الاحوال
وبرزخ بين التفرقة والجمع ومظاهرها رفض الدعوى وشهود الحقيقة بغير
كسب والبقاء مع اليقظة وترك رؤية الاستقامة - واستقامة خلقية واغراضها
الهوى المغلوب والامل المسلوب والاقتداء الموصل للمرغوب والعز والامن
من الغيوب (ويقصد هنا ابن الخطيب بالعز الوقار ورفع الهمة عن
السفاسف) .

(٧) التوكل :

هو القاء رسة المحب بيد المحبوب واعلاق نعمته به هذا من الوجهة
الصوفية اما من الناحية الخلقية فالواجب هو الاستعداد والعمل : قال ابن

الخطيب في قصيدته : «المنح الغريب في الفتح القريب» التي نظمها ايام
كان مرابطا في خلوات سلا :

والمستعد لما يؤمل ظافر وكفاك شاهد قيدوا وتوكلوا

(٨) التفويض

ورتبته فوق رتبة التوكل وهو نفى الاستطاعة قبل العمل ومعاينة
الاضطرار (فلا العمل منج ولا الذنب مهلك ولا السبب حامل) وشهود
انفراد الحق بملك الحركة والسكون .

وابن الخطيب يقصد بالتوكل تلك الحالة النفسية التي لا تنافي
العمل وانما تحمل العبد على الايقان بأنه مهما دبر وفعل فان الله تعالى هو
المصرف والمدير الحقيقي وقد يتحاشى الانسان النقم وله في طيها نعم .
والله فينا سر غيب وربما اتى النفع من حال اريد بها الضر
وهو يرى ايضا انه وان كان التسبب واجبا فقد يكون تركه انفع
في بعض الحالات :

يقع الحريص على الردى ولكم غدا ترك التسبب انفع التسبب
فكل الامور اذا اعترتك لربها ما ضاق لطف الرب عن مربوب

(٩) الثقة :

وهي لباب التوكل وتتخلص في اليأس من مباراة الاحكام والامن
من فوت المقدور وهذا الامن هو الذي يورث الرضى ويكسب الطمأنينة .

(١٠) التسليم :

هو ان يسلم الانسان الى ربه او الى العباد لا سيما
منهم الاتقياء المخلصين كل ما زاحم عقله وشق على وهمه ولا يقصد ابن
الخطيب اسقاط ملكة البحث والتفكير ولكنه يحض على عدم الاستسلام
الى الوهم المضلل وعدم الانسياق مع تيار العقل الجارف :
علاقة وهم في الخيال تحكمت ويا شد ما يجنى اذا استحكمت الوهم

التخلق

يرى ابن الخطيب ان التصوف خلق وان من زاد عليك فى الخلق فقد اناف فى التصوف واندماج الاخلاق فى التصوف هو الذى حدانا الى استعراض الاحول والمقامات الصوفية فى سياق بحثنا عن نظرية ابن الخطيب فى الفضائل الخلقية .

وليس معنى هذا ان كل خلق فهو تصوف فقد رأينا كيف ان ابن الخطيب يعد من الفضائل الصوفية بعض الحالات التى قد يعتبرها حروجا عن حدود الاعتدال الخلقى وانحرافا عن الجادة الوسطى التى هى مقياس الكمال ولنا مثال فى الزهد فهو فضيلة محققة من الوجهة الصوفية ولكنها لا يكون فضيلة من الناحية الخلقية الا بكيفية نسبية فبينما يكون الزهد فى اقصى مظاهره واشد مجاليه مطلوبا من الصوفى فى كل حال اذا بقيمتا الخلقية تختلف باختلاف الحالات والاوقات والظروف والمناسبات فالزهد فيما فى ايدى الناس فضيلة والزهد فى اطايب العيش انحراف وزهد الرجل فى الاستكثار من المال فضيلة ولكن هذا النوع من الزهد يعتبر تقصيرا فى حق الملك والامير لان المال المصون هو امنع الحصون ولان من قل ماله قصرت آماله وقصور الامل معناه الوقوف والوقوف تقهقر - كما فى المثل الفرنسى - والتقهقر باب الى تدهور الامة وانحطاطها .

وقد تكون فى الزهد فائدة اجتماعية رغم كونه يعتبر فضيلة فردية من الوجهة الخلقية لان زهدك فى شىء معناه فسح مجاله لآخرين وبذلك تقل المزاحمة والتنافس على العرض الفانى ويقل بحكم التبعية الخصام واللجاج فتنبسط على المعمور الطمأنينة والامن والهدوء .

(١) الصبر :

هو حبس النفس على البلوى وعقل اللسان عن الشكوى والصبر باب الفرج .

واليسر بعد العسر موكل به والصبر بالفرج القريب موكل

والصبر حصن :

وان تخن الايام لم تخن النهى وان يخذل الاقوام لم يخذل الصبر
والانسان مغرور فاذا عرته ملة ولم يقابلها بدرع من جميل الصبر
تملكه اليأس :

يغتر مهما ساعدت آماله فاذا عراه الخطب كان يثوسا
وابن الخطيب يوصى بالصبر على اذاية الموزين كما يوصى بالصبر
على صروف الدهر :

واصبر على مضى الليالى انها لحوامل سيلدن كل عجيب
والصبر على المفقود شفاء منه :

فاذا جعلت الصبر مفزع معضل عاجلت علقته بطب طبيب
وما ذا يجدى جزن فائت ؟

فللصبر اولى ان يكون رجوعنا اذا لم نكن بالحزن نرجع فائتا
وبالجملة فالصبر عن المصائب ووقوع سهمها الصائب اولى ما
اعتمد عليه طلابا ورجع اليها طوعا او غلابا .

(٢) الرضى :

الرضى بما يفعل الله قدم فى الحب راسخة وغرة من غر القوم
شاذخة والحب يثمر الرضى بمراد المحبوب ومن معالم الرضى الفناعة :
فاقنع بما اعطاك ربك واغتنم منه السرور وخل ما لا ينفع

(٣) الشكر :

هو السرور بالنعم وحسن استعمالها والثناء عن نوالها وحظ الخواص
منه رؤية المنعم والاعتراف بالعجز عن حق المحبوب وان لا يشتغل عن
الواهب بالموهوب .

ويرى ابن الخطيب ان فى مقام الشكر يتأكد وجود المحبة لان الشكر
كالحب ثمرة الاحسان الذى هو قدر مشترك لهما .

وشكر نعم الله يقيده منها الشارد ويعذب الموارد وهو واجب :

فقابل صنيع الله بالشكر واستعن به واجز احسان الاله باحسان

وقد كان ابن الخطيب يكيل المدح تشكرا لكل من احسن اليه فقد
 اورد فى نفاضة الجراب ابياتا مدح فيها رجلا اكرم مثواه :
 نزلنا على يعقوب نجل ابي حدو فعرفنا الفضل الذى ماله حد
 وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم نله ولا زبد
 يحق علينا ان نقوم بحقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد
 وهو يرى ان الشكر يكون اما بالقول واما بالفعل على قدر الطاقة .
 واشكر الله ما استطعت بفعل وبقول مطول او وجيز
 وشكر الله يكون حتى برحمة خلقه وحسن معاملتهم والبر بهم :
 فاشكره بالرحمة فى خلقه ووجهك ابسط بالرضا او يدك
 والشكر يكون بعدم عصيان الله فى نعمه : قال فى الوصية :
 « فلا تطغىكم النعم فتقصروا فى شكرها وتلفكم الجهالة بسكرها
 وتوهموا ان سعيكم جلبها وجدكم حلبها » وقال فى روضة التعريف :
 « فالمال نعمة الله تعالى فلا نجعله ذريعة الى خلافه فنجمع بالشهوات
 بين اتلافنا واتلافه » .

(٤) الحياء :

انفعال يتولد من تعظيم منوط بود وهو اما حياء من علم العبد بنظر
 الحق او من شهود الحضرة .
 وابن الخطيب يرى ان الحياء من دعائم الفضيلة (١) لان الحياء من
 الله او من الناس قد ينحى صاحبه عن الرذيلة اكثر من مخافة المشوبة
 او العقاب .
 تالله لو ان العقوبة لم تخف» لكفى الحياء من وجه ذاك السيد

(١) وكذلك المعرى الذى يقول :

وهل وجود الحياء اناسا منطويا عنهم الحياء ؟
 (اللزوميات) وابن عربى الحاتمى الذى يقول فى رسالة الاخلاق
 (ص ٥) . « وذلك ان الانسان اذا استرسل مع طبعه ولم يستعمل الفكر ولا
 التمييز ولا الحياء ولا التحفظ كان الغالب عليه اخلاق البهائم . »

وكما يحذر ابن الخطيب من فعل كل ما يستحيى منه كذلك يحذر من مقارفة ما يعتذر عنه «لان مواقف الخزي لا تستقال عثراتها ومظنات الفضائح لا تومن غمراتها» .

ويحمل ابن الخطيب حملة قوية على «من يدركه الحياء من الطفل فيتحامى حمى الفاحشة فى البيت بسببه ثم يواقعها بعين حالق العين ومقدر الكيف والابن ثم يقول مخاطبا هذا الوقح : « تالله ما فعل فعلك بمعبوده من قطع بوجوده » .

٥ (الصدق :

اسم لحقيقة الشيء وهو شعار المومنين والكذب عورة لا توارى وسوءة لا يرتاب فى عارها ولا يمارى .
والصدق افضل الشمائل :

فلا تحسبى والصدق خير سجية ظهور النوى الا بطون النواميس وهو اساس كل رياضة لان تمرين النفس عليه يستلزم تهذيب الاخلاق بالعلم والاخلاص فى العمل .

والصدق فى المسعى من عوامل التوفيق :
أقرضت فيك الله «صدق» محبتى أكون تجرى فيك غير ربيع (٤)

٦ (الايثار : التفضل وهو درجات .

١ (ايثار الغير على النفس فيما لا يحرم .

٢ (ايثار رضى الله على غيره .

٣ (ايثار الله ثم ترك شهود هذا الايثار ثم الغيبة على هذا الترك .

٧ (الخلق :

ويعنى به لسان الدين هنا حسن الخلق مع الناس ببذل المعروف وكف الاذى واساس هذا الخلق المعرفة بمقام العباد وتحسين الخلق مع الله تعالى وذلك بأن يعرف العبد ان كل ما قد يصدر من الناس موجب للغدر وكل ما يأتى من الله يستوجب الشكر وقديما وصف العلاج حسن الخلق بقوله : «هو ان لا يؤثر فيك جفا الخلق بعد مطالعة الحق» .

والخلق الحسن افضل زينة :
ويعلم ثوب المجد بالخلق الرضى كما يعلم الثوب الطراز او الرقم

(٨) التواضع :

هو اذعان العبد لصولة الحق .

(٩) الفتوة :

هى ان لا تشهد لك فضلا ولا ترى لك حقاً ومن اعراضه ترك
الخصومة والتغافل عن الزلة والاذاية وتقريب من يقصى واکرام من يوذى
من غير كظم ولا مصابرة (١) .

والفتوة لا تستلزم عدم الهدف لغرض مرموق :
كل جار لغاية مرجوة فهو عندى لم يعد حق الفتوة

(١٠) الانسباط :

يصف ابن الخطيب الصوفى العارف بأنه هش بش بسام لانه فرحان
بالحق وبكل شىء يرى فيه الحق وان الانس يهذب له جانب الحياة
فيصفو عيشه ويطيب ويذهب عنه خوف الناس .

وكثيرا ما يوصى ابن الخطيب بالبهجة والتفاؤل وطرح الحزن
والتشاؤم فقد كتب الى السلطان ابى عبد الله بن نصر :

الدهر اضيق فسحة من ان يرى بالحزن والكمد المضاعف يقطع
واذا قطعت زمانه فى كربة ضيعت فى الاوهام ما لا ينفع
فاقنع بما اعطاك ربك واغتنم منه السرور وخل ما لا ينفع

الاصول

يحشر ابن الخطيب فى هذا القسم عشرة اركان هى نفس الاحوال او
الخصال التى تحدث عنها فى قسم البدايات او الاخلاق ولكنها هنا موسومة
بطابع التقوية او مندرجة فى طور التحقيق والانجاز .

(١) اذا اردت مزيد بيان لوصاف اصحاب الفتوة وتاريخهم فعليك
برسالة الملامتية لابى عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ١٤٢ هـ . فقد
ذكر فيها من اوصاف الفتيان خمسة واربعين وصفا .

فاليقظة الاولى التى لم تكن سوى انتباه من الغفلة صارت هنا عزيمة
اى تحقيقا للقصد الذى كان فى الاول مجرد توبة واقلاع فصار هنا ازماعا
للتجرد (ويلاحظ ان ابن الخطيب يفرق هنا بين العزيمة والعزم فالعزيمة
فى نظره هى ما ينجم عن اليقظة مباشرة من ارادة الخير او رغبة فى
الفضيلة اما العزم فهو تحقيق هذه الارادة وتنجيز تلك الرغبة) .

وقد اورد ابن الخطيب فى هذا القسم الارادة مع انها مستلزمة
ضمنيا فى القسم البدائى لان اليقظة تستتبع ارادة التوبة ولكنها هنا واردة
بمعنى نهوض القلب لطلب الحق فهى مرحلة انجاز لرغبة تنجلجت فى
القلب فى شكل خاطر فصارت هنا هبة فعلية من هذا القلب نفسه .
والاشفاق ينقلب هنا الى مقام وسط بين الخوف والرجاء واليأس
والسرور والجرأة وهو مقام الادب .

اما الخشوع وبوادر الطمأنينة فانها تترعرع فتصير يقينا يشيع فى
حنايا القلب السكينة التى تتولد عنه .

وهذا اليقين الذى هو اول مرحلة فى رتبة الخواص درجات : علم
يقين وعين يقين وحق يقين .

والحياء والانبساط يصيران انسا ومحبوبة او مرادية (ومقام المراد
فوق مقام المريد) .

والتذكر والشكر العابر يصيران ذكرا مسترسلا ولهجا دائما .
اما الايثار فانه يستحيل الى شعور بحقيقة الانسان التى هى الفقر
اى البراءة من رؤية الملكات ونقض اليدين ثم اللسان جملة من الدنيا
لا مجرد ايثار بعضها او جلها وصفة الفقر هذه لا تستلزم من المريد التجرد
عن صفة الغنى لان الفقر الى الله يقابله الغنى بالله .

الاولدية

تتسم احوال هذه المرحلة - وجلها ناتج عن الاصول المتقدمة -
بالسمة الصوفية واول هذه الاحوال الاحسان الذى هو مقام ركين فى
التصوف لانه يجمع ابواب الحقائق كلها وهو اما احسان فى القصد بالاهتداء
بهدى العلم وانبرام العزم وتصفية الحال واما احسان فى الاحوال بمراعاتها
واما فى الوقت بادامة المشاهدة .

ثم يأتي العلم الذي ينقذ في اسرار المرتاضين وهذا العلم هو ما يسميه ابن الخطيب بالعلم الخفى اى الباطن الذى يقابله العلم الجلى (الظاهر) الحاصل يعيان او استفاضة او تجربة .

ويتجلى العلم الباطن فى انفاس اهل الهمة فيظهر الغائب ويغيب الشاهد وهو «ينبعث من مصدر لدنى ليس بينه وبين الغيث سحب» . وبعد ان تكون المعاينة بصرية تصبح معاينة بعين القلب ثم بعين الروح فتستنير البصيرة وتقوى الفراسة التى يعرفها ابن الخطيب بأنها القطع بالحكم على غيب من غير شاهد وهى فى نظره اما طارئة لم تصدر عن علم ولم تسرعن غير يدعيها واما ثمرة لغرس الايمان تلمع فى ثنية الكشف وعند ما تقوى الفراسة يقع الالهام الذى هو مقام المحدثين وهو فوق الفراسة ويكون اما الهاما نبويا يقع بالوحى واما عيانيا لا يخطيء ويشع الالهام فينسكب فى قرارة القلب برد السكينة (ومن اعراضها الرضى بالقسمة وامتناع الشطح) ثم الطمأنينة التى تتمخض عن حصول الهمة وهى صون القلب من خسة الرغبة فى الفانى والانفة من المبالاة بالعلل والثقة بالامل والنزول عن العمل .

والثمرات التى تهما من هذه الاحوال او المقامات العشرة من الوجهة الخلقية هى الثلاث الاخيرة : السكينة والطمأنينة والهمة . فالساكن النفس من لم ترض همته سكنى مكان ولم يسكن الى احد ودعامة كل سكينة التقوى :

وعليه من تقوى الاله سكينة سيان فيها السر والاعلان والسكينة اذا خالطت بشاشتها القلب حصل الرضى واكمل الاتزان وتمت الرباطة والرسوخ .

ولو ان نفسا مكنت من رشدها يوما وقدسها الهوى تقديسا لم تستفز رسوخها النعمى ولا هلعت اذا كشرت عليها البوسا والسكينة ان «لا يستعظم الانسان حوادث الايام كلما نزلت وان لا يضح للامراض اذا اعضلت لان كل منقرض حقير وكل منقض وان طال فقصير» .

وسمو الهمة من أكد الفضائل لأنها تستتبع كثيرا من الخلال الحسنة
كالترفع عن سفاسف الامور واباء الضيم وعدم التهافت على العرض الزائل
ومن ادلة تسامى همة ابن الخطيب قوله فيما كتب لشيخه ابن
مرزوق :

وما كان ظنى ان انال جراية يحكم من جرائها فى جائر
متى جاد بالدينار اصفر زائفا ودارته دارت عليها الدوائر
وما بالك بنفس تفضل ضرام النار على لبوس العار :
لما توعدتها على المجد العدا رضيت بعيث النار لا بالعبار

الفصل السابع عشر

الرزائل

يرى ابن الخطيب كالغزالي ان الرذيلة عبارة عن انحراف فى الفضيلة لجهة الزيادة او النقصان والافراط او التفريط فالافراط فى قوة العقل يؤدى الى المكر والخدع والحريرة وانحرافها مع النقص يتمخض عن بله وغمارة وحمق ويصدر عن انحراف فضيلة الشجاعة مع الزيادة التهور والصلف والكبر والعجب ومن انحرافها مع النقصان المهانة والذلة والخسة وصغر النفس والعفة ينشأ عن انحرافها افراطا وتفریطا الحرص والشره والخبث والوقاحة والتبذير والمجانة والحسد والملق .

والعدل هو لزوم الوئاض من غير انحراف والاعتدال من غير ميل الى احد جانبي الافراط او التفريط .

وقد دعا ابن الخطيب كسلفه الغزالي الى وجوب قلع العشب التى تنافر الطبع وتعاديها بالجواهر وهى الاخلاق الذميمة .

علاج الرذيلة

وضع ابن الخطيب منهاجا موحدا لعلاج الرذائل وهذا المنهاج يطبق فى اربع مراحل يبدأ المرتاض او شيخه فيها بالكشف عن العلة ثم مقاومتها ومضادة سببها حتى يرتفع عن القلب الوجدانى الاعتدالى عرضه وعن السر والروح مرضه فاذا حصل البرد واستقرت حالة الراحة وجب الاقتصار

على ما يحفظ الصحة والبحث في غضون ذلك عن الاسباب القصوى لحسمها وقطع موادها مع مراعاة الكم والكيف الذين يختلفان باختلاف المزاج الامر الذى يتطلب تحليل المستقر لاستكناه خاصة الطبع وهنا تجب المبادرة الى مقابلة المزاج بضده فيعالج الكبير بالتواضع والشره بالكف عن المتشابهات والافراط فى الامل بالقناعة فاذا صبر الانسان نفسه على مباشرة هذه الاضداد بين ابداء واعادة تمكنت من قلبه خلال الخير لان الخير عادة وهذا العلاج نفسه يجب ان تقدر حدوده تقديرا حتى لا تفضى عملية استئصال الكبر ببذر نقيضه وهو الملق والخسة فيحتاج العلاج الى معالجة ثانية وقس على هذا النحو فى جميع الرذائل .

ومتى فقد الانسان النصيح والمرشد فيعرض نفسه على خلق القرآن وليعمد الى مسطورات حسن الخلق نظما ونثرا .

الرذائل المتفرعة عن الغضب

الغضب قوة قد تطفى فتندفع اما لدرء مكروه او تهديد بمكروه واما لاقتصاص من اذية .

وتنتاب هذه القوة ثلاث حالات : انحراف لجهة الزيادة وهو الافراط وانحراف لجهة النقصان وهو التفريط والتوسط بين الطرفين وهو الاعتدال الذى يتحقق اذا انقادت للعقل اقداما واحكاما .

فاذا انحرف الانسان عن الجادة الوسطى الى جهة الافراط تملكته ارادة الشر وشهوة الظلم واستفزه التهور والصلف واستشاطه الكبر واستخفه العجب والزهو والفرح وتشبعنت روحه باحتقار الخلق والاستخفاف بالناس .

واذا ما فرط احتمل الضيم وصبر على الدل وصغرت نفسه ففقد كل انفة واباء .

وتتولد عن قوة الغضب ميول ونزعات منها ما هو سليق كحب الغلبة والقهر والاستيلاء والرياسة والظهور والظفر والمدح ومنها ما ينبعث كرد فعل لاذية المودين كالتشفى والانتقام :

(١) الرياسة والغلبة

الانسان مولع بالمظاهر مفتون بها ومن مطايا الغلبة وانقهر الولايات التي يحذرنا ابن الخطيب من طلبها رغبة واستجلابا واستظهارا على الحظوظ وغلابا لانها ضارة بالمروءات والاقدار داعية الى الفضح والعار . وما بالك بمنصب يفقدك حريتك وينغص عليك بالمكائد المحوكة حوله عيشك .

استمعوا هذا الوصف الذي صدر عن خبير قاسى مرائر السياسة وذاق حنظل السلطة : «الولايات فتنة ومحنة وأسر واحة وهى بين اخطاء سعادة واخلال بعادة وتوقع عزل وبيع جد من الدنيا بهزل ومزلة قدم واستتباع ندم» . وقد بغضت الولايات الى نفس ابن الخطيب بعد استمتاع بها واستمراء لها حتى صار يرسل بمناسبة وبدون مناسبة امثال هذه العبارات فى سياق كلامه وما اكثرها ! : «اما خدمة دولة فهى على حرام لا ينجح لى فيها ان اعتمدها مرام . . فما هى الا اطماع سرايها لماع» وقد كتب للسلطان ابى عبد الله بن نصر بعد عودته من الاندلس على اثر نزوله عن العرش : «الزمن ساعة فى القصر لا بل كلمج البصر وكأنى بالبساط قد طوى والتراب على الكل قد سوى فلا تبقى غبطة ولا حسرة ولا كربة ولا عسرة واذا نظرت ما كنت فيه تجدك لا تنال منه الا اكلة وفراشا وكنا ورياشا مع توقع الوقائع . . . وانت اليوم على زمانك بالخيار فان اعتبرت الحال واجتنبت المحال لم يخف عليك انك اليوم خير منك امس من غير شك ولا لبس » .

وقد بلغ بابن الخطيب بغض المناصب ان صarach السلطان محمد بن يوسف بذلك قائلا :

قالوا لخدمته دعاك محمد فكرهتها وزهدت فى التنويه
فأجبتهم انا والمهيمن كاره فى خدمة المولى محب فيه
ويحذر ابن الخطيب من حب الظهور موصيا بالخمول « والانخراط فى الغمار والتخلي عن المضمار » .

(٢) المدح :

الانسان ولوع بالتمدح فهو يريد ان يمدحه الناس بما فيه وبما ليس فيه واذا كان الحب الاول ضلالا فان النزوع الثاني ضلال فى ضلال ! !
والانسان مفتون كذلك بالتفاخر ومهما بلغ المرء من الكمال فان غريزة الفخر تبقى مركوزة فى فطرته، والفخر اذا لم يخرج عن حده ولم ينقلب الى ضده لا يعدو التحدث بالنعمة فى معرض الشكر .
وقد فاخر ابن الخطيب معاصريه بشعر كثير ونثر غزير لا سيما خصومه فمن ذلك قوله :

لئن انكرت شكلى ففضلى واضح وهل جائز فى العقل انكار محسوس ؟
وكان ابن الخطيب يفتخر بصلابة عوده وقوة صموده فى وجه الدهر :
وان عركت منى الحظوظ مجربا نقابا تساوى عنده الحلو والمر
فقد عجمت عودا صليبا على الردى وعزما كما تمضى المهنة البتر
وقد كان موقف ابن خلدون قريبا من موقف استاذه ابن الخطيب
فقد خاطب عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب متعرضا لخصومه الكثيرين
بقوله :

حتى انتحانى الكاشحون بسعيهم فصددتهم عنى وكنت منيعى
رغمت انوفهم بنجح وسائلى وتقطعت انفاسهم بصنيعى
وبقوا بما نقوموا على خلائقى حسدا فرامونى بكل شنيع
أنى اضم وفى يدى القلم الندى ما كان طيعه لهم بمطيع
ولى الخصائص ليس تأبى رتبة حسبى بعلمى ذاك من تفريعى
ولنا ان نتساءل هل من المروءة مدح الناس بما ليس فيهم ؟ لم نعر
على جواب عن هذا السؤال فيما قرأناه لابن الخطيب ولكننا عثرنا فى ثنايا
القصائد التى كال فيها المدح للملوك والوزراء على جواب عملى تجسم
فيه الايغال فاستمع اليه يمدح السلطان ابا عنان المرينى بقوله :

متجسدا من جوهر النور الذى لم ترم يوما شمس به بغروب
متألقا من مطلع الحق الذى من نور ابصار وسر قلوب

وكتب يخاطب احد شيوخ الدولة : « أقسم ببارىء النسم وهو ابر
القسم ما فازت بمثلك الدول ولا ظفرت بمثلك الملوك الاواخر والاول »
وخاطب ابو حمو صاحب تلمسان بقوله :
يا خير من خفقت عليه سحابة للنصر تلبسه اجش بجيسا
ولم يكن هذا الايغال فى المديح ملقا من ابن الخطيب والا لما كان
قد خاطب المعتمد ابن عباد عند ما وقف على قبره بأغصات سنة ٧٦١ بقوله :
ماريىء مثلك فى ماض ومعتردى ان لا يرى الدهر فى حال وفى آت
ولعل هذا الايغال راجع الى كون روح ابن الخطيب كانت مطبوعه
على الاندفاع فى كل شئ : فى المدح الى حد التطرف وفى الذم الى
درجة الافراط .

٣ (التشفى والانتقام .

اسباب الغضب

لم يبين ابن الخطيب اسباب الغضب ومستتبعاته بكيفية صريحة
كما فعل الغزالي ولكنه اشار فى سياق نصائحه الى أمور شتى تكدر صفو
الاثلاف وتثير التدافع وتستفز الخنق والغيط بين الناس وغضب بعضهم
على بعض وابرز شئ يقع عليه التنافس هو العرض الزائل وخذع الجاه
والمال فاستتصال الغضب يستلزم البداءة باجتثاب علله القصوى التى
من اعظمها الايغال فى الآمال العجاف ومحبة الدنيا فمحبة الدنيا فى نظر
ابن الخطيب من اهم البواعث على الالتياث بكثير من الخصال الرذيلة .
اما باقى فروع الغضب فهى الظلم (وهو ظلمات يوم القيامة والظالم
ممقوت بكل لسان مجاهر لله بصريح العصيان) والكبر والصلف والنهور
والبدالة والفرح والاستهزاء والاستخفاف بحقوق الله او بالناس وبحقوقهم .

الرذائل المتولدة عن الشهوة

الشهوة احدى قوى النفس وينشأ عن افراطها او تفریطها رذائل
كثيرة منها :

(١) الوقاحة :

الوقح يستسهل ارتكاب العظائم واقتراف الجرائر لانه مجرد من تلك الخاصية التى تقوم فى الظاهر مقام وازع الضمير فى الباطن وهى الحياء الذى يسميه ابن الخطيب بالحشمة ايضا .

(٢) الخبث

(٣) التبذير والتقتير

يوصى ابن الخطيب بالانفاق على قدر الحال ويحذر من البخل «اد ما ربيء بخيل وهو مودود» ويجعل من واجب الامراء والملوك حمل الناس على هذا السنن وقال فى الوصية : «واستحيوا من الله تعالى ان تبخلوا عنه ببعض ما بذل وخالفوا الشيطان كلما عذل واذكروا خروجكم الى انوجود لا تملكون ولا تدرون اين تسلكون فوهب واقدر واورد بفضلته واصدر » .

(٤) السكر :

الخمر أم الخبائث ومفتاح الجرائر .

(٥) الهتك :

هتك اعراض الناس او حرمت الدين ويدخل فى هذا النظر فى شبهات الدين بالتمشيدق والاطالة .

(٦) الزنا وما فى معناه :

يجب تجنبه وتجنب ما تعلق به «ومن غلبت عليه غرائز جهله فليُنظر هل يحب ان يزنى بأهله » .

(٧) المجانة والعبث :

يقول ابن الخطيب «ان الانسان يمكنه ان يعيش عيشة الجد دون ان يشعر بمسيس الحاجة الى اللهو» لان اللهو لم يجعله الله فى الحياة شرطا والمحرّم قد اغنى الله عنه بالحلال الذى سوغ واعطى » .

(٨) الحرص والطمع والجشع :

يعتبر ابن الخطيب الطمع من الخلال التى تبعث المرء على ارتكاب رذائل اخرى كاكل مال الغير بدون حق وبخس الناس اشياءهم كيلا

ووزنا وأكل الربا «الذى هو من مناهى الدين» والرشا «التي تحط الاقدار وتستدعى المذلة والصغار والقمار الذى يحذرنا لسان الدين من التسامح فى لعبته وارتكاب الزور الذى «يقطع الظهر ويفسد السر والجهر» .
ويعالج الطمع بالانحصار فى حدود الحلال فعلى المرء ان يسعى فى التماسه بقدمه وان لا يكل اختياره الا للثقة من خدمه ولا يلجأ الى المتشابه الا عند عدمه فهو فى السلوك الى الله اصل مشروط والمحافظة عليه مغبوط .

(٩) الملق

(١٠) الحسد :

يوصى ابن الخطيب باطراح الحسد اذ ما ساد حسود والحسد يكون على النعم وعلى المواهب بتمنى زوالها عن الغير اما الغبط فهو مغتفر لانه مجرد عن تمنى الزوال والحسد جراءة على الله اذ كيف يحسد احد على موهبة حباه الله اياها ونحن نعلم ان المواهب قسم من بارىء النسم ؟ وما هى فى التحقيق الا مواهب من الله قبل الكون عينها القسم

(١١) الشماتة :

هذا ولم يتوسع ابن الخطيب فى تحليل هذه الرذائل كما انه لم يميز بكيفية صريحة سابقها من لاحقها واسبابها من ثمراتها ولعل فى مجرد سردها على الترتيب المذكور اشعارا بتقدم بعضها على بعض فى نشوئها عن الغضب فالحسد مثلا سابق عن الشماتة بالضرورة لانك فى الغالب لا تشمت من احد بما انتابه من بلاء الا اذا كنت تضمّر له عداوة او حسدا وغير خفى ان اسباب هذا الحسد هى ما ذكر فى قسم الرذائل المتولدة عن الغضب كالكبر والعجب وحب الرياسة او فى هذا القسم كالخبث والحرص .

ورذيلة الزنا نفسها قد تسبق نزعة العبت والمجون فكم من رجل زنى وطبع الوقار غالب عليه حتى اذا تذوق طعم الشمرة المحظورة تهالك عليها فتطبع بالمجانة .

وابن الخطيب ينوع وسائل علاج هذه الرذائل فعلاوة على ما يتطلبه دائما من تدخل الوازع الاعلى وهو السلطان لمنع الناس من البطر والحرص والشره ونهيههم عن التحاسد وترويضهم على الانفاق بقدر الحال وتحديد البخل على موسريهم - يسعى في بذر كراهية هذه الرذائل فى النفوس بما يأتى به من منفردات او استدلالات تتسم بطابع البساطة فقد حاول ان يبرهن عن خسة اللهو بأن الله لم يجعله شرطا فى الحياة وعن خسة الربا بأنه من مناهى الدين وعن اسفاف الحسود بانه لا يسود، وقد يمس ابن الخطيب المستهترين فى النبض الحساس كتحذيره الزانى من الاستسلام لغريزة الهتك بتذكيره انه كما يجب ان لا يزنى الغير بأهله فلذلك يجب ان يتجنب هو هتك اعراض الناس .

ولم يذكر ابن الخطيب - على خلاف سلفه الغزالى - مراتب الحسد كما انه لم يشر الى رذيلة الحقد التى يتولد عنها هذا الحسد ولا الى اسباب العجب ولا انواعه كالعجب بالمال والولد والعلم والنسب ولكنه ذكر ان من الاسباب التى تستأصل الحقد نزول الملمات :

واقول لو كان المخاطب غيركم عند الشدائد تذهب الاحقاد وقد اغفل ابن الخطيب فى سياق كلامه عن الرذائل المتولدة عن القوة الشهوانية الرياء ولكنه مثل له فى محل آخر برجال يصومون ويقومون وليس لهم من صيامهم وقيامهم الا حب التظاهر :

مكناسة جمعت بها زمر العدا فمدى بريد فيه الف بريد
من واصل للصوم لا لرياضة او مدمن للجوع غير مريد
فاذا سلكت طريقها متصوفا فابن السلوك بها على التجريد
فمن قال ولم ينصف بمقاله فعقله لم يرم عن عقله وحيال اثقاله
مانعة له عن انتقاله .

الرذائل المتولدة عن القوتين

وتنشأ عن القوتين الغضبية والشهوانية رذائل منها المكر والخديعة والحيلة والدهاء ونكت العهد والتلبيس والغش والكذب: قال ابن الخطيب:

«عليكم بالامانة فالخيانة لوم وفي الديانة كلوم وحافظوا على الحشمة والصيانة ولا تجزوا من اقرضكم دين الخيانة ولا توجدوا للغدر قبولا ولا تقروا عليه طبعاً مجبولا ووافوا بالعهد ان العهد كان مسئولا» أئى ان قال : «وصونوا المواعد من الاخلاف والايمان من حنث الاوغاد والاجلاف» وقال «اياكم والكذب فهو العورة التى لا توارى والسوأة التى لا يرتاب فى عارها ولا يمارى واكل عقوبات الكذاب بين يدي ما اعد الله له من العذاب ان لا يقبل صدقه اذا صدق ولا يعول عليه ان كان بالحق نطق .

آفات اللسان

اوصى ابن الخطيب بايثار الصمت على الكلام وبحفظ اللسان :
 (١) عن اذاعة السر لان من اتسم «باذاعة الاسرار واللسان المهذار حسب من الاغيار» ولان «افشاء السر دأب الغر»
 (٢) عن النميمة لانها فساد وشتات وفي الحديث « لا يدخل الجنة قتات » .

(٣) عن الغيبة لان باب الخير عليها مسدود .

(٤) عن الاستهتار واللهج بالآمال العجاف .

(٥) عن الكذب

(٦) عن الجدل .

ويلاحظ ان ابن الخطيب كثيرا ما يذكر بعض النقاخص دون ان يحمل نفسه عناء تعريفها فهو مثلا يتحدث عن الغيبة والنميمة على انهما شيئان معروفان لا يحتاجان الى شرح وتبيان على خلاف الحاتمي فى كتابه الاخلاق او الغزالي الذى ما ذكر نقيصة الا واتبعها بتعريف يكشف عن اسبابها ومسبباتها وانواعها واعراضها فهو عند ما ذكر الغيبة والنميمة قال عن الاولى بأن حدها هو «ان تذكر اخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه او نسبه او فى خلقه او فى فعله او فى قوله او فى دينه او فى دنياه حتى فى ثوبه وداره» وعرف الثانية بأنها «كشف ما

يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه او المنقول اليه او كرهه ثالث وسواء كان الكشف بالقول او بالكتابة او بالرمز او بالايماء وسواء كان المنقول من الاعمال او من الاقوال وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه او لم يكن» (احياء ج ٣ ص ١٥٧) .

ولعل ما نلاحظ في اسلوب الغزالي من استقصاء واستقراء وفي اسلوب ابن الخطيب من اشارة وتلميح وايماء في كثير من الاحيان راجع لكون كتاب الاحياء الذي هو مستودع نظريات الغزالي الخلقية كتاب علم تقتضى فصوله تبويبا وترتيبا وحدودا وتعاريف وتفاصيل اللوازم والعلل والنتائج بخلاف كتابات ابن الخطيب في الاخلاق فانها ارشادات عابرة لا تعدو المقامة ان طالت او العبارة المتخللة ان قصرت وكتاب الروضة الذى يصطبغ نوعا ما بالصبغة العلمية يغلب عليه الطابع الصوفى فلا يعرج على الاخلاق الا بقدر صلتها بالتصوف يتفرق لدى ابن الخطيب ما اجتمع عند الغزالي ويجمع عند الاول ما فصل عند الثانى وهذه الخاصية فى الاسلوبين تجعل دراسة نظريات ابن الخطيب ابلغ فى الصعوبة وادعى للكد والعناء .

رذيلة العمل

كان ابن الخطيب مثالا للحيوية والنشاط دؤوبا على العمل لا يقر له قرار ولا تقتصر منه قريحة ولم تكن متاعب الرياسة وشواغل الوزارة لتثنيه عن التأليف فى فنون وعلوم قلما يظفر ولو ببعضها رجل زج بنفسه فى حياة السياسة الصاخبة ولكن نفسا طموحا وحماسا فياضا اهابا بابن الخطيب الى العمل الموصول وما ذلك الارق الذى قاسى منه الامرين طيلة حياته الا مظهر من مظاهر هذه الحيوية التى غمرت سويغات الراحة واقتطعت منها اقتطاعا فصار السهاد عادة والارق طبعاً مستصحبا .

بميدان جفنى للسهاد كتيبة تغير على سرح الكرى فى كراديسر واتصال حلقات التفكير من دواعى الارق القويمة فكم من مفكر اصيب بهذا الداء وكه من فيلسوف طردت الكرى عن مآقيه حركة خاطره الدائبة

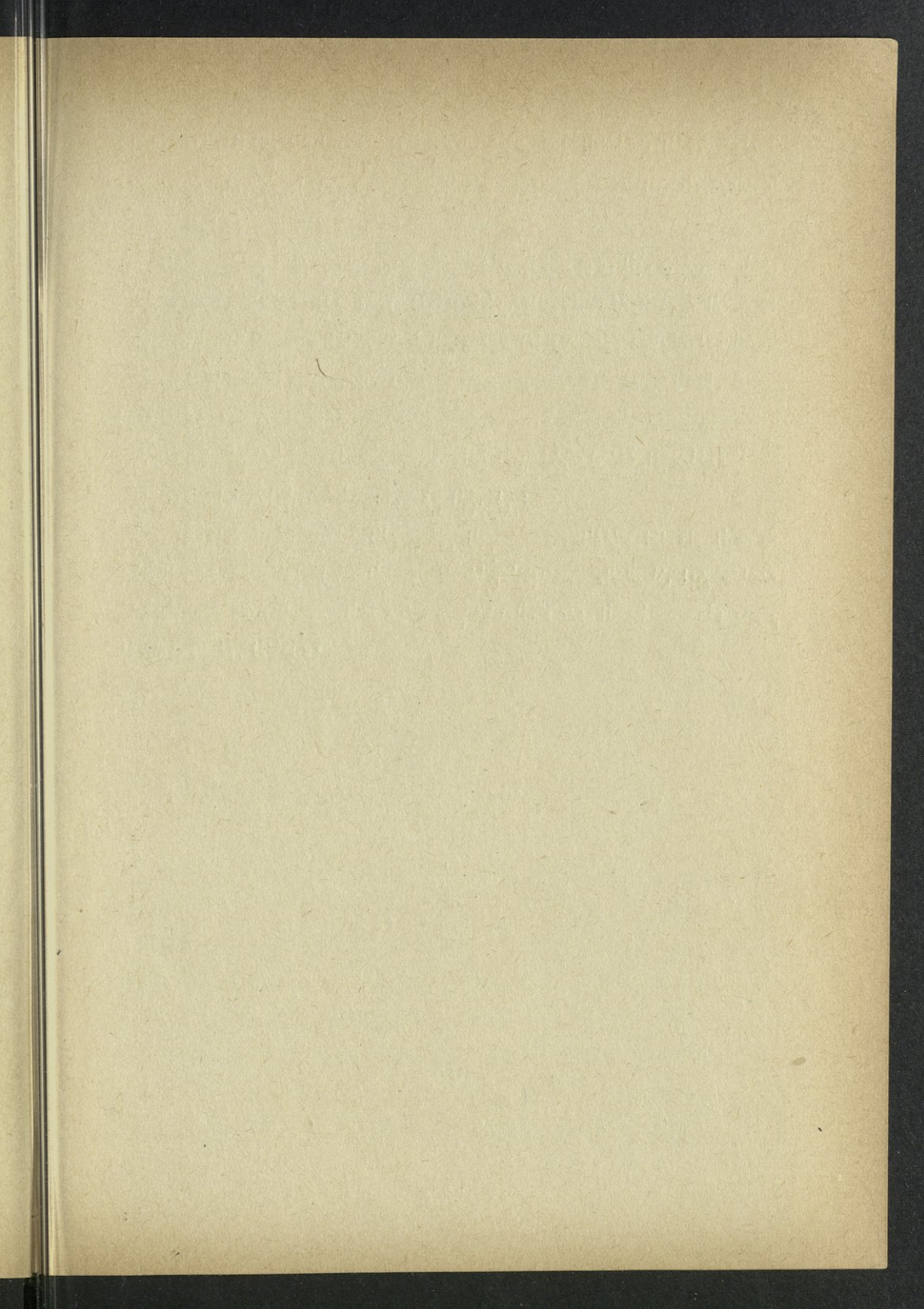
واجلى مثال لذلك الفيلسوف ابن هذيل شيخ ابن الخطيب الذى يقول :
نفى النوم عنى كى اكون مسهدا . فأصبحت فى صيد الخيال مهندسا
ويقول :

متى طعمت عينى الكرى بعد بعدكم فانى فى دعوى الهوى غير صادق
وما يدريك لعل ابن هذيل انما يخاطب تلك الحقيقة العلمية الشاردة
التي صرف الفلاسفة والمفكرون لياليهم بعد انهارهم فى محاولة اقتناصها
وابن الخطيب يرى ان الكسل طبع خامس لانه متى تأصل تعذر
اجتنائه .

والكسل آفة فى كل شىء فهو «آفة الصنائع وارضاة البضائع» .

ومن امثلة ابن الخطيب فى ذم الكسل :

«الندامة فى الكسل كالسم فى العسل» - «الفلاح اذا مل الحركة
عدم البركة» - «تارك امره الى غد لا يفلح للابد» - «الانسان ابن ساعته
فليحطها من اضاعته» - «التسوييف سم الاعمال وعدو الكمال» - «لم يحرم
المبادر الا فى النادر» .



الفصل الثامن عشر

الدنيا رأس كل بلية

لقد كتب ابن الخطيب في ذم الدنيا وفي مساويها الشيء الكثير وله في هذا الباب درر منتشرة في الخطب الوعظية ورسائل الاخوان والقصائد الحكمية وتضاعيف اوصاف الاحداث التاريخية .

وما بالك برجل يجعل حب الدنيا رأس كل بلية ويرى انه لولا هذا الحب لم تزل النفس صافية غالية على سجيتها الاولى وقد حشر ابن الخطيب لدعم كلامه احاديث نبوية وآثارا منسوبة للمسيح عليه السلام وكلاما لابى الفرج البغدادي .

قال المعري :

نحن البرية امسى كلنا دنفا بحب دنياه حبا فوق ما يجب وقد اكّد ابن الخطيب ان الانسان يحب الدنيا لثلاثة عوامل تتجلى في كل منها عاطفة الانانية وحب الذات التي يعتبرها ابن الخطيب اساسا للاخلاق .

(١) محبة البقاء فيها مطلقا من غير اعتبار نوال ولا لذة ويحلل ابن الخطيب هذا العامل بقوله : « ان النفس كانت قبل النزول الى مملكة الحس مقدسة بسيطة لا تعرف المأكّل ولا المشرب غنية بربها لا تجوع ولا تعرى ولا تظلم ولا تضحى في جنة المأوى . فلما أنزلها (الله) الى عالم الجسوم وهو عالم الافتقار والاحتياج الى الوسائط والاسباب وحجب عنها

المدد الواصل من حضرته كان اول ما فتح به عليها فى عالم ملكها الذى استخلفها فيه وملكها مدركات الحواس ٠٠٠ ان تعشقت بهذا العالم وعظم اغتباطها فأحبت البقاء فيه على كل حال حتى مع الآلام والزمانات .
وفى هذا النوع من الحب انخداع لا يخفى :

دنيا خدعت الذى سفرت له عن صفحة لم يحل بها كرم
سرقحت حظ الاله من يده فبان ما كان منه يحترم
فاذا الذى نال منه ليس له منقطع دائم ومنصرم
وهبه نال الذى اراد أما بين يديه المشيب والهزم ؟
«ولو ان النفس لم يقع لها التعشق الا بجارحة العين التى تبصر
المعاني وتدرك اشارات العيون الفواتر ٠٠٠ لكنت لها شركا لا تفنته
وورطة يندر فيها الخلاص حين تطلبه ٠٠٠ فكيف اذا اضيف الى ذلك
فروع اللذات واذيال الشهوات ٠٠٠ ؟ » .

٢ (محبة الدنيا لبقاء النوع : ان النفس لما يئست من البقاء فى
هذا العالم بالذات والشخص قنعت ببقائها بالنوع لتعشقها بعالم الحس
ولذلك حد بعضهم المحبة بالحرص على اليجاد :
أهيم بهند ما حييت فان أمت أولى بهند من يهيم بها بعدى
وهذه المحبة طبيعية اذ يحصل فى النفس لاجل اغتباطها بالبقاء
وفرارها من الموت تشبث بالولد .
قال المتنبي :

وقد ارانى الشباب الروح فى بدنى وقد ارانى المشيب الروح فى بدلى
وأنشد ابن الخطيب يوما ولده وقد رأى منه نشاطا ومرحا انتقل
منه اليه :

سرق الدهر شبابى من يدى ففؤادى مفعم بالكم
وحملت الامر اذ ابصرته باع ما افقدنى من ولد
وهذا ايضا اغترار لان «التعلق بالدنيا والضئانة بصحتها والتمسك
منها ولو بخيطة العنكبوت خسار بين واغتياب بما لا فائدة فيه فكثيرا ما يقع
منه زند عداوة وتعود منفعتة لمضره » .

وصرف الحب «واستغراق الفكر في الفاني الدائر خروج عن القصد
وصواب الرأي» ولكن اذا كان الغرض من بقاء النسل اتصال الخير ودوام
القربة والتزلف الى الله ودعاء الولد الصالح «كان ذلك حميدا وقصدا
سديدا» •

٣) محبة الدنيا للاستكثار من صالح الاعمال •

النفس لا تخلو حتى في هذه الحال من محبة الدنيا على الاطلاق.
«الا انها شعرت بكمالها وعلمت ان هذه الدار دار اكتساب الفضائل التي
تلمس هيئتها (كذا) في دار البقاء وانها مزرعة تحصد في الوجود الثاني
ومثل الانسان في ذلك مثل التاجر الذي يحرص على المقام بارض
الغربة للاستكثار من عائد الربح» •

وهذا النوع من الحب محمود !

وقد ذكر ابن الخطيب لدعم كلامه حديثين نبويين : «احسن الناس
حالا من طال عمره وحسن عمله» و «الدنيا مزرعة الآخرة» ثم اعقب ذلك بما
اوحى الله الى سيدنا موسى عليه السلام ثم بأقوال القوم كأبى حازم
والجنيد •

ذم الدنيا

وقد كتب ابن الخطيب صفحات خالدة في ذم الدنيا وبيان تفاهة
الحياة لا نرى بأسا في الاقتطاف منها لانها لون من ادب ابن الخطيب
الصوفي والاخلاقي نستشف من خلاله كنه نفسية الرجل وهي في نفس
الوقت أنموذج لنفوذ الادراك وقوة التحليل •

نماذج نثرية

«لو ابصرتم مسافرا في البرية يبني ويفرس ويمهد ويعرش ألم نكونوا
تضحكون من جهله وتعجبون من ركافة عقله ووالله ما اموالكم ولا اولادكم
وشواغلكم عن الله التي فيها اجتهدكم الا بقاء سفر في قفر او اعراس في
ليلة نقر» •

ويشبه هذا قول المعري :

أذهب دار بالنضار وربها يخلفها عما قليل ويذهب ؟
«ومن كان بهذه المثابة (أى مشغولا بالدنيا) وان عد يقظاً حازماً
ونحيراً عالماً فانما هو غريق وتائه لا يبدو له طريق ولا ينساع له ريق
ولا يطفأ ببرد اليقين منه حريق »

«ثوب حياتك منسوج من طاقات انفسك والانفاس تستلب درات
ذاتك» وحركات الزمن قوية فى النسيج الضعيف فى سرعة التمزيق ! »
قال المعري :

وما نفس الا يباعد مولدا ويدنى المنايا للنفوس فتقرب
«مركب الحياة يجرى فى بحر البدن برحاء الانفاس ولا بد من عاصف
قاصف بفلكه يغرق الركاب ! »

«الدنيا مناخ ارتحال وتأميل الاقامة فرض محال فالموعد للالتقاء
بدار البقاء جعلها الله من وراء خطة النجاة ونفق بضائعها المزجاة بلطائفه
المرتجاة ! »

«الصحة تجر الى الموت والغفلة تقود الى الفوت والصحة مركب
الالم والشبيبة سفينة تقطع الى ساحل الهرم . . يا كلفا بما لا يدوم
يا مفتونا بغرور الوجود المعدوم - من تيقن بذل العزلة هان عليه ترك
الولاية . . . اذا شعرت نفسك بميل الى شىء فاعرض عليها غصة فراقه» .
« . . . أين المعمر الخالد ؟ أين الولد أين الوالد ؟ أين الطارف أين
التالد ؟ أين المجلد أين المجالد ؟ »

وجاء فى رسالة عزاء خاطب بها لسان الدين ملك المغرب :

أين مروان بن الحكم ودهاؤه وعبد الملك بن مروان وبهاؤه والوليد
وبناؤه وسليمان وغداؤه وعمر بن عبد العزيز وثناؤه ويزيد ونساؤه وهشام
وحبلاؤه والوليد وندماؤه والجعدى وآراؤه أم أين السفاح وحسامه
والمنصور واعتزاه والمهدى واعظامه والهادى واقدامه والرشيد واياته
والامين وندامه والمامون وكلامه والمعتصم واسراجه والجمامه ؟

وقال :

«... وهى الايام اى شامخ لم تهده او جديد لم تبله وان طالعت
المدة فرقت بين التيجان والمفارق والحدود والنمارق والطلى والعقود
والكأس وابنة العنقود فما التعلل بالفان وانما هى اغفاء اجفان والتشبث
بالجبال وانما هى ظل زائل»

ويشبه بعض هذا قول المعرى ايضا :

وكم نزل القيل عن منبر فعاد الى عنصر فى الثرى
واخرج عن ملكه عاريا وخلف مملكة فى العرا
(وهى ايضا شبيهة بأبيات ابى العتاهية التى سنذكرها فى آخر
هذا الفصل) .

«الفراق ذاتى ووعدته ماتى فان لم يكن فكأن قدما اقرب اليوم من العد
والمرء فى الوجود غريب وكل آت قريب وما من مقام الا لزيال من غير
احتيال والاعمار مراحل والايام أميال» .

«والخير والشر فى هذه الدار المؤسسة على الاكدار ظلان مضمحلان
فقد ارتفع ما ضر او نفع وفارق المكان فكأنه ما كان ! »
«والزمان لا يعتبر وحاصله خبر ! » .

نماذج شعرية

فارقنى الرشيد وفارقته لما تعشقت بشئ يموت
باقتراب الموت عللت نفسى بعد الفى كل آت قريب

وقال المعرى :

ما اطييب الموت لشرايه ان صح للاموات وشك التقاء
واستشعر العاقل فى سقمه ان الردى مما عناه الشفاء

وقال ابن الخطيب :

خذ من حياتك للممات الا تى قد خودع الماضى به والآتى
لا تقتدر فهو السحاب بضيعه وبدار ما دام الزمان مواتى

هلا اعتبرت ويا لها من عبرة
والله ما استهللت حيا صارخا
اسفا علينا معشر الاموات لا
ويغرنا لمع السراب فنغتدى
ولو كان هول الموت لا شئ بعده
ولكنه حشر ونشير وجنة
ولو أنا اذا متنا تركنا
ولكننا اذا متنا بعثنا

بمدافن الآباء والامات
الا وانت تعد في الاموات
ننفك عن شغل بهاك وهات
ففي غفلة عن هادم اللذات
لهان علينا الامر واحتقر الهول
ونار وما لا يستقل به القول
لكان الموت راحة كل حي
ونسأل بعده عن كل شئ (١)

اما المعرى فانه يقطع بأن الموت راحة :

اذا افترقت اجزاؤنا حط ثقلنا
ولو كان يبقى الحس في شخص ميت
يدل على على فضل الممات وكونه
موت يسير معه راحة
وان الموت راحة هبرزي

ونحمل عبثا حين يلتئم الشعب
لا ليت ان الموت في الفم اعذب
اراحة جسم ان مسلكه صعب
خير من اليسر وطول البقاء
اضر بلبه داء عياء

وليس معنى هذا ان المعرى لم يهتبل بما بعد الموت فقد قال :

وان اعف بعد الموت مما يريني
ولكنه الرجاء غلب عليه ولعل هذه النفحة المتفائلة هي الوحيدة
التي انقذت في نفس المعرى لان فكره قد طغى عليه التشاؤم :

وانى لارجو الله يوم تجاوز
وقال ابن الخطيب ايضا :

لبسنا فلم يبل الزمان وابلانا
ونغتر بالآمال والعمر ينقضى
وماذا عسى ان ينظر الدهر ما عسى
جزينا صنيم الله شر جزائه

يتابع اخرانا على الغي اولانا
فما كان بالرجعى الى الله اولانا
فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
فلم نرع ما من سابق الفضل اولانا

(١) نسب الماوردي في ادب الدنيا والدين هذين البيتين لسيدنا
على كرم الله وجهه نقلا عن بعضهم .

عند عن كيت وكيت ما عليها غير ميت
 كيف ترجى حالة البقي يا لمصباح وزيت
 بنى الدنيا بنى لمع السراب لدوا للموت وابنوا للخراب
 وما يبقى سوى فعل جميل وحال الدهر لا تبقى بحال
 وكل بداية فالى انتهاء وكل اقامة فالى ارتحال
 ومن سام الزمان دوام امر نقد وقف الرجاء على المحال
 يمضى الزمان فكل فان ذاهب الا جميل الذكر فهو الباقي

وهذا عكس ما يراه ابو العلاء الذى يقول :

سواء على اذا ما هلكت من شاء مكرمتى أو زرى
 وقال ابن الخطيب :

رجم التراب الى التراب بما اقتضت فى كل خلق حكمة الخلاق
 الا الشناء العطر الشذى يهدى حديث مكارم الاخلاق
 بعدنا وان جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صموت
 وأنفاسنا سكنت بغتة كجهر الصلاة تلاه القنوت
 وكنا عظاما فصرنا عظاما وكنا نقوت فها نحن قوت
 وكنا شמוש سماء العلا غرين فناحت علينا السموت
 فكم خذلت ذا الحسام الطبا وذو البخت كم خذلت البخوت
 وكم سيق للقبر فى خرقة فتى ملئت من كساه التخوت
 فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ومات ومن ذا الذى لا يموت
 فمن كان يفرح منكم له فقل يفرح اليوم من لا يموت

وقد رثى ابن الخطيب فى هذه المقطوعة نفسه بنفسه ولعله تأثر فى ذلك بقول ابى العتاهية الذى كان معجبا بزهدياته :

نم على نفسك يامسكين ان كنت تنوح لتنوح ولو عمرت ما عمر نوح

وقد ورد فى مطلع هذه القصيدة :

بين عيني كل حى علم الموت يلوح كلنا فى غفلة والدهر يغدو ويروح
 لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وصوح رحن فى الوشى واصبحن عليهن المسوح

وقال ابو العتاهية ايضا فى ابیات كان یردها ابن الخطیب :

وكل لاعتساف الدهر معرضة مقاتله
وكم قد عز من ملك يحف به قبائله
فلما ان اتاه الحق ولى عنه باطله
رأيت الحق لا يخفى ولا تخفى شواكله
الا ان المنية منهل والخلق ناهله

وقال ابن الخطيب :

ومن رابح الايام يا بنت عامر
ولكنها الدنيا قليل متاعها
هو الموت للانسان فصل لحده
نصيبك فى حياتك من حبيب
والدهر ليس بدائم
والناس آنية الزجاج
ومطلبى والذى كلفت به
لا امل مسعف ولا عمل
من يبت فى غرور دنيا بهم
والنفس لا تنفك تكلف بالهوى
رحل الصبا فطرحت فى اعقابه
قد كان يسترنى ظلام شببتي
أترى التغزل بعد ان طعن الصبا
أنى لمثلى بالهوى من بعد ما

يجوب الفلا راحت يداه بتفليس
ولذاتها دأبا تزور وتزور
وكيف ترجى ان تصاحب مائتا ؟
نصيبك فى منامك من خيال
لا بد ان سيسوء ان سر
اذا عثرت به تكسر
حاولت تحصيله فما حصلا
ونحن فى ذا الموت قد وصلا
يلدغ القلب اكثر الله همه
والشيب يلحظها بعين رقيب
ما كان من غزل ومن تشبيب
والآن يفضحنى صباح مشيبي
شأن الغداة او النسيب نسيبي
للوخط فى الفودين اى ديب

الفصل التاسع عشر

المعري وابن الخطيب

كلاهما مفخرة للأدب وخزانة فياضة بفنون من العلم وضروب من الإدراك قلما ظفر بها غيرهما : دقة في النظر الى الحياة وصدق ومرارة في نقد الاحياء وعمق في تحليل الداء وتشخيص الدواء .

غمرتهما شاعرية مهذبة وجلال هادئ وديع : نقاء في المبني وجمال في المعنى وانتجاع للقيم الحسنى !

كلاهما اصدر عن خيال فياض وفكر ثاقب !

كلاهما فيلسوف ولكن فلسفة المعري عريقة أصالة - في التشاؤم وفلسفة لسان الدين - رغم نقده اللاذغ وغمراته العابرة - موغلة في الرجاء ! نعم بقدر ما كان ابن الخطيب مستبشرا متفائلا تذكىه نفحة صوفية أنارت في ناظره صفحة الوجود وأشاعت في قلبه برد اليقين - بقدر ما كان ابو العلاء موغلا في الارتماض والتشاؤم تطوح به نزعتة الصوفية الفلسفية الى فيافي توغل في دياجيرها فأظلم في نفسه الوجود بعد ان أحلكته الطبيعة في عينيه وشاع في قلبه شك خائق وشعور بالانهيار واليأس من هذا العالم القاتم المثقل بدواعي الريب والظنون !

وما لبث نظرهما الخلقى ان تأثر بهذه الوجهة المتنافرة فطفح فؤاد الاول املا في الناس واستيناسا بهم وثقة بمزايهم واحس بروح الحرية ينعش روحه ونسيم الاختيار يفسح له ربع الوجود !

وانغمر خلد الثاني خيبةً وارتياباً فرأى السعادة في الانعزال والشقاء
في الاتصال ورأى الشر غالباً والخداغ مناصباً والصدق ناصباً فشعر بالقهر
وثقل على نفسه عبء القدر فهامت منه البصيرة وتاه البصر ! •

هو الشر قد عم في العالمين اهل الوهود واهل الذرى
وقد بلونا العيش اطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء
تهوى الثريا ويلين الصفا من قبل ان يوجد اهل الصفاء
قد فقد الصدق ومات الهوى واستحسن الغدر وقل الوفاء
فانفرد ما استطعت فالقايل الصادق يضحي ثقلاً على الجلساء
ان مازت الناس اخلاق يعاش بها فانهم عند سوء الطبع اسواء
فهم الناس كالجھول وما يظففر الا بالحسرة الفهماء
أخلاق سكان دنيانا معذبة وان اتك بما تستعذب العذب
وزهدنى فى الخلق معرفتى بهم وعلمى بأن العالمين هباء
بعدى من الناس برد من سقامهم وقربهم للحجى والدين ادواء

الدنيا ظلام وحق لها ان تكون ظلاما لان لحظ المعرى المطبق لا
يتبين منها الا حلوكمة مدلهمة تصاعد بخارها من بصره الى بصيرته
فاحلواكت فى نفسه مباھج الوجود ! •

الدنيا طعان ورياء ونفاق وعداء ! •

قد حجب النور والضياء وانما ديننا رياء !
انس على الارض تدمى هامها احن منها اذا دميت للوحش أنساء
وعرانا على الحطام ضراب وطعان فى باطل ورماء
وما زالت الدنيا بأصناف ألسن تبين عن غير الجميل وتعرب
والدهر يشتف اخلاءه كئئما ذلك منه اشتفاء

وكأنى بالمعرى شعر بغلو فى حملته على الدنيا فكر على اهلها :
نقمت على الدنيا ولا ذنب أسلفت اليك فانت الظالم المتكذب
وعمها فتاة هل عليها جناية بمن هو صب فى هواها معذب
فما اذنب الدهر الذى انت لائم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا

ولعل ابا العلاء ما اوصى بالزهد فى الدنيا الا فرارا من ذويها فليس
زهده فيها زهدا صوفيا يعتزل ذاتها وانما هو زهد انفجر عن يأس من
الناس ! .

نعم لقد مل ابو العلاء الناس ونفاق الناس ! .

عيبونى حيا ثم قام لهم	ممن وقد غيبونى ان ذا عجب !
رويدك قد غررت وانت حر	بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصها صباحا	ويشربها على عمد مساء
تشاء عمرو اذ تشاء خالد	بعدهى فما اعدتنى الثوباء
اذا رام كيدا فى الصلاة مقيمها	فتاركها عمدا الى الله اقرب

وما بالك باناس تختصم منهم حتى الطباع والغرائز .

وارى الاربع الغرائز فينا	وهى فى جثة الفتى خصماء
ان توافقن صبح اولا فما ين	فك عنها الامراض والاغم
غلب المين منذ كان على الخلد	ق وماتت بقيظها الحكماء

وكيف يستساغ العيش فى مربع يكون مقياس الخير فيه هو الغنا

والجاء :

اذا اقبل الانسان فى الدهر صدقت احاديثه عن نفسه وهو كاذب
ضاق المعرى بهذه الحياة التى غار فيها الحياء وانحى بالاقداغ
على الوالد الذى تسبب فى وجود الولد .

على الولد يجنى والد ولو انهم	ولاة على امصارهم خطباء
تعالى رازق الاحياء طرا	لقد وهت المروءة والحياء

فما كان من ابي العلاء وقد خنقته الضائعة وأخرجته تمويهات
الاجتماع الا ان استنبط الموت واستعجل المنون !

وشف بقاء صرت من سوء فعله	أهش على الموت الزؤام واطرب
ولى مورد باناء المنون	ولكن ميقاته ما أتى
حياة عناء وموت عنا	فليت بعيد الحمام دنا
يد صفرت ولهة ذوت	ونفس تمنى وطرف رنا

ولكن المعرى لم يستطع الخلاص من اتون الحياة فشعر بقهر يسيره
وجبر يحيره فانقلب جبريا خنوعا وانصاع لحكم القدر مرتاعا من صروفه
هلوعا :

جرت زمننا وتسكن بعد حين	وأقضية المهيمن لا نجارى
قضى الله فينا بالذى هو كائن	فتم وضاعت حكمة الحكماء
وهل يابق الانسان من ملك ربه	فيخرج من ارض له وسماء
وما كنت فى ايام عيشك منصفاً	ولكن معنى فى جبالك مجدبا
اذا نزل المقدار لم يكن للقطا	نهوض ولا للمخدرات ابناء
ارى فلکا ما زال بالخلق دائرا	له خبر عنا يسان ويخبأ
حكم جرى للمليك فينا	ونجن فى الاصل أغبياء
أقضية لا تزال واردة	تجار فى كونها الالباء

الفصل العشرون

الاصول الخبيثة في الانسان

يذكر ابن الخطيب في مضمار التخلية ستة أمور يسميها بالجدور الخبيثة ويطالب مريد الفضيلة بتطهير النفس من ادراكها كما يعتبر استئصالها واجتثاثها أساسا لا تنتظم بدونها استقامة ولا يستقيم مع انتفائه كمال .

وهذه الجدور الست هي : اعتقاد قدم العالم وان الله لا يعلم الجزئيات والحلول والاتحاد والاباحة والتناسخ والكسب والجبر الذي تحدثنا عنه في محله من هذا البحث وكل هذه شكوك في نظر لسان الدين ابن الخطيب لا ينسكب برد اليقين في النفس ما دامت تلجج ربيها في تضاعيف الفؤاد .

(١) قدم العالم :

مجموعة العالم جائزة الوجود لا واجبة بدليل جواز الآحاد واختلاف الصفات والاحوال والافاق دليل على انه مختصر باختيار والمختصر باختيار يلزم في العقل ان يكون فعل فاعل مختار فثبت بهذا حدوثه .
زد على ذلك ان اجسام العالم لا بد ان تكون ساكنة او متحركة ولا يعقل العالم ببديهة العقل الا ساكنا او متحركا والحركة والسكون حادثان وما لا يخلو من الحادث فهو حادث .

(٢) علم الله الجزئيات :

يستدل ابن الخطيب على ذلك بأن اختلاف اجزاء العالم بالصفات والاحوال والافاق يستلزم في العقل تخصيصا بارادة والمراد يجب ان

يكون معلوما اذ لا يتوجه القصد الا على ما يدخل في العلم فلا يقع في المقذور جزء ما الا مخصصا بالارادة التابعة للعلم ٠٠٠ ولا قياس بالعلم القديم الذي لا يتناهى على العلم الحديث المتناهى لا سيما والعلم المخلوق قاصر متعدد بتعدد المعلومات والعلم القديم واحد عام ٠٠٠ ومن قال في العلم القديم بأنه يتعلق بالكليات ان ارادوا بالكليات نسبة جامعة لجزئيات معلومات فلم يخالفوا وان ارادوا ان الاحاد والجزئيات غير معلومة فان كانت مما سيوجد فيلزم ان تتعلق بها الارادة بالكون ولا يصح ان يراد ما لا يعلم وان كانت مما لا يوجد وتلك النسبة امر عام فهذا غير معقول اذ لا يعقل ان تعلم نسبة جامعة لحقائق الا مع العلم بتلك الحقائق .

وقد اثارت هذه التهمة التي وجهها الغزالي الى الفلاسفة الاقدمين والمحدثين وبالاخص الفارابي وابن سينا مناقشات حادة بين الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» حيث كفر هؤلاء لامور في مقدمتها اعتقاد قدم العالم وعدم علم الله الجزئيات وبين ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت» او كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والدين من الاتصال» فليراجعها من شاء لان التوسع في هذه المسألة التي لم نوردتها الا على سبيل الاستطراد كنموذج للتحليل والتعليل الفلسفي عند ابن الخطيب - لا تسمح به دائرة البحث الضعيفة .

٣ (الاتحاد (١) والحلول :

يقول ابن الخطيب : ان الاتحاد والحلول من مقالات النصارى الذين يعتقدون ان الالهية حلت في عيسى او اتحدت به ٠٠٠ وهذا لا يكون الا

(١) قد يستعمل لفظ اتحاد في بعض الاحيان كما يستعمل اللفظان الصوفيان وحدة او توحيد للدلالة على المذهب القائل بان الكائنات لا توجد بذواتها بل هي تستمد وجودها من الله وعلى هذا المعنى تكون الكائنات والله شيئا واحدا (عبد الرزاق القاشاني : الاصطلاحات الصوفية طبعة شبرنجر ص ٥) ويذهب بعض الصوفية الى ان معنى الاتحاد هو فناء مراد العبد في مراد الحق تعالى كما يقول علي بن وفا (الشعراني : اليواقيت والجواهر ط ٠ بولاق ١٢٧٧ ص ٨٠ ودائرة المعارف الاسلامية مادة اتحاد) .

بالقدرة القديمة وهو باطل اما الحلول فيلزم منه الافتقار والحاجة الى محل
والمماسمة والانتقال وهذه صفات الاجسام ٠٠٠ وان ارادوا ان الصفة التي
هى القدرة القديمة حلت او اتحدت فمزايلة الصفة القديمة لموصوفها محال
فى العقل ٠٠٠ ويعتبر ابن الخطيب من غلاة الصوفية اولئك الذين يتدرجون
فى المراتب غير المكانية ولا الزمانية يبتغون القرب من الله حتى صبح ان
حقيقتهم العدم اى ان الاشياء والصفات والافعال مع وجود الله عدم
وان وجودهم انما تعين بادراكهم وادراكهم بالله لا بدواتهم ٠٠٠ ويظهر لهؤلاء
الصوفية ذلك عند حب الله اياهم وانه سمعهم وبصرهم ويدهم فاذن ليس
ثمة الا الله وان الخلق له ثم لا شىء الا الله فى الوجود .

وهذا هو ما اشار اليه ابن الفارض حيث قال :

وجاء حديث فى اتحادى ثابت روايته فى النقل غير ضعيفة
يشير بحسب الحق بعد تقرب اليه بنفل او اداء فريضة
وقد اكد ابن الخطيب معتذرا لبعض الصوفية - ان مرادهم بهذا
التوحيد هو التخلص من ضيق عالم الحدوث الى فسحة القدم وهو ثلاث
درجات .

(١) العرفان التام المترجم عنه بأنا وليس الا الله حقيقة «اذ لما
استأثرت البشرية فى فوز المعرفة (؟) واتحد العاقل والمعقول والعالم
والمعلوم لاحت للعالم منه حالة فى نفسه ليس فى الدلالة اللسانية ما
يدل عليها .

(٢) مقام الحاضر فى مقامات المكاشفة والمشاهدة للغائب على
الغيرية وترجمته انت .

(٣) مقام الغائب المستدل بالاثر المحجوب عن العيان بالخبر
وترجمته هو وهو خطاب الجمهور .

فمن زعم انه اتحد بالله بعد ان كان غيره وصار معه شيئا واحدا لم
يكن من الصوفية والمحققين فى شىء وهو الى الهذيان اقرب ومن زعم انه
تلاشت رسومه وفنى عن وجوده ثم فنى عن فنائه وادرك عند ذاك حقيقة

ذاته بذاته وفنى من لم يكن وبقي من لم يزل - ترك وتوقف فيه اذ الحكم لا يسمح على تلك الحال برد ولا اثبات لانها لا تعلم حقيقتها بالبرهان (١) ولا بالنقل ومدعيها من اهل الاستقامة ولا يصح الحكم على ما لا يعرف انما مستند هذه الدعوى الوجدان (٢) وهى من باب خرق العوائد لكن لا ينبغي ان يصدق فى دعواها كل مدع واسرار الله لا ينكر فيها الغامض والاعمض . بهذا نرى ان ابن الخطيب لا يقر اهل الحلول والاتحاد على مذهبيهم فانه يحاول تبرير مقالات بعض الصوفية الذين لم يجدوا عبارة وافيه لوصف الحالة التى اشرقت بها نفوسهم على طريق الكشف والوجدان ولعل هذه المسائرة للحلوليين والاتحاديين من المآخذ التى اخصيت على ابن الخطيب فكانت سبب كارثته .

وقد ابرز ابن تيمية امتناع اتحاد الخالق والمخلوق لان ذلك ان وقع فاما ان يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله وهذا تعدد وليس باتحاد واما ان يستحيل الى شئ ثالث ويلزم من ذلك ان يكون الخالق قد

(١) يوافق ابن خلدون شيخه ابن الخطيب فى ان الكشف من قبيل الوجدانيات التى لا عمل للدليل او البرهان فيها وان هذا هو السبب الذى من اجله قصرت مدارك من لم يشارك القوم فى طريقهم عن فهم اذواقهم ومواجيدهم (المقدمة ص ٣٣٠ - شفاء السائل مخطوط لابن خلدون فى المكتبة الزيدانية بمكناس) .

وقال حسن رضوان فى كتابه «روض القلوب المستطاب» (القاهرة ١٣٢٢ ص ٤٧٤) : «ان ما يصل اليه الصوفية ليس نتيجة لتفكير عقلى وطريق وصولهم اليه هو الوحي والالهام» .

(٢) ويرى صالح بن مهدى المقبل خلاف هذا حيث يقول مخاطبا الصوفية «...وانتم تزعمون ان الكشف ذوقى ولا يمكن اقامة البرهان عليه فكل كشف ادعى يجوز خلافه بجواز غلط صاحبه ولا طريق معرفة الصادق من الكاذب وان كان معرفة ذلك الغلط بالعقل كان الميزان هو العقل وكان حاصل الكشف دعوى علم بلا دليل يمكن اقامته وعلينا حينئذ ان نجرى عليكم حكم من ادعى ما يستحيل اقامة البرهان عليه وقد يكون هذيانا وقد يكون كفرا ونحوه... (العلم الشامخ ص ٧٣٧)

استحال وتبدلت حقيقته وهذا ممتنع على الله اذ الاستحالة تقتضى عدم ما كان موجودا والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته اللازمة له التى هى كمال والتى اذا عدمت كان ذلك نقصا ينتزه الله عنه (مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ١٠١) ويقول ابن تيمية بأن هذه المذاهب لا تخرج عن عقائد النصرى وغالية الشيعة غير ان هؤلاء يقولون بالحلول المقيد الخاص والاتحادية يقولون بالحلول المطلق العام (نفس المرجع ج ٤ ص ٢٦)

(٤) الإباحة :

الاباحيون طائفة اباحوا الاشياء كلها وما حرموا منها شيئا وربما استدلوا بقوله تعالى : «هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا» وهم ثلاثة اصناف :

(١) صنف لم يبال بالتكاليف واهمل تحريم الحرمات وقال : نحن جميعا من بنى آدم لا يحرم الورد على الآس وهذا كفر صراح ولا معارضة بما ذكر من الآى لانها فى معرض الامتنان .

(٢) وصنف وهم قوم من الباطنية يقول بعضهم بأن اقامة الصلاة تكون باقامة وجهة القلب خاصة والاجتزاء بذلك ففسروا آى القرآن بوجوه من الهذيان .

(٣) وصنف حملوا التكاليف على اصول البدايات واسقطوها عند النهايات وربما اغتر هؤلاء بقوله تعالى : «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الآية ٠٠» وهذا ضلال بعيد لانه تنافر مع ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو اخشى الخلق لله وأقربهم اليه وأعلمهم بما يتقى .

(٥) التناسخ (١) :

معناه انتقال النفس من جسد الى جسد آخر «وقد نفاه اهل السنة وأثبتته جماعة من الروافض الغلاة ومنع منه كبار الفلاسفة واختلفوا ٠٠٠

(١) يرفضه كل من ابن سينا وابن الفارض وجلال الدين الرومى والمعرى الذى يقول :

وقد زعموا هذى النفوس بواقيا تشكل فى اجسامها وتهذب
وتنقل منها فالسعيد مكرم بما هو لاق والشقى مشذب

فمنهم من يقول لا بد من حفظ الصورة النوعية فى الاشخاص فلا تنتقل من شخص انسان الا الى شخص انسان آخر ويسمى هذا الانتقال عندهم نسخا ومنهم من لا يرى ذلك بل قد يكون الانتقال من صورة الانسان الى غيرها من صور الحيوان ويسمى ذلك مسخا ومنهم من جوز الانتقال الى النبات ويسمى ذلك فسخا ومنهم من جوزة الى سائر الجمادات وسماء رسخا والذين التزموا حفظ الصورة النوعية قالوا ان كانت من النفس الجاهلة الخبيثة المؤذية تعلقت ببدن دنىء ثم قالوا ان النفس لا تزال تنتقل من جسد الى جسد الى ان تكمل النفس فتصير طاهرة عن جميع العوائق الانسانية ثم تتلخص الى عالم القدس والطهارة الثانية ومن قال بانتقالها الى الهائم من الحيوان قال ذلك عذابا لها الا ان تكون هنالك فى نهاية الظلمة والشدّة » •

وقد علق ابن الخطيب على هذا بقوله : « هذا كله خبط كثير وتخليط طويل من غير اصل يستند اليه ولا دليل بل هو تحكم على الله وتقول عليه فيما هو من غيبه لا سيما وهو اخبار بأمر وقوعى يطلب فيه من الادلة ما يقتضى الجزم بخلاف العلميات فى باب التكليفات فانه يكفى فيه الظنيات • وقد عرفنا ان العلل الذاتية هى التى يجب ان تكون اولا ثم تليها العرضية فاذا كان كذلك فكل بدن يستحق مع حدوث مزاج مادته حدوث نفس له وليس بدن يستحقه وبدن لا يستحقه فاذن اشخاص الانواع لا تختلف فى الامور التى بها يتقوم ولا يتقوم ولا يجوز ان يكون بدن الانسان يستحق نفسا بها يكمل وبدن آخر هو فى حكم مزاجه بالنوع ولا يستحق ذلك بل ان اتفق كان وان لم يتفق لم يكن فان هذا حينئذ لا يكون من نوعه فاذا فرضنا ان نفسا تحدث معه وتتعلق فيكون البدن الواحد منه نفسان معا ثم العلاقة بين النفس والبدن ليس هو على سبيل الانطباع فيه كما بينا مرارا بل العلاقة التى بها هى علاقة الاشتغال من النفس للبدن حتى تستغرق النفس بذلك البدن وينتقل البدن عن تلك النفس وكل حيوان فانه يستشعر نفسه نفسا واحدة وهى المتصرفة والمديرة للبدن الذى له

فإن كان هناك نفس أخرى لا يشعر الحيوان بها ولا هو نفسه ولا يستقل بالبدن فليست له علاقة مع البدن لان العلاقة لم تكن الا بهذا النحو فلا يكون تناسخ بوجه من الوجوه » .

وهذه القطعة التى كتبها ابن الخطيب فى تنفيذ دعاوى القائلين بالتناسخ تعطينا صورة عن اسلوب الرجل فى النقد التحليلى وهو ان كان قد وفق نوعا ما فى نقض الفكرة فى عمومها فقد اخطأ التوفيق فى نقض جزئياتها لانه لم يحاول استكناه اصول المشكل واستعراض عناصره الاساسية قبل محاولة هدمه اذ لا يخفى ان اشياى التناسخ لا يقولون - كما يريد ابن الخطيب ان يفهم - أن هذا الانسان يستحق نفسا والانسان الآخر لا يستحقها اى لا يستحق نفسا فى ذاتها لا فى نوعها - وانما يقولون او يلزم من قولهم ان كل بدن عند خلقه اى بروزه لعالم المادة لا بد له من نفس تتقمصه وهذه النفس لا يعنينا أوجدت مع هذا البدن او قبله اى اكانت فى بدن آخر انعدم فبقيت جائلة تتطلب مقرا جديدا ام لم يسبق ان عرفت جسما آخر - وانما الشئ الجوهرى عندنا هو ان يجد كل بدن بمجرد خروجه من العدم نفسا تخصه ويختص بها ما دام فى هذه الحياة فبهذا المعنى تكون لكل بدن نفس ولكن بعد انبثاقه وظهوره ولا تكون اشخاص الانواع مختلفة كما يقول ابن الخطيب فى نظر انصار التناسخ من حيث الحصول على هذا النفس او التساوى فى تقمصها وانما هى اسبقية فى الزمن لا تقتضى تفضيلا فكان على ابن الخطيب اذن ان يعمل على تنفيذ اصول هذه الفلسفة الشاذة على الاساس الذى ذكرنا اى بعد استقراء «معطيات» المشكل كما يقولون والتماس مراكز الضعف فى هذه المعطيات !

وفى مقدمة من يتبرأ من دعوى التناسخ الصوفية حتى الغلاة منهم فاستمع الى ابن الفارض يقول :

ومن قائل بالنسخ والنسخ واقع به ابرأ وكن عما يراه بعزلة
ودعه ودعوى الفسخ والفسخ لائق به ابدأ لو صح فى كل دورة

وقد علق عبد الغنى النابلسي في شرحه على ديوان ابن الفارض
المسمى «كشف السر الغامض» على هذه الابيات فقال : «التناسخ على
اربعة مذاهب: .

(١) **النسخ** وهو القول بأن الروح الانسانية لا يزال متعلقا
بالبدن الانساني فاذا انقطع تعلقه من بدن تعلق في الحال ببدن آخر في
الرحم .

(٢) **المسخ** وهو تحول الانسانية الى الحيوانية كأن يمسح
الناس قردة وخنازير وفيلة وهو ضد النسخ .

(٣) **الفسخ** وهو انتقال الروح وتعلقه بجسم نباتي لانهطاطه
عن درجة الحيوانات .

(٤) **الرسخ** وهو القول بأن الروح تنتقل من بدن انساني
الى جسم حيواني ومن جسم حيواني الى جسم نباتي ومن نباتي الى
معدني وجمادي (ج ٢ ص ٣٧١ نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت
رقم ١٢٧٥) (أدب) .

الفصل الحادى والعشرون

ابن الخطيب الفيلسوف^(١)

إذا اعتبرنا ان من دعائم الفلسفة نفوذ البصيرة وصدق النظر فى حقائق الحياة والاحياء ظاهرا وباطنا اجتماعيا ونفسانيا والدقة فى استكناه اسرار الكون وماجريات الوجود وعلل الخلق ودقائق الاجتماع واوضاع السياسية ونزغات النفوس وتموج الطباع - قلنا بأن ابن الخطيب عل من ذلك ونهل بالقدح الطافح - كان فيلسوفا من امثل ما انجبته الارحام العربية فقد جمع الى روح الابتكار فى المبانى القويمة والمعانى السليمة والفكر السديدة والاساليب الجذابة - اقتدارا على تحليل خلجات الوجدان مهما دقت وتشريح نزوات النفوس مهما لطفت ورقت وتعليل قواعد الاجتماع وقوانين الحياة مهما استعصت وكان اذا لاحظ اصاب الصميم واذا نظر استكنه السويداء وكانت ملكة التجريد متناهية المتانة فى قواه العقلية ومداركه الفكرية فكان يعمد فى اوصافه وتحليلاته الى الحقائق الثابتة فى الطباع البشرية والاوضاع الانسانية والنظم الاجتماعية فيضعها على المشرحة ويستجلى خفاياها ليخرج لنا صورا خالدة عن سر اختلاف الاتجاهات وتنوع النزعات فى بنى الانسان وانت اذا قرأت صفحة وصف

(١) عرف القدماء الفيلسوف بأنه هو محب الحكمة ولا شك ان محبة الحكمة تقتضى اولا معرفة دقائقها وقد جمع ابن الخطيب بين الشرطين : المحبة والعرفان !

فيها ابن الخطيب طبقة من طبقات الشعب في اهداف غدواتها وروحاتها
واسباب حركاتها وسكناتها وغايات تفكيرها ونوع وجهة هذا التفكير
وصيغة مجموع مظاهر الحياة ومجالى العيش - وجدت ان هذا الوصف
الذى ركزه لسان الدين منذ قرون متطاولة خلت على العناصر الدائبة
والماهيات الخالدة فى الانسانية لا يزال يتفق وما نلحظه الى الان فى
خصائص هذه الموصوفات على اختلافها من مدن وقرى واندية ومجتمعات
وهناك تدرك ان الرجل كان من الفلاسفة المبرزين والخبراء المظلمين
فى علم النفس وعلم الاجتماع .

واذا قرأت ما كتبه فى السياسة وتموجاتها والممالك وتداولها
والامراء وما يحاك حولهم من دسائس ومؤامرات ومختلف الخلايا البشرية
وغرائب مطوياتها - ألفت نفسك امام دراسات نقدية تحليلية لا تصدر
عن مطلق كاتب ومجرد اديب وانما تنبعث من نفس دراية نفحتها فلسفة
طبيعية فطرية بروحها المنطقى السليقى الرصين ! وكيف تنتظم هذه
الحقائق السرمدية التى تمس مختلف ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد
والعواطف النفسية - فى فكر غير فكر حكيم ؟ ! بل كيف تتناسق نبراتها
فى قلم غير قلم فيلسوف ؟ !

لقد جمع ابن الخطيب خصائص لو توفرت احداها فى رجل لاعتبر
بحق من الفلاسفة المبرزين : فمن نقد دقيق للمجتمعات البشرية فى
اطوار التاريخ يستلزم سعة عارضة وقوة بديهة الى محاولة موفقة فى
التنسيق بين التعاليم المستخلصة من تجارب الحياة وبين مقتضيات
الفضيلة كما يراها العقل والشرع والوجدان الى سعى جدى فى وضع
أسس المدنية الفاضلة على نهج يرتضيه القرآن ويستسيغه الطبع ويطرب
له الوجدان ويضمن السعادتين للانسان !

وقد توفر ابن الخطيب على دراسة الفلسفة القديمة كما يتبين ذلك
مما يورده من تحليلات لبعض مشاكلها الغامضة وهو لا يقتصر على الدراسة
الموضوعية السطحية وانما ينقد ويؤول ويوجه فى اسلوب يجمع بين
البساطة والوضوح والدقة والفن ويشهد بضاعة الرجل وقوة ملكته وقد

تعرض لمختلف المدارس الفلسفية والاشراقية والصوفية شرقا واندلسا بالنقد المستقرى واصفا خصائص كل منها والطابع العام الغالب على انظارها وقد امتاز علاوة على ذلك بنظرات طريفة اسلوبا وروحا حول المعرفة والحب مازجا بين الطريقة العقلية التى هى طريق الحكماء والمنهج الوجدانى الذى هو منهج الصوفية والمهيع الشعرى الذى هو ميسم عباقرة الادب ! وكيف لا وابن الخطيب فيلسوف صوفى شاعر اديب؟ !
وسنورد عن ذلك كله امثلة تكشف بعض جوانب انظار ابن الخطيب فى ادق المسائل العلمية والاجتماعية والميتافيزيكية والنفسية .

القلب والروح والنفس والعقل

يقول ابن الخطيب : «القلب والروح والنفس والعقل : مدلولاتها وان تعددت الاسماء فهى ادراكات نور واحد والخلاف اللفظى لا يعارض عرضا وقد جعلناها بمعنى واحد» وهذا هو عين ما نراه عند الغزالى الذى يسمي اداة المعرفة والحب بالقلب والعقل والنور والبصيرة (احياء ج ٤ ص ٢٥٥) وقد ذكر ابن الخطيب بأن منبت شجرة الحب «روح ونفس وعقل» .

(١) القلب : يطلق على معنيين :

(١) الشكل اللحمى الصنوبرى الحسى المعلق فى الصدر وهو معدن الروح الحيوانى .

(٢) لطيفة ربانية من العالم الروحانى هى حقيقة الانسان والشيء العالم المدرك منه . لها بالقلب الجسدانى تعلق والمراد بالقلب فى السنة والقرآن المعنى الذى يفقه من الانسان ويعرف حقيقة الاشياء ويكتنى عنه بالعنصر المسمى قلبا للعلاقة .

ومن تتبع كلام الصوفية لاحظ ان القلب عندهم هو اداة المعرفة بالله فهو اداة ادراك وذوق لا محل حب وعاطفة لان منبتق العاطفة لديهم هو الروح وقد ينسبون الحب احيانا الى القلب كقول ابن الفارض :
اروح بقلب بالصباية هائم واغدو بطرف بالصباية هام

(٢) الروح له معنيان :

(١) جسم لطيف بخارى يتكون من لطافة الاخلاط تكون الاعضاء من لطافتها ومنبعه من ايسر تجويفى العضو الصنوبرى اللحمى بالقلب وهو مركب السر الالهى الامرى ومتعلقه ٠٠ ومنه يتصل بواسطة العروق الى سائر اجزاء فيفيد الحياة ويفيض عليه انوارها ٠

(٢) الروح المتقرر العلامة من الروح الاول وهو لطيفة ربانية عالمة مدركة فى الانسان واذا ركبت الروح المذكورة وسرت فى البدن كانت فى العين بصرا وفى اللسان ذوفا وفى الاذن سمعا والانف شما وفى الجلد لمسا ظاهرة عليها صفة المبدأ الذى هو مع كل شىء وليس له صورة تقيده وباب البحث عن هذه اللطيفة مسدود شرعا ٠٠ «يسألونك ٠٠» فالروح الاول هو الروح الحيوانى والثانى هو الامرى ٠

وقد تحدث ابن الخطيب فى غير الروضة عن انغلاق سر الروح فقال:

واستأثر الرحمن جل جلاله عن خلقه بخفى سر الروح والذى يؤكد لنا ان ابن الخطيب يعتبر القلب والروح شيئا واحدا تقريبا رغم تغاير الحد والتعريف نوعا ما انه يرى فى كليهما مركزا للمعرفة والادراك وسنجد هذا الوصف للنفس عند ما يكشف لنا ابن الخطيب عن خصائصها ومميزاتها ٠

ويروى ابن زين عن اكثر العلماء ان الروح والنفس شىء واحد حيث ورد فى الاخبار اطلاق كل منهما على الآخر فقد روى ابو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين يود لو خرجت نفسه والله تعالى يحب لقاءه وان المؤمن لتصعد روحه الى السماء فتأتيه ارواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفه من اهل الدنيا (جلاء العينين ص ٨٨) ٠

ولعل فى هذا الحديث - ان صح - ما يفيد فى نظرنا ان الروح والنفس يختلفان نوعا من الاختلاف وما يؤكد تلك النظرية التى تقول بأن الروح هى النفس ولكن منفصلة عن الجسد الامر الذى قد ينجم عنه بعض

التباين في الخصائص ويدعم هذا ما ساقه صاحب جلاء العينين في نفس الصفحة من الكتاب المذكور وهو ما روى عن ابن عباس انه قال: ان في ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم .

وقد عرف الجرجاني الروح بأنها «اللطيفة العالمة المدركة من الانسان الراكبة على الروح الحيواني» ثم وصف الروح بأنه «نازل من عالم الامر تعجز العقول عن ادراك كنهه وذلك الروح قد يكون مجردا وقد يكون منطبقا في البدن» (مادة روح التعريفات ص ٧٦-٧٧) .

ونلاحظ ان ابن الخطيب والجرجاني اتفقا في تعريف الروح في ثلاثة اشياء : كونها لطيفة ربانية عالمة مدركة وكونها راقبة على الروح الحيواني وكونها من عالم الامر .

ويرى القشيري ان كلا من النفس والروح مودعان في القلب الجسماني الا ان الاولى محل للاخلاق المذمومة بينما الثانية محل للاخلاق المحمودة وان جملة الروح والنفس والبدن تكون انسانا واحدا بعضه مسخر لبعض (الرسالة ص ٤٤) .

ومما يدل على ان ابن الفارض الذي نعتبره من مصادر ابن الخطيب في ميدان الحب ومركزية الحب - لا يفرق بين النفس والروح قوله :

قلبي يحدثني بأنك متلفي روحي فداك عرفت ام لم تعرف
مالي سوى روحي وباذل نفسه في حب من يهواه ليس بمسرف

وذلك رغم ما قد نجده عنده مما يفيد نوعا من الاختلاف كما في قوله:

فخذ علم اعلام الصفات بظاهر المعالم من نفس بذاك عليمه
وفهم اسامي الذات عنها بباطن العوالم من روح بذاك مشيرة

٣ (العقل يطلق على معنيين :

١ (تعقل الاشياء .

٢ (وعند اهل الصنائع العلمية والانتظار الحكمية يطلق على

انحاء منها العقل الفعال وهو اول موجود اوجده الله وهو جوهر بسيط

روحاني يحيط بالاشياء كلها احاطة روحانية وهو عندهم الكلمة
المردودة والانبة المنفعلة ووالد النفس وقيل ان المشكاة معناها
النفس الكبرى المشرقة من نور الله وهو العقل الكلى المبدع الاول وهو
المصباح والزجاجة الهيولى والكوكب الدرى الصورة المجردة والشجرة
المباركة نفس الكل ذات الفروع ٠٠ باطن العقل محل المشاهدة والارواح
محل المحبة والقلوب محل المعرفة وسر السر (والسر مالك عليه) لا اطلاع
عليه لغير الحق ٠٠»

وقد رسم ابن الخطيب فى هذه الفذلكة الموجزة صورة عن تطور
الاصطلاح الصوفى الفلسفى فى موضوع العقل فاورد جملة من اللفاظ
متسلسلة يمكن رد كل منها لمدرسة خاصة من المدارس الصوفية او
الفلسفية كما اجمل خصائص العقل وميزات الروح والقلب ٠٠ وان دل على
شئ فأقل ما يدل عليه ان الرجل يستحضر تفاصيل المذاهب الفلسفية
ويدرك كنه مصطلحاتها ويتصرف فى تعابيرها تصرف العارف الخبير
الذى لا تخفى عليه دقائق واسرار هذا الفن وسنجد لهذه الملكة برهانا
اقوى فى الدراسات التحليلية التى خص بها ابن الخطيب كل مدرسة .

فاستمع اليه كيف يحلل العقول الثمانية نقلا عن الحكيم فى البرهان
«العقول ثمانية: التصورات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والعقل النظرى
والعقل العملى الاول قوة النفس وتقبل بها ماهية الامور الكلية والثانى
قوة مبدأ التحريك القوة الشوقية الى ما يختار من الشوقيات لاجل غاية
مظنونة ويقال لقوى كثيرة من العقل النظرى عقل فمن ذلك العقل الهيولى
وهو قوة للنفس مستعدة لقبول الاشياء مجردة عن المادة والعقل بالملكة
وهو استكمال هذه القوة حتى تصير قوة قربية من العقل ومنها العقل
بالفعل وهو استكمال للنفس بصورة ما ومنها العقل المستفاد وهو ماهية
مجردة مرتسمة فى النفس على سبيل الحصول من خارج والعقل الذى
يطلق على العقول الفعالة وهى كل ماهية مجردة عن المادة» .

ويكاد ابن الخطيب لا يقل ايضا فى بيان مراتب العقول وخاصة
كل منها عن فلاسفة العصور الحديثة وحتى عن شراح فلسفة أرسطو

كالفارابى الذى يَقول بأن العقل يترقى من العقل الهولانى الى العقل بالملكة الى العقل المستفاد الى العقل بالفعل وهو الذى يتلقى المعارف المجردة من العقل الفعال والعقل الهولانى هو عقل الغريزة والاحساس وهو الذى تكاد الحيوانات الناطقة وغير الناطقة تتساوى فيه اما العقل بالملكة فهو عقل المعلومات التى تحصل من التجارب الحسية والمعارف المتلبسة بالماديات والعقل بالفعل هو عقل الكليات المجردة .

وقد عرف ابن الخطيب العقل بأنه غريزة يتهياً بها درك العلوم النظرية ولم يصفه بأنه جوهر لطيف لما يعلم من فساد ذلك حيث « ان الجواهر متماثلة فلا يصح ان يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العقل بوجود نفسه عن وجود غيره والثانى ان الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرًا لجاز ان يكون عقل «غير عاقل كما جاز ان يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين ان يكون العقل جوهرًا» (المواردى كتاب ادب الدنيا والدين بهامش الكشكول ص ٤) وقد توافق لسان الدين مع الماوردى فى اصول تعريف العقل الذى يرى هذا الاخير انه هو «العلم بالمدركات الضرورية» وانه نوعان احدهما وقع عن درك الحواس (وهو العقل بالملكة عند الفارابى وارسطو) كالمرئيات والمسموعات والطعوم والثانى ما كان مبتدأ فى النفوس كالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود او عدم وان من المحال اجتماع الضدين (ادب الدنيا والدين ص ٥) والعقل المكتسب نتيجة العقل الغريزى (وهو العقل الهولانى عند ارسطو والفارابى) وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة (ص ٦) والعقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزى لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزى عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل (ص ١٤) .

٤ (النفس وهو الذى مفردة بمعنى الجميع . . وما مثل النفس والعقل والقلب والروح الا كملك وكمدينة تسكن فوجوده فى القلب يسمى روحا وفى الدماغ نفسا وفى المرأة المائلة بالطف ابهائه عقلا ومجموع ذلك هو الملك وهو السر الذى يتنزل بأمر الله .

١) والنفس عند رجال « التصوف الخلقى » هو الاصل الجامع
لصفات الذميمة من الانسان .

٢) وعند القدماء ومتأخري الحكماء : جوهر نوراني حي الهى
لا تبید قواها ولا تنقطع وهى كلية وجزئية فالكلية نفس العالم بأسره وهى
التي تبید قواها ولا تتعطل افعالها لصدورها عن الموجود الاعظم اول صادر
عن ابداع الله وهو العقل . . وقوتها سارية فى جميع اجزاء العالم وأشخاصه
والجزئية نفس شخص من اشخاص العالم كالكوكب والافلاك وهى التي
تفيد الحياة وتدبره تدبير النفس الكلية اذ هى صادرة عنها صدور الكلية
عن العقل . . ولكل جسم حي متحرك نفس والنفس الناطقة تخص الانسان
وهى سر الحياة والحركة والارادة والفكر والروية والمعنى المتصل منه
بالعوالم الالهية » .

وهذا التعريف الذى اورده ابن الخطيب للنفس شبيه بما اورده
الجرجاني فى تعريفاته حيث قال : « النفس هى الجوهر البخارى اللطيف
الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الادارية » ثم قال : « وسماها الحكيم
بالروح الحيوانية فهو جوهر مشرف للبدن وعند الموت ينقطع ضوءه
عن ظاهر البدن وباطنه واما فى وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون
باطنه فثبت ان النوم والموت من جنس واحد لان الموت هو الانقطاع الكلى
والنوم هو الانقطاع الناقص وثبت ان القادر الحكيم دبر تعلق جوهر
النفس بالبدن على ثلاثة اضرب الاول ان بلغ ضوء النفس الى جميع اجزاء
البدن ظاهرة وباطنة فهو اليقظة وان انقطع ضوءها عن ظاهره دون باطنه
فهو النوم او بالكلية فهو الموت » (مادة نفس ص ١٦٤) .

ويتابع ابن الخطيب تحليله للنفس فيقول :

« وحدها الذى اختاره المعلم الاول وهو تمام لجسم طبيعى آلى ذى
حياة بالقوة وفيه نظر اذ لم يكشف قناعا ولم يشرح حقيقة ذلك التمام » . .
وهذا الحد الذى ينسبه ابن الخطيب لارسطو هو نفس الحد الذى اختاره
الفارابى للنفس وكذلك نفس الحد الذى انتقاه ابن سينا مع فرق طفيف
حيث يقول : « النفس كمال اول لجسم طبيعى آلى او جسم طبيعى ذى حياة »

والنفس انما كانت كمالا لانها صورة او ماهية تتحقق بها الذات، فانتقاد ابن الخطيب على ارسطو هو كذلك انتقاد على ابن سينا ولكن ابن الخطيب تحاشى الاشارة الى الشيخ الرئيس لما له من المكانة عنده ويلاحظ ان الفرق ليس كبيرا بين الحدين رغم اقتصار ابن سينا على وصف النفس بالحياة دون تمييز لنوعية هذه الحياة اهي بالقوة ام بالفعل ! لان النفس وان كانت ليست ذات حياة بالفعل ذاتيا فهي تكتسب هذه الحياة الفعلية من فيض العقل عليها .

وقد حمل ابن الخطيب على من سماهم بغلاة الصوفية الذين قالوا بأن «جوهر النفس مجهول الذات» مؤكدا انه «قد تقرر ادراك حقيقة هذا الجوهر الذى خفى لشدة ظهوره كونه اثر النور الذى مثل نور ومولى القوم منهم» .

وقد تعرض ابن الخطيب فى اسلوب تحليلي كاشف لرتب النفس وافسامها ثم اثار بعض البحوث البرهانية :

رتب النفس : النفس قبل ان تكسب العلوم الضرورية والقضايا الوجدانية تسمى نفسا بسيطة ساذجة وعقلا غريزيا اذا حصل لها تمام التمييز وتمام الحواس واستقامت فكرتها ورؤيتها وحقت المعانى الكلية وعقلا بالملكة اذا حصل لها التصرف فى الموجودات . . وربطت الاسباب بمسبباتها وفصلت القبح من ضده ونظمت الاقيسة البرهانية . . وعقلا مكتسبا اذا تعشقت بالحكمة وكلفت بالكمال وقهرت الطباع وحصلت على استيفاء معنى الانسانية وعقلا بالفعل اذا حصلت لها المعلومات الالهية وتصورت الامور الروحانية والجواهر المفارقة واحاطت بذلك كله . . والنفس النبوية كأنها كلى من الكليات ومبدأ من المبادئ . .

اقسام النفس : النفس النباتية والنفس الحيوانية والنفس الناطقة والنفس الشوقية والنفس الحكيمة العارفة والنفس النبوية وهى الروح القائم به حقائق الارواح وهى عندهم مستوى الاشياء المخزونة القدسية والالواح التى فى ضمنها علم الاولين والآخرين وبريادتها تتجرد سائر النفوس من المواد وبفتحتها تتصل بالعوالم المجردة وسعادتها بقدر قربها

من الله ولذاتها بقدر حبها له ومن استولى على النفس النبوية من
المخصوصين باصطفاء الله تناول ما شاء من حيث شاء وقام من مجلسه
من حيث شاء واطاعه بالله معقول التصرف».

وما يسميه ابن الخطيب اقسام النفس هو ما يسميه ارسطو وابن
سينا يقوى النفس التى تتفاوت عندهما من نفس نباتية تقوم بالتغذية
سينا يقوى النفس التى تتفاوت عندهما من نفس نباتية تقوم بالتغذية
النفس الناطقة التى لها مشاعر ظاهرة كالبصر والسمع والذوق والشم
واللمس.

فالنفس واحدة عند الثلاثة غير ان لها وظائف يرتبها ارسطو من القوة
الغذائية الى الارادية الى الذهنية التى هى ارقاها وامسها بالتجريد اما
الصوفية فان لهم تقسيما آخر يتجلى فيما كتبه حسن رضوان الصوفى
المصرى المشهور فى كتابه «روض القلوب المستطاب» حيث قال (ص ١٤٠)
ان الاصل فى النفس الواحدة لا التعدد وان ما يتعدد فيها انما هى
«أحوالها» التى تختلف عليها فى سيرها فهى امارة لوامة وملهمه مطمئنة
وراضية مرضية كاملة .

والغزالى يرى ان القوى الباطنية موحدة فقد نقل عنه ابن سبعين فى
احد كتبه المخطوطة ببرلين نصا ورد فيه ان الغزالى يعتقد فى العقل ما
يعتقده الفيثاغوريون اذ يطلقون العقل على الذى يطلقون عليه النفس وهذا
يفهم من كلامه فى (المعارج العقلية) و (فى شرح عجائب القلب) عند ما
قال: «جميع ذلك لطيفة» (يعنى العقل والروح والنفس) ويظهر ذلك فى
تقسيمه للارواح فى «مشكاة الانوار» وما اشار اليه فى «كيمياء السعادة»
٠٠ وان كان الحكماء يطلقون النفس على ما يطلقون عليه العقل ويقولون بأن
الجواهر الروحانية لا تتنوع ولا تختلف فانهم لا يضعون الرتب العقلية
والعقول المادية (مجموعة نصوص غير مطبوعة للاستاذ ماسينيون
ص ١٣٠ - ١٣١) .

وقد اكد الغزالى من جهة اخرى فى «الرسالة اللدنية» ان التعلم
الربانى على وجهين احدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلم والاخر من

داخل وهو الاشتغال بالفكر والتفكير فى الباطن بمنزلة التعلم فى الظاهر فان التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئى والتفكير استفادة النفس الكلى والنفس الكلى اشد تأثيرا واقوى تعليما من جميع العلماء والعقلاء والعلوم مركوزة فى اصل النفوس بالقوة كالبنذر فى الارض والجوهر فى قعر البحر او فى قلب المعدن (القاهرة ١٣٢٨ ص ٢٣-٢٤) .

البحوث البرهانية :

(١) « النفس جوهر من غير جسم تقديره كل جسم فهو ذو جهات وليس يمكن الجسم ان يتحرك الى جهاته الاربع دفعة واحدة وكل جسم يتحرك الى جهة دون جهة فلسبب يظهر ان السبب جوهر آخر غير الجسم ليس بجسم ولا فى جسم وقولنا جوهر آخر لان العرض لا فعل له والجسم قد تبين انه لا يفعل ولا يتحرك الا بغيره » .

(٢) « النفس باقية بعد الموت لا تفسد بفساد الجسد .. لانها ان كانت دائرة لا فرق بينها وبين الجسد ولا بد حينئذ من ثالث يربط بينها وبين الجسد فى حال الحياة .. والنفس حية بالعقل والجسد حياته بالقوة والحياة للنفس بالذات والحياة للجسم بالعرض .. وهى لا تفسد لان لها افعالا خارجة عن ذات الجسم بغير اعضاء الجسم فى المواضع النائية عن الجسم من سياسة وادراك اشياء فانية عن الجسم فلا محالة ان جوهرها باق بعد فساد الجسم والا كان فعلها اشرف من جوهرها » .

وكل من ابن سينا واستاذ الفارابى يقول ببقاء النفس بعد الجسد خلافا لاتباع ارسطو الذين لا يعرفون للنفس الانسانية وجودا مستقلا بعد الحياة ولا بعث بعد الموت الا للنفس الانسانية التى لها استعداد للخطاب .

(٣) « النفس ليست صورة ملازمة للجسم .. لانها تجول عند النوم وتفارق البدن .. ولو كانت تماما للبدن لما فارقتة ولا علمت الشئ البعيد ولكانت لا تعلم الا الشئ الحاضر » .

(٤) « الرد على من قال هى صورة للمزاج حدثت عند وجوده وتقنى بانحلال بسائطه : النفوس موجودة قبل الائتلاف وهى التى ابدعت الائتلاف فى البدن وهى القيمة عليه .. فالنفوس جوهر والائتلاف ليس

بجوهر والائتلاف يحدث عن امتزاج الاجرام .. والجسم يتحرك من الوسط او على الوسط او الى الوسط فلو كانت النفس من امتزاج الطبائع لوجب ان تكون نازلة طالعة في زمان ونحن نجدها تحرك الحركات الارادية والاختيارية وتقهر الجسم عن طبعه فصح ان الذي تقهره وترده عن طبعه شئ ليس بجسم ولا عرض .. ولو كانت مركبة او حدثت عن مركب لكان الجسم منها يعقل .. وان جعلناها روحانية وقلنا فيها مركبة لزمنا التناقض لان الروحاني مفارق للمادة فالنفس ليست بمركبة ولا بمزاج ولا ما حدث عن مزاج »

٥ (« ان قيل ان النفس كمال البدن الطبيعي والكمال ليس بجوهر لان تمام الشئ ليس من جوهر الشئ قلنا التمام نوعان تمام مفارق وتمام غير مفارق فالتمام المفارق كالملاح والراكب للفرس .. والتمام غير المفارق كحرارة النار ويرد الثلج فالنفس للجسم الطبيعي تمام مفارق فلا يدخلها الفساد بدخوله على الجسم » .

٦ (نزول النفس الى هذا العالم هو غير برهاني .. وقال الحكيم في كتاب ميتولوجيا ليس كل نفس وردت الى عالم الكون تكون محبوسة فيه كما انه ليس كل من دخل السجن يكون محبوسا فيه .. وقيل اهبطت لتعلم ما لم تكن تعلمه عند هبوطها قال الرئيس الحكيم ابو علي بن سينا : ان كان اهبطها الاله لحكمة خفيت عن الفطن اللبيب الاروخ فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع وقال ابن الخطيب في محل آخر من الروضة :

« اتفق المتكلمون في النفس من الحكماء والقدماء وغيرهم على ان النفس انما اهبطها الله الى هذا العالم بسيطة بريئة من المعارف جملة واليه الاشارة بقوله : « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا » والبطون منزلتها على مراكبها من الارواح الطبيعية ومبدأها المكانى لتنزل الانتهائي » ثم جعل لكم السمع والابصار والافئدة » اشارة الى آلات الادراك التي لا يتوصل الى شئ من المحسوسات او ما يتفرع عنها الا به واختلفوا في هبوطها فقال قوم بمعنى الابتلاء لها والتمحيص

ولعمرانها فى عالم الكون شأن كلها فى العالم الكلى شأن جزئها فى العالم الجزئى واليه الاشارة بقوله: «ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة» والى اهباط الله اياها بمعنى الاختيار والابتلاء الاشارة بقوله: «ليبلوكم فيما آتاكم» وجوهر النفس واحد كما ان السرج المشتعلة من السراج ماهيتها واحدة وانما اختلفت بقوابلها واستمدادها وتفاوت عروض الامزجة المتعلقة هى بها فاعطى جل وعلا كل مادة نفسا تليق باستعدادها فاختلفت بسبب هذا التفاوت اجناس الادراكات والاذواق والعلوم وكما تفاوتوا عرضا مزاجين وقرنا نفسيين واوشك تساوى صفاتها الذاتية والعرضية تفاوت ادراكها الا ان التساوى لا يصح من كل الوجوه ولو صح كانت صورة المدرك والمدرك فى الحس واحدة الا انه يتفاوت بالمناسبة مقارنة توهم الاتحاد حتى تخفى الاقدار المميزة .. وباختلاف ما اكتسبته من المعلومات تكون سعادتها فان صحت علومها .. وتقدست وعرفت الكمال واجهت الخير المحض وتعشقت بالانوار الالهية الروحانية واعتلقت بالعروة الوثقى .. لا تلوى على ما تعشقت من لذات الجسم .. فنالت السعادة التى معناها الحياة الدائمة ومشاهدة انوار حضرة الحق .. وان ارتبكت فى وحل الحواس وتعشقت بلذات الجسم لقصورها عن لذة اعلا وارتمت بالعلوم الباطلة بقيت بعد مفارقتها الجسد عمياء .. فقد تقرر ان النفوس لا تتعين بعد هذا الوجود الذى تخصصت به وتميزت بمدده وتعلقت بأمزجته الا بالمعارف التى تخصصها والعلوم التى تنتقش فيها فتميزها وانما لا تجد بعد المفارقة معلوما سواها ولا معروفا غيرها وان الطبيعة الانشائية تحشر على صورة علمها والاجسام تسير على صورة عملها من الحسن والقبح فاذا انفصلت من عالم التكليف وموطن المعارج والارتقاءات والاكتسابات حينئذ تجنى ما غرست وتجد ما قدمت .. ومثلوا ما يدل من ذلك العالم الباقي فى هذا العالم الدائر بمنزلة العميان الذين وصفت لهم المدينة بجميع اجزائها فتصوروها بمقدار قولهم واحوال نفوسهم ومن كان منهم يمشى لمس بعض جدرانها وقد وصل اليها وتسمع

كلام ناسها ثم عادت لهم مدركاتهم وجوارحهم وحاسبوا خلالها فلما وجدوا شيئا غير ما وصف الا انهم استفادوا ظهور امر كان الوصف لا يطبق استيفاءه .

ولكن للعيان مزيد معنى لذا طلب المعاينة الكليم
ولذة عظيمة وفرحا بحال المعاينة وتمام الادراك فالعيان الخلق
والمقعدون العوام المقلدون والمشاة العلماء والواصفون احوال المدينة
الانبياء والرسل ورد الابصار والجوارح وانقطاع العلائق بمفارقة النفس
للجسد . . فالمعرفة الحاصلة في الدنيا تقوم مقام التخيل للمستبصر . .
وحالة الآخرة تقوم مقام المشاهدة . . والمعرفة نور تنقلب مشاهدة . .
وتقرر ان النفوس اذا صفت من الكدورات لطفت اذ اللذات انما اكتسبتها
بقربها من عالم الاجسام وبعدها من المبدأ بعدا نسبيا لا زمانيا كما يحدث
في دنان الراح من لطافة اعاليها . . وعند صفائها نسبة بالملاء الاعلى
وينتقش فيها امثلة الكائنات المنتقشة فيها بنوع ما ويشاهد المحجوبات
وتؤثر في العوالم السفليات وعند ذاك يصح لها اسم الكمال الانساني
وهو التشبيه بالعالم الاقدس وفي هذا الطور يعاين العارف كل الجمال
ومعدن جزئه فيهم به ويستعد لقبول الفياض من لذته فيتوصل منه الى
الجمال المطلق فيتلاشى شهوده حتى ينعدم وجوده كذاته فيصير من
الارواح المقربة والعوالم المهمة ولا يزال يصفو ويتمخض فيستعد ويقبل
وكلما اشرف النور على ذاته زادت صفاء حتى تصير نورا قدسيا فعند
ذلك ترتفع لها الحجب الجلالية فتعاين ما لا تحيط به الاوهام ولا تنتهي
اليه المدارك ولا يطمع في فهم حقيقته طامع . . ويذهلها عن النظر الى
ذاتها اذا نظر اليها حجاب عن كمال الشهود فتفنى عن نفسها ثم ترى
علمها بالفناء شائبا في صفو الشهود فتستغنى عن رؤية فنائها فتصل
بذلك الى بقاءها السرمدي فاذا جاوزت هذا المقام وهو فناء الفناء وعدم
منها الخلق بالكلية وتجلي لها الحق فشهدته موصوفا بالصفة التي تليق . .
يصح الوصول وتكمل السعادة القصوى . . وربما كانت هذه الحال لواجم
تضيء وقتا وتغيب وقتا وبوارق تومض حيناً وتخمد حيناً ثم تصير ملكة
مستقرة للعارف . . »

وقد نقلت هذا المبحث الذى حرره ابن الخطيب حول النفس وتنزلها وجوهرها وتدرجها فى معارج الكمال واشراق نور اليقين والمشاهدة فى حناياها لانه من اجود نماذج الاسلوب الصوفى الفلسفى الذى يمتاز به امثال هذه الدراسات عند ابن الخطيب وقد نجد ما يجانس هذا الاسلوب فى جملة كتابات الامام ابن عربى الحاتمى وما يقاربه فى بعض بحوث ابن سينا واستاذه الفارابى الذين اضطر الاستاذ ماسينيون الى ادماجهما بسبب هذا الطابع المزدوج فى سلك الصوفية .

وقد رأينا كيف يحاول ابن الخطيب استخلاص نظرياته الفلسفية فى النفس من مدلول بعض الآيات القرآنية او يحاول على الأقل العثور فى ثنايا هذه الآيات على ما استساغه فى بعض انظار الفلاسفة الالهيين او الاشراقيين . . . وخص شئ يمتاز به اسلوب ابن الخطيب فى هذه الأبحاث هو الابداع فى التصوير والمقارنة والتنظير وتعداد الرسوم المشخصة والالواح الفنية حتى تستقر الفكرة فى النفس وترسم بوضوح . . . فأسلوب ابن الخطيب يتسم بطابع ثلاثى : طابع الفيلسوف الذى يسعى جهده فى الارتكاز على النهج المنطقى والطريق الفكرى والطابع الصوفى الذى لا يغفل عامل الوجدان فى تقدير بعض العناصر والمخابر النفسانية وفى الاخير ذلك الطابع الادبى الذى يجمع فى مجلده الرائع بين عمق الفكرة واناقة اللفظ وسمو الصورة وتنوع العبارة وبساطة الاشارة . . . وانت تشعر اذ تقرأ هذه الصفحات ان جميع النزعات التى قد تختلج فى نفسك تجد لنفسها صدى فى بدائع ابن الخطيب وبدائيه وتسد مسدا من فؤادك وعقلك وروحك ! انك تعثر على ما يدكى وجدانك ان كنت عاطفيا وما يشبع عقلك ان كنت شغوفا بالطرائق المنطقية الصارمة وما يغذى حاستك الادبية او شاعريتك الفياضة ان كنت اديبا او شاعرا . . . وقلما تنتظم هذه الشوارد فى اسلوب لانها تتنازع وتتنافر فى فكر غير فكر العباقرة وتتنافى وتتنازع فى قلم لا تلين له قناة المنطق والبيان ولا تتبلور فى شباته روحانية العاطفة والوجدان وصيغة رابعة فى اسلوب ابن الخطيب وهى قوة الاقتناع والاستمالة والجذب ولعلها نتيجة محتومة

لذلك المزيج الثلاثي الذي لا يمكن ان تصمد امام ايقاعه ووقعه أية نفس
مهما بلغ جموحها وای غقل مهما بلغت صلابته ٠٠ ويروعك الى جانب
هذا كله تساوق العبارات فى قلم ابن الخطيب الجزل السلسال وتعاقب
الرسوم الاصطلاحية والصور الفنية فى تناسق خلاب ! وای شاهد اعظم
من هذا وأقوى على مدى نبوغ ابن الخطيب ؟ ! !

القوى الباطنة :

«الحس المشترك المسمى فيطاسيا هي مرتبة فى التجويف الاول
من الدماغ تقبل بذاتها جميع الصور المنطبقة فى الحواس الخمس والقوة
الخيالية وهي قوة مرتبة فى آخر التجويف المقدم يحفظ ما قبله الحس
المشترك من الحواس الجزئية ويبقى فيه بعد غيبة المحسوسات فكان
الخيال باطن الحس المشترك وهي لكثير من الحيوان غير الناطق
وشأنها ان ترفع الموجود الذى ادته اليها الحواس فى العصابات المستقلة
من مقدم الدماغ بأصول الحواس الى القوة المفكرة وهي قوة من قوى
النفس الناطقة والعلة الفاعلة لصورة العلوم فى نفس العالم والقوة الذاكرة
تذكر الاشياء الكامنة فى النفس بالبحث والطلب والتذكر طلب القوة
المفكرة والقوة الذاكرة خادمة للقوة المفكرة ومتأخرة عنها وجوبا ومحلها
فى مقدم الدماغ والقوة الحافظة هي ثبوت الصورة فى النفس على ما هي
عليه فى الخارج من الذهن وداخله ومحلها فى المؤخر من الدماغ والقوة
الصانعة اثر النفس المتأخرة عن غيرها من القوى كما تريد النفس الناطقة
ان تعلم بالمعلوم الذى حصلت لها نفس اخرى ٠٠ والقوة الوهمية قوة
مرتبة فى نهاية التجويف الاوسط من الدماغ تدرك المعانى غير المحسوسة
الموجودة فى المحسوسات الجزئية كالقوة الموجودة فى النشأة الحاكمة
بأن الذئب مهروب منه والخروف معطوف عليه وجعلها هؤلاء الالهيون فى
الترتيب تالية لقوة الخيال والقوة النزوعية الشوقية هي القوة التى اذا
ارتسم فى التخيل صورة مطلوب او معروف عنها حملت القوة المتحركة
على التحريك بتشنيج العضلات وارسال الاعضاء فرارا والتماسا ولها

شعبتان شعبة تسمى شهوانية وشعبة تسمى غصية والفرق بين الحواس وهذه القوى ان الحواس لا تدرك المحسوسات الا فى الهولى وادراك هذه القوى رسوم المعلومات يكون ادراكا روحانيا من غير هؤلاء . . . فالحواس ارباب الاخبار وخدام البريد فى نواحي المملكة يؤدون ما ورد الى الخيال الذى يطالع بها القوة المفكرة فتدفعها الى القوة الحافظة وهى الخازن وتطلبها اذ تحتاج اليها فيجلبها اليه من الخزانة خادم الذكر وهى القوة الذاكرة» .

وقد ادمج ابن الخطيب البحث المتعلق بالقوى الباطنة فى فصل عنوانه بالعروق المعدنية وصدره بكلمة عن الحواس الخمس :

«الحواس الخمس :

(١) اللمس : قوة تدرك من اللمسوسات سطوحها من خشونة وملاسة وكيفيتها من حر او برد ومثل ذلك . . بها يكون الحيوان حيوانا وهو فضلة من الجماد ومحلها الجلد واعدله جلد الراحة .

(٢) الذوق : تدرك المطعومات وموضعها الرطوبة .

(٣) الشم : ان وافق المحمول مزاج الحامل قيل الرائحة طيبة او بالعكس وهذه الحاسة فى بعض الحيوان هى المدبرة لمعاشه وهى فى غير الناطق اقوى وهى تقوم له مقام التمييز .

(٤) البصر : الكمال الاول للعين الباصرة وكماله الابصار ومحلها الرطوبة الجليدية ويدرك الالوان وسطوح الاجسام وشكلها كل جسم على صورته والابعاد والنور والظلمة وحركة الجسم وسكونه وهيئته ووضعها والمدرك الحقيقى الذى يظهر بذاته وتظهر به الاشياء هو النور ولا تدرك هذه الحاسة الا بواسطة الهواء والمبصر المدرك من خارج بانطباع الشكل فى العين .

(٥) السمع : ادراك التغير الحادث فى الهواء عن تصادم جسمين وتموجه ومحلها الصماخ .»

ويظهر ان ابن الخطيب لم يتأثر بنظرية افلاطون فى الابصار وانما تأثر بنظرية ارسطاليس الذى كان يرى ان المبصرات تنطبع صورها على

شبكة العين عند ما ينيرها مصدر من مصادر الضوء في ان افلاطون تتلخص نظريته في طيماوس في ان البصر كغيره من الحواس يدرك المبصرات ادراكا لمسيا بواسطة شعاع يخرج من العين ويقع على الاشياء المبصرة وقد جمع الامام ابن عربي الحاتمي بين النظريتين عند ما قال في فصوص الحكم : « فكل مشهود قريب من العين ولو كان بعيدا بالمسافة فان البصر يتصل به من حيث شهوده ولولا ذلك لم يشهده او يتصل المشهود بالبصر » .

مراتب العلوم

قال ابن الخطيب في الروضة في مبحث فضل العلم :
وأجناس العلوم الى زماننا هذا لمن تشوف بكمال استعداده الى تحصيلها على المشهور بين عالم الانسان بحسبه مطلقا او بحسبه مقيدا ما بين قديمها وحديثها تحصيليا يحسب به من اهلها ويصح له الاتصاف بها وهي درجة ذوى الملكة العامة من النظار المتبحرين كالرئيس ابي على وامثاله فقد حكى من سيرته ما يدل على ذلك ولا يبعد عنه غيره كالقاضى ابن رشد وامثالهما وأجناس العلوم منها لسانية ادبية كصناعة النحو وهي التى تنظر فى احكام تصريف الكلمات وما يتعلق بذلك واللغة وهي علم مدلول مفردات الفرد والشعر وهو عند العرب الكلام المورور والعروض ميزانه الذى ترجع اليه اجزاؤه وهو من اجزاء صناعة اللحوں مقيدا ببعض الالسنه والاعراض والقوافى احكام فى بعض من الشعر من جهة اللسان والكتابة وهي تصريف الكلام المسجع او المرسل من الاعراض خبرا او استخبارا او طلبا وغيره بشرط ذلك ويتعلق به علم البيان وهو ينظر فى احوال المعانى من الفنين وصنعة البديع وما يعرض لها عند الاضافات والتركيبات التماسا لكمال واجتنابا لضعده والتاريخ وهو الاخبار الماضية ويتعلق به النسب والسير وحسبه بعض الناس من علوم الادب والزجر وهو الاستدلال بالفاظ وحركات حيوان على امور مستقلة والسحر وهو الحيلة على استماله النفوس حتى يقع التصريف والسيماء

من هذا القبيل والعزائم رقى يداوى بها الجنون التى ينسب النامها بالانسان والحيل والنهرجيات اما مغاليط او خواص والشرعية كتاب الله وعلم مدلوله من قصص واحكام وموعظة وقرآات وناسخ ومنسوخ وهذا هو علم التفسير وعلم الحديث وهو المعرفة بالمتون والاسانيد والاغربة والناسخ والرجال وعلم اصول الدين وهو الكلام والاستدلال على ما يحتاج فى الفقه الى الاستدلال من امور المعبود وصفاته والنبوءة والمعاد وعلم اصول الفقه وهو الكلام فى الاحكام الشرعية عن الادلة والفروع وهو الآراء المستنبطة من الاصول فى الاحكام الخمسة وعلم الوعظ وهو التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة وعلم التخلق ومكارم الاخلاق وطرائق اهل الصوفية وعلم انمايات وما يدل عليه واصنافها وهو علم العبارة للرؤيا » .

وقبل تفصيل رأى ابن الخطيب فى العلوم الفلسفية وتقاسيمها نلاحظ بصدد هذا القسم الاول الذى حشر فيه لسان الدين ما يسميه بالعلوم الادبية والشرعية - أن الرجل يعتبر من العلوم الادبية علم التاريخ وهذا طبيعى ولكن الغريب فى هذا هو ادماجه لمثل الزجر والسحر والسيمياء والعزائم فى حظيرة الادب واعتباره انمايات وتعبير الرؤى من العلوم الشرعية ولا يخفى ان علم انمايات يتصل بالفلسفة اتصالا مباشرا لان الفارابى مثلا يعلل الرؤيا انماية بالاتصال بالفعل الفعال لاسيما عند صاحب المخيلة القوية وابن سينا يربط كذلك الاحلام بالمخيلة التى هى مصدر الصور الباطنية لان الاحداث منقوشة فى نظره - فى لوح محفوظ فى العالم العلوى وفى وسع بعض الناس الاتصال به عن طريق مخيلتهم القوية ويقع لهم هذا اثناء نومهم فان افترطت مخيلتهم فى القوة ظفروا بالاتصال ايقاظا واولئك هم الانبياء (انظر اثبات النبوات وهى الرسالة السادسة فى رسائل الحكمة وهى ص ٨٢ والاشارات ص ٢٠٠ - ٢١٤) ويرى ابن رشد كذلك ان الرؤيا لا تعرض لقوة الحس او النطق ولكنها ترجع الى المخيلة وهى تتصل بالعقل الفعال والذى يعطى المعرفة الغيبية فى الرؤيا هو نفس العقل الذى يعطى المبادئ الكلية

فى الامور النظرية اما فى حالة النوم فتعطى المعرفة المجهولة بلا وساطة (المقالة الثانية من الحاس والمحسوس ص ٨٢ - ٨٤) وكيف لا نعتبر من الفلسفة علما يثير فى مباحثه قضايا النفس وقواها والعقل الفعال والحواس الظاهرة والحس الباطنى ؟ ويعلل بعض الدقائق النفسانية ارتكازا على معطيات علم النفس وأصوله ؟ وحسبك ان تقرأ فى المقالة المذكورة كيف يعلل ابن رشد اختصاص النوم بهذا الادراك وكيف ان النفس الواحدة بالموضوع الكثيرة بالقوى تستعمل بعض قواها الباطنة فيضعف البعض الآخر ويكون فعل القوة الخيالية اكمل لان الحواس الظاهرة تتعطل وتميل النفس نحو الحس الباطن اما كون اعتبار المنامات من العلوم فهذا مما لا شك فيه لان لها قوانين كلية (ابن خلدون المقدمة ص ٤١٧ والتقنوجى فى ابجد العلوم ص ٣٩٩) واصولا عامة لا يستقيم التأويل بدونها (ابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٢ وابن شاهين فى الاشارات ص ٣٦٢ والسالمى فى الاشارة فى علم العبارة ص ٣٧) ويراد بهذا العلم معرفة الامور الغيبية عن طريق التخيلات النفسانية التى تقع اثناء النوم (كشف الظنون ج ١ ص ٩١ - التهانوى فى مقدمة الكشف (كشف اصطلاحات الفنون) ص ٤٤ وابن عربى فى فصوص الحكم ص ١٤١) .
ولعل ادماج ابن الخطيب للرؤيا فى العلوم الشرعية ليس غريبا الى هذا الحد فتلميذه ابن خلدون يعتبره ايضا من العلوم الشرعية (ص ٤٥٠ من المقدمة) .

ونلاحظ ايضا ان ابن الخطيب يجعل التصوف والاخلاق من علوم الشريعة ولا يخفى ان لسان الدين يحشر طرائق الصوفية وعلم التخلق فى فصيلة واحدة بل يقول بأن التصوف خلق وقد سائر ابن الخطيب فى ذلك سلفه من الصوفية امثال ابى الحسن النورى الذى عرف التصوف بقوله: «ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق» (التذكرة) وقد كان الكثير من الصوفية ينظرون الى التصوف نظرتهم الى مجموعة من الآداب والفضائل النفسية وقد روى صاحب التذكرة (ج ١ ص ٣٣١) عن ابى حفص الحداد انه قال : «التصوف تمام الادب» واذا استعرضت

تعاريف الصوفية لهذا العلم تجد الكثير منهم يعرفونه بأبرز ما فيه من اخلاق وشيم وآداب فهذا ابو سعيد ابن العربي يقول بأن «التصوف كله ترك الفضول» (نفحات الانس ص ٢٤٨) وهذا ابو الحسن البوشنجي المتوفى سنة ٣٤٧ يقول: «التصوف ضعف الأمل ومداومة العمل» .

فلننظر الآن ما ذا قال ابن الخطيب عما سماه بالعلوم القديمة : العلوم القديمة المنسوبة الى الفلسفة تشتمل على طبيعيات ورياضات وما بعد الطبيعة والطبعيات وهو الاسفل ينظر فيه فى الآثار العلوية الكائنة فى الجو من البروق والرعود وغيرها ويعطى اسبابها والكائنة فى الارض والعلم بالنبات والحيوان ويدخل فيه الطب والبيطرة والبيزرة والفلاحة والرياضات وهو الاوسط ينظر فيه فى العدد وهو الحساب وخواصه وحيله فى الهندسة وفى المقادير والسطوح والمجسمات وفيه المساحة والتنجيم والهيئة وصناعة الانحان والعلم الاعلى وهو ما بعد الطبيعة والعلم الالهى ينظر فيه فى وحدانية الله وما يوصف به وكيف صدر عنه الخلق وفى السياسات من ذات ومنزل ويستعمل فى جميع انحاء الفلسفة صناعة المنطق وصناعة المنطق تشتمل على قوانين اذا روعيت حصل بها اليقين فى كل صناعة او علم » .

هذا هو كل ما قاله ابن الخطيب فى الروضة عن «العلوم القديمة» اما موقفه من هذه العلوم فلا اثر لذلك فى هذا الكتاب ولكن اذا قرأت وصاياته لاولاده المثبتة فى النفح وازهار الرياض (ص ٣٢٠ ج ١) وجدت الرجل يحذر من تعاطى هذه العلوم بكثير من الصراحة ولا يستثنى منها الا البعض حيث يقول : « واياكم والعلوم القديمة والفنون المهجورة الذميمة فأكثرها لا يفيد الا تشكيكا ورأيا ركيكا ولا يثمر فى العاجلة الا اقتحام العيون وتطريق الظنون وتطويق الاحتقار وسمة الصغار وخمول الاقدار والخسف من بعد الابدار وجادة الشريعة اعرق فى الاعتدال ووافق من قطع العمر فى الجدل هذا ابن رشد قاضى المصر ومفتيه وملتمس الرشيد ومؤتية عادت عليه بالسخطة الشنيعة وهو امام الشريعة فلا سبيل الى اقتحامها والتورط فى ازدحامها ولا تخطوا سامكم بحامها

الا ما كان من حساب ومساحة وما يعود بجداول فلاحه وعلاج يرجع الى النفس والجسم براحة وما سوى ذلك فمحجور وضرم مسجور وممقوت مهجور » *

ويتضح من هذا ان ابن الخطيب لا يسمح بالاشتغال الا بقسم من الرياضات والطبيعات وعلم النفس اما المنطق فقد سكت عنه ولكن في عبارته ما يفيد نوع تقدير لصناعة المنطق التي تشتمل على قوانين اذا روعيت حصل بها اليقين !

وقد سبق لابن الخطيب ان اكد قبل ذلك في الوصية ان «خير العلوم علوم الشريعة وما نجم بمنابتها المريعة من علوم لسان لا تستغرف الاعمار فصولها ولا يضايق ثمرات المعاد محصولها فانما هي آلات لغير واسباب الى خير منها وخير» ثم مثل لذلك بتجويد القرآن ثم حفظ ومعرفة الصحيح من السقيم ثم اصول الفقه ثم المسائل المنقولة والتدرب في طريق النظر وتصحيح الادلة وهذه هي الغاية القصوى في الملة » ومن قصر ادراكه عن هذا المرمى جود القرآن وروى الحديث وقرأ الفقه على مذهب امامه » *

وقد تحدث ابن الخطيب عن الحكمة في مبحث خاص من الروضة فقال: الحكمة القولية (النظرية والعلمية) هي التي يجدها الانسان بالعقل الاول وما يخص الحد والرسم وما يلزم عن ذلك من صور البراهين والبحوث العقلية ولوازم الاستقراء والحكمة الفعلية او العملية هي التي يستعملها الحكيم لغاية اما ليعمل بها فقط ويسمى القسم العملي الخير والقسم العقلي الحق وعلوم الحكمة طبعي وهو الذي فيه يعلم كيف الشيء وموضوعه الجسم ومسائله من احوال الجسم من حيث هو جسم ورياضي وهو الذي يطلب بعلم كم الشيء والكم منه متصل كالسطوح والمجسمات والابعاد ومنفصل كالاعداد وموضوعه الابعاد والمقادير والالهى وهو الذي يطلب فيه تعلم ما للشيء وموضوعه الوجود المطلق ومسائله البحث عن احوال الوجود من حيث هو وجود... ومن كان على بينة من كل علم وشعر بغير المتعارف كان الكامل والوارث والقطب والخاتم » *

ولا يخفى ما لابن سينا والفارابى من اثر فى القسم الفلسفى من هذا الكلام وما للحاتمى فيه من حيث وجهته الصوفية والكلمات الاخيرة الاربع شاهد على ذلك .

ونجد هذا التقسيم الثلاثى لموضوع الفلسفة عند حكماء الاسلام كالفارابى وابن سينا وصدر الدين الشيرازى فقد قسم هذا الاخير الفلسفة كما ورد ذلك فى «فصل اقسام الحكمة النظرية» الى علم اسفل وهو الطبعى واوسط وهو الرياضى وأعلى وهو الاعلى (انظر رسالته فى اقسام العلوم العقلية) . والشيرازى نفسه متأثر بابن سينا الذى يعرف الحكمة بأنها «استكمال النفس الانسانية بتصور الامور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة» وقد قسم ابن سينا كذلك الحكمة الى عملية وهى مدنية ومنزلية وخلقية (ومبدأ هذه الثلاثة مستفاد من جهة الشريعة الالهية) وحكمة نظرية : طبيعية ورياضية والهيّة وهى معرفة الربوبية (ومبدأها مستفاد من ارباب الملة الالهية على سبيل التنبيه) و «من أوتى استكمال نفسه بهاتين الحكمتين والعمل مع ذلك باحدهما فقد أوتى خيرا كثيرا» (رسائل الطبيعيات ص ٢ - ٣ طبع بومباى) .

اما الفارابى فقد عرف الفلسفة تارة بأنها حدا وماهية هى «العلم بالموجودات بما هى موجودة» (كتاب الجمع بين رأى الحكيمين) مؤكدا ان «الغاية التى يقصد اليها فى تعلم الفلسفة فهى معرفة الخالق تعالى وانه واحد غير متحرك وانه العلة الفاعلة لجميع الاشياء وانه المرتب لهذا العالم بوجوده وحكمته وعدله» (كتاب ما ينبغى ان يقدم قبل تعلم فلسفة ارسطو ص ١٣ المطبعة السلفية) وتارة بأن «الفلسفة هى التى تنال بها السعادة» (ص ٢٠ - ٢١) ولكنه يرجع فيقسم الفلسفة على غرار خلفه وتلميذه ابن سينا ومن هنا نحوه من الحكماء فيؤكد ان الفلسفة صنفان : صنف يحصل به معرفة الاشياء التى شأنها ان تفعل والقوة على فعل الجميل منها وهى الفلسفة العملية والمدنية وصنف به تحصل معرفة

الموجودات التى ليس للانسان فعلها وهذه نظرية والفلسفة المدنية تنقسم الى فلسفة او صناعة خلقية وفلسفة سياسية (ص ٨٠).

وقد نقل ابن نباتة المصرى فى كتاب سرح العيون وهو شرح رسالة ابن زيدون (المطبعة الاميرية سنة ١٢٧٨ ص ١٢٥) ان الكندى فيلسوف العرب قسم الفلسفة الى ثلاثة اقسام : العلم الرياضى وهو اوسطها فى الطبع وعلم الطبيعيات وهو اسفلها وعلم الربوبية وهو اعلاها وانما كانت العلوم ثلاثة لان المعلومات ثلاثة : علم ما يقع عليه الحس وهو ذات الهيولى كالطبيعيات وعلم ما ليس بذى هيولى وهو علم الربوبية او يتصل بالهيولى وان كان له افراد بذاته كالرياضيات (العدد والهندسة والتنجيم والتأليف اى الموسيقى) .

وورد فى رسائل اخوان الصفا (ج ١ ص ٢٣ المطبعة العربية بمصر سنة ١٩٢٨) ان العلوم الفلسفية أنواع : اولها الرياضيات والثانى المنطقيات والثالث الطبيعيات والرابع العلوم الالهية وليس المنطق سوى أداة حتى عند الاخوان الذين حرروا فى رسائلهم فصلا بعنوان «المنطق اداة الفيلسوف» .

وقال الشهرستاني فى الملل والنحل : انقسمت الحكمة قسمين : علمى وعملى . فالقسم العلمى هو علم الخير والقسم العلمى هو علم الحق (على هامش الفصل لابن حزم طبع القاهرة ج ٢ ص ١٥٦) وكانى بابن الخطيب قد استقى ما كتبه عن علمى الحق والخير من الشهرستاني اما تجذير ابن الخطيب من تعاطى العلوم الفلسفية فليس ببدع فقد صدر هذا التحذير من علماء ومفكرين كثيرين فكتب ابن خلدون تلميذ ابن الخطيب فى آخر «فصل ابطال الفلسفة وفساد منتحلها» ما يلى : «فليكن الناظر فيها (اى العلوم الفلسفية) متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكن احد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل ان يسلم لذلك من معاطبها » (ص ٥١٤) .

ورأى ابن خلدون أعدل من رأى شيخه لانه لا يرفض تعاطى الفلسفة
بالمرة وانما ينصح بعدم ممارستها قبل الكرع من العلوم الشرعية وهذا
امر معقول لما عسى ان يتركه الشذوذ والانحرافات الفلسفية من اثر
سئء فى العقول التى لم تهذبها الشريعة .

وقريب من رأى ابن الخطيب رأى سلفه أبى عمرو عثمان بن
عبد الرحمن تقى الدين المعروف بابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ الذى
قال فى فتاواه : «الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال
ومثار الزيف والزندقة ومن تفلسف عميت بصيرته فى محاسن الشريعة
المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ومن تلبس بها تعليما
وتعلما قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان » غير انه يخالف
نظرية ابن الخطيب فى المنطق حيث يقول : «وما يزعمه المنطقى للمنطق
من امر الحد والبرهان فقعاقد اغنى الله عنها كل صحيح الذهن لا سيما
من خدم نظريات العلوم الشرعية » .

وكتب جمال الدين ابو بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى
سنة ٣٨٣ هـ فى كتابه «مفيد العلوم ومبيد الهموم» ما يلى : «الباب
الثالث فى الرد على الفلاسفة وهم قوم من اليونانيين تحذلقوا فى
المعقولات حتى وقعوا فى وادى الحيرة والخباط وتحيروا فى الالهيات
وبنوا مقالاتهم على التشهى المحض والدعاوى الصرفة (ص ٦١ المطبعة
الشرقية سنة ١٣٢٨ هـ) .

وحمل ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ فى كتابه مفتاح
دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة (ص ١٧٢ القاهرة) على علم
المنطق فقال :

واعجبا لمنطق اليونان كم فيه من افك ومن بهتان
مخبط لجيد الاذهان ومفسد لفطرة الانسان
مضطرب الاصول والمعانى على شفاها ر بناء البانى
وجاء من بعد ابن الخطيب احمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى
زاده المتوفى سنة ٩٦٢ هـ فقال فى كتاب «مفتاح السعادة ومصباح

السيادة» ما نصه : «ياك ان تظن من كلامنا هذا او تعتقد كل ما اطلق عليه اسم العلم حتى الحكمة المموهة التي اخترعها الفارابي وابن سينا ونفحه نصير الدين الطوسي ممدوحا . هيهات هيهات ! ان كل ما خالف الشرع فهو مذموم سيما طائفة سموا انفسهم حكماء الاسلام عكفوا على دراسة ترهات اهل الضلال وسموها الحكمة .. (ج ١ ص ٢٦) .

وقد كتب الامام ابو بكر بن العربي المعافى فى تعريف الحكمة ما نصه :

«وليس للحكمة معنى الا العلم ولا للعلم معنى الا العقل الا ان فى الحكمة اشارة الى ثمرة العلم وفائدته ولفظ العلم مجرد عن دلالة على غير ذاته وثمره العلم العمل بموجبه والتصرف بحكمه والجرى بمقتضاه فى جميع الاقوال والافعال (العواصم والقواصم ج ١ ص ٢٠٥ المطبعة الجزائرية) .

ذلك رأى بعض علماء الدين فى الفلسفة اتينا به لدعم نظرية ابن الخطيب وهناك علماء آخرون جمعوا بين الامامة فى الفلسفة والامامة فى الشريعة كابن رشد وابن حزم يجب ان نعرف رأيهم فى القضية فقد قال ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٠ فى كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» (ص ٢٨ طبعة القاهرة) : «وينبغى ان تعلم ان مقصود الشرع انما هو تعليم العلم الحق والعمل الحق والعلم الحق هو معرفة الله تعالى وسائر الموجودات على ما هى عليه وبخاصة الشريعة منها ومعرفة السعادة الاخرية والشقاء الاخرى والعمل الحق هو امتثال الافعال التى تفيد السعادة وتجنب الافعال التى تفيد الشقاء والمعرفة بهذه الافعال هو الذى يسمى العلم العملى » . وغير خاف ان ابن رشد انما يشير فى كلامه الى قسمى الحكمة النظرى والعملى .

اما ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . فقد قال فى كتابه «الملل والنحل» ما نصه : «الفلسفة على الحقيقة انما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئا غير اصلاح النفس بأن تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية الى سلامتها فى المعاد وحسن

سياسيتها للمنزل والرعية وهذا نفسه لا غيره هو الغرض فى الشريعة هذا ما لا خلاف فيه بين احد من العلماء بالفلسفة ولا بين احد من العلماء بالشريعة (ج ١ ص ٩٤ طبعة القاهرة) ولكنه يقول فى كتاب «مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض»: «٠٠ فأفضل العلوم ما ادى الى الخلاص فى دار الخلود ووصل الى الفوز فى محلة البقاء» وقد رتب ابن حزم مراحل دراسة هذه العلوم حيث يجب البدء من خمس سنين بتعلم الخط وتأليف الكلمات من الحروف ٠٠ ثم «ينتقل (اي الطفل) الى علم النحو وعلم اللغة معا ٠٠ ولا بأس برواية شعر الحكم والخير ثم ينتقل الى علم العدد وطرف من المساحة ٠٠ وأما الاشتغال بأحكام النجوم فلا معنى له ٠٠ ثم يأخذ فى النظر فى حدود المنطق ٠٠ وفى خلال ابتدائه بالنظر فى العلوم فلا يكون منه اغفال لمطالعة اخبار الامم السالفة والخالفة وقراءة التواريخ القديمة والحديثة ٠٠ فيحدث له فيها بذلك زهد وقلة رغبة وليشرف على اغترار الملوك بها (اي الدنيا) وعظيم الحسرات النازلة بهم وبمخلفيهم ٠٠ وليقف على حمد المتقنين للاخبار وللفضائل فيرغب فيها ويسمع ذمهم للردائل فيكرهها ٠٠ ويرى اخبار العلماء والصالحين ليحرص على مثل حالهم ٠٠ ويبادر به قبل انقضاء ايام سفره فانها قليلة جدا فلا شئ أؤكد عليه من هذا الآن ما عدا ذلك من بؤس ونعيم ولذة ومال ورياسة وفقر وخمول ونكد فمنقض كله فى اسرع وقت» الى ان قال: «متى اشتغل مغفل للحقيقة عن علم الشريعة بعلم غيره فقد اساء النظر وظلم نفسه اذ آثر الادنى والاقل منفعة على الاعلى والاعظم منفعة ٠٠ ويجب الاستكثار من الكتب فلن يخلو كتاب من زيادة علم ٠٠ ثم يعتمد العلم الذى يسبق فيه بطبعه ويقبله بحيلته فيستكثر منه ما امكنه» .

فابن حزم لا يقل - رغم انتصاره للفلسفة - حماسة فى الانتصار للشريعة من خلفه ابن الخطيب وهنا يجب ان نفتح قوسين لبيان وجوه الشبه بين هذين الرجلين الذين لا شك عندنا فى ان احدهما قد استمد من الآخر فابن حزم الذى نعتبره من مصادر ابن الخطيب كان كاديب غرناطة وفيلسوفها متحفظا متشككا فى غير عناد ولا جحود مخلصا فى محبته

وصداقته يترفع عن مواجهة الشر بالشر سريع الغضب اسود المزاج
 محبا للشهرة كثير الزهو كريما عفيفا معتقدا في غير ضعف فكري ينزع
 الى العقل ويتوسط بين الاعتقاد والاعتزال وقد انعزل كلاهما عن السياسة
 بعد ان خاضا غمارها زمنا ونشبت عداوة بين كل منهما وبين ملوك عصره
 واثف كلاهما في التاريخ والاخلاق ونقد الحياة الاجتماعية وصودرت كتبهما
 وحاولا الدفاع عن نفسيهما في احتجاج صاحب كما ابديا من الاستياء
 شديده لعدم ادراك مواطنيهما لسمو مكانتهما العلمية ونزاهتهما وسنتيهما
 ونزداد يقينا بأن ابن الخطيب كان نسخة من سلفه اذا قارنا بين بعض
 كتبهما ورسائلهما فلابن حزم رسالة في السماع نقل عنها الشيخ مرتضى
 في الجزء السادس من شرح الاحياء (ص ٥٧٤) كما لابن الخطيب رسالة
 في فن الموسيقى وقد افاض كلاهما في ذكر مآثر الاندلس مسقط رأسيهما
 وفضل رجالها وكتب الاول في الحب رسالة اسمها: «طوق الحمامة في
 الالفه والالاف» كما كتب الثاني رسالة سماها: «روضة التعريف بالحب
 الشريف» وفي الرسالتين تعريف لعلم الحب وغوارضه واسبابه واوصافه
 وانوعه والقواطع والفواصل وقد ظهرا في هاتين الرسالتين بمظهرين
 اثنين: مظهر العالم الاخلاقي الذي يجتهد في رسم صور قاتمة عن الرذيلة
 وصور جذابة عن الفضيلة والخير ومظهر العارف الخبير في علم النفس
 وتحليل نزعاتها وخلجاتها واسرارها ولعل ذلك الوصف الذي كتبه دوزي
 في تاريخه (ج ٣ ص ٣٣٨ - ٣٤٤) عن ابن حزم ينطبق ايضا على ابن
 الخطيب فقد قال: «ان وصف ابن حزم لحيه في ترجمته لنفسه يكشف
 لنا في نفسانية هذا البطل عن احساس رقيق خال من النزعات الجسمانية
 الى حد انه يمكننا ان نعتبره نموذجا استثنائيا للحب الروحاني العفيف
 على غرار علماء النفس الالمان الذين ينزعون في حبه منزعاً أفلاطونيا»
 وقد كتبنا علاوة على ذلك في الامامة والسياسة والرد على الزنادقة (كتاب
 اليقين في النقض على الملحدين لابن حزم والرد على اهل الاباحة وحمل
 الجمهور على السنن المشهور لابن الخطيب) والاصول (المحلى لابن حزم
 ورجز ابن الخطيب في اصول الفقه) وما ذا عساي ان ازيد في تحليل مجالي

الشبه ونقط التجانس بين هذين الرجلين الذين كان كلاهما دائرة معارف مع مهارة فى الجدل وحدة لسان صارت مضرب الامثال ؟ ! لقد تجلت فى رسائلهما البليغة نضاعة المنطق وقوة البرهان ومتانة الايقان فى تناسق جلى مع مقتضيات العقل ولوازم الاستدلال المنطقى ! ألم ينتقدا ابتداء المعتزلة والمارقين من الدين او الموغلين فى الرجعية التقليدية العمياء ؟ وبالجمله فقد كان كلا الرجلين نسيج وحده فى عصره وامام القلم والعقل فى مصره وآية فى الابداع والعبقريه والنبوغ !! •

ابن الخطيب والمذاهب الفلسفيه والصوفيه

لقد حلل ابن الخطيب فى كتابه الروضة مذاهب الفلاسفة القدماء فى لهجة تنم عن بعض الرضى عن هؤلاء وان كان قد عد الفلسفة فيما سبق من الفنون الذميمة، فقد قال :

«الفلسفة الحكمة والفيلسوف محبها •• ومن الفلاسفة الاساطين فثاغورس وسقراط وأفلاطون وبقرات وديموقريطس وسائر المشهورين من الرواقيين والمشائين •• وهرمس الاكبر وأقليدس وهرقل الحكيم •• وارسطاليس وهو الحكيم المطلق المبدع الكبير المعروف الحق امام المشائين (?) وواضع المنطق والذى فلاسفة الاسلام على رأيه أكبر المتقدمين فى آرائهم والمتأخرين وتلميذه الاسكندر الرومى •• وجالينوس كلهم فاضل مولى وجهه شطر الاله متزلف الى رب مرتاض وعاشق بين موحد وموسط ••» •

ثم تحدث ابن الخطيب عن الفلسفة الهندية والنصرانية فقال : «ومن الهنود الذى وضع لهم الحكمة المصلحية •• البرهمان والصولية والزهاد والعباد ورجال الرماد وأصحاب الفطرة وهم يهجون اللذات الطبيعية جملة ويكثرون الجوع والرياضة عشاق فيما ولوا وجوههم شطره •• فمن يراه فى كل الحيوان او فى النبات •• والمهالكية والدهمكية والجهلكية والزرادشتية والصائمية المانوية والمزدكية •• واصحاب يزدان

وهم قائلون بالاصلين .. ومن النصارى القائلين باجتماع اللاهوتية
والناسوتية الثلاث : الوجود والعلم والحياة وان الله واحد بالجواهر وثلاثة
بالاقنومية ويكونونها بالعلم والابن وروح القدس وهم الملكانية واليعطورية
واليعقوبية وهم القائلون بالهية المسيح وان الله ليس الناسوت لياشر
هداية الخلق شفقة عليهم .. واتباع هذا اللاء كلهم عشاق .. » .

ثم تحدث عن الطوائف الضالة فى الاسلام وعن اهل الاعتزال فقال :
والحب حركهم لكل جدال والحب أقحمهم على الاهوال
والحب قاطع بينهم واضلهم عن نيل ما راموه كل ضلال
والحب انشأ فيهم عصبية بالقييل اضرم نارها وقال
ومن الشيعة القائلين بامامة على .. والخوارج .. يبتغون اليه (اى
الحق) الوسيلة قوم بالطاعة وقوم بالمعصية وما منهم الا مدع فى المحبة
متهالك حريص على السعادة بزعمه ممن قصد الحق فأخطأه واراد الصواب
فضل عنه » .

وهذا شبيه بما قاله ابن خلدون عن الفلاسفة فى فصل ابطال الفلسفة:
« واما قولهم ان السعادة فى ادراك الموجودات على ما هى عليه بتلك
البراهين فقول مزيف مردود » الى ان قال : « واما قولهم ان الانسان مستقل
بتهديب نفسه واصلاحها بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم
فأمر مبنى على ان ابتهاج النفس بادراكها الذى لها من ذاتها هو عين
السعادة الموعود بها لان الرذائل عاقبة للنفس عن تمام ادراكها ذلك بما
يحصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها وقد بينا ان اثر السعادة
والشقاوة من وراء الادراكات الجسمانية والروحانية فهذا التهديب الذى
توصلوا الى معرفته انما نفعه فى البهجة الناشئة عن الادراك الروحاني
فقط الذى هو على مقاييس وقوانين واما ما وراء ذلك من السعادة التى
وعدنا بها الشارح على امتثال ما امر به من الاعمال والاخلاق فأمر لا يحيط
به مدارك المدركين » ثم اكد ابن خلدون ان زعيمهم ابا على ابن سينا تنبه
لذلك فى كتابه - المبدأ والمعاد - حيث ذكر ان المعاد الجسماني لا يمكن

ادراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة
الحقة المحمدية (ص ٥١٧ المطبعة الاميرية ١٣٢٠) .

والفارابي كذلك تنبه في كلامه على الانسان الكامل وفائدة الدين
الى « ان الانسان انما سبيله ان تفيده الملل بالوحى ما شأنه الا يدركه
بعقله وما يخور عقله عنه والا فلا معنى للوحى ولا فائدة . . . فلذلك ينبغي
ان يكون ما تفيده الملل من العلوم ما ليس فى طاقة عقولنا ادراكه ثم ليس
هذا فقط بل وتستنكره عقولنا ايضا . . . فان الانسان وان بلغ نهاية الكمال
فى الانسانية فان منزلته عند ذوى العقول الالهية منزلة الصبى والحدث
والغمر عند الانسان الكامل » .

ثم قال ابن الخطيب : « واشتهر بالحكمة بعد فى الملة الاسلامية
جماعة فى الشرق والاندىلس » ثم ذكر منهم جماعة وصفها بأنها محبة عاشقة
مستهلكة » .

وكان ابن الخطيب لم يجد المجال واسعا للاستيفاء فوعد بالعود الى
ذلك قائلا : « والحق الذى نعول عليه ونصل الى المهيح القريب اليه نفرد
له رسالة نعهد عندها عهدا يقتضى اختصاصها ويعين اشخاصها . . . وفى
تلك النقاية نودع ان شاء الله ما الهمنا الحق اياه من الحق الذى لا جمجمة
فيه » .

ولعل ابن الخطيب الذى اضطرته الظروف والوضعية الخاصة التى
كانت له فى المملكة الاندىلسية وكونه ألف هذا الكتاب للامير ابى محمد بن
ابى الحجاج - الى هذه الجمجمة لم يجد متسعا للتصريح بأرائه فوعد بان
يستوفى الكلام فى رسالة خاصة ولكن لعل الزمان لم يسعفه بذلك لانه
لم يكتب فى الفلسفة بحثا بعد الروضة وكيفما كان الامر فالظاهر ان ابن
الخطيب آراء جريئة لم يجد الشجاعة الكافية لبثها .

ثم حلل ابن الخطيب بعد ذلك فى اسلوب موضوعى لا نكاد نتبين
من خلاله موقف الرجل الصريح ازاء الفلسفة القديمة - نظريات الحكماء
الالهيين وكانى بالرجل يستعظم جرأة بعض الآراء فى هؤلاء الحكماء
فيدعمها بقالوا ويقولون احترازا من ان تنسب اليه وقد لخص فى بضع

ورقات اهم نظريات الالهيين فى العلة الاولى وسبب الاسباب ومبدأ المبادئ
وواجب الوجود والنور والعقول والنفوس والهياكل والجسم المطلق اى
الفلك والارواح العلوية والاجسام العنصرية والموجودات الكلية والجزئية
وتدرجها فى الكون ومعارج النفس وسعادتها وسبل تحقيق هذه السعادة
واستنتاج فى الاخير ان سقراط ومعلم الخير افلاطون «وامام المشائين
أرسطو» كلهم «محبون مشتاقون الى نور السماوات والارض وان سعادتهم
من محبته» ولم يزد على ذلك شيئاً ! .

ثم تخلص الى «رأى اهل الانوار» الذين «يدعون انه لا ينتظم امرهم
فى هذه القواعد الاشراقية دون سوانح نورية» فحلل مذهبهم فى حقيقة
النور والوجود والجواهر الظلمانية والبرزخ وهو الجسم ونظرية انتظام
الوجود من المحبة والقهر ويحاول ابن الخطيب شرح بعض العبارات
الغامضة كذكره بأن «النور الاصفهندي» عند الاشراقيين هو النفس على ما
يظن ثم ختم هذا التحليل بقوله : «وثبت عندهم كما يفهم ذلك من السياق
ان لا فعل ولا انفعال ولا حركة ولا لذة الا عن النور . . فهؤلاء عشاق الانوار
وملتسمون السعادة من تلقائها لقربها من نور الله» .

ثم عرج ابن الخطيب على رأى الحكماء الاسلاميين امثال الرئيس ابى
على بن سينا وابى نصر الفارابى وابى الوليد ابن رشد وابن الطفيل وابى
بكر بن الصائغ «الى ما لا يحصى» فحلل نظريتهم فى الوجود الممكن
والواجب وحقيقة الانسان المؤلفة من الروح والنفس والجسم وماهية
الاجسام الاثيرية والجسم الكلى والنفس الكلية والعقل الاول او العقل
الكلى المفيض على النفس المفيضة على الجسم وهذا العقل هو المعبر
عنه بالقلم والنفس الكلية هى المعبر عنها باللوح - ثم القوى النفسية
والمقامات الروحية من فناء ونظر وسلوك وعرفان ! .

وختم لسان الدين سلسلة تحليلاته بفذلكة عن آراء بعض الصوفية
كابن الفارض والفرغانى ومحيى الدين الحاتمى وابن سودكين الدمشقى
وابى بكر بن العريف وابى الحكم بن بركان وابى الحسن بن قسى فكتب
ما نصه: « . . قالوا ما معناه ان الحق لم يدرك من كنهه الا الاتية والوحدة

وان تلك الوحدة الازلية المحيطة نشأت عنها الاحدية والواحدية وكانت جامعا وبرزخا بينها كما كانت المحبة جامعا بين المحبة والمحبوبة والكل عين واحدة وهى عين ذات الحق وتلك انوحدة المرسله تسمى من حيث سقوط الاعتبارات غير المتناهية واحدا ومتعلقها ظهور الذات وكان الواحد للاحدية بمنزلة المظهر المتجلى او المادة للصورة والواحدية تصح اليها الاضافات والحاق الاعتبارات ولا يصح شئ من ذلك الا للاحدية وضعا لا حقيقة حتى لزم بعضهم ان الواحد الاحد اسم مركب والفيت الاعتبارات والآثار التابعة للواحدية بمنزلة اجناس عالية هى مسمى الفاظ تدل على حقيقة اسماء الذات ٠٠ الى ان قال: «فتجلى الذات الاقدس على نفسه ٠٠ فظهر لنفسه فى نفسه وتضمن هذا التجلى من حيث الحديث والاخبار المذكور كملا مضافا اليه واحساسا بذلك الكمال كان اصل الحياة والعلم والقدرة والارادة وحكم تحقيق تفصيل الكمال تحقيقه الوجود بافاضة اليجاد على كل حقيقة وبرزخية التعيين الاول بحقيقة العدل والاقساط فى القوابل كلها والكل غير واحد فى التعيين الاول واول مراتب العلم الذى هو عين الذات المعبر عنه بحقيقة الحقائق الكلية وسريانه فى كل اعتبار ففى الالهية الهيا وفى الكونية كونيا والكل مظهره ٠ ثم تحدث ابن الخطيب عن الحضرة العمائية والكون الهبائى وعلق فى الاخير عن تأولات اصحاب الوحدة فقال: «وكتابتنا غير موضوع للمشاحة وهم محبون مستهلكون ومن مقدمات اهل العلم ان الحديث اذا كان له ظاهر وباطن وللباطن تاويل ما فالاصل الوقوف مع الحقيقة وهو الظاهر ولا يعدل الى المجاز وهو الباطن فى القضية الا بعد انعقاد الاجماع على عدم ارادة الحقيقة منه فيما يذهبون الى تأويله من الحديث الصحيح ٠٠»

ويصف ابن الخطيب جميع الفلاسفة والصوفية والمعتزلة والطوائف الاخرى بأنهم محبون عاشقون ولعله تأثر بنظرية القائلين بان الوجود كله عشق كجلال الدين الرومى الذى يقول فى ديوانه شمس تبريز: «كن ثملا بالعشق فان الوجود كله عشق ! »

وهنا تطرق ابن الخطيب الى الكلام على اهل الوحدة المطلقة من المتوغلين كابن سبعين والششتري الذين يقولون بان الزمان والمكان والغيبة والظهور والالام واللذة والوجود «انما هي اوهام راجعة الى اخبار الضمير وليس فى الخارج شىء فاذا سقطت الاوهام صار مجموع العلم بأسره وما فيه واحدا وذلك الواحد هو الحق وانما الحق مؤلف من طرفي حق وباطل فاذا اسقط الباطل وهو اللازم بالاوهام لم يبق الا الحق ٠٠ والتعبد عبارة عندهم عن التزام الاوهام الواقع بها التعدد وان التعدد باطل ٠٠ وقالوا ٠٠ والعالم لا يصح ان يقال فيه قديم ولا محدث اذ ذلك مبنى على الزمان والزمان وهم اذ هو مقدار الحركة والحركة وهم وما تم الا خبر مجرد لا شىء منه فى الخارج» ٠ وبعد كلام طويل حمل فيه على هذه الطائفة اورد نونية الششتري التى يقول فيها :

ولم نلف هذا الكون الا توهما	وليس بشىء ثابت هكذا الفينا
فرفض السوى فرض علينا لاننا	بملة محو الشك والشرك قد دنا
ولكنه كيف السبيل لرفضه	ورافضه المرفوض نحو وما كنا
تبدت لك الاوهام لما تداخلت	عليك ونور العقل اورثك السجنا
أمامك هول فاستمع لوصيتى	عقال من العقل الذى منه قد تبنا
فنحن كدود القز يحصرنا الذى	صنعنا بدفع الحصر سجنا له منا

وقد عثرنا فى مخطوط لابن خلدون اسمه «شفاء السائل فى جملة مسائل» على الفصل نفسه بما فيه من تقاسيم وآراء واذا استثنينا بعض التقديم والتأخير امكننا ان نقول بأن الفصلين لا يختلفان وانهما لا يكونان فى الواقع الا فصلا واحدا نقله ابن خلدون عن ابن الخطيب او العكس نقلا حرفيا الا ان ابن الخطيب يخلل ذلك بأشياء لا توجد فى المخطوط الخلدونى ويظهر ان مجموع اجزاء فصل الروضة متماسك، فهل اقتضب ابن خلدون هذا الفصل الممتع فى «شفاء السائل» نقلا عن ابن الخطيب ؟ لا يمكننا ان نبت فى المسألة بتا فاصلا وان ضيق نطاق بحثنا لا يسمح بهذا الاستطراد الذى يستلزم تحقيق مناطه استقراء بعض النصوص والموازنة بينها ٠

وقد عقد ابن الخطيب آخر بحثه عن الفلاسفة والمتصوفة فصلا في «الصوفية وهم سادة المسلمين» وسرد في طبعته أسماء افذاذ الصوفية الذين نجدهم في الرسالة القشيرية التي نقل عنها صراحة قائلا : «فذكر هؤلاء بركة مضمونة ونحن نجترى من ذكر سيرهم واخبارهم بكتاب الرسالة القشيرية» ثم تحدث عما يسميه بالمريدين والعباد والسالكين والذاكرين والمحققين وتكلم بعد ذلك على الشاذلية التي كانت اشهر الطرق في الاندلس والمشرق في عصره فبين بعض خصائصها وهنا لخص نظريته في جميع هاته الفرق والطوائف فقال : «ما كل طريق توصل ولا كل تجارة على الريح تحصل ومن العشاق مطرود ومهجور وموصول وموعود ومغبوط ومحسود ومحروم ومحدود والكل دائرة مفروضة وهالة حول قمر الحق معروضة تعود الحظوظ من محيطها المحدود فالفيلسوف يروم التشبث بالعلة الاولى ويعنى بها ذات الحق وان يتحد بالثانية وهي مرآة وجه الحق والاشراقى يروم التجوهر بنور الانوار» والاتصال به بواسطة من الحق والحكيم ان يؤديه فكره الى الحق ثم يفنى في الحق ثم يبقى بالحق والمنتشرع ان يجن في جنة الحق ويحصل على جوار الحق وينظر الى وجه الحق وصاحب الوحدة المطلقة ان يكون المتفرق عين الحق» ويتبين من هذا ان ابن الخطيب يميز بين الفلسفة والحكمة ولعله يرى كابن رشد ان الحكماء هم الفلاسفة الاسلاميون وما عداهم فحكماء ان كانوا فلاسفة الهيين !

وقد ابتدع ابن الخطيب طريقة طريفة في بيان بعض رايه في هذه الطوائف فتخيل ان رقاعا خرجت يوم القيامة وقد كتبت عليها عبارات ساقها ابن الخطيب كأنها من غيره فقد كتب عن اصحاب الوحدة واصفا اياهم بقوله : «ومنهم من لم يأخذه نعت ولا تعين له فوق ولا تحت ولا حمد ولا مقت لو نطق لقال انا المعدوم الموجود والشاهد المشهود الا بعد المدين كما بعدت ثمود» وخاطب امثال ابن قسى بقوله : «لم تعتدوا من العقل دليلا ولا تفهمتم في مجازات العقول قليلا وهولتم باصلاح غيركم تهويلا وادعيتهم الشهود ولم يجعل الله في الاحتجاج به الا للانبياء سبيلا وبينتم الحقائق

على قياس ونظر من غير عين للعقل والنقل ولا اثر ٠٠ وعسى ان تكونوا ممن
اخطأ باجتهاده فاثيب واستغفر فسمع لا تثريب فثمرتكم صحيحة والمقاصد
من التبعة مريحة اذا كانت صريحة ولولا الافتيات لوضحت في ميدان
السبق لكم الشيات لكن شأنكم الهذيان وقلبت منكم بضعائكم من المتأخرين
الايان كابن قسي وابن راطل وابن برجان».

وخاطب اصحاب الوحدة كابن سبعين بقوله: «ذهب بوجودكم
العدم وابتلع حدوثكم القدم ورضيتم بالاشراف في الاستشراف
والتوغل لزييم الانحراف ومن جعل الحس وهما فقد كابد العيان
ظلمة والعقل الذي عظمت هو اله حكمكم واداة علمكم والعوالم
اوثق من ان تكون تمويه راقش والوجود المطلق ابسط من ان يصير
ابا براقش» وخاطب الصوفية بقوله: «انتم الاحباب ولكم تفتح من الجنان
الابواب ركبتم ظهور الاعمال وركب غيركم ظهور الامال وفزتم الاذيال
ومن دونكم يحول عناكب الخيال فبدائتكم الاساس الوثيق الذي يبنى عليه
التحقيق ونهايتكم اليها ينتهى الطريق وبها يحط فريق الله ونعم الفريق
اولكم المقرب المدرب واوسطكم المفرد المعرب وآخركم الولي المقرب
حضرتم بذكر محبوبكم حتى غبتم فهنيئا لكم طبتم حواس مسدودة وخيوط
افكار ممدودة ومشاهد مشهودة» لو اشتمل العلم على عملكم لكان الكل
من هملكم» الى ان قال واصفا مشهد القيامة: «قال المخبر فرأيت وجوه
قوم قد تهللت ونواسيم المسرات نحوهم قد اقبلت ومن سواهم من خالص
وزائف بين راج وخائف وسمعت ان طائفة استدعيت بحث حفي وادخلت من
باب خفي فقيل لهم هم اصحاب الحزب المكتوم وارباب المقام غير المعلوم
جعلنا الله منهم برحمته».

وابن الخطيب من الذين يعتقدون الصوفية واحوالهم ويرجون منهم
النفحات والبركات وحسبك استجداءه مخاطبا الولي الكبير ابا العباس
السبتي حين زاره بمراكش وما شهد له به من تصرف حتى بعد مماته :
يا ولي الاله انت جواد وقصدنا الى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجى من علاك حسن الصنيع

فمددنا لك الأكف نرجى عودة العز تحت شمل منيع
قد جعلنا وسيلة تربك الزا كى وزلفى الى العليم السميع
ثم قال: «يا ولى الله الذى جعل جاهه سببا لقضاء الحاجات وتصريفه
باقيا بعد الممات وصدق نقل الحكايات ظهور الآيات...»

نظرية المعرفة

المعرفة فى اللغة العلم الا ان المعرفة تتعدى الى الله بنفس لفظها
بخلاف العلم وقد استمد ابن الخطيب بعض ما كتبه عن المعرفة من القشيري
والخراز وبالاخص من ذى النون المصرى وقد كان ذو النون من اوائل
الصوفية الذين تكلموا عن المعرفة فهو يقسمها الى معرفة توحيد وهى فى
مقدور كل المومنين ومعرفة الحجة والبرهان وهى معرفة علماء الدين
والفلاسفة ومعرفة صفات الوحدانية وهى معرفة الاولياء «وحقيقة المعرفة
حيرة» فى نظره ولعل هذا لا يبعد كثيرا عما اكده الحاتمي فى الفصوص
عند ما قال بأن «الهدى هو ان يهتدى الانسان الى الحيرة فيعلم ان الامر
حيرة والحيرة قلق وحركة والحركة حياة» (ص ٢٠٠) وذو النون اول من
وصف المراحل المختلفة التى تجتازها الروح فى سبيلها الى الله والمعرفة
فى نظره تؤدى الى الاتحاد بالله والحب الخالص المجرد من المصلحة
الذاتية هو سبيل الصوفى الى المعرفة والوصول الى الله ومن نتائج المحبة
عنده الانس «والانس بالله نور ساطع والانس بالناس غم واقع» وقد سبق
لنا ان بينا علوم العارف لدى الكلام على مراتب الكمال الثلاث وقد تساءل
ابن الخطيب عن المعرفة واسبقيتها للحب فقال: «ان من قال المعرفة
متقدمة على المحبة فانما اراد المعرفة اللغوية التخاطبية... ومن قال المحبة
متقدمة على المعرفة عنى بالمعرفة المعرفة الثابتة وهى المقام المعروف بمعرفة
الله الذى لم يحصل الا بباعث محبته ولولا المحبة ما صح اذ المحبة هى

الميل الاكيد للشيء او :الحركة الى التماس الكمال لقربه فتكون المعرفة اللغوية سبب اول المحبة والمحبة وما قبلها سببا للمعرفة الاصطلاحية » (١) .

وابن الخطيب يؤكد كذى النون ان تفاوت الناس فى المحبة راجع لتفاوتهم فى معرفة الله .

وقد كتب لسان الدين فصولا ممتعة فى المعرفة حررها فى اسلوب ادبى صوفى خلاّب حيث قال :

«المعرفة اختراق المراتب الحسية والنفوس الجنسية القدسية والبروز الى فضاء الازل اذا فنى لم يكن وبقي لم يزل مع عمران المراتب ورؤية الجائز فى الواجب .» المعرفة مقام يتألف من جمع مفروق واقبال وشروق وسل عروق ورد مسروق حتى يذهب الكيف والايّن ويتعين العين المعرفة مقام سامى المنعرج عاطر الارج ينقل من السعة الى الحرج ومن الشدة الى الفرج .» المعرفة عين ان لم تبصر اجزاها احسن الله عزها وحقيقة ان لم يجعل الفراق ازاها كانت الغيرة جزاها فهى دائرة مركزها يجمع ومحيطها فى التفريق يطمع ليستقبل الملك اجمع ويرى من يرى ويسمع من يسمع، المعرفة صعود ونزول ووقوف ووصول فلا الوصول عن البداية يقطع ولا البداية عن النهاية تمنع من له الامر اجمع كل ما

(١) الغزالى يقدم المعرفة على الحب ويجعل الحب نتيجة للمعرفة وقد سبق بهذه الفكرة سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) الذى كان يرى حيث يرى الله ونعوت كماله وحقائق اسمائه هى التى تجذب القلوب الى محبته وطلب الوصول اليه لان القلوب انما تحب من تعرفه وتخافه وترجوه وتشتهى اليه وتلتذ بقربه وتطمئن الى ذكره بحسب معرفتها بصفاته فاذا ضرب ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والاقرار بها امتنع منها بعد ذلك ما هو مشروط بالمعرفة وملزوم لها اذ وجود الملزوم بدون لازمه والمشروط بدون شرطه ممتنع (المدارج ج ٣ ص ٢٢٤) .

شاء يصنع حصل القصد واستقر فلم يبق مطمع . . . » (١) .
 وقد فصل ابن الخطيب مراتب العارفين وهي ثلاث ثم اقسامهم وهي
 سبع زمر: (اهل التقليد واهل النظر واهل التنزيه واهل التشبيه واهل
 العجز واهل الاتحاد واهل التحقيق) ثم مدارج ارتقاء العارف وآخرها
 التشبه بالعالم الاقدس «وفي هذا الطور يعاين العارف كل الجمال ومعدن
 جزئه فيهييم به ويستعد لقبول الفيض من ذاته فيتوصل منه الى الجمال
 المطلق فيتلاشى شهوده حتى ينعدم وجوده» .

نظرية الجمال

يقول ابن الخطيب: «الوجود كله ظلمة لولا نور الله الذي اشرق عليه
 ولا نور الا نور الله . . . ونوره الاقدس هو سر الوجود والحياة والجمال
 والكمال . . . فكل ما وقعت عليه حواس الادراك مما يفيدها (اي النفوس)
 جنسه او يثير نفحتها جماله او يبهرها نوره او يسوقها حبه او يروقها
 تناسبه وحكمته ليس الا نور الله . . . والجمال على نوعين فالجمال المطلق
 لا يليق الا بالله . . . وهو الجمال الالهي الذي لا يعل ولا يكيف ولا يمثل
 ولا يعرف كنهه . . . والجمال المقيد ايضا نوعان جمال كلي وهو الجمال
 الالهي الساري من ذلك الجمال المطلق فيما سوى الله من عقل ونفس وفلك
 وكوكب وطبيعة وجسم وهيولى وعنصر ومعدن ونبات وحيوان قد نال منه

(١) الى ان قال: «العارف هش بش بسام فيجل الصغير من
 تواضعه مثل ما يجل الكبير ويبسط من الخامل مثل ما يبسط من النبیه . . .
 وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء فانه يرى فيه الحق» وهذه
 العبارة الاخيرة مع الاولى من كلام ابن سينا فقد نسبها اليه الشيخ مصطفى
 عبد الرازق في كتابه عن «محمد عبده» ثم قال ابن الخطيب: «العارف
 شجاع وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت وجواد وكيف لا وهو بمعزل
 عن صحبة الباخل وصفاح وكيف لا ونفسه اكبر من ان تحرفها زلة بشر
 ونساء للاحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحق . . .»

كل بقدر احتماله ولولا ذلك ما بقى وجوده ولا برزت حقيقته ولا قامت ذاته وهو سر الوجود كله وبه ظهر ومدده متصل ٠٠ فلا يتجلى حق تجليه الا لمن صار الحق سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به وبالجمله من صارت ذاته كلية ادرك الجمال الكلى او جزئيه ادرك الجمال الجزئى ومن ادرك هذا الجمال الكلى ٠٠ وتوصل اليه لم ير للاشياء معنى الا العدم وان وجودها انما هو ذلك النور ٠٠ وجمال جزئى وهو خفى وجلى فالخفى جمال فى الشئ معقول عن الحواس ولا يدرك الا بنور العقل الذى يناسبه ويرجع الى المعنى الاول وهو ان يستتبع العقل ذلك الجمال الخفى حتى ينتهى به الى اصله والجمال الجلى وهو الذى يتعلق بالجسوم لا على جهة الحلول فيها انما هو اشراق وانارة وهو مدرك الحواس التى لا تدرك شيئا مع اشكال الجسوم واوضاعها وما ادركته انما هو الجمال ومظهره لا ذاته والنفس هى التى تجرده من العلائق بعد ذلك بصورة الشم والجسم ادركت النفس بسببه الجمال وهو الذى يسمى بالكمال ٠٠ فالجمال الخفى هو المعنى المجرد من الجمال اللائح على الاشكال الانسانية ولا يدرك بالحواس ٠٠ وهذا هو ما اشار اليه ابن الفارض بقوله :

فالعين تهوى صورة الحسن التى روحى بها تصبو الى معنى خفى
ومعنى وراء الحس فيك شهادته به دق عن ادراك عين بصيرتى
وابن الفارض يميز ايضا بين نوعى الجمال : المطلق والمقيد حيث يقول :

وصرح باطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلا لزخرف زينة

نظرية المحبة

المحبة عند ابن الخطيب اسم جامع لاقسام الحب والعشق (١) والفرق بينهما ان المحب لا يخلو اما ان يستعمل المحبة او تستعمله وكان

(١) عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ كان يؤثر لفظة العشق على لفظة المحبة فى جانب الله لانها فى رأيه اثر من الاثار اليهودية والمسيحية (١٧٤ Lescique - Massig) وقيل العشق غير جائز فى حق =

له فيها تكسب واختيار سمي محبا اصطلاحيا وان استعملته المحبة بحيث لا يكون له فيها اختيار ولا تكسب سمي عشقا فالمحب مريد والعاشق مراد المحبة اصل الوجود (١) والوجود كله مبدأ المحبة والبغضة وهما علتنا الكون والفساد والبغضة تقابل المحبة مقابلة العدم كالنور والظلمة «اذ لا معنى للظلمة الا عدم النور والعدم لا ذات له» .والحب معنى الوجود المقيد . .والانسان اخص الجميع بالمحبة المؤدية الى محبة الله تعالى التي في ضمنها السعادة والبقاء .

وقد قسم ابن الخطيب المحبة الى محبة نوال ومحبة مناسبة وهي التخلق بصفات المحبوب ومحبة جمال ومحبة مازجة وذكر مراتب الحب وهي الهوى والصبابة والعشق والتبتل والعلاقة والولوع والكلف والشغف والالفة والغرام والخلة والتتيم والوله والتدله والاصطلاح والهيام والجواء واللوعة واللاعج والبلبال والتبال وقد عرف كل مرتبة على غرار ابن قيم الجوزية في روضة المحبين (ص ٢٥) الذي ذكر علاوة على ابن الخطيب العلاقة والصبوة والمقة والوجد والدنف والشجو والشوق والخلابة والتباريح والسدم والغمرات والوهل والشجن والاكثاب والوصب والكمد والدع والحرق والسهد والحنين والفتون والجنون واللمم والخبل والرسيس والداء المخامر والود والخلم والتعب ! ويرى ابن القيم كابن الخطيب «ان العالم العلوي والسفلي انما وجد بالمحبة ولاجلها وان حركات الافلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة

- الله لانه كما قال ابو علي الدقاق مجاوزة الحد في الحب والحق سبحانه لا يوصف بأنه جاوز الحد (الرسالة القشيرية ص ١٤٥) ولكن ابا الحسن النوري المتوفى سنة ٢٩٥ هـ رأى ان العشق ليس اكثر من المحبة (Massiyn - Recueil de Tesby c'nédits p. 51) ومع ذلك فان مالك ابن دينار المتوفى سنة ١٣١ هـ لم يكن يستعمل لفظة الحب فيما يتعلق بالله ولكن يستعمل بدلها لفظة الشوق .

(١) قال ابن الفارض يصف المحبة:

وقامت بها الاشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم

كل متحرك انما وجدت بسبب المحبة (روضة المبين ص ٦٣) وكذلك ابن
عربي الحاتمي الذي يقول في فصوص الحكم «٠٠ ان الحركة ابدا انما هي
حبيبة ٠٠ الاصل حركة العالم من العدم الذي كان ساكنا فيه الى الوجود
ولذلك يقال ان الامر حركة عن سكون فكانت الحركة التي هي وجود العالم
حركة حب ٠٠» (ص ٢٠٣).

والمحبة انواع: محبة المحدث للمحدث والمحدث للقديم والقديم للقديم ٠٠
فمحبة المحدث للقديم محبة فرع لاصل وحين جزء لكل ومحبة القديم
للمحدث محبة مؤثر لاثر وصانع لصنعه ٠٠ ومحبة القديم للقديم ثناؤه على
نفسه ٠٠ والنفس انما تحب الملائم ٠٠ والمحبوب الاول عند كل شيء
نفسه التي بها احب ومن اجلها احب ٠

والمحبة اصل وعنصر وباب جامع لجميع المقامات الصوفية والاحوال
الدوقية والمقامات مندرجة فيها ٠

والمحبة ليست لا من قبيل ما يكتسب ولا من جنس ما يختار ٠٠ الا ان
الانسان ربما تسبب فيها واكتسب عللها (١) ٠

وقد صرح ابن الخطيب بأنه أحب في صباه وان هذا الحب اداه الى
الحب الالهي : «ولا آنف من ذكر الهوى بعد ان خضت غماره واجتنت
ثماره واقمت مناسكه وجماره وما ابرى نفسي ان النفس لامارة فالهوى
اول تميمة قلدتني الداية ٠٠» ٠

الفت طريق الحب حتى اذا انتهى تعوضت حب الله عن حب غيره
وبداله من بعد ما اندمل الهوى برق تألق موهنا لمعانه
«وعن لى ان اذهب بهذا الحب المذهب المتأدى الى البقاء الموصل
الى ذروة السعادة في معارج الارتقاء الذي غايته نعيم لا ينقضى امده ولا
ينفد مدده ولا يقصر وصله ولا يفارق الفرع اصله حب الله المبلغ الى قربه
المستدعى لرضاه ٠٠٠» ٠

(١) يرى ابن الفارض عدم الاكتساب حيث يقول:

فقلت ولاها لا بسمع وناظر ولا باكتساب واجتلاب جبلة

وعذلت اهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يعيش من لا يعشق
بلانى (الحب) بالغرض الذى هو من القلوب سر اسرارها ومن افنان
الاذهان بمنزلة ازهارها ومن الموجودات واطوارها قطب مدارها ٠٠٠ وعسى
الذى انطق شوقا ان ينطق ذوقا والذى حرك سفلا ان يحرك فوقا والذى
يسره مقالا ان يكفيه حالا ونحمد الله على الكلف بهذه الطريقة وما يلقاها
الا ذو حظ عظيم ٠٠

الحب حياة النفوس الموات وعلة امتزاج المركبات وسبب ازدواج
الحيوان والنبات ٠٠ ليس كالحب الذى دون فيه المدونون ولعبت بكرة
اقياسه صوالج الجنون وقاد الهوى اهله بحبل الهون وساقته فيه للمنون
حين نظرت النفوس من سفلى الجنتين ورضيت الاثر عن العين وباعت
الحق بالمين ولم تحصل الا على خفى حنين ٠٠ وارحمنا لعشاق الصور ٠٠
كلفوا بالمحاسن الزائفة الزائلة ٠٠

فارقنى الرشيد وفارقتة لما تعشقت بشيء يموت
انما الحب الحقيقى حب يصعدك ويرقيك ويخلدك ويبقيك ويطعمك
ويسقيك ويخلصك الى فئة السعادة ممن يشقيك ويجعل لك الكون روضا
ومشرب الحق حوضا ويجنيك زهر المنى ويغنيك عن اهل الفقر والغنى
ويخضع التيجان لنعلك ويجعل الكون متصرف فعلك ليس الا الحب ثم
الوصل والقرب ثم الشهود ثم البقاء بعد ما اضمحل الوجود فشفيت الآلام
وسقط الملام وذهبت الاضغاث والاحلام واختصر الكلام ومحيت الرسوم
وخفيت الاعلام ولمن الملك اليوم والسلام ٠

وكتب ابن الخطيب فى المحبة فصولا اشبه بالتى كتبها حول المعرفة:
« المحبة بحر بعيد الشط وخط والفناء منتهى الخط ٠٠ المحبة مهوى
بعيد ومجال وعد ووعيد من خل يقلب ثم خيال يولى ٠٠ المحبة ظهر لا يركبه
من يرى الموت فينكبه ولا يعلوه من يأتى الى وادى الفناء فيسلوه ٠٠
كم قصمت المحبة من ظهر وكم صيرت من سر الى جهر اولها العاقل
المشهور وآخرها الطي المنشور ثم الموت والنشور ٠٠ المحبة أنس يستدرج
ثم شوق يلجم ويسرج ثم فناء يزعج عن الوجود ويخرج ٠٠ المحبة كأس كم

جردت من كاس وآس من شمه لم يجد من آس .. المحبة رقة ثم فكرة
 مستترقة ثم ذوق يطير به شوق ثم وجل لا يبقى معه طوق ثم لا تحت ولا
 فوق .. الهوى هوان وحمام له الوان دمع ساجم ووجد هاجم وهيام لا يبرح
 ثم وراءه ما لا يشرح .. الهوى طريق ولسلوكة فريق الزاد سر مكتوم
 ووفاء معلوم .. الحب حج ثان لا يثنى نفس المريد عنه ثان طريقه التجريد
 وزاده الفكر وطوافه المعرفة وافاضته الفناء» .

وقال ابن الخطيب فى قصيدة مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم :
 سل ما لسلمى بنار الهجر تكوينى وحبا فى الحشى من قبل تكوينى
 ولعله اخذ فكرة قدم الحب من ابن الفارض الذى يقول :

وهمت بها فى عالم الامر حيث لا ظهور وكانت نشوتى قبل نشأتى
 تقدم كل الكائنات حديثها قديما ولا شكل هناك ولا رسم
 وقال ابن الخطيب يصف اعتزاله الحب الجسمانى بعد ما اشتعلت
 ناصيته :

اعار جناب اللهو صفحة معرض	وعاف الهوى وردا وان عذب الطعم
واضرب عن حظ الهوى عندما استوى	وقد اجملت جمل وقد انعمت نعم
لقد شقيت طوع الصباة انفس	جفا الرشد مثواها وباينها الحلم
وتهلك دون الشهد شأن ذبابة	ومن دون ذاك الشهد لو تشعر النسم
علاقة وهم فى الخيال تحكمت	ويا شدماء يجنى اذا استحكمت الوهم
اذا لم يقدها بالغرام وجودها	الى عدم الوى بموجودها العدم

وقد عبر ابن الفارض عن هذا الفناء فى المحبوب فقال :

فلم تهونى ما لم تكن فى فانيا ولم تفن ما لا تجتلى فيك صورتى
 فافنى الهوى ما لم يكن ثم باقيا هنا من صفات بيننا فاضمحلت
 ولا شك ان ابن الخطيب استقى مواد ما كتبه فى الحب عن سلفه من
 الصوفية المتقدمين كالجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هـ الذى استعمل لفظة
 المحبة وقال فيها كلاما يعده صوفية وقته خير ما قيل فى تحديدها وقد عنى
 القرن الثالث بمسألة المحبة حتى ان المحاسبى المتوفى سنة ٢٤٣ هـ وضع

فيها فصلا خاصا هو اشبه ما يكون برسالة ذكر فيه ان الحب منة الهية اودع بذرتها في قلوب محبيه كما تحدث عن اتحاد المحب بالمحب وكشف اسرار الوجود عن طريق هذا الاتحاد وكان ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ يستعمل لفظة الحب كما كان اول من فصل مسألة المعرفة (Lesique Massignon p. 186) اما المدرسة الخراسانية في القرن الثالث ففيها يحيى بن معاد الرازي المتوفى سنة ٢٥٨ هـ الذي استعمل لفظة الحب استعمالا صريحا ويقول عنه ماسينيون بأنه اول من اعلن حبه لله في شعر صريح الاسلوب.

وقد وصف الجنيد حال المحب في المحبة فقال : «عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم باداء حقوقه ناظر اليه بقلبه احرق قلبه انوار هويته وصفا شربه من كأس وده وانكشف له الجبار من استار غيبه فان تكلم فبالله وان نطق فمن الله وان تحرك فبامر الله وان سكن فمع الله فهو بالله والله ومع الله».

وعرف الحلج حقيقة المحبة فقال: «حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع اوصافك» وقال ابو يعقوب السوسى: «لا تصح المحبة الا بالخروج عن رؤية المحبة الى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة» (انظر الرسالة القشيرية ص ١٤٣-١٤٨) ويقسم عمر السهروردي الحب الى عام وخاص فالعام هو امتثال الامر وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء وهذا الحب من المقامات لان لكسب العبد فيه مدخلا والحب الخاص هو حب الذات الناشئ عن مطالعة الروح وفيه السكرات وهو اصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاء له وهو من الاحوال لانه محض موهبة (العوارف على هامش الاحياء ١٣٤٨ ج ٤ ص ٣٣٥) وقال ابن عربي في شرح ترجمان الاشواق (ص ٤٠) : «ما ثم دين اعلى من دين قام على المحبة والشوق لمن ادين له به !» وقال في نفس الصفحة «بان محبى الصور الكونية يتعشقون الكون في حين ان محبى الذات العلية يتعشقون العين والشروط واللوازم والاسباب في كل من الحيين واحدة» اما رابعة العدوية فقد قال عنها الاستاذ ماسينيون انها تركت في الاسلام اريجا من الولاية لن يتبخر

وانها استعملت في غير تردد لفظة الحب في العشق الالهى معتمدة
على ما ورد في القرآن (Lexique 193) وهى التى تقول :

احبك حبين حب الهوى وحبا لانك اهل لذاك

وقد فسر الغزالى حب الهوى بقوله: ولعلها ارادت بحب الهوى حب

الله لاحسانه وانعامه عليها بحظوظ العاجلة (احياء ج ٤ ص ٢٦٦) .

ولا يخفى ما كان لهذه الاقوال من اثر قوى فيما كتبه ابن الخطيب

عن المحبة .

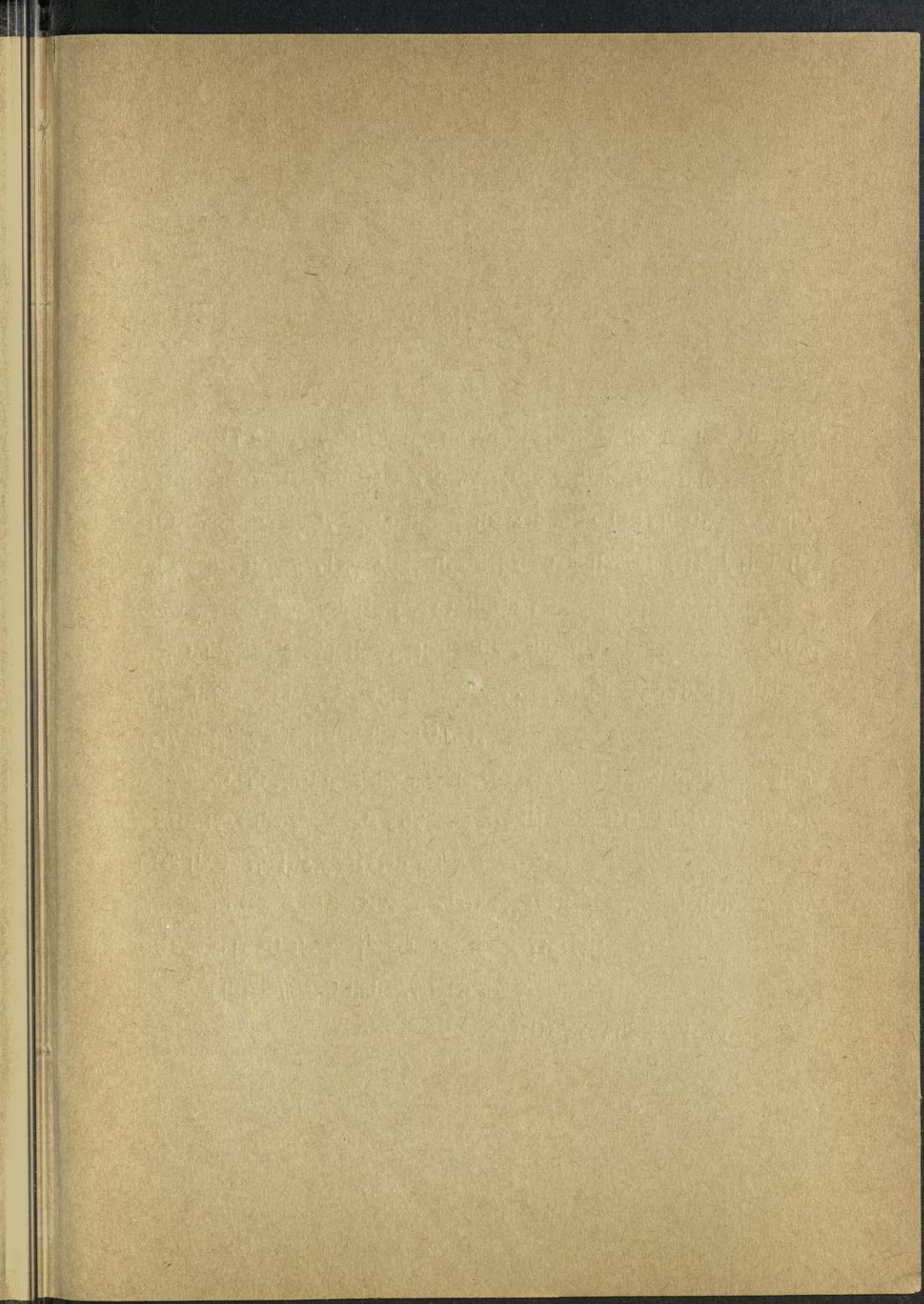
خاتمة

بهذا نختم بحثنا عن ابن الخطيب وهو بحث يقتضى استيفاء بعض مناحيه استقصاء واستفاضة ولا تفى ثلاثة مجلدات لاستقراء مجموع ما انطوت عليه حياة هذا الرجل الفياضة بالنشاط والمثابرة وشواهد العبقرية والنبوغ ولكن ضيق الوقت وشساعة الموضوع اضطرانا الى تشذيب كثير من الاطراف وتركيز الفكرة وحصر الوجهة فى ناحية واحدة من نواحي حياة هذا الرجل المخصابة وتلك الناحية هى تحليل مؤلفات ابن الخطيب واستجلاء مراحل حياته وبعض انظاره وآرائه فى الفلسفة والاخلاق من خلال هذه المصنفات !

٠٠٠ وهى باكورة نعتبرها اسهاما متواضعا فى اداء الواجب الذى تتقلد الامة العربية جمعاء وبالاخص منها المغربية ازاء ما لهذا الرجل على لغة الضاد من ايام وحقوق ٠٠٠ !

٠٠٠ وعسى ان نكون قد وفقنا فى انجاز بعض هذا الواجب وان تعقب دراستنا المقتضية دراسات اوسع واوفى !
والحمد لله رب العالمين ! !

فاتح ذى الحجة ١٣٦٧

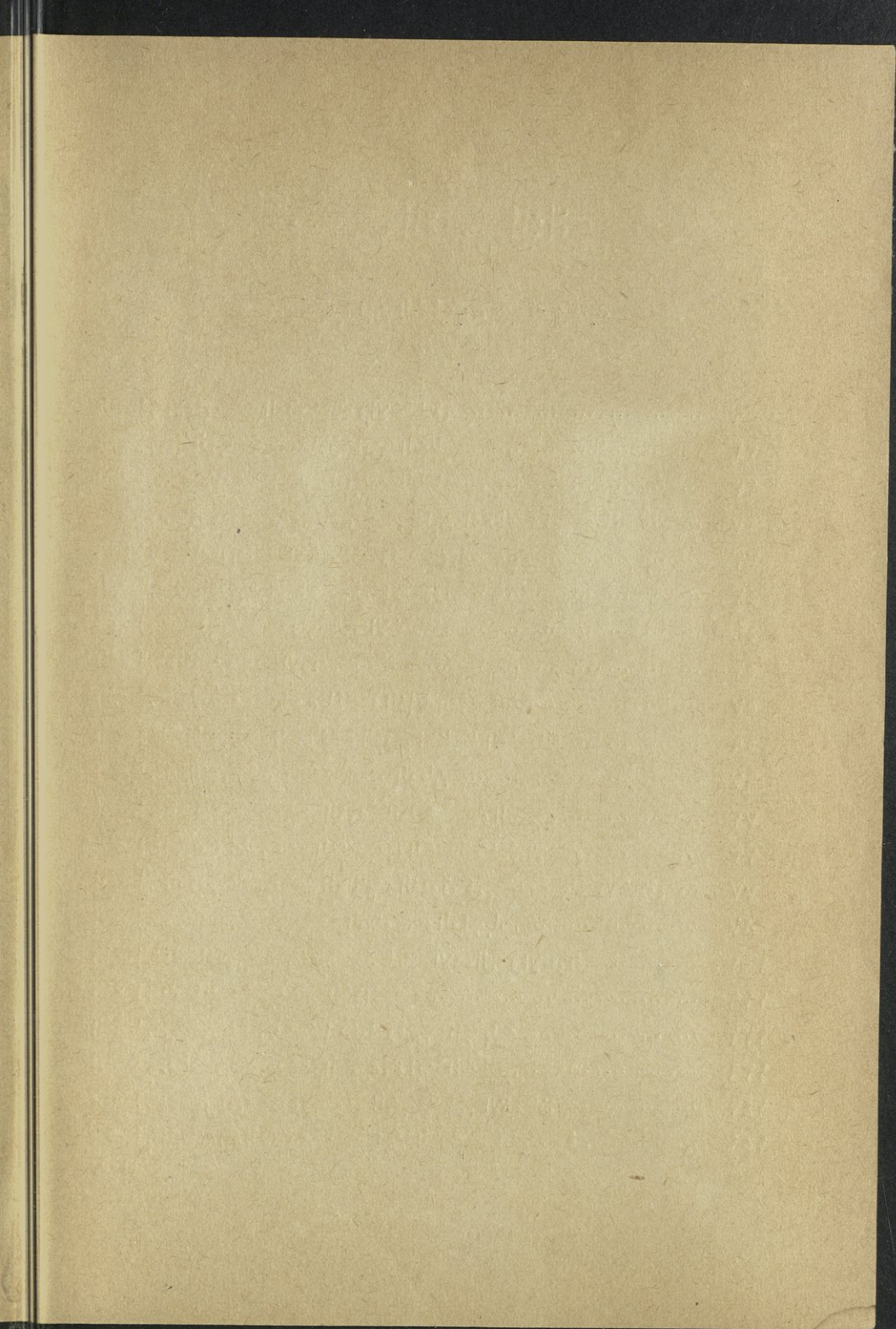


فهرس القسم الثاني

من كتاب ابن الخطيب ، حياته وكتبه

٩	الفصل الاول - الفلسفة والاخلاق
٢١	الفصل الثاني - مصادر ابن الخطيب
٢٣	الفصل الثالث - اسلوب ابن الخطيب
٢٧	الفصل الرابع - مدى تأثير عصر ابن الخطيب فى حياته
٣٣	الفصل الخامس - الاخلاق (تمهيد)
٤٣	الفصل السادس - اصول الاخلاق
٤٩	الفصل السابع - درجات الاخلاق
٥٣	الفصل الثامن - الارادة
٥٧	الفصل التاسع - الوسائل والغايات
٥٩	الفصل العاشر - المعرفة والحب اساسا الفضيلة
٦٧	الفصل الحادى عشر - حب الوطن
٧١	الفصل الثانى عشر - القوى النفسية والحب
٧٣	الفصل الثالث عشر - المناسبة والكمال فى الاخلاق
٧٧	الفصل الرابع عشر - العلوم والفنون فى خدمة علم الاخلاق
٨٧	الفصل الخامس عشر - الحقوق والواجبات
١٠١	الفصل السادس عشر - فضائل الاعمال والاحوال
١١٩	الفصل السابع عشر - الرذائل
١٣١	الفصل الثامن عشر - الدنيا رأس كل بلية
١٣٩	الفصل التاسع عشر - المعرى وابن الخطيب
١٤٣	الفصل العشرون - الاصول الخبيثة فى الانسان
١٥١	الفصل الحادى والعشرين - ابن الخطيب الفيلسوف

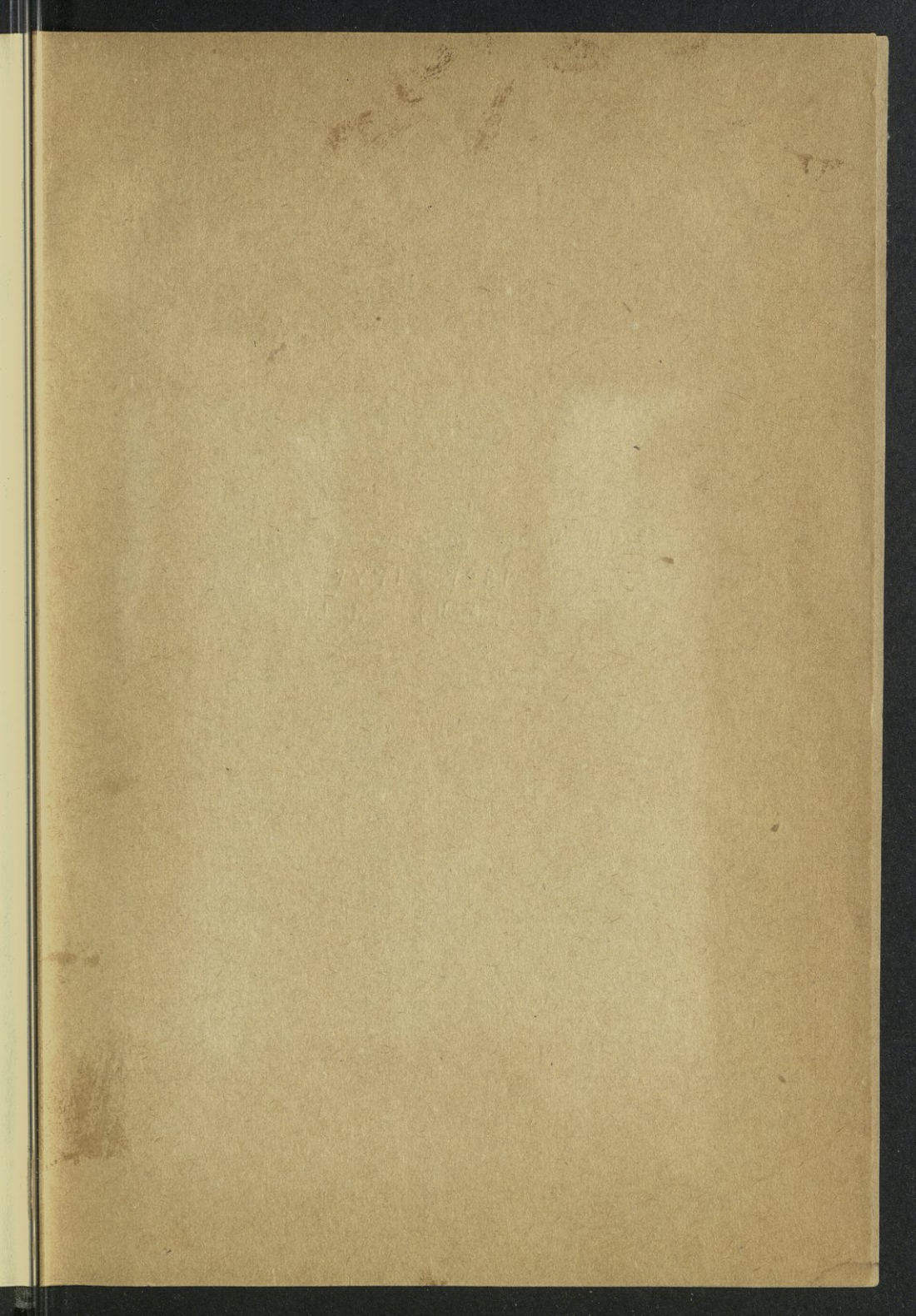
خاتمة

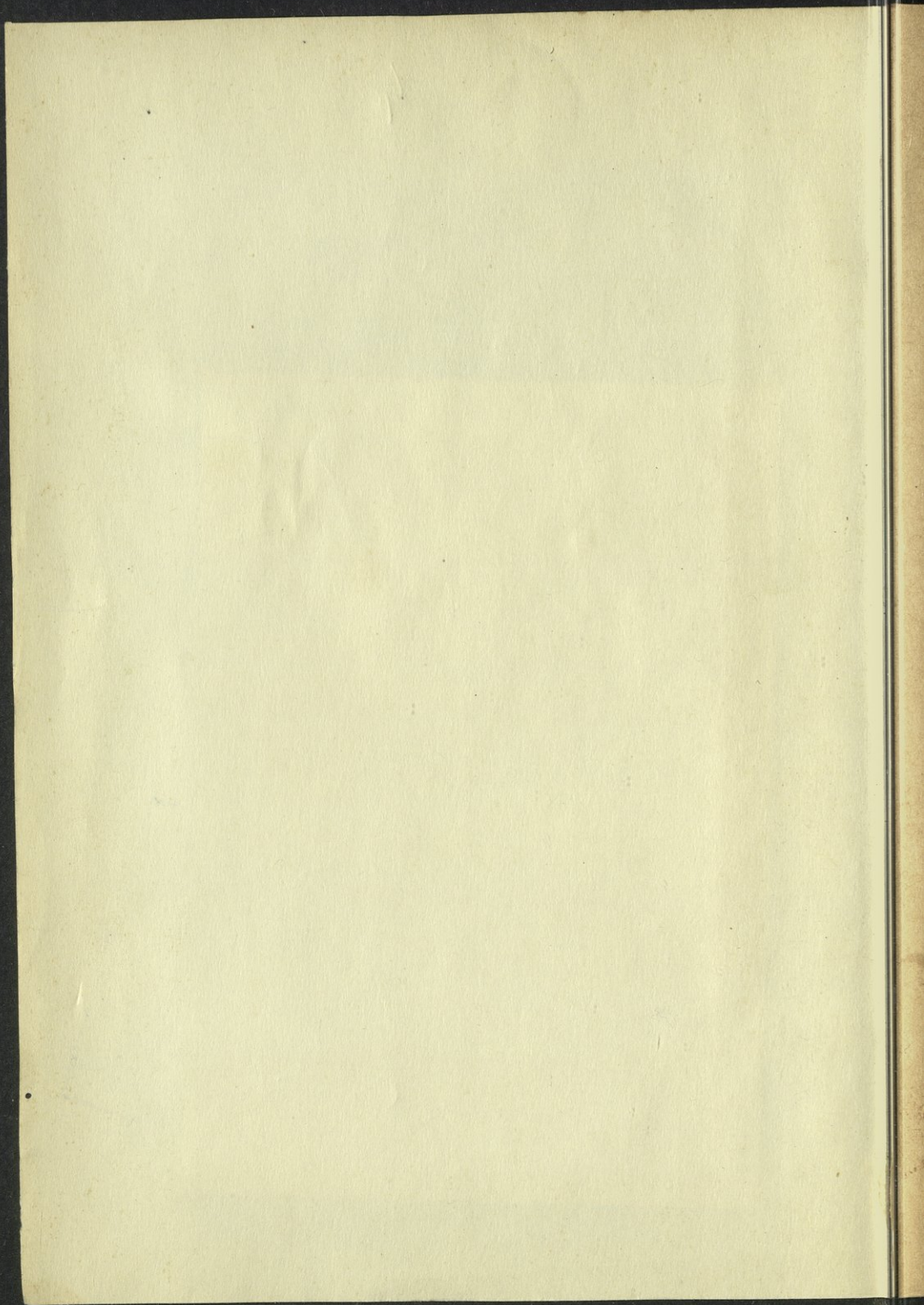


مطبعة كريماديس - بن حسين ١٠-١٢

١٩٥٣ - ١٣٧٢

تطوان (المغرب)





4000

DATE DUE

JAFET LIB.

11 SEP 1989

1 OCT 1974

JAFET LIB.

1 FEB 1975

J. Lib.

JAFET LIB.

7 DEC 1986

12 JUL 1978

JAFET LIB.

J. Lib.

1 JUN 1989

6 JAN 1987

J. Lib.

JAFET LIB.

1 JUL 1985

23 NOV 1992

928.927:I45tA:c.1

تطوان. معهد مولاي الحسن

ابن الخطيب، حياته وكتبه

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01055002

928.927:I45tA

التطواني

ابن الخطيب

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
25 MAY 20	F299		

928.927
I45tA

